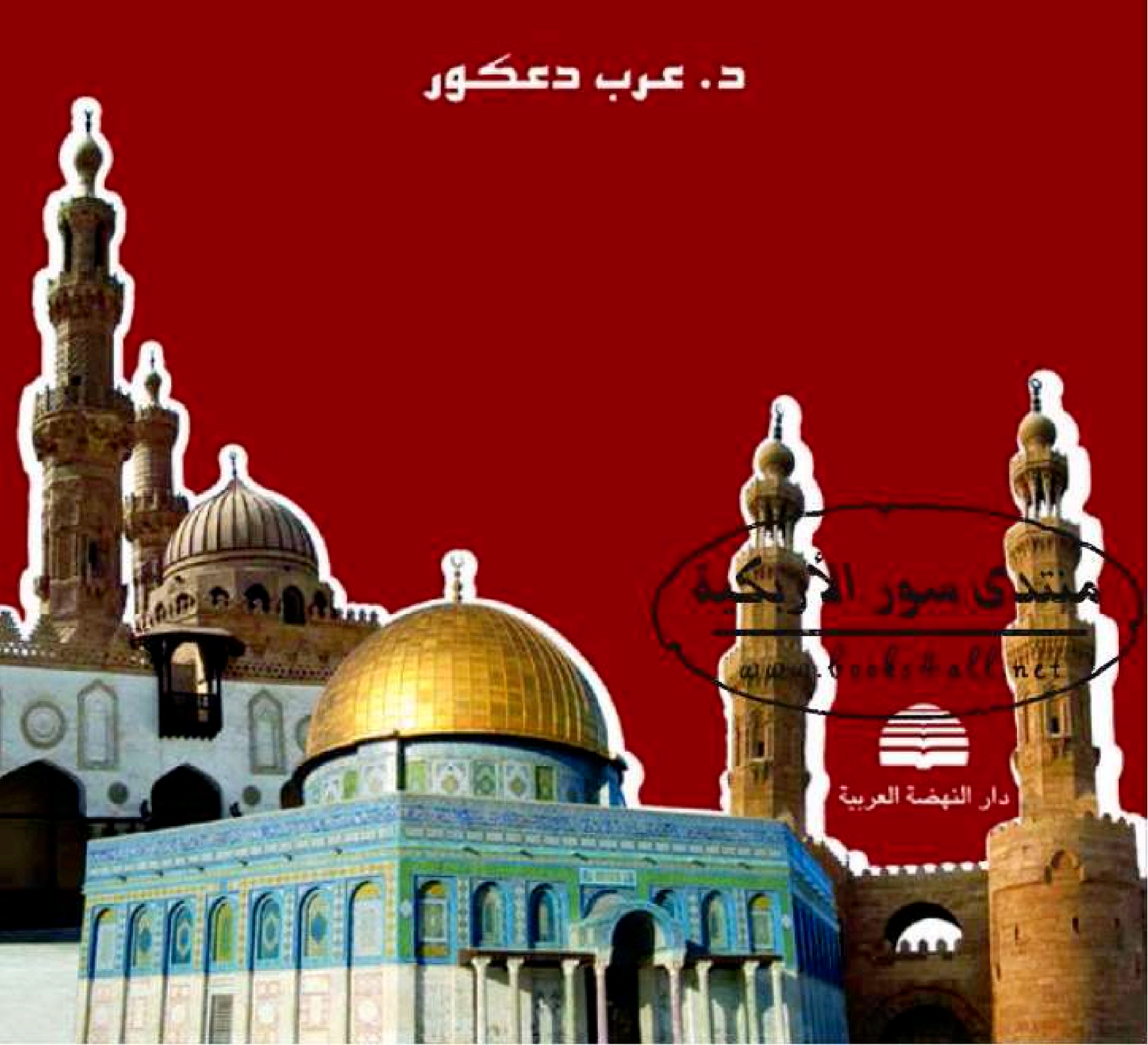
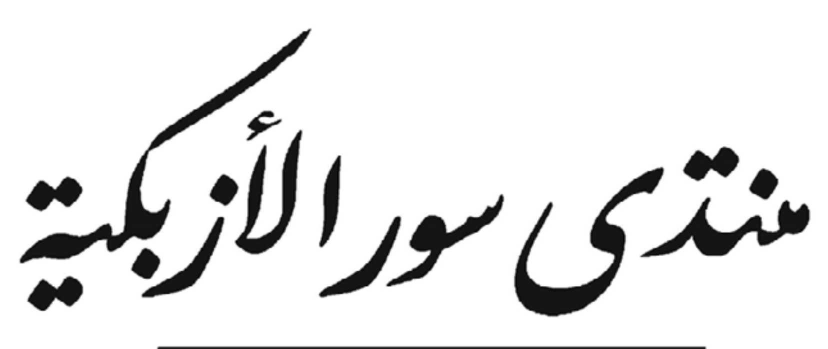
تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم

د. عرب دعكور




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضارتهم

تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضارتهم

الدكتور عرب حسين دعكور

أستاذ محاضر في كلية الآداب الجامعة اللبنانية

بيروت في تشرين الثاني 2010م ذي القعدة 1431هـ

الإهداء

إلى أحبائي الأعزاء

ملاك

فرح

زينة

حسين

د. عرب دعكور

مقدمة

يتبادر إلى القارىء أن البحث في التاريخ السياسي والحضاري لمرحلة في العصر الوسيط قديم، وأن معظم موضوعات تلك الحقيقة تناولها المؤرخون على اختلاف منظوراتهم بإسهاب دون أن يتركوا شاردة أو واردة في مختلف كتاباتهم... فما هو الجديد؟

لا شك أن دراسة حقيقة تاريخية امتدت أكثر من ستة قرون ونيف عاصرتها كل من الدولة الفاطمية والزنكية والأيوبية والمملوكية كانت محط أنظار العديد من المؤرخين. شرقيين أو غربيين كتبوا فيها العديد من المجلدات التي أغنت بكثرتها رفوف مكتباتنا. ولكن هذا لا يعني أن جميع هذه المؤلفات حظيت بالعناية الكافية من البحث العلمي الدقيق الذي هو مطلب ضروري لإنجاحها وشرط أساسي لإعطائها صفة الموضوعية.

إن البحث في المواضيع الإنسانية مهمة صعبة يحفها العديد من المخاطر لصعوبة التحليل ولسلامة النتائج العامة بسبب التنوع والتباين في مختلف الآراء والتعريفات والتفسيرات التي تبناها المؤرخون في كتاباتهم على اختلاف مللهم وانتماءاتهم. وباختصار ان معظم الدراسات التاريخية رغم أن أهدافها إلقاء مزيد من الضوء عليها وتوضيح طبيعتها، لما لها من أهمية عند إعادة كتابة تاريخنا العربي الإسلامي، إلا أنها قد تخضع في أغلب الأحيان لتوجيهات إيديولوجية أو اغفالاً في العديد من الجوانب فجاءت كتاباتهم بعيدة عن الموضوعية والانصاف.

من هنا جاءت هذه الدراسة لإيضاح بعض الحقائق من جهة وإكمال مافات المؤرخين من إهمال من جهة أخرى في ضوء ما استجد من مادة تأريخية

ومن منهج جديد في البحث عن الحقيقة وتقصيها، لأن الأحداث في تاريخ الشعوب لا تنبت من العدم، وكذلك لا تنتهي إلى العدم تستمد جذورها من أحداث سابقة عليها، وتترك آثاراً لأحداث تالية لها وان اختلفت عن بعضها بتبني الأسلوب والهدف، والأمر مرجعه دائماً للظروف الموضوعية التي تحكم المرحلة.

إن الحقبة التاريخية التي تناولتها دراستنا هي من الأهمية بمكان باعتبارها مرحلة تغيير جذري لا في تاريخ مصر وبلاد الشام وما جاورهما، بل في مدى تأثيرها على العلاقات الدولية والإقليمية التي ما زالت آثارها حمل ثقيل تئن منه دول الشرق الأدنى حتى وقتنا الحاضر.

وإذا كانت العلاقات بين الدول بشكل عام وعبر جميع العصور من المواضيع المهمة التي تستحق الدراسة والبحث، فكيف بالأحرى إذا كانت هذه العلاقات تمس جوهر دول محور الشرق الأدنى التي تشكل حجر الزاوية في بناء العالم العربي الحديث.

أن تفهم الصراع الغربي الأوروبي المتمثل بالحروب الصليبية مع بلادنا في هذه المرحلة التاريخية، ومتابعة الأزمات الدبلوماسية التي قامت من أجلها، والاطلاع على مختلف التيارات والعوامل والنزاعات التي كانت تتشابك وتتداخل حول هذا الصراع يلقي ضوءاً كاشفاً على بداية الاستعمار الغربي لبلادنا، وبدلاً من أن يتحد أبناء الصف الواحد لمواجهتها انقسموا بين مؤيدين ومحاربين، حتى تمكن المحتلون من السيطرة علينا غير مستثنين بتعسفهم وظلمهم معارضاً ومناصراً.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما دام الماضي يرتبط بالحاضر ارتباطاً وثيقاً ظاهراً أحياناً وخفياً أحياناً أخرى ألا يجدر بأبناء هذه الأمة أن يعرفوا جيداً أنه قبل الانطلاق في نهضتنا الوطنية والقومية علينا أن نتلمس الأصول التاريخية القريبة والبعيدة لمختلف مشاكلنا الحاضرة. وهل بغير ذلك يمكننا أن نبني وطناً ثابتاً متيناً خالداً... ألا يدرك القسم الأكبر من أبناء هذا الوطن الأبي أن انشقاقنا وعدم

استيعابنا لماهية الحركة الصليبية الاستعمارية منذ بدايتها كان لسوء الحظ السبب الجوهري لمآسينا الوطنية والقومية والتي ما زالت تعبث بالدور نفسه حتى يومنا هذا.

إن هذه الحقيقة التاريخية التي أوليناها اهتمامنا حافلة بالاختبارات الدبلوماسية والدروس السياسية والاجتماعية والوطنية، والتجارب الإدارية.

ويكفي أن نذكر بعض النماذج (دون أي تعليق) لتكون عبرة لمن يعتبر حتى لا تبقى دراستنا على هامش تفكيره.

أولاً ـ عندما أدرك الفاطميون غلطتهم بوقوفهم إلى جانب الصليبيين ضد السلاجقة السنة، وعجزوا عن الوقوف في وجه المحتل الغاصب عند حصاره مدينة صور تناسوا خلافاتهم المذهبية وكاتبوا حاكم دمشق السني ظهير الدين طغتكين طالبين حمايته، فلبى طغتكين نجدتهم وأرسل إلى مدينة صور المؤن والذخائر وآلاف المحاربين حتى تمكنت المدينة من الصمود ودحرت العدو المحاصر. وبعدها ألح أهالي صور على حاكم دمشق استلام المدينة بحكم ما أسداه من جهود طيبة في الدفاع عن مدينتهم. أجابهم طغتكين: «أنا ما فعلت إلا لله تعالى، ولا رغبة في حصن ولا مال وحتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ومالي» ثم برر تصرفه بأن الحفاظ على صور مدينة اسلامية لا يعرف أي صراع مذهبي[1].

ثانياً ـ «إن قوافل الفرنج التي أرسلها صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير بيت المقدس مخفورة كي لا تتعرض لأي اعتداء، قد أغلقت في وجهها أبواب طرابلس وأنطاكية اللتين كانتا ما تزالان في أيدي بني قومهم، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب[2].

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص 182.

2 ـ أمير سيد علي: مختصر تاريخ البشر ص 312.

ثالثاً ـ إن اهمال ملوك الدول الغربية لمطالب سلاطين المماليك بإيقاف الاستعمار الأوروبي لبلاد الهند، وعدم التعرض للتجارة المملوكية، والكف عن الاعتداء على سواحل وسفن المسلمين. ثم المماطلة وارسال السفراء إلى البلاط المصري لكسب الوقت وافساحاً في المجال لتثبيت أقدامهم في المناطق التي يرغبون السيطرة عليها.

وهذا هو أفضل نموذج للأساليب التي كانت الدول الاستعمارية تعالج بها المسائل السياسية حفاظاً على مصالحها.

والآن نتساءل: هل تختلف سياسة المستعمر في الماضي عن سياسته في الوقت الحاضر؟ وإلى متى سيبقى هذا الواقع المرير مفروضاً على أمتنا؟ ومتى ستوحد أبناء هذه الأمة تحت راية قائد واحد يتحلى بالحزم والعلم والشجاعة والحكم بالسوية، والاستعداد الدائم للدفاع عن أرضه، ما دامت مفاجآت الحوادث تدعوه إلى ذلك، ولا تفتر عزيمته ويقاتل بإيمانه، بينما عدوه يقاتل بطمعه. والفرق بين الاثنين كالفرق بين الخير والشر، وبين الحياة والموت.

تساؤلات نترك جوانبها للتاريخ؟ لأنه قد حان الوقت ليتعلم أبناء هذه الأمة من ماضيهم، وليعرفوا أن وحدتهم القومية الصحيحة هي الأساس لحل مختلف مشاكلهم الداخلية والخارجية. وإذا كانت المرحلة اللبنانية اليوم ترتدي هذه الأهمية الفاصلة في الصراع الاجتماعي، نتيجة سوء العلاقات بين طوائفه وعدم فهم أهمية الحفاظ على أرضه، وعلى علاقة الأخوة مع بعضهم لمواجهة من يطمع بالأسلاب والغنائم. في بلاد لا تمت له بصلة. كل ذلك مرجعه عدم أخذ الدروس والعبر من تاريخنا الحافل بمختلف النصائح والإرشادات. ألا يكفي لأبنائنا أن يكون صلاح الدين الأيوبي مثلاً أعلى لهم يحتذوا به في الملمات بعد أن وصفه أحد المؤرخين الغربيين: بقوله «كان صلاح الدين على مستوى من كرم الأخلاق والشهامة لا يفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب

بل يفوق المثل العليا التي لم يصل إليها أولئك الفرسان في يوم من الأيام[1].

وقليل علينا أن نقتدي بالسلطان المملوكي قانصوه الغوري الذي أشرف على الثمانين من عمره. وسار بنفسه على رأس حملته الكبرى إلى حلب، وثبت في معركة مرج دابق كأعظم ما يكون الثبات.

وكأي ملك عظيم صرع وهو يشهد خاتمته، حتى لا يعيش لحظة واحدة في الذل والهوان.

والله ولي التوفيق

1 ـ الدكتور سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج 2 ص 831.

الدولة الفاطمية

الفصل الأول

قيام الدولة الفاطمية

على أثر تضييق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعة عمد أئمة الإسماعيلية إلى نشر دعوتهم في الخفاء، وفي بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية، فرحل محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق إلى الري في ايران ومنها إلى جبل دماوند(*) حيث استقر في قرية سملا التي سميت فيها بعد محمد أباد نسبة إليه وسار أبناؤه على منو اله، فاختفوا في خرسان، وفي اقليم قندهار، وفي السند، وأخذ دعاتهم يجوبون لجذب الأشياع إليهم[1]. ثم اتخذوا من مدينة سليمة من أعمال حمص ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة حيث كانوا يتعهدون في تنظيمها إلى أشخاص كبار يطلق عليهم اسم نواب الأئمة أو الحجج[2]. وهؤلاء بدورهم يرسلون الدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية.

ومن أشهر نواب الأمة الذين تصدوا لنشر هذا المذهب هو ميمون القداح الذي وضع دعامة المذهب الإسماعيلي، حتى اعتقد بعض المؤرخين أنه هو محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق نفسه[3]. ويقول البعض الآخر أنه كان شعوبياً

(*) أعلى قمة في جبال البرز «إيران» نحو 630م.

1 ـ رشيد الدين: جامع التواريخ.... 1980 ص 522.

2 ـ You Yar: Fragments relatifs à la doctrine des Ismaelie, Paris, 1874. PP – 188 – 189.

3 ـ المقريزي: خطط... ج 2 ص 348.

يسعى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ الفرس. وقد اتخذ من تطبيب العيون وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية، وهي نشر المذهب الإسماعيلي.

ولما توفى محمد بن إسماعيل خلفه في الإمامة عبد الله الرضى الذي اتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له. فسار هذا الأخير على سياسة والده.

وقد وصف المقريزي عبد الله القداح فقال: «إنه كان عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب، وأنه اعتنق مذهب الشيعة، لا للدعوة إمامة اسماعيل بن جعفر الصادق أو ابنه محمد، بل كان ذلك وسيلة اتخذها لتنفيذ أغراضه، وهي تكوين دولة فارسية. ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقي للمذهب الإسماعيلي الذي انتشر بين القرامطة وغيرهم.

اتخذ عبد الله الأهواز مركزاً لنشر دعوته، ولكنه ما لبث أن غادرها مع ابنه أحمد ولي عهده بعد مطاردة واليها له. وقد عزا المقريزي هرب عبد الله إلى ما ظهر منه من التعطيل والإباحية والمكر والخديعة، فثارت به الشيعة والمعتزلة، وحاصروا داره، ففر إلى البصرة[1]. واقام في أسرة عقيل بن أبي طالب، مدعياً انتماءه إليهم، فحامت حوله الشبهات، فرحل إلى السلمية التي لم تلبث أن اصبحت دار هجرة للأئمة الإسماعيلية.

ومن هناك بدأ تثبيت دعائم الإسماعيلية وتنظيمها فعين ابنه الحسين لرئاسة الدعوة بها، كما عين ابنه أحمد أبا الشلعلع برئاسة الدعوة في سلمية والعراق. ومن ثم انتقلت إليه رئاسة الدعوة بعد موت ابنه سنة 274هـ ـ 890م وأصبح وصياً على سعيد أول الخلفاء الفاطميين[2].

سعى الإمام أحمد بن عبد الله توسيع رقعة انتشار الدعوة الإسماعيلية في

---

1 ـ المقريزي: إتعاظ الحنفاء... ص 12.

2 ـ المقريزي: خطط ... ج 1 ص 348، والنويري: نهاية الأرب... مخطوط ج 26 ص 24.

كثير من أرجاء العالم الإسلامي فبعث علي بن فضل اليمني وأبي القاسم رستم بن حوشب الكوفي إلى بلاد اليمن لنشر الدعوة فيها، فنجحا في ذلك نجاحاً كبيراً، وبنى ابن حوشب حصناً بجبل لاعة «جنوب صنعاء» وأعد جيشاً زحف به إلى صنعاء وأخرج منها بني يعفر وتمكن من الاستيلاء على كثير من أرجاء اليمن[1]. ثم بعث ابن حوشب الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب[2].

وكان الإمام أحمد يحرص على نشر دعوته في بلاد المغرب، فأرسل أبا عبد الله الشيعي[*] اليمن لتلقي أصول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب. فقدم أبو عبد الله على بن حوشب وصار من كبار أصحابه وأقام باليمن عاماً واحداً[3].

ولما اتصل بابن حوشب نبأموت مبعوثاه إلى المغرب أبا سفيان والحلواني، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي القيام بالدعوة في المغرب. غادر أبو عبد الله اليمن قاصداً مكة حيث التقى هناك حجاج كتامة واجتمع بهم، وقد استطاع بما جبل عليه من مكر وضروب الحيل أن يقف على جميع أحوال بلادهم، ويقنعهم بحسن صحبته حتى ألحوا عليه بالمسير إلى كتامة فأجابهم إلى طلبهم. أكرم أهالي كتامة وفادة عبد الله الشيعي وأحلوه من أنفسهم محل الإجلال والاكرام وبالأخص عندما كشف عن نواياه وأخبرهم أنه صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني[4].

---

1 ـ جمال الدين سرور، محمد! النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص 62 ـ 63.

2 ـ ابن خلدون! العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج 4 ص 31.

(*) هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا، من أهل صنعاء باليمن، ولذلك لقب بال

3 ـ حسن إبراهيم: كتاب عبيد الله المقريزي... ص 76.

4 ـ ابن الأثير: الكامل... ج 1 ص 11. والمقريزي: اتعاظ الحنفاء ص 21.

كان مركز أبي عبد الله محفوفاً بكثير من المصاعب. فقد أثارت مساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة غيرة الكثيرين من زعماء المغاربة وفقهائهم الذين عجزوا أن ينالوا منه لما أوتيه من الفصاحة والعلم والذكاء، وتمكن من القضاء على المؤامرات التي حاكها البربر لإعاقة نشر دعوته، فتكاثر الداخلون في طاعته رغبة أو رهبة، وتوافرت جموعه وقوي أمره[2]. واستقام له امر البربر وعامة كتامة[3].

لم يكتف أبو عبد الله الشيعي بنشر الدعوة للفاطميين في بلاد المغرب، بل أخذ يعمل على بسط نفوذهم في شمال إفريقية، يساعده على ذلك دولة الأدارسة الشيعية التي أسسها الإمام إدريس بن عبد الله في المغرب الأقصى سنة 172هـ ـ 791م»[1]. وموت إبراهيم بن الأغلب الذي أسس في أفريقية «تونس» دولة الأغالبة سنة 184هـ ـ 801م لتقف حجر عثرة في نشر الدعوة الشيعية في تلك الأصقاع.

وقد امتد نفوذ الفاطميين في ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان[2].

بعد هذه الانتصارات اتبع أبو عبد الله الشيعي سياسة تنطوي على الحكمة وبعد النظر وإقرار العدل بين الناس[3] ولما تأكد أبو عبد الله من استقرار وضعه أرسل إلى عبيد الله المهدي الموجود في سلمية في بلاد الشام، وفداً من رجال كتامة يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب[4].

---

1 ـ يحي بن سشعيد: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص 28.

2 ـ المنصوري، ركن الدين: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. مخطوط ج 5 ورقة 155ز

3 ـ المؤلف: تاريخ الدولة الفاطمية ص 30.

4 ـ زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج 1 ص 100 ـ 102.

رحب أبو عبيد الله بهذه الدعوة التي انتشرت بين الخاص والعام، حتى وصلت إلى الخليفة العباسي المكتفي، فأصدر أمره إلى ولاة مصر، وشمال إفريقية بتعقب حركاته والقبض عليه[1]. ولكن جميع الجهود العباسية ذهبت سدى وقد استطاع أبو عبيد الله الخروج من سلمية والوصول إلى سجلماسة[*] بفضل الرشوة التي كان يقدمها إلى الولاة في طريقه ليأمن الوقوع في أيديهم[2].

عوامل نجاح الدعوة الشيعية (الفاطمية) في المغرب

كان التشيع في بلاد المغرب قد انتشر على يد الإمام ادريس ابن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي أسس أول سلطان من العلويين، واقام دولة الإدارسة في المغرب الأقصى التي التف حولها البربر كما ذكرنا سابقاً وحذا حذوهم أتباعهم من الزيدية في بلاد اليمن.

أضف ذلك أن شمالي إفريقية (تونس) التي اقطعها هارون الرشيد إبراهيم الأغلب ليقف في وجه الادارسة، قد استقلت استقلالاً فعلياً ولم تكن خاضعة للعباسيين إلا في الإسم فقط، بحيث لم يعد الخليفة قادراً على التدخل في امور الولاية، مكتفياً بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة. هذان الأمران يؤكدان ما وصلت إليه الدولة العباسية من ضعف وانحلال وفقدان هيبة نتيجة لاستئثار الموالي من الأتراك بالسلطة دون الخليفة، لا بل أكثر من هذا أن الولايات المتاخمة لحاضرة الدولة أصبح من الصعب على الخليفة السيطرة عليها والدفاع

---

1 ـ القرطبي، غريب بن سعيد: صلة تاريخ الطبري. القاهرة 130 هـ ص 51 ـ 52.

(*) مدينة في المغرب الأقصى كانت محطة للتجارة وتجارة الذهب والعاج والأبنوس والجلود. تبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخاً وكان بناؤها 140هـ.

ـ البكري، أبو عبيد: كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية ص 148 ـ 149.

2 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ... ج 8 ص 13 ـ 14.

عنها بعد أن أضرم الزنوج ثورتهم التي دامت زهاء أربع عشرة سنة (255هـ ـ 270هـ) (871م ـ 882م) وعرضوا فيها كيان الدولة للخطر، حتى أصبحت دلتا الفرات تحت رحمة العصابات من قطاع الطرق الذين ادخلوا الفزع والهلع في قلوب الأهلين، وتعدى بلاؤهم محاصرة المدن الكبرى كالبصرة، والأهواز وواسط، وإذا كان هذا الحال في المناطق القريبة من حاضرة الدولة فكيف يكون الأمر في الولايات البعيدة عن بغداد.

أضف ذلك هناك عوامل محلية اتسمت بها بلاد المغرب منها: طبيعة بلاد المغرب فبإستثناء الشريط الساحلي الذي يتاخم البحر الأبيض المتوسط حيث عرف سكانه شيء من رقي الأمم المجاورة. نجد أن معظم بلاد البربر هي مناطق جرداء مجدبة تفتقد إلى أدنى متطلبات الحياة البدوية بعيدين عن أي تقدم ورقي. وهذا ما دفعهم إلى حب القتال، وعدم إخلادهم للنظام.

هذه الصفات كانت كافية في إثارة شعورهم ودفعهم للمخاطرة بأرواحهم إذا ما عرض لهم باعث يحرك في نفوسهم ما جبلوا عليه، كل ذلك ساعد عبد الله الشيعي من الوصول إلى أغراضه من إثارة حميتهم واعجابهم بآل علي والمهدي[1].

يضاف ذلك اشتعال نار العصبية بين العرب والبربر، ذلك أن البربر نظروا إلى العرب نظرهم إلى الغاصب، ورفضوا الأخذ بأهداف الحضارة الإسلامية التي أوجدها العرب في صدر الإسلام معتبرين أن التأثير بالحضارة العربية يعني قبولاً لحضارة الفاتحين.

ثم إن عامل العاطفة الوطنية والتي هي من أخص صفات البربر لعبت دوراً كبيراً في استتاب الأمن في بلاد المغرب. وليست فداحة الضرائب التي

---

1 ـ حسن إبراهيم: الدولة الفاطمية ص ٩٤.

فرضها العرب على كاهل الأهالي بأقل أهمية مما تقدم، ولم تنفع جميع الشكاوي التي رفعوها إلى الدولة العباسية في بغداد، لأن الخليفة لم يعرهم آذاناً صاغية، لما حل بدولته من ضعف ووهن.

كل ذلك ساعد الفاطميين على تأسيس دولتهم في بلاد المغرب.

نسب الفاطميين

طعن العديد من المؤرخين في نسب الفاطميين وصحة انتسابهم إلى نسل فاطمة بنت النبي محمد «صلى الله عليه وسلم» مما جعل هذه المسألة من أعقد المسائل في تاريخ الشرق وأكثرها غموضاً وابهاماً، وأن جميع الباحثين المحدثين لم يحسموا الأمر في هذه المسالة وتبرير ذلك يعود لأمرين.

الأول: أن جميع أئمة الفاطميين بسبب ملاحقة الدولة العباسية لهم يحتجبون حتى عن حاشيتهم وأشد المتصلين بهم وربما لبس الإمام ثوب داعية أو الداعي ثوب إمامه. وربما احتجب أمام مستقر بإمام مستودع كما حصل ذلك للمهدي وسعيد الخير.

الثاني: أن بعد الزمن، وما ساد العقول من أوهام توافق الترهات السياسية والميول الدينية، وما أدلى به المؤرخون من أدلة متناقضة متضاربة محبة لهذا الصديق أو كرهاً لذلك الخصم جعلت جميع الأقوال متباينة بعيدة عن الحقيقة.

ولهذين السببين جاءت جميع الدراسات وحتى المعمقة ـ في هذا الموضوع ناقصة ومبتورة ولم تسفر عن نتيجة حاسمة.

آراء المشككين في صحة النسب

يقول الشريف أخو محسن (محمد بن علي... بن اسماعيل بن جعفر الصادق) أن عبيد الله المهدي ينتسب إلى ميمون القداح بن ديصان الثنوي

الأهوزي، اليهودي المجوسي الأصل يؤمن بوجود إلهين إله الخير وإله الشر. وقد خلف القداح ابنه عبد الله الذي قال عنه المقريزي: «اعتنق مذاهب الشيعة لا للدعوة إلى إمامة اسماعيل بن جعفر الصادق، أو ابنه محمد. بل وسيلة لتنفيذ أغراضه في تكوين دولة فارسية»[1].

أما دي غويه De Goye فاعتبر أن ابن ميمون هو مؤسس مذهب القرامطة وجد الخلفاء الفاطميين حيث قال: «كانت لهذه الجرثومة الصغيرة قوة هائلة... استطاعت بفترة قصيرة أن تفتح كافة أرجاء الدولة العباسية...»[2].

ويقول نيكلسون: إن عبد الله بن ميمون المؤسس للدولة الفاطمية تملكت نفسه الكراهية في أبشع صورها للعرب، والاحتقار للإسلام والمسلمين، وعمدت بكافة عوامل الضعف الكامنة في الطبيعة البشرية، للجمع بين الساخطين في صورة مؤامرة ترمي إلى قلب النظام الحاضر[3].

إن الباحث في آراء المؤرخين الذين ذكرناهم يجد أن جميعهم استقوا معلوماتهم عن كتاب الشذرات الهامة التي كتبها الشريف أخو محسن. وأن ما أضافوه من نقد أو تعليل لم يتعد زيادة عبارات نقلوها عمن تقدمهم من الكتاب الذين تصدوا لبحث هذا الموضوع. ولم تختلف الروايات التي كتبها كل من أبي بكر الباقلاني، وابن خلكان وابن واصل والذهبي عمن سبقهم في الطعن في صحة النسب[4].

---

1 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 348.

2 ـ De Goje: Memoires sur les Carmathes... Leyden, 1886. pp 3 – 2.

3 ـ Niclolson. Titerag History of the Arabs, pp 271 – 272.

4 ـ المقريزي: كتاب المقفى الكبير: مخطوط في المكتبة الأهلية في باريس رقم 2144، ورقة 166 ب.

أقوال المثبتين لصحة النسب

تصدى كثير من المؤرخين والشعراء والكتاب المعاصرين لحملة المشككين رافضين ما ذكروه جملة وتفصيلاً معتبرين أن عبيد الله المهدي هو ابن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق[1].

وقد أورد هؤلاء المؤرخون لصحة النسب العديد من الحقائق التاريخية منها:

أولاً - إن سرعة نجاح الفاطميين في نشر سلطتهم الروحية والزمنية في كثير من البلاد الإسلامية واعتراف الناس بهذه السلطة.

ثانياً - إن ما ذكره مسكويه والمقريزي من أن نصر بن أحمد الساعاتي أمير خرسان والذي كان من أكثر الولاة تعصباً للشيعة بعث إلى المهدي بكتاب يعترف به بسلطته الروحية ويعد بامداده بالرجال[2].

ثالثاً - يقول دي ساسي المؤيد لصحة نسب الفاطميين! «إذا كان عبيد الله المهدي داعياً حقاً ولم يكن من سلالة علي، فإن أبناء علي الحقيقيين، لم يحتجوا عليه أو يهتموا بكشف القناع عنه[3].

رابعاً - يقول ابن الأثير بأن جماعة من العلويين العالمين بالأنساب اعترفوا له بأن الفاطميين من أولاد علي[4].

خامساً - يقول ابن خلدون أن الكثير من المؤرخين الذين طعنوا في نسب الفاطميين اتفقوا جميعهم على أن أبا عبد الله المحتسب الذي دعا بكتامة للرضى من آل محمد واقامة دولة شيعية، واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي

---

1 - المؤلف: الدولة الفاطمية ص 39.

2 - المقريزي: المقفى الكبير، المصدر السابق ورقة 223 أو ب.

3 - De Sacrg! Expose de la Religionali dmuses, Introduction, p. 251.

4 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ.... ص 8 - 9.

القاسم، خشياً على أنفسهما، فهربا من المشرق محل الخلافة... للالتحاق بالدولة الشيعية في المغرب...»[1].

وبالرغم من سردنا لهذه المجموعة التي تؤيد صحة النسب إلا أننا لا نستطيع الجزم بأن الفاطميين يرجعون علي وفاطمة.

سياسة الفاطميين في توطيد سلطانهم بالمغرب

سعى عبيد الله المهدي منذ وصوله إلى القيروان سنة 297هـ ـ 913م أن يكون الملك المطلق. فنظر للجميع على أنهم رعية وحسب[2]. واعتمد في الإدارة على بعض موظفي الأغالبة وقربهم إليه، وأنشأ ديواناً للجند، ثبت فيه الموالي والعبيد من السودان، وديواناً للكشف، وديواناً لأموال الهاربين واستصفى أموالهم، كما أبقى على ديوان الخراج الأغلبي. وأرسل العمال إلى الولايات المختلفة بعد أن اختارهم من زعماء كتامة وممن يثق بهم من المغاربة، وعهد إلى عبد الله الشيعي بإخضاع بلاد المغرب الأوسط والأقصى، فسار أبو عبد الله وافتتح مدنها، وأجبر قبائل زناته في جنوب البلاد على الدخول في طاعته[3].

احتل أبو عبد الله الشيعي مكانة مرموقة بين أهالي بلاد المغرب مما أثار حنق عبيد الله المهدي فأمر بقتله مع أخيه العباس في 15 جمادي الثاني سنة 298هـ ـ 914م[4]. وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها في أغلب الأحيان.

أثار مقتل أبو عبد الله موجة عارمة من السخط والكراهية في وجه عبيد

---

1 ـ البكري (أبو عبدالل+): المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب.. ص 177 ـ 182.

2 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... ج 1 ص 156.

3 ـ المصدر نفسه ج 1 ص 162.

4 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 93 ـ 95.

الله المهدي في القيروان وطرابلس وصقلية مما اضطره إلى بناء عاصمة جديدة في مكان آمن جنوبي القيروان سماها المهدية انتهى من انشائها سنة 305هـ ـ 918م[1].

بعد أن استطاع عبيد الله المهدي إخماد الفتن والثورات التي قامت في وجهه سعى إلى توطيد خلافته بالتوسع نحو الغرب، فعهد إلى قائده مصالة بن حبوس المكناسي حاكم تاهرت بذلك. فاستطاع هذا الأخير القضاء على نفوذ الأدارسة، والاستيلاء على ناكور عاصمة الصنهاجية، إلا أنه لم يستطع القضاء على المدراريين في سجلماسة فاضطر مداراتهم مكتفياً بتبعية حكمهم للفاطميين. عين ابن حبوس موسى بن أبي العافية والياً على سائر بلاد المغرب الأقصى. فاستطاع هذا الأخير من فرض سيطرته في تلك المناطق. وأخذ نفوذه في الازدياد بعد وفاة ابن حبوس القائد الفاطمي سنة 312هـ ـ 828م حتى أصبح يهدد كيان الفاطميين في بلاد المغرب الأقصى. فخلع طاعة خليفتهم، ودخل في طاعة عبد الرحمن الأندلسي[2].

توفي عبيد الله المهدي سنة 322هـ ـ 935م فخلفه ابنه أبو القاسم محمد الذي لقب القائم بأمر الله، فوجد الناقمون على الحكم الفاطمي الفرصة سانحة للإنتقاض على الخليفة الجديد، فأعلن موسى بن ابي العافية الثورة في بلاد المغرب، كما اشتد خطر الخوارج وثاروا بقيادة أبو يزيد مخلد ابن كيداد. واستطاع أبو يزيد من هزيمة كتامة وشن الهجمات على المهدية مما اضطر أهلها إلى النزوح عنها إلى طرابلس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية[3].

1ـ أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب... 29 ـ 31.

2ـ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج 1 ص 39 ـ 40.

3 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ... ج 8 ص 150 ـ 158.

انتشرت ثورة أبو زيد في جميع أرجاء الولايات الفاطمية، وأصبح في مركز يستطيع معه أن يهدد مدينة المهدية نفسها، فكتب الخليفة القائم يستحث زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة على معونته فلحق به هذا الأخير في المهدية[1]. حيث استطاع زيري استمالة عدد كبير من جند أبي يزيد إليه، مما اضطر أبا يزيد إلى الارتداد عن المهدية يرافقه قوة صغيرة من قبيلتي هوارة وبني كملان تاركاً خلفه ما كان معه من مؤن وعتاد باتجاه القيروان فلم يلبثوا أن هلكوا من الجوع والعطش[2].

وفي سنة 334هـ ـ 947م توفي القائم فخلفه ابنه اسماعيل الذي تلقب بالمنصور، فاستطاع هذا الخليفة بفضل فصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب[3]. أن يستميل إليه أكبر عدد ممكن من المناوئين للحكم الفاطمي، فقويت شوكته وأخذ في مطاردة أبي يزيد الذي هرب إلى الصحراء حيث تم القبض عليه وأرسل إلى المهدية، وهناك مات متأثراً بجراحه سنة 336هـ ـ 947م[3].

كان نتيجة ثورة أبي يزيد وغيرها أن أصبح شمال أفريقية في حالة يرثى لها تعطلت موارد الدولة واستنفذت أموالها. ولولا براعة المنصور ودرايته بأساليب الحرب والقتال لزالت الخلافة الفاطمية من كافة أرجاء البلاد. فأعاد تنظيم البلاد، وأنشأ أسطولاً كبيراً، وأسس مدينة المنصورية التي ازدهرت بسرعة فائقة حتى باتت تزاحم أسواق القيروان في الصناعة والتجارة. وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الدولة الفاطمية[4].

توفي المنصور سنة 341 ـ 952م فخلفه ابنه المعز الذي اشتهر بثقافته

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 54 ـ 55.

2 ـ ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم): كتاب المونس في أخبار إفريقية وتونس ص 55 ـ 56.

3 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج 1 ص 77.

4 ـ البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب... ص 25.

الواسعة وولعه بالعلوم ودرايته بالأدب فضلاً عما عرف به من حسن التدبير وأحكام الأمور.

استطاع المعز بحكم سياسته الرشيدة التي سار عليها استمالة جميع قبائل البربر حتى التي أبت أن تذعن للخلفاء الفاطميين من قبله كبني كملان ومليلة وهوارة...[1].

عمل المعز على توطيد الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، فعهد إلى جوهر الصقلي باخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمي. وقد استطاع جوهر بفضل شجاعته ومساندة العديد من رجلات المغاربة الاستيلاء على تاهرت وفاس وسلجلماسة ووصل في تقدمه إلى ساحل المحيط الأطلسي محرزاً الانتصار تلو الآخر: ولم يمتنع عليه سوى سبته وطنجة. ثم انصرف راجعاً إلى المهدية[2].

وبالرغم من هذه الانتصارات إلا أن ملك الفاطميين في المغربين الأوسط والأقصى لم يصف لهم تماماً بعد سنة 347هـ ـ 958م فقد انتهز الزنانيون فرصة خروج المعز إلى مصر وأعلنوا الثورة بقيادة أحد زعمائهم مما اضطر المعز إلى الخروج إليه بنفسه حيث تم استلامه بفضل ما قدم له الخليفة من الترغيب واعطاء الأرزاق[3].

وبخروج المعز إلى مصر ثار أهالي باغاية وتاهرت وزناته على ولاتهم وطردوهم.

الفاطميون في صقلية

كانت جزيرة صقلية مركزاً للصراع بين المسلمين والروم في البحر

---

1 ـ المقريزي إتعاظ الحنفا... ص 138.

2 ـ السلاوي: الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى... ج 1 ص 86.

3 ـ ابن الأثير: الكامل... ج 8 ص 177 ـ 198.

الأبيض المتوسط، ففي سنة 268هـ ـ 884م شهدت الجزيرة حرباً بين العباسيين والبيزنطيين انهزم فيها المسلمون إلا أنهم في سنة 270هـ ـ 886م استطاعوا التأثر لأنفسهم باحراز نصر كبير على الروم وإرغامهم على وقف القتال[1].
كان لاحتلال الفاطميين لإفريقيا والقضاء على دولة الأغالبة فرصة سانحة لهم للسيطرة على صقلية التي كانت تعاني الأمرين من ولاة الأغالبة. فبعد إزالة دولة الأغالبة ثار سكان الجزيرة على الوالي حسن بن رباح وعينوا مكانه عليا ابن أبي الفوارس وطلبوا من عبد الله الشيعي تأييدهم، فكان لهم ما أرادوا غير أن سياسة عبيد الله المهدي اعتمدت على الكتاميين أنصار المذهب الإسماعيلي فعزل ابن أبي الفوارس وعين كتامياً مكانه، مما أثار حفيظة السنة بصقلية وعملوا على طرده لاستبداده ولرفضهم أن يحكمهم بربري.

ولى عبيد الله المهدي علياً بن عمر البلوي على الجزيرة إلا أن هذا الوالي كان شديد التعسف، فثار الناس وأعلنوا الثورة على الفاطميين كان بين الثائرين جماعة من تلاميذ أبي عبيد الله الشيعي الذي عز عليهم مقتله فثاروا بالمهدي وبواليه وعينو أحمد العربي الذي أعلن ولاءه للعباسيين سنة 304هـ ـ 920م وخطب للمقتدر العباسي[2].

حنق عبيد الله المهدي لتدهور أوضاع صقلية وأرسل والياً جديداً (أبو سعيد) ومعه جيشاً كبيراً للسيطرة على الجزيرة ومنع ولاتها من الاستقلال، وهكذا عادت الجزيرة إلى حظيرة الدولة الفاطمية[3].

وفي سنة 336هـ ـ 949م عين الخليفة المنصور الحسن بن علي الكلبي والياً على الجزيرة ولما ولي المعز أقره في ولايته. وقد استطاع الحسن بمساعدة

---

1 ـ ابن الاثير الكامل... ج 7 ص 132 ـ 133 ـ 150.

2 ـ ابن الأثير: الكامل... ج 8 ص 6 ـ 25.

3 ـ ابن خلدون: العبر ج 4 ص 207 ـ 208.

الكلبين أن ينتصر على الأمويين ثم على الروم، ويهدد ايطاليا ليلقي الرعب في نفوس أهالي الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

وبالرغم من جهود حسن الكلبي إلا أن الصراع تفاقم بين سكان الجزيرة مما دفع المسيحيين إلى طلب النجدة من الدولة البيزنطية التي لبت الدعوة وأرسل الامبراطور قسطنطين الثاني جيشاً كبيراً اشتبك مع جيش الكلبي فمني بهزيمة ساحقة وأرغم الامبراطور على طلب الهدنة[1].

وبالرغم من الانتصارات التي حققها الكلبي إلا أن الصراع بقي على أشده بين أنصار الفاطميين وأنصار البيزنطيين، ما دفع حسن الكلبي إلى السيطرة على الجزيرة، فأرسل الامبراطور نقفور فوكاس أسطولاً ضخماً وجيشاً يقرب من خمسين ألف جندي استطاع أن يسيطر على مدينة مسينا ويمنع المدد عن المسلمين، ولكن صمود هؤلاء وحسن درايتهم في تقسيم الجيوش استطاعوا توجيه ضربة قاضية للروم وقتل قائدهم مانويل والعديد من البطارقة وأخذ العديد من الغنائم والسبي[2] وهكذا عادت الجزيرة للسيطرة الفاطمية وبذلك تفرغ الخليفة المعز لتحويل أنظاره إلى مصر. لكن البيزنطيين استغلوا اهتمام الفاطميين باتجاه الشرق وشنوا هجومهم على الجزيرة التي سقطت بأيديهم سنة 483هـ ـ 1093م وبسقوطها انتهت السيادة الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي.

---

3 ـ ابن الأثير: الكامل... ج 7 ص 178.

4 ـ ابن خلدون: العبر... ج 4 ص 209.

الفصل الثاني

امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر

أولاً: الفتح الفاطمي لمصر

رأى الفاطميون بعد توطيد سلطانهم في بلاد المغرب أن هذه البلاد إذا كانت ميداناً صالحاً لنجاح دعوتهم بيد أنها لا تصلح لتكون حاضرة لدولتهم، لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل معه التواصل مع الولاية الخاضعة لسلطانهم.

ولهذا السبب أبدى الخلفاء الفاطميون عناية خاصة بامتلاك مصر، لما لموقعها من الأهمية بمكان سياساً وحربياً. خصوصاً أن حكام هذه البلاد كانت تابعة إليهم ولايتي الشام والحجاز فكان امتلاك مصر امتلاكاً لهذين البلدين العظيمين. وتأسيس نفوذ الفاطميين السياسي والديني، في ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة وهي الفسطاط والمدينة ودمشق.

وجه عبيد الله المهدي نشاطه على أثر تأسيس خلافته بالقيروان إلى وضع الخطط لغزو مصر، فأعد في سنة 301هـ ـ 914م جيشاً من المغاربة بقيادة ابنه وولي عهده أبي القاسم وقائده حباسة بن يوسف، واستولى هذا الجيش على برقة في طريقه إلى مصر[1]. ثم استولى على الاسكندرية وتوغل في الوجه البحري[2].

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 41 ـ والخطط... ج 1 ص 327.

2 ـ الكندي: كتاب الولاة... ص 268.

فلما علم خليفة المقتدر العباسي بذلك، أرسل مؤنساً الخادم على رأس جيش كبير لدفع المغيرين، واشتبك الفريقان في معركة حامية ببلدة مشتول القريبة من الجيزة، فانهزم حباسة وعاد إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمي على أثر رجوعه[1].

إن أهمية هذه المعركة رغم فشلها تدل على ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية[2].

عاود عبيد الله الكرة مرة ثانية لكن القائد مؤنس كان لهم بالمرصاد فانتصر على الفاطميين وأحرق العديد من مراكبهم، كما قتل وأسر معظم جنودهم وقوادهم[3]. فكافأه الخليفة المقتدر وأطلق عليه لقب المظفر[4].

ولما فشل الفاطميون في استيلائهم على مصر عمدوا تأجيل حملاتهم فترة من الزمن حتى اضطربت أحوال الخلافة العباسية في بغداد بعد وفاة الخليفة المقتدر وانقسام القادة الأتراك على أنفسهم. فاغتنم عبيد الله المهدي الفرصة وأرسل حملة إلى مصر سنة 321هـ ـ 934 بقيادة حبشي بن أحمد المغربي، فحدثت مناوشات بين جنود الفاطميين والمصريين انتهت بهدنة بين الطرفين في صفر سنة 322هـ ـ 935م، غير أن هذه الهدنة لم تطل أمدها. فنشبت عدة وقائع في بعض المدن كالجيزة وبولاق وبلبيس[5]. وفي جمادي الأولى من سنة 322هـ ـ 935 استطاع محمد بن طغج الأخشيدي انزال هزيمة بالفاطميين اضطروا على أثرها العودة إلى بلاد المغرب[6].

---

1 ـ عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري... ص 53.

2 ـ الكندي: كتاب الولاة... ص 272.

3 ـ المصدر نفسه ص 273 ـ 274.

4 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 103 ـ 104.

5 ـ الكندي: كتاب الولاة... ص 284.

6 ـ المصدر نفسه ص 285.

بعد وفاة الخليفة عبيد الله المهدي تابع ابنه أبو القاسم سياسته في غزو مصر فأرسل جيشاً إليها سنة 323هـ ـ 936م لكن الجيش العلاسي استطاع أن يوقع به الهزيمة ويرغمه على العودة إلى أفريقية[1].

بعد هذه الهزائم التي لحقت بالفاطميين لم يقم الخليفة الفاطمي أبو القاسم بمحاولة عسكرية لفتح مصر بل لجأ إلى المفاوضة رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لم تفعله سياسة العداء والحرب، فأرسل إلى محمد الأخشيد رسولاً يحمل كتاباً يطلب فيه صداقته[2].

تسلم الأخشيد الكتاب، ولم يسلم رسول الخليفة الفاطمي الرد[3] لأنه أدرك مطامع الفاطميين في السيطرة على بلاده، وهو الذي كان يحرص على بقائه تحت لواء الخلافة العباسية. إذ أن ضعفها.. الذي بدأ يلوح في الأفق ـ يتيح له التمتع بالاستقلال، غير أن أموراً حدثت فبدلت العلاقة بين الأخشيد والخليفة العباسي الراضي على أثر هذا تقليد الأخير ولاية الشام إلى ابن رائق الخزري، فثارت ثائرة الأخشيد وأمر بقطع الخطبة لهذا الخليفة وذكر اسم الخليفة الفاطمي، ولتحسين علاقته مع الفاطميين، أرسل إلى الخليفة القائم الفاطمي كتاباً يعرض عليه زواج ابنته من ولي عهده المنصور. وأجاب الخليفة الفاطمي على ذلك بكتاب ورد فيه: «وصل كتابك، وقد قبلنا ما بذلت وهي وديعة لنا عندك وقد منحناها من بيت مالنا قبلك مائة ألف دينار فوصل ذلك إليها»[4].

خنق الأخشيد من كتاب الخليفة القائم لما يخفيه من إشارات خفية

---

1 ـ الكندي: كتاب الولاة، ص 287.

2 ـ ابن سعيد: كتاب المغرب... ص 25 ـ 26.

3 ـ المصدر نفسه ص 26.

4 ـ ابن سعيد: كتاب المغرب... ص 57.

حول سيطرته على مصر. ففشل مشروع الزواج[1] توفي الأخشيد فاستأثر كافور بالسلطة في مصر وحرص على تحسين علاقته مع العباسيين والفاطميين بالمخادعة والمهادنة[2].

تولى الخليفة المنصور بعد وفاة أبيه القائم سنة 334هـ ـ 947م فلم يقم بأية محاولة لغزو مصر لانشغاله في بلاد المغرب. وفي سنة 341هـ ـ 954م استلم المعز خلافة الدولة الفاطمية الذي حاول استمالة المصريين بنشر الدعوة قبل البدء بالحملات العسكرية وقد نجح في كسب ود بعض كبار رجال الدولة والموظفين[3].

توفي كافور سنة 357هـ ـ 970م فاستلم حفيده أبي الفوارس أحمد مكانه ولم يكن عمره قد تجاوز الحادية عشر مما دفع الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات إلى اغتنام الفرصة والسيطرة على مصر.

ساءت أحوال مصر في عهد ابن الفرات وأصبحت مسرحاً للفوضى والقحط والجفاف من جراء انخفاض مياه النيل مما دفع العديد من أولي الرأي في مصر إلى الكتابة إلى الخليفة المعز الفاطمي يطلبون منه النجدة لإنقاذهم من الحالة التي وصلوا إليها[4].

وجد الخليفة المعز أن الفرصة أصبحت سانحة للإستيلاء على مصر فعهد إلى جوهر الصقلي بقيادة حملة عسكرية انضوا تحت لوائها العديد من المشايخ وكبار الأئمة[5].

---

1 ـ سيدة اسماعيل كاشف: مصر في عصر الأخشيديين: القاهرة 1950 ص 361 ـ 362.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 4 ص 6.

3 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 72.

4 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 121.

5 ـ المصدر نفسه ص 100.

سارت حملة جوهر إلى مصر في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة 358هـ ـ 971م، وصلت إلى برقة فقدم لها صاحبها فروض الولاء والطاعة، ثم تابعت الحملة سيرها باتجاه الإسكندرية فدخلتها من غير مقاومة. ولما وردت إلى الفسطاط أنباء وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية واستيلائهم عليها، دعا الوزير ابن الفرات أصحاب الرأي والنفوذ للتشاور في الأمر، فاستقر رأيهم على مفاوضة القائد الفاطمي. وأرسلوا إليه وفداً برئاسة الشريف أبي جعفر مسلم الحسيني والقاضي أبي طاهر الذهلي فالتقى الوفد مع جوهر في مدينة «تروجة» على مقربة من الاسكندرية، وعرضوا عليه مطالب أهالي مصر، فأجابهم جوهر ما التمسوه وكتب لهم عهداً تعهد فيه باحترام المصريين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، والقيام بما تتطلبه البلاد من اصلاحات في مختلف الميادين لإستتاب الأمن وفرض الاستقرار[1]، لكن أهل الفسطاط وبعض أنصار الأخشيديين والكافورية رفضوا عهد الصلح وصمموا على محاربة الجيش الفاطمي[2]. وعند منية شلقان «شرقي القناطر الخيرية» دار القتال بين الطرفين فقتل من جند المصريين أعداداً كبيرة، عندها اقتنع المصريون أنه لا بد من التسليم لجوهر وطلب الأمان، وطلبوا من الشريف أبي جعفر أن يتولى الأمر بنفسه فكان لهم ما ارادوا. فهدأت الحالة في الفسطاط، وعادت الأعمال إلى ما كانت عليه[3]. وهكذا أزال سلطان الأخشيديين والعباسيين عن مصر ليبدأ الحكم الفاطمي الذي امتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً.

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 148 ـ 153.

2 ـ يحي بن سعيد: التاريخ المجموع... ص 132 ـ 133. وابن خلكان: وفيات الأعيان ج 1 ص 149.

3 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 157 ـ 158.

تأسيس مدينة القاهرة

رفض جوهر اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له. وشرع في بناء مدينة شمال الفسطاط في ليلة 17 شعبان سنة 358هـ 971م. لتكون حاضرة جديدة لملكهم. كما وضع في الليلة التالية أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز، وعرف باسم القصر الشرقي الكبير، وأطلق جوهر على المدينة الجديدة اسم المنصورية نسبة إلى المنصور أبي المعز، وظلت تعرف بهذه التسمية حتى قدم المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر وسماها القاهرة المعزية[1].

اختلف المؤرخون حول هذه التسمية، فقال ابن لقمان سميت على اسم كوكب رصده عند انشائها يقال له القاهر. وقيل أيضاً سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها، ومنهم من قال إنها مأخوذة من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر: «ولتدخلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تقهر الدنيا»[2].

أحاط جوهر القاهرة بسور تخلله عدداً من الأبواب مثل باب النصر، باب البرقية، باب الفرج وباب زويلة... وقد عرف أحد بابي زويلة باسم باب القدس. وقد مر منه المعز عند قدومه إلى القاهرة، فصار الناس يتباركون بالمرور به، أما الباب الثاني فقد تشائم منه الناس وهجروه[3]. وكانت القاهرة وقت إنشائها تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكي والغورية وباب الخلف. ويقال أن المعز عندما دخل إليها لم يعجبه موقعها بسبب بعدها عن الساحل وقال: «يا جوهر فاتتك عمارتها ههنا يريد المقس»[4].

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 157 ـ 158.

2 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 378.

3 ـ المصدر نفسه ج 1 ص 380 ـ 381.

4 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 158 ـ 160.

بناء الجامع الأزهر

خشي جوهر من إثارة حفيظة المصريين عليه إذا أقام شعائر المذهب الفاطمي في مساجدهم، فسعى إلى بناء مسجد يكون رمزاً لسيادة الدعوة الفاطمية، فشرع في بناء الجامع الأزهر في اليوم الرابع عشر من رمضان سنة 359هـ ـ 972م وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان سنة 361هـ ت 974م[1].

وقد سمي هذا الجامع في بادىء الأمر بجامع القاهرة، ثم بالجامع الأزهر في عصر الخليفة العزيز الفاطمي[2]. وكان الخلفاء الفاطميون منذ عهد المعز يحتفلون بإقامة الصلوات يوم الجمعة والأعياد في الجامع الأزهر، وكانت جميع مساجد القاهرة تتبع في الأذان أصوات المؤذنين في الأزهر بالاستناد إلى مزولة تحدد الصلوات الخمس لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر[3].

ثانياً: مصر مقراً للخلافة الفاطمية

منذ أن وضع جوهر الصقلي أساس مدينة القاهرة بدأ في التمهيد لإتخاذها حاضرة للدولة الفاطمية، فأمر بحذف الدعوة للخليفة العباسي وأقامها للخليلة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي[4].

كما منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وأمر بأن يؤذن في جميع المساجد «بحي على خير العمل»[5] وهي من العبارات التي يتميز بها الأذان عند الشيعة.

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى... ج 3 ص 364.

2 ـ المقريزي: خطط... ج 2 ص 273.

3 ـ المقريزي: خطط... ج 2 ص 273 ـ 275.

4 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 164 ـ 165.

5 ـ المصدر نفسه ص 169.

رحب المصريون بهذه التغيرات الدينية التي أدخلها جوهر رغبة منهم أن هذا التغير قد يصحبه تغيير في أحوالهاالداخلية السيئة التي وصلوا إليها تحت الحكم العباسي.

رأى جوهر بعد أن استقر سلطان الفاطميين في مصر أن يكتب إلى المعز يستدعيه ليتولى زمام الحكم في البلاد.

خرج المعز من المنصورية في شوال سنة 831هـ ـ 974م متوجهاً مصر محملاً بالأموال الضخمة ويرفقه كبار رجال الدولة وأفراد عائلته، ومعه رفاق آبائه الثلاثة «عبد الله المهدي، القائم، المنصور»[1].

وسار برقة حتى دخل الاسكندرية فاستقبله أعيان البلاد حيث ألقى فيهم خطبة حدد فيها تسبب مجيئه مصر لإقامة الحق وحماية الضعيف... ثم وعظ الحاضرين وخلع على القاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد ورفاقه[2].

ثم غادر الاسكندرية القاهرة في أواخر شعبان سنة 362هـ ـ 975م، فوصلها في السابع من رمضان من هذه السنة وأقام في القصر الذي بناه له جوهر وفي اليوم التالي لوصوله خرج أعيان مصر وأشرافها وقضاتها ورجال العلم لتهنئته والاحتفاء به[3].

وهكذا أصبحت مصر بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار امارة تابعة للخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب.

سعى المعز إلى تثبيت قواعد الخلافة الفاطمية في مصر على أسس ثابتة فاستأثر بالنفوذ والسلطان دون مشاركة أحد، باذلاً قصارى جهده لإقامة دولة

---

1 ـ المقريزي: إتعاظ الحنفا، ص 186.

2 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج 2 ص 134.

3 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 185 ـ 188.

في مصر تناهض الدولة العباسية. توفي المعز في ربيع الآخر سنة 365هـ ـ 977م. فخلفه ابنه العزيز وهو في الثانية والعشرين من عمره، وفي عهده تفاقم خطر القرامطة والوالي افتكين في بلاد الشام، مما اضطره إلى ارسال جوهر على رأس جيش عظيم لقتال أفتكين والقرامطة.

فشلت حملة جوهر ولم تستطع الصمود في وجه أفتكين والقرامطة وذاق الجيش المصري الأمرين[1]. عندها لم يجد جوهر بدأ من اللجوء المصانعة والمداهنة لفك التحالف بين أفتكين والقرامطة من ناحية، والمحافظة على جيشه من ناحية أخرى فكتب أفتكين يطلب منه باسم الدين حقن دماء المسلمين والعمل على اخماد نار الفتنة.

استجاب افتكين لطلب جوهر شرط أن يمر هو وجيشه تحت سيفه ورمح الحسن القرمطي. رضى جوهر بهذا الحل بالرغم مما ينطوي عليه من المذلة والمهانة[2].

عاد جوهر إلى مصر وأخبر الخليفة العزيز حقيقة الوضع في بلاد الشام، واستفحال أمر أفتكين والقرامطة وإذا «كنت تريدهم، فأخرج بنفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على أثري»[3].

أمر العزيز بإعداد العدة، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخائر، وفي مقدمته القائد جوهر. وفي الرملة تلاقى الجيشان المصري والشامي، وحمي وطيس القتال وأبلى أفتكين من البطولة والشجاعة في قتال الفاطميين، فهزمهم وقتل كثيراً من رجالهم، فاضطر العزيز السير بنفسه واشتبك الفريقان

---

1 ـ ابن القلانسي: تاريخ ابن القلانسي... ص 16 ـ 17.

2 ـ المصدر نفسه ص 17 ـ 18.

3 ـ المصدر نفسه ص 18.

في القتال، فدارت الدائرة على القرامطة وأفتكين في الثالث عشر من محرم سنة 368هـ ـ 981م، وألقي القبض على أفتكين وبعض الأسرى. فأخذهم العزيز مصر حيث أحسن إليهم وأمنهم وكساهم وأوكل إليهم بعض الأعمال، كما عفا عن أفتكين واستبقاه حياً، وبالغ في اكرامه، فأسكنه داراً فسيحة، وظل متنعماً بنعم العزيز حتى مات سنة 372هـ ـ 986م[1]. توفي العزيز في الثامن والعشرين من رمضان سنة 386هـ 999م. فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله وكان عمره احدى عشرة سنة ونصف سنة، وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم[2]. ويمكن تقسيم خلافة الحاكم بأمر الله إلى أربعة أدوار.

في الدور الأول لم يكن له أي أمر من أمور السلطان شيئاً، فالسلطة في يد ابن عمار، ثم في يد برجوان.

في الأدوار الثلاثة التالية كان مزاجياً في سياسته، فترات سادها الارتباك والاضطراب بين التفرقة الدينية والضرائب الباهظة التي فرضت على الشعب[3].

وفي هذا العهد ظهرت الطائفة الدرزية ـ سنتكلم عن الدعوة الدرزية لاحقاً ـ التي دعت الاعتقاد بألوهية الحاكم، مما أثار النزاع بينه وبين السنة، ذلك النزاع الذي انتهى بقتله في السابع والعشرين من شهر شوال سنة 311هـ ـ 1031م وخلفه ابنه الظاهر، وبالرغم من أن الفترة الأولى من حكمه كانت الوصاية فيها لعمته ست الملك إلا أنه استطاع فيما بعد بحكمته وحسن سياسته أن يضبط الأمور في داخل البلاد وخارجها. ولكنه ما لبث أن توفي بمرض الاستسقاء في شعبان سنة 724هـ ـ 1037م فخلفه ابنه أبو تميم الملقب بالمستنصر[4]. وظل

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص 18 ـ 19.

2 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج 2 ص 153.

3 ـ يحي بن سعد: صلة تاريخ أوتيخا، بيروت 1909 ص 198 ـ 199.

4 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 3 ص 367.

في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر كانت أطول الخلفاء عهداً، سادها تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وأصبحت في طريقها إلى الزوال. وليس أدل على الفوضى التي سادت مصر في عهد المستنصر من أن تقلد أربعين وزيراً في تسع سنوات من سنة 450هـ ـ 106م سنة 459هـ ـ 1069م. ثم القحط والغلاء بالاضافة إلى الفتن والحروب الأهلية، حتى تدارك الأمر بدر الدين الجمالي والي عكا الذي استدعاه الخليفة المستنصر في سنة 466هـ ت 1076م، فأعاد النظام وأصلح حال البلاد وقضى على المفسدين[1].

توفي المستنصر فخلفه ابنه المستعلي بدلاً من توليه أخيه نزار وبهذا بدأ النزاع بين الأخوين وانقسمت الدعوة الفاطمية إلى قسمين المستعلية والنزارية.

وفي عهد المستعلي بدأ الصليبيون يغيرون على سواحل بلاد الشام، توفي المستعلي فتولي الخلافة بعده ابنه الآمر في التاسع من شهر صفر سنة 395هـ ـ 1105م، فاغتنم الوزير الأفضل الفرصة وقبض على زمام الأمور وأخذ يميل إلى الطائفة السنية مما أغاض الخليفة الآمر ودبر مكيدة لاعتقاله توفي الآمر على يد فريق من النزارية فخلفه ابن عمه الحافظ الذي نقم عليه المصريين، فاغتنم الوزير أبو علي بن الأفضل الفرصة وقبض على الخليفة وحبسه وأخذ يتقرب إلى الطائفة السنية فحقد عليه الشيعة وصمموا على قتله، وأخرجوا الحافظ من سجنه فاتخذ أبا الفتح بأنس الحافظي وزيراً له[2].

وفي جمادي الثاني سنة 529هـ ـ 1136 قدم بهرام الأرمني والي الغربية القاهرة وحاصرها فلم ير الخليفة الحافظ بداً من توليته الوزارة على الرغم من أنه أرمني وفي عهد هذا الوزير بلغ عدد الأرمن في مصر ثلاثين ألفاً سلكوا مع

---

1 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر... ص 13 ـ 34.

2 ـ جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية... ص 98 ـ 100.

المسلمين مسلكاً سيئاً عدائياً، وصادروهم في أموالهم وبنوا من الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أقلقت بال المسلمين الذين طلبوا النجدة من رضوان بن الولخشي والي الغربية. فلبى الوالي الدعوة وسار على رأس جيش كبير زاد عدده على الثلاثين ألف، فلم علم بهرام بالأمر ترك القاهرة والتجأ إلى أخيه الباسك والي قوص. تقلد رضوان الوزارة فشدد على أعوان بهرام وعاملهم بالقسوة فخاف الخليفة الحافظ واستدعى بهرام من جديد. فاضطر رضوان إلى الخروج من القاهرة قاصداً والي صرخد في بلاد حوران لطلب النجدة. وعاد بجيش كبير إلى القاهرة لمحاربة جند الخليفة لكن الحظ لم يحالفه فطارده الأمير أبو الفضل بن وصال وألقى القبض عليه وحبسه في القصر ثم قتله[1].

سقوط الدولة الفاطمية

انصرف الخلفاء الفاطميون بعد سيطرتهم على مصر إلى حياة الترف والدعة، تاركين أمور الناس وشؤون الدولة إلى خدامهم، فاغتنم الوزراء الفرصة واستأثروا بالمناصب شيئاً فشيئاً، حتى أصبح الخلفاء ألعوبة في أيديهم[2].

إن عدم التعاون بين الخلفاء والوزراء بلغ في معظم الحالات حد العداء والصدام بين الطرفين لدرجة التطاحن الدموي العنيف، ولم يتردد كل طرف من الأطراف المتنازعة في الاستعانة بأمراء الدول المجاورة، مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم على أراضي الدولة الفاطمية، فقد انفرد شاور الذي كان والياً على الصعيد بالسلطة بعد تخلصه من الوزير العادل بن زريك، غير أن ضرغام أحد قواد الجيش ما لبث أن ثار عليه وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلى الإلتجاء بنور

1 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر... ص 75.

الدين محمود صاحب دمشق ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه متعهداً له بدفع ثلث دخل البلاد «ويتصرف على أمره ونهيه واختياره»[1] تردد نور الدين في بادىء الأمر، لكنه عاد وأرسل حملة صحبة شاور إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح. استطاعت التصدي لضرغام والتغلب عليه وإعادة شاور إلى منصب الوزارة في رجب سنة 559هـ ـ 166م[1].

بعد أن حصل شاور على غرضه، تخل عن حليفه نور الدين، ولم يف بما عاهده عليه، وأرسل إلى أسد الدين شيركوه يطلب منه العودة الشام، ولم يكتف بذلك بل بعث إلى عموري ملك بيت المقدس الصليبي يستمده ويخوفه من نو رالدين، فاغتنم الصليبي الفرصة وأرسل جيشاً أرغم شيركوه بالعودة بجنده إلى الشام سنة 559هـ ـ 1166م[2].

ترك شيركوه مصر آملاً في العودة مرة ثانية لتأسيس امبراطورية لنفسه بعد أن عرف مكامن الضعف في تلك البلاد. واستمر يدبر الخطط مع نور الدين حتى سنة 562هـ ـ 1169م[3].

إن الطمع في ثروة مصر والخوف من السيطرة الصليبية عليها لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمام نور الدين في ذلك الدور بأمر مصر، وإنما كان هناك دافع آخر مذهبي له أهمية في توحيد الجبهة الإسلامية[4]. يضاف ذلك أن الخليفة العاضد الفاطمي عندما رأى استبداد شاور أرسل إلى نور الدين يستنجده ويقول له «استبد شاور بالأمر وظلم وسفك الدم» وكان في قلب نور الدين حزازة من شاور لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج[4].

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار ابن أيوب نشر جمال الدين الشيال 1953 ـ 1957، ص 139، وانظر عمار اليمني في النكت العصرية ص 73.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاخرة... ج 5 ص 7 .

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 4 ص 168.

4 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 5 ص 348.

غادرت حملة نور الدين الثانية مصر في ربيع الأول سنة 562هـ بقيادة شيركوه ويصحبته ابن أخيه صلاح الدين، وصادف وصولهم مصر وصول الفرنجة الذين استنجدهم شاور للمرة الثانية: أراد الفرنجة أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر، بشرط أن يدفع هذا المبلغ فوراً[1]، واستعد الفاطميون والصليبيون لمهاجمة شيركوه، والتقى الفريقان في مكان يعرف بالبابين على مقربة من الميناء، فكان النصر حليف شيركوه الذي رأى بعد ذلك أن يسير إلى الاسكندرية، فدخلها من غير مقاومة وعين ابن أخيه صلاح الدين والياً عليها[2].

اتجهت القوات الصليبية والمصرية إلى الاسكندرية وحاصرتها براً، بينما كان الأسطول الصليبي يحاصرها بحراً، ولم يستطع صلاح الدين رفع الحصار، فأسرع شيركوه إلى نجدته فلم يجد الصليبيون والمصريون بداً من طلب الصلح، فأجاب شيركوه طلبهم وتم الاتفاق ألا تقيم الفرنجة في البلاد المصرية، ثم عاد دمشق[3]. على أن جميع قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذاً للصلح الذي تم عقده في بداية الحملة ـ تكلمنا عنه سابقاً، ثم عقدوا مع شاور معاهدة جديدة كان من أهم شروطها، أن يكون لهم بالقاهرة حامية تحرس أبوابها فضلاً عن مندوب عن الملك العموري يشارك في شؤون الحكم[4]. كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر[5].

---

1 ـ سعيد عاشور: بحوث ودراسات... ص 209.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين... ص 142. وسعيد عاشور: بحوث ودراسات... ص 200.

3 ـ حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية... ص 193.

4 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر... ص 137.

5 ـ ابن واصل: مفرج الكروب... ص 152.

وهكذا تحولت المساعدة الصليبية حماية، بل نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية أساءت معاملة أهل البلاد وفرضت عليهم حكماً جائراً، وضرائب باهظة أثقلت كاهلهم وأفقرت ميزانية الدولة[1].

إزاء هذا الوضع السيء وأمام ضغط الراي العام وشعوره بالاستياء لم يجد شاور مفراً من أن يغير سياسته ويتصل بنور الدين محمود طالباً مساعدته في التخلص من الحماية الصليبية[2]. كما أرسل الخليفة العاضد بدوره يستنجد به، ويتعهد له بالتنازل عن ثلثي بلاد مصر، وأن يأذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجاً عن ثلث البلاد الذي أفرده لنور الدين[3].

لم يتأخر نور الدين عن طلب النجدة فأرسل حملة قوامها من حرسه الخاص ومن التركمان بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، رحب المصريون بقدوم الجيش الشامي واستقبلوا شيركوه استقبال المخلص.

استدعى الخليفة العاضد شيركوه وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور، وأخذ أرباب الدولة يترددون إلى خدمته كل يوم[4]. حقد شاور على شيركوه وأرسل مرة أخرى إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته، وأخذ يدبر مؤامرة للتخلص من شيركوه إلا أن ابنه الكامل نهاه عن ذلك. وعندها أخذ شاور يماطل في وفاء الدين الذي كان قد تعهد به لنور الدين في انتظار وصول الصليبيين لنجدته.

أدرك أعيان مصر خطر سياسة شاور وسؤ نيته فاجتمعوا عند شيركوه

---

1 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر... ص 137.

2 ـ ابن شداد: سيرة صلاح الدين... ص 67 ـ 68.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ص 158.

4 ـ ابن شداد: سيرة صلاح الدين... ص 68.

وطالبوه بقتله[1]. وهكذا انتهت حال ذلك الوزير الذي استبد بالسلطة واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه. واصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلي في البلاد فاتخذه العاضد وزيراً له، وقلده جميع أمور الدولة[2].

استطاع أسد الدين شيركوه أن يقبض على زمام الأمور في البلاد. كما وزع الاقطاعات على عساكره، وأعاد أهالي الفسطاط إلى بلدهم، وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة، ثم توفي فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الذي استطاع استمالة قلوب الناس بأسرع ما يمكن، كما استطاع أن يكتسب ولاء الجند بعد أن أحسن لجميع العسكر الشامي والمصري دون أية تفرقة فأحبوه وأطعوه[3].

واجهت صلاح الدين العديد من الصعاب منها المؤامرة التي دبرها رجال القصر بزعامة رئيس البلاط جوهر مؤتمن الخلافة الذي حاول أن يتصل بالصليبيين لمساعدته على صلاح الدين ولكن لسؤ الحظ وقعت رسالة مؤتمن في يد صلاح الدين فقتله على الفور[4]. ثم قضى على ثورة الجند التي اندلعت بعد ذلك[5].

كان الفرنجة في بيت المقدس يراقبون تصرف ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل في مصر ويرون فيه خطراً يهدد كيانهم. فاضطر ملكهم الاستنجاد بملوك أوروبا لاحباط أطماع نور الدين، لكن دعوته لم تلق استجابة منهم لانشغالهم بمسائل دولهم، فلجأ إلى مانويل إمبراطور الدولة البيزنطية الذي رحب بمد يد

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ... حوادث 564هـ وانظر ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج 2 ص 501 ـ 502.

2 ـ مجموعة الوثائق الفاطمية: جمعها وحققها جمال الدين الشيال، القاهرة 1958 ص 172.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 5 ص 355.

4 ـ المقريزي: خطط... ج 2 ص 2.

5 ـ المصدر نفسه ج 2 ص 3. وانظر ابن شامة: كتاب الروضتين... ج 1 ص 179.

المساعدة إليه. وتوجهت الحملة الصليبية إلى دمياط يعاونها الأسطول البيزنطي مزوداً بالمؤن والعتاد الحربي[1].

عندما علم صلاح الدين بوصول الحملة الصليبية إلى دمياط، أرسل يطلب النجدة من نور الدين الذي لبى النداء بسرعة وأرسل العساكر إليه إرسالاً يتلو بعضها بعضاً[2]. وفي الوقت نفسه كان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين - وشهاب الدين - خاله - قد دخلا دمياط، فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات والنجدات إليهما عن طريق النيل[3]. واضطر هو إلى البقاء في القاهرة خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمي وجند السودان الناقمون عليه بتدبير المؤامرات ضده[4].

وتشير المراجع الصليبية أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار نهر النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أواني فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطي أبلغ الضرر، مما اضطره الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة[5].

ولعل الخلاف بين قواد البيزنطيين والصليبيين حول خطة الهجوم، فضلاً عن سوء النوايا بين الطرفين، وصعوبة تمويل الجيوش وقيام نور الدين بمهاجمة الممتلكات الصليبية في بلاد الشام[6]. جميع هذه الأمور أدت إلى فشل الحملة في غزو دمياط والاستيلاء على مصر.

---

1 - حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، القاهرة 1948 ص 134 - 136.

2 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة 565هـ

3 - أبو شامة: كتاب الروضتين... ص 180 - 181.

4 - المصدر نفسه ص 181.

5 - سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى... ص 22.

6 - المقريزي: خطط... ج 1 ص 214.

كان لإحباط الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط أثر بالغ الأهمية في توطيد سلطة صلاح الدين في مصر، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية، ولم تجد استغاثة الخليفة العاضد بنور الدين لسحب جند الأتراك من القاهرة[1].

سعى صلاح الدين لتدعيم مركزه، فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه، فوصلوا مصر في جمادي الآخرة سنة 565هـ ـ 1171م، وما لبث أن أسند إليهم بعض المناصب الهامة، فجعل أباه على بيت المال وأقطع إخوانه بعض الأراضي[2]. ثم وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي، فأنشأ سنة 566هـ ـ 1173م مدرسة لتدريس المذهب الشافعي وأخرى لتدريس المذهب المالكي، وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس قاضياً للقضاة في جميع أنحاء البلاد المصرية، فأناب عنه في سائر البلاد قضاة شافعية، فاستعاد بذلك المذهب السني قوته، وأخذ المذهب الإسماعيلي في الاختفاء تدريجياً، حتى لم يبق له أنصار في مصر[3].

كان لسياسة صلاح الدين التي تنطوي على إضعاف المذهب الإسماعيلي أثرها في زوال الدولة الفاطمية[4].

لكن صلاح الدين رغم استبداده بأمور مصر لم يسارع إلى إقامة الخطبة للمستضيء بنور الله العباسي رغم الحاح نور الدين عليه مبرراً اعتذاره بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب المصريين، غير أن نور الدين رفض هذا العذر، وبعث

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين... ص 181.

2 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية. ص 34 ـ 35. وانظر ابن واصل: مفرج الكروب... ج 1 ص 185 ـ 186.

3 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 358 ـ 359. وابن الأثير الكامل... ج 11 ص 147.

4 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ... ج 11 ص 148 ـ 149.

إليه أمراً لا مناص لواليه من تنفيذه[1].

عقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي بدل اسم الخليفة الفاطمي فوافقه بعضهم وأظهروا استعدادهم لمناصرته، ورأى آخرون خطورة هذا الاقتراح، وكان بين الحضور رجل فارسي يعرف بالأمير اعتزم أن يتولى الأمر بنفسه، فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من شهر محرم سنة 567هـ ـ 1174م، ودعا للمستضيء العباسي فلم يعارضه أحد، وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يخطبوا باسم الخليفة العباسي، وهكذا تم ذلك التغيير بدون أن أية مقاومة[2] فكان ذلك إيذاناً بسقوط الخلافة الفاطمية بعد حياة استمرت نحواً من قرنين من الزمان.

1 ـ المصدر نفسه... ج 11 ص 149.

2 ـ المصدر نفسه... ج 11 ص 149.

الفصل الثالث

سياسة الفاطميين

سياسة الفاطميين الداخلية

أولاً ـ موقف الفاطميين من أهل السنة

كان أهل السنة يكونون السواد الأعظم من المصريين المسلمين في مستهل الرابع الهجري عندما بدأ الفاطميون يوجهون حملاتهم إلى مصر. وقد استطاع دعاتهم نشر المذهب الفاطمي بين عدد غير قليل من المصريين كانوا خير عون لهم على فتح مصر[2]. فدخل جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الاسكندرية وكتب أماناً للمصريين ـ تكلمنا عنه سابقاً ـ

لم يعمل الفاطميون بعد مجيء الخليفة المعز إلى القاهرة سنة 362هـ ـ 972م بكتاب الأمان الذي التزم فيه جوهر، بل تركز الاهتمام في تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي، متبعين في ذلك عدة وسائل منها:

أ ـ إلزام جميع الموظفين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي.

ب ـ إسناد المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعة، واجبارهم على إصدار الأحكام وفق قوانين هذا المذهب.

ج ـ الصاق التهم بالموظفين السنيين الذين ظل في أيديهم بعض المناصب الصغيرة

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 147.

كالتقصير لعزلتهم أو اضطهادهم.

د ـ اتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية، مثل مسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمد بن طولون، والجامع الأزهر.

هـ ـ تعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم[1].

هذا وقد أمعن الفاطميون في إظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحي على خير العمل والاحتفال باليوم العاشر من محرم «يوم كربلاء». واليوم الثامن من عشر من ذي الحجة «عيد الغدير»[2]. وكان إستياء السنة من الفاطميين يزداد في كل مناسبة تقام فيها إحدى الشعائر الشيعية، لما كان يصاحبها من فتن واعتداءات وتمادى المغاربة في إثارة الشغب والاضطرابات، وإلحاق الأذى بالمصريين، من نهب للبيوت والاعتداء على الأهالي، مما حمل أهل السنة رفع شكاياتهم إلى الخليفة المعز، الذي أصدر أوامره إلى المغاربة بإخلاء جميع المناطق التي اغتصبوها والانتقال إلى نواحي عين شمس[3]. وأقر المال المطلوب للتعويض على المتضررين كما جعل لهم والياً وقاضياً عهد إليهما بالنظر في أحوالهم[4].

وكانت العقوبة الصارمة بحق كل من يمتدح ذكر الخلفاء السنيين ويقول المقريزي أن الخليفة العزيز أبطل صلاة التراويح ـ التي سنها النبي (ص) بعد صلاة العشاء في رمضان في سنة 372هـ ـ 985م من جميع مساجد الديار المصرية[5]. كما أصدر العزيز في سنة 381هـ ـ 994م أمره بضرب رجل من أهل

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء... ج 2 ص 483.

2 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 389.

وانظر أحمد أمين: ظهر الإسلام... ج 1، ص 149.

3 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 203.

4 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر... ص 45.

5 ـ المقريزي: خطط... ج 2 ص 340 ـ 341.

مصر وطيف به في أرجاء القاهرة لأنهم وجدوا عنده كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس، وفي صفر سنة 385هـ ـ 998 أمر الخليفة العزيز بنقش سب الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه، وعلى أبواب الحوانيت والحجرات وعلى المغاير، ولون ذلك بالذهب في كثير من أحياء القاهرة وفي غيرها من المدن. وقد أدت هذه السياسة تحويل العديد من أهل السنة المذهب الشيعي[1].

ولما قبض الحاكم بأمر الله على زمام الأمور في مصر بعد تخلصه من وجيه برجوان عمد إصدار كثير من الأوامر والقوانين المبنية على التعصب الشديد للمذهب الفاطمي فأمر في جمادي الأولى سنة 391هـ ـ 1004م بقتل وصلب رجل من أهل الشام لإتهامه بعدم الاعتراف بفضل علي[2]. وفي سنة 393هـ ـ 1006م ألقى القبض على رجل من أهل دمشق، وطافوا به في شوارع المدينة ثم ضربت عنقه لأنه أظهر حبه للخليفتين أبي بكر وعمر[3].

وفي سنة 395هـ ـ 1008م أعاد الخليفة الحاكم سياسة العزيز بنقش سب الصحابة على جدران المساجد والأسواق والدروب[4].

إلا أن طبيعة الحاكم بأمر الله المزاجية ما لبثت أن دفعته إلى تبديل سياسة التعصب المذهب الفاطمي إرضاءً لرعاياه السنيين، فأمر سنة 397هـ ـ 1010 بإلغاء بعض ما قام به سابقاً من لعن الخلفاء الثلاثة الأول وغيرهم من الصحابة، ومحو ما نقش في لعنهم، كما منع المؤذنين من اضافة عبارة هي «حي على خير العمل» الأذان، وسمح بإقامة صلاة التراويح[5]. وأنشأ مدرسة لتعليم المذهب

---

1 ـ المصدر نفسه ص 386.

2 ـ المصدر نفسه ص 386.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 2 ص 91.

4 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص 166.

5 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج 1 ص 166.

السني وألحق بها دار كتب، وعين أبا بكر الإنطاكي ناظراً، وخلع عليه وعلى زملائه وأجلسهم في مجلسه[1].

وفي سنة 398هـ ـ 1011م أصدر الحاكم مرسوماً وفق فيه بين السنة والشيعة، في صوم شهر رمضان، وصلاة الجنازة[2]. كان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم أن ساءت سمعته عند المتشيعين الذين جاؤا إلى القاهرة، حيث وجدوا أنفسهم في مدينة تسير في إتجاه عادات المذهب السني[3].

لكن الحاكم ما لبث أن بدل سياسة اللين، فأمر في سنة 401هـ ـ 1011م بإعادة الآذان إلى النحو الشيعي وأبطل سياسة التراويح، حتى أنه عندما علم باقامة هذه الصلاة في المسجد العتيق، أمر بإمام هذا المسجد فضربت عنقه، وأعاد في الوقت نفسه مجالس الحكمة في القصر، واعتزم بعد ذلك نبش قبر أبي بكر وعمر بالمدينة[4].

أما في عهد الخليفتين الظاهر والمستنصر اتجهت السياسة الفاطمية إلى عدم إثارة التفرقة بين السنة والشيعة حتى اشتهرت هذه الفترة بالعدل الشامل والعمل لصالح الرعية[5] إلا أن هذه الصورة تبدلت في أواخر عهد المستنصر عندما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالي مقاليد الحكم فظهرت روح العداء والكراهية إزاء أهل السنة[6].

وعلى الرغم من أن الفاطميين استطاعوا أن يقيموا في مصر حكومة منظمة

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 2 ص 105.

2 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 287.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 2 ص 105.

4 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 338.

5 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 2 ص 276.

6 ـ المصدر نفسه: ج2 ص 276.

قائمة على اساس متين ساعدت على ازدهار البلاد وتقدمها، إلا أن حرصهم على نشر المذهب الشيعي أوقعهم في مأزق صعب مع أهل السنة الذين ظلوا محتفظين بقوتهم رغم تحول بعضهم المذهب الشيعي خوفاً من تطبيق القوانين الجائرة التي فرضها الفاطميون عليهم.

أمام هذا التمسك الصلب من أهل السنة لم ير الفاطميين بدأ من السماح للسنيين في مصر من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، فصارت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل تدرس في دولتهم[1]. أما مذهب الإمام أبي حنيفة فلم يلق تأييداً من الفاطميين لأنه مذهب أعدائهم العباسيين.

يضاف إلى ذلك أن تشريعات الوراثة التي أدخلها الفاطميون والتي تتناف ما نص عليها القرآن مثل وراثة البنت جعلت أهل السنة يتمسكون بمذاهبهم وتقاليدهم.

ثانياً ـ سياسة الفاطميين مع أهل الذمة (النصارى واليهود)

تقرب الفاطميون إلى أهل الذمة وأظهروا لهم الكثير من المودة والتسامح واستخدموهم في أهم المناصب.

عظم شأن اليهود في خلافة المعز بعد أن أنسدت رئاسة بعض الدواوين ليعقوب بن كلس اليهودي. وما زال يعقوب يرتقي في المناصب حتى أصبح وزيراً للعزيز، واليه يرجع الفضل في وضع قواعد الدولة ونظمها.

سار العزيز على سياسة والده في العطف على أهل الذمة، فزاد بلاطه

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3 ص 520.

في إكرام النصارى[1]. بعد أن تزوج من مسيحية، وكان لها أخوان رفعها إلى أعلى المراتب الكنسية، فعين أحدهما بطريركاً في بيت المقدس سنة 375هـ ـ 975م، وعين الثاني مطراناً للقاهرة، ثم رقي في عهد الحاكم بطريركاً للملكيين بالاسكندرية سنة 390هـ ـ 1003م[2].

وزاد عطف العزيز على الكنيسة القبطية، فسمح للبطريرك القبطي إفراهام بإعادة كنيسة أبي سيفين المخربة بظاهر الفسطاط[3].

ويلغ من اهتمام العزيز بالمسيحيين أن احتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية مشاركة لهم في شعورهم.

وكان من أثر سياسة العزيز مع الذميين أن ازداد نفوذهم في أيامه، فارتفع عيسى بن نسطورس إلى كرسي الوزارة، كما عين منشأ اليهودي والياً على الشام، فأظهر هؤلاء محاباة لإخوانهم في الدين إذ عينوهم في مناطق الدولة بعد أن أقصوا المسلمين عنها[4]. إستاء المسلمون من استئثار الذميين بمناصب الدولة، وقدموا للخليفة العزيز الاحتجاجات على محاباة المسيحيين واليهود، وكتب أحد الساخطين شكاية وأعطاها لامرأة ورغبها بالمال لتقف في طريق الخليفة وتقدمها إليه. وفيها: «بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشأ بن ابراهيم الفرار، وأذل المسلمين بك، إلا نظرت في أمري»[5]. قرأ العزيز الكتاب، فأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس وزملائه من الكتاب، كما قبض على منشا وغيره

---

1 ـ : الحضارة الإسلامية... نشر محمد عبد الهادي جزمان، القاهرة 1940 ـ 1941/ ج 1 ص 90 ـ 91.

2 ـ يحي بن سعيد التاريخ المجموع... ص 144 ـ 145.

3 ـ أبو صالح: كنائس وأديرة مصر، طبعة اكسفورد 1895م ص 45 ـ 46.

4 ـ أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم،... ص 186.

5 ـ السيوطي: حسن المحاضرة... ج 2 ص 17.

من الموظفين اليهود وأعاد الكتاب المسلمين أعمالهم بالدواوين[1]. لكن الأميرة ست الملك ابنة الخليفة وزوجته المسيحية شفعا لعيسى بن نسطورس فعفا عنه العزيز وولاه الوزارة بعد أن اشترط عليه أن يولي المسلمين في دواوين الحكومة[2].

عندما ارتقى الحاكم عرش الخلافة ازداد عطفه على أهل الذمة، فانفجر بركان الغضب عند الكتاميين وهم عصب الخلافة الفاطمية طالبين بعزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبي محمد بن عمار، فأجاب الحاكم طلبهم. لكن سياسة الحاكم المزاجية ما لبثت أن دفعته إلى نبذ سياسة التسامح الديني، فأمر بالقبض على بعض رؤساء الكتاب من النصارى، ورفض إعادتهم إلى مراكزهم إلا بعد شفاعة طبيبه الخاص سهل ابن مقشر النصراني[3]. وفي سنة 395هـ ـ 1008م أمر الحاكم النصارى بارتداء أزياء خاصة (الزنار والغيار). وفي سنة 398هـ ـ 1011م إزدادت سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى واليهود، فهدم بعض الكنائس في القاهرة.

كما أصدر الحاكم في سنة 400هـ ـ 1013م مرسوماً بهدم كنيسة القيامة بإيعاز من وزيره منصور بن عبدون النصراني[4]. فكان لهذا الأمر أثر كبير في إعطاء الصليبيين ذريعة للإستلاء على بيت المقدس.

ولم تقف سياسة الحاكم عند هذا الحد بل أمر بمنع النصارى من الاحتفال بالنوروز على شواطىء النيل، كما حرم الألعاب التي تقام في هذا العيد، والغى جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة بأعمال مصر وضمت إلى الديوان.

1 ـ أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ص 187.

2 ـ د. حسن ابراهيم: الدولة الفاطمية... ص 203.

3 ـ يحي بن سعيد: التاريخ المجموع... ص 185 ـ 186.

4 ـ المصدر نفسه ص 194. وابن القلانسي. ذيل تاريخ دمشق ص 61 و 67.

كما أجاز لليهود ووالنصارى الذين لم يدخلوا في الإسلام بالهجرة خارج مصر، فهاجر بعضهم إلى بلاد الإغريق، والحبشة والنوبة... ومن بقي منهم في مصر دخل في الإسلام[1].

لكن سياسة الحاكم لم تستمر على هذا الاضطهاد، فأصدر في سنة 411هـ ـ 1021م عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود، وإعادة بناء الكنائس المهدمة، ورد إليها أملاكها.

كان من أثر هذا التغيير الجديد في سياسة الحاكم أن ارتدت جماعة كبيرة ممن اعتنقت الإسلام خوفاً إلى دينهم القديم[2].

ولم يكتف الحاكم بسياسة التسامح هذه بل أصدر كتاباً منح بموجبه الأمان للذميين[3]. على غرار الكتاب الذي أصدره جوهر الصقلي لأهالي مصر.

توفي الحاكم فخلفه ابنه الظاهر الذي أحسن معاملته لأهل الذمة، فتمتعوا بحريتهم الدينية، وأخذ الشعور العدائي نحوهم يقل ويضعف، ولم يظهر إلا عندما يتولى نصراني أو يهودي منصباً كبيراً من مناصب الدولة ولا سيما الوزارة[4]، كما حدث عندما ارتفع شأن أبي سعد التستري اليهودي[5].

وخلاصة القول أن الفاطميين عاملوا أهل الذمة معاملة تنطوي على العطف والرعاية، وما كان الاضطهاد الذي قام به الحاكم إزاءهم إلا حلقة من

---

1 ـ يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع. ج 2 ص 288.

2 ـ ابن اياس: بدائع الزهور... ج 1 ص 51.

3 ـ ابن زولاق: كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم (1817) ورقة 51 ب.

4 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق... ص 80 ـ 84.

5 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 1 وانظر ابن منجب الصرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة 1924، ص 76 ـ 77.

سلسلة حلقات الظلم الذي حاق عامة الناس والحق أن أبناء هاتين الطائفتين قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحاباة لهؤلاء القوم[1]. وليس أدل على ذلك من توليهم لأرقى المناصب وأعلاها. كما شغلوا المناصب المالية في الدولة، بل تقلدوا الوزارة، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني.

1 ـ أبو صالح الأرمني: كتاب كنائس وأديرة مصر أكسفورد 1895، ص 32، 43، 77، 78. وانظر ناصر خسرو سفر نامة ص 155 ـ 156.

سياسة الفاطميين الخارجية

أولاً ـ الفاطميون والبويهيون والسلاجقة

كان البويهيون يفضلون الدولة الفاطمية على الدولة العباسية من الناحية المذهبية لهذا كان سلاطينهم على اتصال دائم بالفاطميين، حتى أنهم سمحوا لدعاتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في البلاد التي خصصت لهم.

لكن محاولة الفاطميين الاستيلاء على مصر أثار مخاوف بني بويه من تعرض سلطانهم في بلاد العراق للخطر إذا استولى الفاطميون عليها وهذا يعلل مساعدة العباسيين في حروبهم ضد الفاطميين، ثم ما كان من تأهب عضد الدولة البويهي لغزو مصر واستردادها من الفاطميين.

ويقول بعض المؤرخين أن ما قام به عضد الدولة من غزو مصر كان نتيجة لشكه في نسب الفاطميين، حتى أنه عقد مجلساً حضره العلويون الذين أقروا بطلان هذا النسب[2].

لم يدخر الفاطميون وسعاً في سبيل نشر دعوتهم في بلاد العراق، فأقيمت الدعوة للخليفة الفاطمي في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة[2].

أثار نشر الدعوة الفاطمية في بعض بلاد العراق حنق الخليفة العباسي

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 15.

2 ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء... ص 274. وانظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 2 ص 224 ـ 227.

القادر، فلجأ إلى محاربتهم إلى سلاح التشهير بسمعتهم في العالم الإسلامي، فعقد هذا الخليفة اجتماعاً دعا إليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة، وأصدروا في سنة 401هـ ـ 1011م محضراً يتضمن الطعن في نسب الفاطميين[1]. وعلى الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس المسلمين أخذ الفاطميون يضاعفون جهودهم في نشر دعوتهم عن طريق دعاتهم، ويصادفون كثيراً من النجاح في هذا السبيل، مما دفع الخلفاء العباسيين إلى كتابة محضر آخر في سنة 442هـ ـ 1052م يطعنون فيه على الفاطميين وينفون نسبهم[2]. وفي سنة 488هـ ـ 1098م كتبوا محضراً أيضاً «لتنفير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول العباسيين»[3].

لكن سياسة البويهيين العدائية ما لبثت أن تبدلت إلى تودد وحسن نية في عهد أبي كاليجار 435هـ ـ 1045م الذي اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه.

لم يدخر الخليفة المستنصر الفاطمي وسيلة للإنتقام من الخلفاء العباسيين فأيد أبا الحارث البساسيري في خروجه على الخليفة القائم العباسي وأمده بالأموال والجند حتى مكنه من الانتصار على الخليفة العباسي في موقعة سنجار سنة 339هـ ـ 1063م[4]. ولم يقف نشاط الفاطميين عند هذا الحد. فقد استطاع

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 2 ص 229 ـ 230.

2 ـ المصدر نفسه، ج 5 ص 53.

3 ـ ابن ميسر: أخبار مصر، ص 37.

4 ـ ابن منجب: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص 44.

هبة الله الشيرازي استمالة ابراهيم أخا طغرلنك السلجوقي إليه مما أدى ذلك إلى صراع بين الأخوين كان نتيجته أن انتهز البساسيري الفرصة واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة 450هـ ـ 1060م، وقتل الوزير ابن مسلمة. أما الخليفة «استذم بزمام(*) قريش فحماه من القتل»[1]. لكن المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري مكنت طغرلنك من دخول بغداد والقضاء على فتنة أخيه وقتل البساسيري.

ثانياً ـ الفاطمون والحمدانيون والمرادسيون

بعد سيطرة القائد الفاطمي جعفر بن فلاح على دمشق، هدد الحمدانيين في حلب بالإستيلاء على بلادهم إذا لم يقيموا الدعوة الفاطمية على منابرها.

إستاء الحمدانيون من هذا التهديد وتقربوا من الحسن الأعصم القرمطي وأمدوه بالمال والرجال لابعاد خطر الفاطميين عن بلاده. وفي عهد سعد الدولة الحمداني ساءت العلاقات بين الفاطميين والحمدانيين بسبب إهانة سعد الدولة لرسول الخليفة العزيز الفاطمي حين طلب إليه الكف عن إيذاء أبناء بلحور، وسار الخليفة الفاطمي على رأس جيش كبير إلى حلب للاستيلاء عليها، لكن الحظ حالف سعد الدولة إذ مات العزيز الفاطمي في مدينة بلبيس، ولولا ذلك لخضع الحمدانيون لسلطات الفاطميين قبل خضوعهم نهائياً لابنه الحاكم[2].

طمع لؤلؤ ـ الذي آلت إليه الوصاية على سعيد الدولة ـ في ولاية حلب فقتل سعيداً وابنته وكان قد تزوج منها، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم

(*) الذمام معناه الحرمة أي دخل بذمة قريش.

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 5، ص 16، 19.

2 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق... ج 1، ص 38 ـ 39 و 43 ـ 44.

ولدي سعيد علي وشريف، ولم يلبث أن أرسلهما إلى مصر مع سائر أفراد البيت الحمداني إرضاء للخليفة الفاطمي، وجعل ابنه منصور الذي لقبه الحاكم بأمر الله «مرتضى الدولة» والياً على حلب واعترف بسلطان الخليفة الفاطمي مرتضى الدولة والياً على حلب، وذكر اسمه في الخطبة. وبعد مدة وجيزة قام الخلاف بين منصور وأخيه غلام الذي انضم إلى جانب الحاكم الفاطمي الذي لقبه «مبارك الدولة وسعدها» وأقطعه الساحل اللبناني بالإضافة إلى حكم حلب[1]. وبذلك انتهى عهد الدولة الحمدانية لم يتمكن الفاطميون من توطيد سلطانهم في حلب فقد ناوأهم المرادسيون بزعامة صالح بن مرداس الذي استولى على حلب وظل يحكمها حتى استطاع جيش الخليفة الظاهر الفاطمي من التغلب عليه واسترداد المدينة سنة 420هـ ـ 1030م[2].

وبالرغم من أن نصر بن صالح بن مرداس استطاع السيطرة على المدينة مجدداً إلا أن الخليفة المستنصر كان له بالمرصاد فأرسل له حملة بقيادة القائد التركي أنوشتكين ثم أتبعها بحملة أبي عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان الذي أحكم السيطرة على المدينة حتى سئم أميرها وطلب الصلح من الخليفة الفاطمي سنة 449هـ ـ 1059م واستمر الحكم الفاطمي لمدينة حلب زهاء ستين سنة انتهى مع بداية ضعف دولتهم وانحصار نفوذها عن الولايات الشامية[3].

ثالثاً ـ الفاطميون وبلاد الحجاز

سعى الفاطميون إلى بسط نفوذهم في بلاد الحجاز لأنهم كانوا يدركون

---

1 ـ ابن العميد: تاريخ المسلمين... ص 357 ـ 358.

2 ـ ابن الأثير: الكامل... ج 9، ص 80.

3 ـ محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، القاهرة: 1950 ص 140.

تماماً أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية في العالم الإسلامي كله[1].

استغل الخليفة المعز فرصة النزاع الذي نشب بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب للتدخل في شؤون الحجاز وأرسل الدعاة ومعهم الرجال والأموال ليعقدوا الصلح بين الطرفين وكان نتيجة ذلك أن أعلن الحسن بن جعفر أمير مكة الدعاء على المنابر للخليفة المعز فأرسل إليه المعز تقليداً بالحرم وما يليه، وحذت المدينة حذو مكة، وحذف اسم الخليفة العباسي منها. ولتوطيد السيادة الفاطمية في بلاد الحجاز أرسل الخليفة المعز في سنة 35هـ ـ 972م محملاً قوامه عشرون جملاً يحمل المال والمتاع للحرمين ويرافقه عدد من العسكر[2]. وبذلك انتشر النفوذ الفاطمي في جميع أرجاء الحجاز.

وفي عهد العزيز انقطعت الخطبة للفاطميين، مما اضطر الخليفة تولية ادريس الصنهاجي إمارة الحج، فاستولى على الحرمين وأعاد الخطبة للخليفة الفاطمي[3].

ولم يستقر سلطان الفاطميين في بلاد الحجاز إلا بعد سنة 378هـ ـ 993م حين أرسل العزيز حملة حاصرت مكة والمدينة وأقامت الخطبة للفاطميين[4] وفشلت جميع المساعي التي بذلها العباسيون بالرغم مما أنفقوه من أموال لإستعادة بلا الحجاز.

ظلت سيطرة الفاطميين على بلاد الحجاز بين مد وجزر حتى كانت الأزمات الاقتصادية التي اصابت الدولة الفاطمية منذ سنة 459هـ ـ 464هـ)

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 145 ـ 146.

2 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 172.

3 ـ ابن خلدون: العبر... ج 4، ص 101.

4 ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 101.

(1069م ـ 1074م) بسبب القحط والغلاء وانقطاع ماء النيل وما أعقبه من الوباء والموت وما رافق ذلك من فتن وحروب أهلية[1]. أفقر الخزينة المصرية وحال دون إرسال الأموال بلاد الحجاز فأعاد أمير مكة محمد بن أبي هاشم الخطبة للخليفة العباسي[2]. وبذلك زال نفوذ الفاطميين من بلاد الحجاز.

رابعاً ـ الفاطميون والصليحيون في اليمن

استطاع داعي دعاة الإسماعيلية في اليمن عامر بن عبد الله الزواحي استمالة علي ابن محمد الصليحي ابن أحد قضاة السنة في تلك البلاد، فتحول إلى المذهب الإسماعيلي وهو صغير السن، ثم ما لبث أن استلم مكان عامر بعد وفاته، فأثبت جدارته في ترسيخ الدعوة الإسماعيلية بعد القضاء على مناوئه حتى سيطر على أكثر بلاد اليمن وأصبحت صنعاء حاضرة ملكه.

ولما قويت شوكة الصليحي واستقرت له الأمور في البلاد كتب إلى الخليفة المستنصر، فوجه إليه هذا الأخير الخلع والألقاب[3]. وهكذا حكم علي الصليحي بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة المستنصر. وبلغ من ثقة المستنصر بعلي الصليحي أن منحه العديد من الألقاب مثل الأمير الأجل، شرف المعالي، تاج الدولة، سيف الامام المظفر...[4]. كما لقبه عمدة الخلافة بعد أن استطاع الصليحي إعادة بلاد الحجاز إلى حظيرة الدولة الفاطمية بعد أن خلع والي مكة محمد بن ابي هاشم طاعة الفاطميين في تلك الديارة وكان من شدة إخلاص علي الصليحي

---

1 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 13 ـ 23، 34.

2 ـ ابن الأثير: الكامل... ج 1، ص 21.

3 ـ الحمادي اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، مطبعة الأنوار، 1357هـ ص 43.

4 ـ حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية... ص 240 ـ 241.

للفاطميين أن جعلت الخليفة المستنصر يبعث إليه بأنباء الأحداث الهامة التي تقع في مصر ليعلنها من فوق منابر البلاد..."[1].

ومن شدة تعلق الصليحي بالخليفة المستنصر الفاطمي أن كتب إليه يستأذنه السفر إلى مصر ليحظى بلقائه، فأجابه الخليفة إلى طلبه، ولكن الصليحي لم يحالفه الحظ بمقابلة المستنصر لأنه اغتيل وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج على يد سعيد الأحول بن نجاح[2].

ما كاد المستنصر يسمع بخبر اغتيال علي الصليحي، حتى كتب إلى ابنه مكرم يعزيه بوفاة والده، ويعهد إليه بشؤون الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن[3]. رد المكرم على كتاب المستنصر برسالة يؤكد فيها ولاءه للفاطميين وتمسكه بدعوتهم[4].

ظل المكرم على ولائه للفاطميين حتى توفي في سنة 484هـ ـ 1094م، فخلفه ابن عمه أبو حجير سبأ بناءً على وصيته، لكن زوجته أروى لم ترضى بالوصية لأنها كانت تريد تولية ابنها عبد المستنصر وكان طفلاً، وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه بتلبية رغبتها، فأجابها الخليفة على ذلك وأخذ يرسل الرسائل باسم المستنصر، لكن امراء اليمن رفضوا هذا الاختيار[5]. وانقسموا على أنفسهم بين مؤيد ومعارض لرأي الخليفة الفاطمي، لكن الخليفة المستنصر بعث إليهم ينهيهم عن الخلاف ويأمرهم بطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر[6]،

---

1 ـ سجلات وتوقعات المستنصر، رسالة رقم 60 ص 198.

2 ـ حسين سليمان محمود: الملك أروى، ص 24 ـ 25.

3 ـ سجلات وتوقعات المستنصر رسالة رقم 38، ص 131.

4 ـ المصدر نفسه، رسالة رقم 60 ص 197، 198.

5 ـ حسن سليمان محمود: الملكة أروى، ص 25 ـ 26.

6 ـ سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم 38 ص 131.

فاستجابا طرفا النزاع لطلب الخليفة، وعندما أخبرته السيدة الحرة بالأمر رد عليها بكتاب يعلن سروره وفرحه[1].

لكن عبد المستنصر ما لبث أن توفي واحتدم النزاع مجدداً بين أبو حمير والسيدة أروى التي رفضت الزواج منه واستنجد أبو حمير بالخليفة المستنصر فكتب هذا الأخير إلى السيدة الحرة بإجابة سبأ إلى طلبه، فلبت السيدة نداء الخليفة رغم كرهها لهذا الزواج[2].

ظلت العلاقة بين الفاطميين والصليحين قوية بعد وفاة المستنصر سنة 487هـ ـ 1097م فأعلنت السيدة الحرة بشرعية الخليفة المستعلي رغم رفض الأكثرية في مصر له[3].

ولما علم الخليفة الآمر الذي خلف والده المستعلي بموقف السيدة الحرة أرسل الداعي علي بن ابراهيم بن نجيب الدولة إلى اليمن لمساندة السيدة الحرة في صراعها مع أعدائها[4].

واشتدت أواصر الثقة بين الآمر والسيدة الحرة، فأرسل إليها كتاباً يبشرها فيه بمولد ولي عهده أبي القاسم الطيب لتعلن النبأ على منابر اليمن[5]. ولما قتل الخليفة الآمر في سنة 524هـ ـ 1131م، ولي الخلافة ابن عمه الحافظ بعد أن تخلص من الطفل الإمام الطيب، فساء هذا الأمر السيدة الحرة واعتبرت خلافة

---

1 ـ سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم 36 ص 121.

2 ـ حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة ـ الفاطمية في البحث ص 216.

3 ـ Al-Hamdani: Lettres of al-Mustansir Billah, B.S.O.S. 1939 vol 7. p. 321.

4 ـ حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن... ص 168 ـ 170.

5 ـ المصدر نفسه ص 218 وانظر ابن ميسر: تاريخ مصر... ص 72.

الحافظ باطلة. وانتقل الصراع إلى بلاد اليمن فريق يؤيد الطبيب وآخر يؤيد الحافظ. كان لإنقسام الإسماعيلية في بلاد اليمن إلى فريقين أسوء الأثر في أحوال البلاد ولا سيما بعد وفاة السيدة الحرة سنة 532هـ ـ 1139م وصاحب ذلك خضوع الخلافة الفاطمية في مصر إلى الأتابك نور الدين زنكي ووزيره صلاح الدين الذي استولى على بلاد اليمن وقضى على نفوذ الفاطميين فيها.

خامساً ـ الفاطميون والأمويون في الأندلس

إستاء الأمويون في الأندلس من قيام الدولة الفاطمية في المغرب، ونظروا إليها نظرة ترقب وحذر لسببين:

أ ـ العداء بين الدولتين بسبب اختلافهم في المذهب الديني.

ب ـ كانت سياسة الفاطميين لا تقتصر في السيطرة على المغرب، بل كانت الأندلس ضمن خطتهم التوسعية، ودليل ذلك أنها كانت مسرحاً لدعاة الفاطميين قبل قيام دولتهم في المغرب العربي، من أمثال أبو اليسر الرياضي الذي جاء إليها في أواسط القرن الثالث الهجري، ثم جاء بعده جعفر البغدادي[1]. وفيما بعد دخل الجغرافي ابن حوقل الأندلسي على هيئة تاجر، فقدم في كتابه «صورة الأرض» إحاطة شاملة عن بلاد الأندلس، فيها كل ما يرغب في غزوها من غني ووفرة مال وجباية هذا بالإضافة إلى سهولة احتلالها بسبب ضعف أهلها وتفككهم ونقص مهارتهم الحربية[2].

بدأ الصراع السياسي والحزبي بين الأمويين والفاطميين عندما أخذ

---

1 ـ ابن الآبار: التكملة للكتاب الصلة... ج 1 ص 454. وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ـ ص 169.

2 ـ ابن حوقل: صورة الأرض، طبعة بيروت. د.ت ص 1044 ـ 106.

عبيد الله المهدي يوجه قواته نحو المغرب الأقصى لفرض سيطرته عليها فهرب الصنهاجيون إلى الأندلس حيث أكرمهم عبد الرحمن الناصر الأموي وأحسن وفادتهم. ولما عادوا إلى بلادهم أمدهم الخليفة بالأموال اللازمة[1].

أضمر الفاطميون العداء للأمويين واعتبروهم عائقاً لهم في شمال افريقية. لم يأبه الأمويون لكره الفاطميين لأن سلطانهم في بلاد الأندلس خلال الفترة الممتدة بين سنتي 314 ـ 358هـ ـ 1924م ـ 1968م مستقراً قوياً. ومع هذا تميزت سياستهم بأن تدخلهم المباشر قد اقتصر على المنطقة المطلة على المضيق في شمال المغرب الأقصى، أما فيما عدا ذلك فقد اكتفوا بنفوذ غير مباشر على القبائل والمدن المعادية للفاطميين، والاقتصار بإثارة هذه الجماعات عليهم ودعمهم بالمال[2].

إن المساعدة الأموية للمغاربة لم تثن الفاطميين من السيطرة على المغربين الأوسط والأقصى ولو مؤقتاً. أما في المغرب الأدنى فقد تمكن الأمويون من زعزعة الحكم الفاطمي في تلك المنطقة ولا سيما في بلاد الجريد بمساعدتهم للناقمين على الفاطميين هناك، حيث اندلعت الثورة الأباضية بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد بتحريض من الفقهاء المالكين الذي يعود تحالفهم لأموي الأندلسي بسبب الربط المذهبي بين الطرفين والعداء للفاطميين، نجحت ثورة أبي يزيد في محاصرة مدينة المهدية وألقت الرعب في نفوس السكان الذين هرب أغلبهم إلى طرابلس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية[3].

وقد استطاع الأمويين بفضل ثورة أبي يزيد ومناصرة حلفائهم من الزناتين

---

1 ـ البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقة... ص 94، وابن الخطيب في تاريخ المغرب ص 176 ـ 177.

2 ـ الخشني: قضاة قرطبة وعلماء افريقية ص 172 ـ 175.

3 ـ ابن الأثير: الكامل ج 8 ص 150 ـ 158. وانظر المقريزي اتعاظ الحنفا ص 45 ـ 54.

أن يحتل الناصر الأموي مكانة كبيرة في المغرب. ألقت الرعب في نفسية الخليفة القائم الذي بذل كل ما في وسعه للقضاء على ثورة أبي يزيد بعد أن أغرى بعض جنود هذا الثائر لتركها والانضمام للجيش الفاطمي.

خلف المنصور والده القائم فجهز جيشاً قوياً استطاع مطاردة أبي يزيد والقاء القبض عليه حيث أرسل إلى المهدية، وهناك مات متأثراً بجراحه[1]. ولما تولى الخلافة المعز لدين الله سعى إلى اخضاع بلاد المغرب واقرار الأمن في ربوعها، حتى يستطيع أن يوجه جيوشه لمحاربة الأمويين في بلاد الأندلس والانتقام منهم، ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل لأن القضاء على الأدارسة حلفاء الأمويين كان صعباً للغاية بسبب الامدادات الكبيرة التي كان يمدهم بها الحكم الثاني من الأندلس. وفي عهد الخليفة الحاكم الفاطمي ظلت العلاقة متوترة بين الفاطميين والأمويين الذين كانوا يتحينون الفرص للقضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، وقد ظهر ذلك واضحاً في الثورة التي قام بها أبو ركوة الذي ينتمي إلى هشام بن عبد الملك بن مروان.

اضطرب الحاكم من ثورة أبو ركوة اضطراباً شديداً وبعث إليه جيشاً كبيراً، بقيادة ينال أحد قواد الأتراك التي لم تكن راضية عليه قبيلة كتامة التي تشكل أفرادها معظم الجيش، مما سهل على أبو ركوة الانتصار عليه وقتله. فجهز الحاكم عندئذ جيشاً كبيراً من الشاميين والغلمان الحمدانيين، فحلت الهزيمة بجيش الحاكم أولاً. ثم التقوا بأبي ركوة فهزموه وقتلوا نحو ثلاثين ألف من جنده وسيروا رأس أبي ركوة إلى الحاكم. فأمر بصلب جسده[2]. وبانتهاء هذه الثورة تقلص الدور الأموي في بلاد المغرب.

---

1 ـ ابن أبي الدينار: كتاب المونس في أخبار إفريقية ص 60.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 2، ص 216 ـ 217.

ولا يسعنا إلا أن نذكر الوسائل التي استخدمتها الدولة الأموية والفاطمية في صراعهما على السلطة والنفوذ والتي تمثلت بالتشهير ببعضهم فقامت الدعاية عند الفاطميين على أساس مذهبي، مفتخرين بانتمائهم إلى بيت الرسول محمد عليه السلام أما الحاكم الأندلسي فكان يرفض الادعاء الفاطمي وينكر عليهم هذا النسب.

ويقول الثعالبي في هذا الصدد. أن عبد الرحمن الأندلسي تلقى من العزيز كتاباً يسبه فيه ويهجوه، فكتب إليه عبد الرحمن: «أما بعد، فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك»[1]. أوردنا هذا سابقاً.

أما الوسيلة الثانية التي استخدمها الطرفان هي أعمال الجاسوسية بحيث عمدت كل دولة إلى تحري وتسقط أخبار الدولة الأخرى بواسطة أشخاص كانوا يدخلون بلاد الطرفين على هيئات مختلفة.[2] يضاف ذلك الاغراءات المالية التي كانت تبذل من قبل الطرفين لكسب ود هذه القبلة أو تلك.

---

1 ـ الثعالبي: يتيمة الدهر، ج 1، ص 234.

2 ـ أحمد بدر: تاريخ الأندلس، في عصر الخلافة ص 107 ـ 110.

الفصل الرابع

الفاطميون والصليبيون

الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية

مهما تعددت الأسباب وتباينت حول الحروب الصليبية فإن أسباباً دينية وسياسية واقتصادية تكمن وراء هذا العدوان.

أ ـ إنها امتداد لمطامع الغرب في الشرق وحلقة بارزة في سلسلة الصراعات بين المسلمين والعالم المسيحي، وهي الصراعات التي بدأت بخروج المسلمين من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ونجاحهم في اقتطاع أجزاء ثمينة تعتز بها المسيحية وتعتبرها صفحات رئيسية في كيانها وتراثها(*).

ب ـ إعتادت أوروبا طوال العصور الوسطى أن تستورد من الشرق كثيراً من الحاصلات والمصنوعات وفي مقدمتها التوابل والبخور اللتين لا يمكن للغرب أن يستغني عنهما لما كان لهما في تلك الفترة من أهمية بالغة الأهمية في الكنائس والأديرة بالنسبة للثانية وفي قصور النبلاء والأمراء بالنسبة للأولى. لهذا كان لا بد للغرب الأوروبي من الحصول على غلات الشرق مهما كان الثمن، كما أن السيطرة على الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب هي حلمه الحقيقي.

ج ـ عرفت أوروبا في تلك العصور العديد من الصراعات الدينية والسياسية، فكان ثمة ضرورة تدفع الحكام إلى توجيه الفرسان لقتال المسلمين بدلاً من الانصراف

(*) المناطق التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية واستولى عليها الإسلام.

إلى الحروب الداخلية، ومحاولة الإستيلاء على ما بيد المسلمين من ممتلكات، وهذا هو السر فيما نشب بين الفريقين من حروب في إسبانيا وفي جزر البحر المتوسط، وما عمد إليه البابوات من نقل هذا النضال إلى العالم الإسلامي في الشرق الأدنى والإستيلاء على الأراضي المقدسة.

د ـ مطامع الأمراء والنبلاء الذين اشتركوا في هذه الحروب في تأسيس ممالك يتوجون عليها، وكشفت الحوادث عن أغراض بوهمند وتانكرد من النورمان وبلدوين من اللورين وريموند من تولوز بفرنسا، في تحقيق أغراضهم بما أقاموه من إمارات في أنطاكيا والرها وطرابلس.

هـ ـ انتشار الأوبئة والمجاعات في غرب أوروبا وقتذاك دفع العديد من المهاجرين الانضمام إلى المشتركين في هذه الحروب.

و ـ شهدت المنطقة العربية في الفترة من سنة 1060هـ ـ 1092م ـ 468هـ ـ 500م ذروة الإحياء الديني وكان للسلاجقة اليد الطولى في إعادة الروح للمبادىء الإسلامية وكان هذا الحافظ سبباً رئيسياً لإندفاع السلاجقة غرباً وشمالاً، فانتزعوا من الفاطميين سنة 479هـ ـ 107م بيت المقدس، وفي نفس السنة أنزلوا هزيمة ساحقة بالامبراطور رومانوس الرابع في موقع مانذكر، كان نتيجتها أن فقد البيزنطيون كل آسيا الصغرى تقريباً، وامتدت أملاك المسلمين حتى بلغت بحر مرمرة[1]. فاستاء البيزنطيون من هذا الوضع واستنجد إمبراطورهم إلكسيوس كومنين سنة 502هـ ـ 1094م بالبابا في روما فعقد مجمع كليرمونت Clermont في تشرين الثاني سنة 1095هـ ـ 503 برئاسة البابا ايربان الثاني Urban، وبحضور أمراء من مختلف جهات أوروبا، وعدد كبير من رجال الدين، ومندوبين عن الإمبراطور البيزنطي وممثلين للمدن الإيطالية،

1 ـ أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 18.

استطاع البابا أن يثير حماس السامعين، وأن يدعوا المسيحيين إلى مقاتلة المسلمين، فتجاوب في أرجاء المجتمع هتاف بترديد عبارة «هكذا أراد الله» وبادر الحاضرون إلى اتخاذ الصليب شارة لهم. وتحددت سنة 505هـ ت 1097م موعداً لرحيل الصليبيين، وتعينت القسطنطينية لإجتماع فئاتهم لترتيب خطة الهجوم على آسيا الصغرى وبلاد الشام وقام راهب فرنسي اشتهر باسم بيتر الناسك بالطواف في أرجاء فرنسا يصور للناس بأسلوب عاطفي ما يقاسيه الحجاج المسيحيون ويحثهم على الانخراط في حملة صليبية ضد المسلمين[1].

وفي سنة 504هـ ت 1096م اندفع جمع من المهاجين الشرق حمل في طياته عدداً كبيراً من المغامرين والدهماء والرهبان والهاربين من الأديرة، والأقنان الآبقين من ساداتهم.

إستطاع الصليبيون في الفترة ما بين 505هـ ـ 507هـ ت 1097م ت 1099م أن يستولوا على الرها، وأنطاكيا وبيت المقدس، ولم يمض إلا سنوات قليلة حتى صار في أيديهم الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام. والسؤال: كيف تم ذلك؟

أولاً ـ الفاطميون والحملة الصليبية الأولى

كان موقف الدولة الفاطمية من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى أطراف بلاد الشام سنة 505هـ ـ 1097م سلبياً، ولعل السبب في ذلك هو عدم فهم ماهية الحركة الصليبية، بل ربما رأى بعض الخلفاء الفاطميين في الصليبيين درعاً يحميهم من خطر السلاجقة السنيين. وقد عبر موقف الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي صاحب السلطة الفعلية في مصر آنذاك عن جهلهم لنوايا

---

1 ـ فيليب حتي: مختصر تاريخ لبنان، ص 128.

الصليبين الحقيقيين، فما أن سمح هذا الوزير بأنهم وصلوا إلى الشام واشتبكوا مع الأتراك السلاجقة، حتى سعى أن يقيم تحالفاً مع الصليبيين بحيث تكون أنطاكيا للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين، وربما استند الوزير في تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية، لأن الدولة البيزنطية ايام صحوتها في القرن العاشر لم تتعد أملاكها في بلاد الشام مدينة أنطاكيا. لذلك اعتبر الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا ليفعلوا في بلاد الشام مثلما فعل الإمبراطور نقفور فوقاس والامبراطور حناتزيمكس في القرن العاشر.

أرسل الأفضل سفارة إلى الصليبيين وصلتهم وهم أمام انطاكيا في كانون الثاني ـ شباط 506هـ ـ 1098م للتفاوض معهم على اتفاق يتعاون فيه الطرفان في القضاء على السلاجقة، على أن تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما بحيث يكون القسم الشمالي من الشام (سوريا) للصليبيين، في حين يحتفظ الفاطميون بالقسم الجنوبي (فلسطين)[1].

ولعل هذا الاتفاق بين الفاطميين والصليبيين هو الذي جعل العديد من المؤرخين المسلمين يعتبرون أن مجيء الصليبيين كان بإيعاز من الخلافة الفاطمية لحمايتهم من السلاجقة[2].

وطبقاً لهذه الوقائع تشير المراجع أن الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية في طريقهم إلى الشرق بأن يحاولوا محالفة الفاطميين في مصر، ليكونوا لهم عضداً ضد السلاجقة في الشام وشمال العراق.

وقد ورد في بعض المراجع الصليبية إشارات إلى أن الصليبيين استجابوا

1 ـ سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى... ص 170 ـ 171.

2 ـ ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة 490هـ.

لنصيحة الإمبراطور البيزنطي وأرسلوا من نيقية سفارة إلى مصر، فكانت ردة فعل الفاطميين السفارة التي أرسلها إليهم الأفضل. ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة جلية واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامي في ذلك الدور، بين سنة وشيعة وعرب وترك، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعاً، الأمر الذي مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب على الجميع. وعودة إلى المصادر الصليبية نرى كيف تصور لنا هذا الانقسام بوضوح، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدي الصليبيين[1].

استفاد الصليبيون فائدة كبرى من الاتفاق الذي عقدوه مع الفاطميين، فقد أكسبهم وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من أركان العالم الإسلامي وأخذوا يلعبون دورهم في مهارة فائقة، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة في نفوس الفاطميين، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم في بلاد الشام وإنما حاولوا أيضاً كسب ود سلاجقة دمشق فأرسلوا إليهم يطمأنونهم أنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين مثل الرها وأنطاكيا واللاذقية[2] على أن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت وأدرك الفاطميون أن الغزاة الصليبيين لم يقفوا عند حد الاستيلاء على أنطاكيا وغيرها من المراكز في بلاد الشام، وإنما هدفهم الحقيقي هو الاستيلاء على بيت المقدس. عندها أرسل إليهم الأفضل سفارة وصلتهم قرب طرابلس تحمل الهدايا الثمينة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين، كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمي فحواه السماح للحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج، بشرط ألا يكونوا مسلحين، ولكن

---

1 ـ سعيد عاشور: بحوث ودرسات... ص 172.

2 ـ ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة 491هـ

الصليبيين ردوا على السفارة الفاطمية بكل غطرسة وحماقة أنهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بإذن الله وليس بإذن الخليفة الفاطمي. وكان معنى ذلك بداية الشرارة التي فجرت الصدام المسلح بين الفاطميين والصليبيين.

أدرك الفاطميون غلطتهم ولكن بعد فوات الأوان. يضاف ذلك أن جميع المناطق التي بسطوا سيطرتهم عليها في فلسطين وساحل الشام جنوبي نهر الكلب لم يتركوا فيها قوات كافية لتدعيم نفوذهم والحفاظ عليها باستثناء حامية بيت المقدس وبعض المراكز الساحلية، جميع هذه الأمور مكنت الصليبيون في الوصول إلى الرملة بفلسطين بسهولة، وجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها، فعقدوا فيها مجلساً للحرب في أوائل سنة 507هـ ـ 1099م ناقشوا فيه عدة مسائل أبرزها مهاجمتهم لمصر باعتبارها مركز الثقل في العالم الإسلامي وأن استيلائهم على الدلتا يؤمن لهم الأمن والاستقرار في بيت المقدس.

أمام هذا الواقع لم تتخاذل الخلافة الفاطمية عن محاربة الصليبيين، فأرسلت جيشاً ولكنه وصل عسقلان بعد فوات الأوان، اي بعد أن استولى الصليبيون على بيت المقدس بعشرين يوماً[1].

وفي الوقت الذي كان الأفضل متظراً في عسقلان، بادره الصليبيون بالهجوم على عجل فدارت معركة بين الطرفين في 12 آب سنة 507هـ ـ 1099م حلت الهزيمة فيها بالفاطميين، وشتتت شملهم. أما الوزير الأفضل فقد هرب مع رجاله في البحر قاصدين مصر[2].

إن انتصار الصليبيين في عسقلان قضى على هيبة الفاطميين في بلاد الشام وأخذت المدن الفلسطينية تتساقط الواحدة بعد الأخرى في قبضة الغزاة

---

1 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر... ص 436.

2 ـ المصدر نفسه، ص 464. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 137.

الذين مثلوا أفظع الجرائم بحق أهل أرسوف بعد أن دخلوها حيث قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم دون أية رحمة[3]. ولم تجد جميع النداءات التي وجهها أهالي أرسوف إلى الفاطميين لطلب النجدة، وكل ما فعله الوزير الأفضل إرسال قوة صغيرة من ثلاثمائة جندي ما لبث أن قضي عليها بعد أن وقعت في كمين نصبه الصليبيون في أذار سنة 511هـ - 1100م، عندئذٍ أدرك أهل أرسوف عدم جدوى الحماية الفاطمية فدخلوا في تبعية الصليبيين، وحذا حذوهم حكام عسقلان وقيسارية وعكا متعهدين بدفع جزية كبيرة لهم رمزاً لهذه التبعية. وفي سنة 512هـ - 1101م استولى بلدوين الأول ملك بيت المقدس على أرسوف ثم على قيسارية[4].

ولعل المذابح التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس وأرسوف وعسقلاه دفعت بعض مؤرخي الغرب الحديثين إلى الاعتراف بأن هذه الأعمال المروعة كانت لطخة عار في تاريخ الحملات الصليبية. وإذا كان المسلمون قسوا بتطرف في معاملة الصليبيين - فيما بعد - فإن هذا التطرف في المعاملة لم يكن إلا رد فعل على الجرائم النكراء التي ارتكبوها والتي ظلت ماثلة أمام المسلمين تثير الأسى في قلوبهم حتى تم لهم طرد آخر صليبي من هذه البلاد.

النهوض الفاطمي في وجه الصليبيين

شعر الفاطميون بتخاذلهم فأرسل الأفضل ثلاث حملات كبيرة إلى فلسطين في السنوات 512هـ - 513م - 516هـ (1101م - 1102 - 1105م) وصلت الحملة الفاطمية الأولى بقيادة المملوك سعد الدولة القواس إلى عسقلان

---

1 - Grousset: Hed, der Croisadés 111. p. 182.

2 - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 8، حوادث 496هـ.

وأخذت تنتظر وصول إمدادات جديدة تأتيها من مصر. مما أتاح الفرصة لبلدوين لجمع قواته والهجوم على الفاطميين في السهل الواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الرملة حيث انتصر الصليبيون وقتل من المسلمين عدد كبير كان من بينهم القائد سعد الدولة القواس، في حين تراجع الجيش الفاطمي إلى عسقلان[1].

وصلت أبناء الحملة إلى الوزير الأفضل فاستشاط غضباً وأرسل حملة كبيرة من العرب والسودان قوامها عشرين ألف رجل بقيادة ابنه شرف المعالي وصلت عسقلان في منتصف أيار سنة 513هـ ـ 1102م استطاعت أن تثأر من الصليبيين من الرملة «انهزم الفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة»[2]. فلما رأى بلدوين شدة الأمر وخاف من القتل والأسر ألقى بنفسه في الحشيش واختفى فيه فلما أبعد المسلمون خرج منه إلى الرملة[3]. وهنا تكمن غلطة الفاطميين بتأجيلهم دخول الرملة إلى صباح اليوم التالي مما مكن بلدوين من الفرار ليلاً. استولى الفاطميون على الرملة فأسروا وقتلوا من فيها من الصليبيين[4] ثم تابعوا سيرهم وحاصروا يافا وعندما علم بلدوين بحصار يافا اتجه نحو أرسوف مبتدأ بتجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الجيوش الفاطمية وتمكن بلدوين من دخول يافا عن طريق البحر، لتلتحق به كثير من الامدادات الصليبية. وتشاء الصدف أن تصل ميناء يافا مئتي سفينة تحمل عدداً كبيراً من الجند والحجاج استطاعت أن تشق طريقها مخترقة حصار الأسطول الفاطمي. وفي 27 أيار سنة 513هـ ـ 1103م خرج بلدوين من يافا على رأس قواته مباغتاً القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة وإنزال

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل ج 8، حوادث سنة 496هـ.

2 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8، حوادث سنة 496، ص 218.

3 ـ المصدر نفسه، حوادث سنة 496هـ وانظر

Runicam, A History pf the Crusades vol. 11. p.p. 86 – 77. (*)

4 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8، حوادث سنة 496هـ

فيهم الهزيمة فولت الجيوش الفاطمية الأدبار نحو عسقلان بانتظار وصول نجدة سريعة من الأفضل.

ما أن سمع الأفضل بهزيمة شرف المعالي حتى أرسل حملتين إحداهما برية قوامها أربعة آلاف فارس بقيادة المملوك تاج العجم، والثانية بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس[1].

وفي عسقلان وقع الخلاف بين القائدين حيث رفض تاج العجم مساعدة ابن قادوس مدعياً أنه لا يستطيع مد يد العون دون أمر الأفضل وهذا عذراً أقبح من ذنب، ومنهم من علل رفض تاج العجم بالخيانة، مما اضطر الوزير الأفضل إلى طلب النجدة من شمس الملوك رقاق صاحب دمشق، ولكن رقاق «اعتذر من ذلك ولم يحضر»[2]. وهذا الموقف صور لنا ما آلت إليه العلاقات بين حكام دمشق وحكام مصر حينئذٍ بسبب الخلاف المذهبي. ولا شك أن هذه الصراعات كشفت للصليبيين عن حقيقة الدولة الفاطمية ومدى ضعفها، الأمر الذي حفزهم للاستيلاء على بقية الموانيء الفلسطينية والسورية.

سقوط مدينة عكا

أدرك الفاطميون الأهمية الاستراتيجية للموانئ الشامية كقاعدة أساسية لمحاربة بيت المقدس عن طريق قطع الشريان الذي يربطها بالغرب الأوروبي لمنع وصول الامدادات إليها فبدأوا بتعزيز قواتهم في هذه الموانيء مما لفت انتباه الصليبيين وسارعوا إلى حصار مدينة عكا التي كانت من أحصن موانيء الشام، الأمر الذي جعل بلدوين يرفع الحصار عنها بعد فترة وجيزة لعجزه عن اقتحامها.

---

1 ـ المصدر نفسه، ج 8، حوادث سنة 496هـ وانظر Rumicam. Op. cit. 11. p. 80.

2 ـ ابن الأثير: الكامل ج 8 حوادث سنة 496هـ ـ ص 219.

وفي ربيع سنة 515 ـ 1401 م وصلت إلى الشام عمارة جنويه قوامها عدد كبير من السفن فاستعان بها الملك بلدوين في مهاجمة عكا في أواخر شهر أيار سنة 515 هـ ـ 1401 م، فدارت معركة بين الطرفين، انتهت باستسلام المدينة بالرغم من البسالة التي أبداها المدافعون عنها بقيادة حاكمهم الفاطمي زهر الدولة الجيوشي[1]. وبسقوط عكا خسر الأسطول الفاطمي أهم قواعده بالشام، وأصبحت السيادة على شواطىء فلسطين للصليبيين.

الحملة الفاطمية الثالثة 516 هـ ـ 1105م

في صيف سنة 516هـ ـ 1105م جهز الأفضل في عسقلان جيشاً كبيراً بلغ خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان وفرسان العرب بقيادة ولده سناء الملك حسين[2]. في الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمي لمساندته من البحر وصاحب هذا الاستعداد طلب الأفضل المساعدة من سلاجقة دمشق السينيين، فاستجاب طغتكين للنداء الفاطمي وأرسل أحد رجاله أصبهد صباوا ومعه ألف وثلاثمائة فارس، وربما كانت هذه أول عملية يشترك فيها المسلمون في مصر والشام ضد الصليبيين[3].

وصلت هذه الأنباء إلى الملك بلدوين فترك يافا وخرج على رأس جيشه إلى الرملة يرافقه الدمار بطريق بيت المقدس، وفي 27 آب 615هـ ـ 1105م بدأت معركة حامية بين المسلمين والصليبيين انتهت بانتصار الصليبيين وتراجع

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة 497هـ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 5، ص 188.
وانظر فيليب حتي: تاريخ لبنان وسوريا، ج 2 ص 230 Runciman, Altitory
2 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8، حوادث سنة 498هـ ص 228 ـ 229.
3 ـ المصدر نفسه، حوادث سنة 499هـ

القوات الفاطمية والدمشقية مع سقوط عدد من أمراء الجيش في ساحة المعركة من بينهم جمال الدين أمير عسقلان وقائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا[1]. أما الأسطول الفاطمي فقد عاد إلى قواعده في صور وصيدا وطرابلس لكنه تعرض أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه إلى الموانىء الصليبية فتم أسرها[2].

ويبدو أن حملة الفاطميين سنة 516هـ ـ 1105م كانت آخر محاولة كبرى قاموا بها ضد الصليبيين وإن ظلوا يهددونهم بين حين وآخر. مما دفع بلدوين إلى تأمين حدود المملكة الصليبية. محاولاً السيطرة على المنطقة الجنوبية في وادي عربة، وبالفعل تمكن من إخضاع جميع الأراضي التي تمتد من جنوب البحر الميت إلى ميناء إيلات على خليج العقبة، وأمر ببناء حصن الشوبك بهدف سيطرته على هذه البلاد من ناحية، وعزل مصر عن بقية العالم الإسلامي من ناحية أخرى تمهيداً لمحاصرتها والسيطرة عليها[3].

وفي سنة 529هـ ـ 1120م تمكن بلدوين من الوصول إيلات على ساحل خليج العقبة حيث بنى قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام، كما شيد قلعة في جزيرة فرعون قبالة خليج العقبة، وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة، وأصبح باستطاعتهم مهاجمة الفاطميين في عقر دارهم. وفي آذار سنة 531هـ ـ 1122م خرج بلدوين على رأس حملة غير كبيرة باتجاه رفح واستولى عليه بغتة، ثم تقدم بإتجاه مدينة الفرما وقتل جميع من فيها وأحرق مساجدها[4]: ثم سار إلى تنيس وأحرقها، وتابع سيره

---

1 ـ Runciman: Ahistory... op. cit. 11. p. 89 – 90.

2 ـ Ibid. 11. p. 90 -91 – 92.

3 ـ Ibid. 11. p. 89 – 90.

4 ـ أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة، ج 9، 171.

حتى وصل إلى مصب نهر النيل. ولكنه لم يستطع أن يتوغل في الأراضي المصرية أكثر من ذلك[1].

ما إن وصلت أخبار العدوان الصليبي وأعماله التخريبية إلى الوزير الأفضل الفاطمي حتى أرسل العساكر إلى والي الشرقية يطلب منه أن يتقدم بنفسه ومعه العربان على رأس هذه القوات للتصدي للصليبيين، ولكن بلدوين ما ان علم بالأمر حتى أمر جنوده بالرحيل فوراً[2].

الأسطول الفاطمي يدعم الثغور الشامية

أولاً ـ بلدوين الأول ومدينة صيدا

في سنة 517هـ ـ 1106 هاجم بلدوين مدينة صيدا. إلا أن هذا الهجوم لم يسفر عن اي نصر ميداني. بل أسفر عن نصر معنوي بإعلان حاكم المدينة خضوعه وتعهده بدفع مبلغ كبير من المال. لكن هذا الخضوع لم يشبع نهم الملك الصليبي الذي اغتنم وصول السفن الإيطالية إلى الشواطىء الفلسطينية في آب سنة 509عـ ـ 1108م وحاصر صيدا براً وبحراً. لكن الأسطول الفاطمي الذي كان له بالمرصاد استطاع أن ينزل الهزيمة بالسفن الايطالية[3]. وصاحب هذا الانتصار طلب حاكم صيدا من والي دمشق طغتكين إمداده بقوة برية تساعده على دحر الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال، فلبى طغتكين النداء وأرسل جيشاً قدر بخمسة عشر الف مقاتل. وبفضل هذا التعاون تقهقرت

---

1 ـ ابن الأثير ـ الكامل، حوادث سنة 512هـ

2 ـ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 171.

3 ـ عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الاسلامية، ص 160، وفيليب حتي: مختصر تاريخ لبنان ص 131.

القوات الصليبية منسحبة إلى عكا[1]. لكن حاكم صيدا بعد فك الحصار عن مدينته امتنع عن دفع ما تعهد به لطغتكين، ورفض دخول الجيش الدمشقي إلى المدينة خوفاً من الاستيلاء عليه، عندئذٍ هدد طغتكين باستدعاء الصليبيين لمهاجمة صيدا، فرضخ حاكمها ودفع ما يقرب من ثلث المبلغ المتفق عليه[2].

ثانياً ـ تأخر الأسطول الفاطمي وسقوط طرابلس

حاصر الصليبيون مدينة طرابلس أكثر من ستين دون جدوى. ولما أدرك وليم جوردن صعوبة احتلالها بدأ بتضيق الخناق عليها من البر والبحر، فاضطر حاكمها فخر الملك بن عمار اللجوء إلى بغداد في ربيع سنة 519هـ ـ 1108م لطلب النجدة من الخليفة العباسي وسلطان السلاجقة[3]. ولكن شدة الحصار دفعت أهالي طرابلس إلى طلب النجدة من الوزير الأفضل الفاطمي، ويعرضون عليه تسليم المدينة له فاستجاب الوزير الأفضل للنداء وأرسل إليهم شرف الدولة بن ابي الطيب والياً ومعه المؤن، فلما وصل طرابلس ألقى القبض على جماعة ابن عمار وأصحابه واستولى على ما وجده من الأمتعة والذخائر، وأرسل الجميع إلى مصر في البحر وأعلن عودة طرابلس تحت الراية الفاطمية[4]. لكن الفاطميين كانوا أضعف من أن يحموا المدينة من السقوط في أيدي الصليبيين الذين أحكموا الحصار عليها بالاضافة إلى تأخر النجدات الفاطمية السريعة، إلى جانب الخلافات التي نشبت بين قادة الأسطول الفاطمي لتعرقل سيره ولتسهم في سوء أحوال أهل

---

1 ـ ابن قلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 162، وسعيد عاشور: بحوث ودراسات، ص 183.

2 ـ المصدر نفسه، ص 162.

3 ـ المصدر نفسه، 165، وعبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 124.

4 ـ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ص 536.

طرابلس الذين اضطروا إلى الإستسلام[1].

وأخيراً أبحرت العمارة الفاطمية لتصل طرابلس بعد فوات الأوان فتعود من حيث أتت[2].

ومهما يكن من أمر الموقف الفاطمي فإن الصليبيين دخلوا طرابلس في تموز سنة 520هـ ـ 1109م، وسمحوا للقائد الفاطمي بالخروج سالماً مع رجاله[3].

ثالثاً ـ الأسطول الفاطمي يدعم صمود بيروت

بعد سقوط طرابلس اتجه بلدوين لمهاجمة بيروت بعنف سنة 521هـ ـ 1110م، لكن استبسال أهلها في الدفاع عنها جعل الحصار الصليبي يستمر بضعة أشهر. تمكن خلالها الفاطمين من ارسال النجدات، فوصلت السفن الفاطمية إلى بيروت واشتبكت مع مراكب الصليبيين وتغلبت عليها واستولت على قسم منها فارتفعت معنويات أهل بيروت وقويت عزائمهم، وبدأوا بشن الهجمات الشديدة على القوات الصليبية المحاصرة، فاستنجد بلدوين بالأسطول الجنوي الذي لبى النداء وقدم أربعين مركباً مشحونة بالرجال والمنجنيق أمطرت مدينة بيروت بوابل من الحجارة المدمرة، وعلى الرغم من استبسال أهل بيروت وبطولتهم النادرة إلا أن شدة الضربات الصليبية وفرار حاكم المدينة ليلاً إلى قبرص اضطروا إلى الاستسلام للصليبيين الذين دخلوا المدينة وأحدثوا مذبحة رهيبة بين السكان[4].

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8، حوادث سنة 503هـ ص 259.

2 ـ المصدر نفسه، ص 259.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 179، وعبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية ص 121.

4 ـ عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية ص 115 ـ 116.

رابعاً ـ سقوط صيدا

بعد سقوط بيروت بوقت قصير، استغل بلدوين وصول قوة من الفرنجة النروجين إلى عكا[1]، وحاول الاستيلاء على صيدا، فحاصرها من البر والبحر، وكان بوسع صيدا أن تهزم هذا الحشد الصليبي لو تلقت مساعدة الأسطول الفاطمي المرابط في مدينة صور. لكن قائد الأسطول الذي هاله فخامة الحشود الصليبية ارتأى عدم المشاركة في الدفاع خوفاً على أسطوله من التدمير، أدرك قاضي المدينة وشيوخها أنه لا أمل في النجاة إلا بالتسليم، فسلموا المدينة للملك بلدوين في كانون أول سنة 521هـ ـ 110م[2].

خامساً ـ بلدوين وعسقلان

أخافت الفظائع التي ارتكبها الصليبيون في طرابلس وبيروت وصيدا حاكم مدينة عسقلان فأرسل إلى بلدوين طالباً عقد اتفاقية بين الطرفين، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين[3]. وما إن وصلت هذه الأخبار إلى الوزير الأفضل حتى استنشاط غضباً، وذلك لأهمية عسقلان الاستراتيجية، فهي مفتاح فلسطين بالنسبة للفاطميين، ومفتاح مصر بالنسبة للعدو الصليبي، لذلك أرسل الأفضل حملة إلى عسقلان بحجة محاربة الصليبيين وأعطى تعليمات سرية لقائد الحملة بعزل حاكم عسقلان شمس الخلافة وتولي السلطة مكانه، لكن شمس الخلافة أوجس خيفة من الحملة فرفض أن يفتح أبواب مدينته، كما رفض مقابلة قائد الحملة، فعادت أدراجها إلى القاهرة[4]. بعد ذلك بدأ شمس الخلافة يعمل

---

1 ـ ابن القلانس، ذيل تاريخ دمشق، ص 167 ـ 168.

2 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8 سنة 504هـ ص 360. وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 171.

3 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8، سنة 504هـ ص 360.

4 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 172.

على توسيع سلطانه وقطع أية صلة له مع الدولة الفاطمية، «فأحضر جماعة من الأرمن، واتخذهم جنداً»، الأمر الذي اساء إلى شعور أهل عسقلان، فثاروا عليه وقتلوه ونهبوا داره سنة 522 هـ ـ 111م، ولم يتردد الأفضل عن ارسال حامية على الفور لإعادة الأمور إلى نصابها وعودة السيادة الفاطمية على عسقلان[1].

سادساً ـ الأسطول الفاطمي يساند صور في وجه الصليبيين

بدأ بلدوين في حصار صور بعد سقوط صيدا مباشرة، لكن صور وقفت أمام الصليبيين ببطولة ومقاومة ضارية، إلا أن غارات الصليبيين المتواصلة وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم، دفعت أهل صور إلى طلب حماية طغتكين أتابك دمشق[2]. فاستجاب طغتكين لطلبهم وأرسل والي بانياس سيف الدين مسعود فصور على رأس حملة محملة بالمؤن والأموال فارتاحت نفوس أهل صور وزادوا طمأنينة[3].

وفي تشرين الثاني سنة 522 هـ ـ 111م استغل بلدوين وصول بعض السفن البيزنطية أمام صور فحاصر المدينة مجدداً، لكن بسالة أهل صور، فضلاً عن موقف طغتكين الشجاع، إذ قام بقطع الجسر الذي يربط ين صيدا وصور، إلى جانب إحراق عشرين مركباً للصليبيين كانت ترسوا في مياه صيدا، كما أرسل الكتب إلى أهالي صور يدعوهم فيها إلى الثبات والصمود في قتالهم، إزاء هذه الأمور مجتمعة اضطر الصليبيون إلى التراجع وفك الحصار في نيسان سنة 523هـ ـ 112م[4].

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8 أحداث سنة 504هـ ص 361.

2 ـ عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الفاطمية، ص 483 ـ 484.

3 ـ سعيد عاشور: بحوث ودراسات... ص 187.

4 ـ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج 2، مجلد 3، ص 268.

لكن خوف أهل صور من عودة الصليبيين إلى محاصرتهم اتفقوا مع والي المدينة الفاطمي عز الملك أنوشتكين على تسليم المدينة إلى ظهر الدين ضغتكين لقاء ما أسداه لهم من جهود في الدفاع وما قدمه من مؤن وأموال: قبل حاكم دمشق طلب أهل صور وتسلم المدينة، لكنه بقي محتفظاً بالإدارة الفاطمية وتبعية صور للفاطميين، وأرسل كتاباً إلى الأفضل في مصر مبرراً له تصرفه وقال له: «بأنه على أتم الاستعداد لإجلاء قواته وإخراج نوابه عنها متى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها والذود عنها وحمايتها...»[1].

رد الأفضل على كتاب طغتكين معبراً له عن شكره وامتنانه طالباً منه أن يتولى القيادة العامة في المدينة قائد من قبل طغتكين[2]. ثم شرع في تجهيز الأسطول المصري وشحنه بالأموال اللازمة والمواد التموينية التي يحتاجها الجند والأهالي.

وصل الأسطول الفاطمي إلى صور سنة 524هـ ـ 113 م فاستقبله الأهالي بمنتهى السرور والطمأنينة. وأمام استقرار الحال في المدينة اضطر بلدوين إلى طلب الصلح من والي المدينة مسعود فعقدت هدنة بين الجانبين الإسلامي والصليبي. تحسنت على أثرها أحوال صور، ووفد عليها التجار من جميع الأقطار[2].

والحق أن الوزير الأفضل كان وراء صمود صور فترة أطول أمام الصليبيين لما قدمه من العون والمدد في أقصى الظروف، إلا أن اغتياله في ليلة عيد الفطر سنة 532هـ ـ 1021م عجل في نهاية صور لأن خلفه المأمون البطائحي عمل جاهداً على إزالة نفوذ السلاجقة من صور والإحاطة بالوالي مسعود رمز هذا النفوذ ووجوده، فأرسل في سنة 533هـ ـ 1122م أسطولاً إلى صور قبض

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 182، وعبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الفاطمية، ص 17. وانظر سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 251 ـ 252.

2 ـ المقريزي المواعظ، ج 1، ص 340 وما بعدها...

على مسعود وأحضره إلى القاهرة[1].

استغل الصليبيون أوضاع صور المتردية، والخلاف بين دمشق والقاهرة وشرعوا باحكام الحصار على المدينة لإستسلامها[2].

أدرك والي صور عجزه عن الدفاع فأرسل إلى الآمر الفاطمي يخبره بالأمر، فأحالهم الخليفة إلى طغتكين «قد رددنا أمرها إلى طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها»[3]. وهكذا عادت صور مجدداً إلى صاحب دمشق.

وفي أيار سنة 534هـ ـ 1123م وصل الأسطول الصليبي الذي أعدته البندقية إلى الشام وعلى متنه خمسة عشر ألف جندي، واتجه إلى عسقلان حيث دمر الأسطول الفاطمي[4]. مما أعطى الفرصة للصليبيين لتشديد حصارهم على مدينة صور التي لم تستطع الصمود رغم حصانتها، فاضطرت إلى التسليم في أوائل تموز سنة 533هـ ـ 1122م بعد أن أشرف أهلها على الهلاك[5].

سياسة الخلافة الفاطمية المسالمة للصليبيين

استشاط الفاطميون غضباء بعد سقوطها مدينة صور، متهمين الخليفة الآمر بتخاذله في تقديم المساعدة، ومطالبين الخلافة الفاطمية باتخاذ سياسة إيجابية في محاربة الصليبيين، وزاد الأمر سوءاً أن عزل الخليفة الآمر وزيره ابن البطائحي واستعان بمستشارين غير مسلمين مثل بهرام الأرمني[6]. فكان من الطبيعي أن

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8، أحداث سنة 508هـ ص 315 وعبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الاسلامية، ص 119.

2 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 8، أحداث سنة 518هـ ص 316 ـ 318.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 182 ـ 183.

4 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 204.

5 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ج 8، ص 75 ـ 81.

6 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 13، ص 369.

يميل هؤلاء المستشارون إلى مسالمة الصليبيين، وقوي هذا الإتجاه بعد اغتيال الآمر وتوليه ابن عمه الحافظ الذي كان من أشد المتحمسين لوقف الحرب مع الصليبيين[*].

إن سياسة الخلافة الفاطمية المسالمة لم يرض بها المتحمسون للجهاد فجمعوا صفوفهم بزعامة رضوان بن الولخشي وأطلقوا سراح أحمد بن الوزير الأفضل وعينوه وزيراً، فسار على سياسة والده وأخذت الجيوش الفاطمية في عسقلان بالإغارة على الصليبيين في منطقة يافا، حتى وصلوا إلى مشارف أرسوف[1]. لكن الوزير أحمد ما لبث أن اغتيل فعين الحافظ بهرام الأرمني مكانه الذي أخذ يشجع سياسة المسالمة مع الصليبيين في الشام وخارجها، فقامت ثورة بزعامة رضوان الولخشي أجبرت بهرام على الفرار وتولية الولخشي مكانه[2]. لكن الخليفة الحافظ رفض سياسة الوزير رضوان تجاه الصليبيين وتصدى له مما اضطر رضوان إلى الهرب واللجوء إلى الأتابكي عماد الدين زنكي في الموصل ليستعين به على محاربة الصليبيين[3]. إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل ودخلت الدولة الفاطمية في مرحلة ركود.

سقوط عسقلان

استغل الصليبيون ضعف الخلافة الفاطمية، وسعوا للإستيلاء على عسقلان آخر القواعد الفاطمية في فلسطين، بدأ بلدوين الثالث ملك بيت المقدس في أواخر

(*) «اتهم الحافظ هو من دبر اغتيال الوزير الأفضل لعدائه للصليبيين» ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 204.

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 204 وابن ميسر: تاريخ مصر، ج 2 ص 75.

2 ـ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج 7، ص 17.

3 ـ ابن الأثر: التاريخ الباهر، ص 37 ـ 38.

سنة 560هـ ـ 1149م وأوائل سنة 561هـ ـ 1150م بإعادة تحصين غزة، هادماً أسوارها القديمة وبانياً على أنقاضها سوراً جديداً مشيداً بها قلعة قوية عهد بحراستها إلى الداوية(*). كما سعى إلى تأمين ظهر مملكة بيت المقدس من جانب دمشق، فعقد اتفاقاً مع حكام دمشق ضد نور الدين زنكي الذي كان يسعى لتحقيق جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين(1).

وهكذا استفاد بلدوين من الصراع السائد في العالم الإسلامي فاسحاً المجال أمام الصليبيين لتوجيه جهودهم كلها ضد الفاطميين في عسقلان(2).

وفي أواخر كانون الثاني 561هـ ـ 1150م شرع بلدوين في حصار عسقلان الذي استمر بضعة أشهر، حاول الفاطميون خلالها مد يد العون فأرسلوا أسطولاً كبيراً محملاً بالسلاح والمؤن استطاع أن يخترق الأساطيل الصليبية المحاصرة ويدخل إلى المدينة كان وصول هذه النجدة لحامية عسقلان حافزاً لها على مواصلة المقاومة بشجاعة نادرة وصبر عظيم، ولكن أمام طول مدة الحصار وازدياد الهجمات الصليبية، لم تجد حامية عسقلان بداً من الاستسلام فسقطت المدينة ودخلها الصليبيون في التاسع عشر من آب سنة 564هـ ـ 1153م ليحولوا جامعها الكبير إلى كنيسة تحمل اسم القديس بولس(3).

(*) الداوية: جمعية عسكرية رهبانية تأسست سنة 1118، اشتهر أعضاؤها أيام الحروب الصليبية في فلسطين، الغاهم البابا لكيمنصو الخامس سنة 1312.

ـ لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم... ص 189 و 560.

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 309 وأبو شامة: كتاب الروضتين، ص 70.

وانظر: Grousset: Hist, de Craoisades. T. 2, pp. 342, 351.

2 ـ تاريخ اسامة بن منقذ، ص 13 ـ 14.

3 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 321، وأبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 90.

وانظر سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصر الوسطي، ص 200 ـ 201.

وبسقوط عسقلان يكون الصليبيون قد أتموا سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين برمته من اسكندرونه في الشمال حتى غزة في الجنوب. وخسر الفاطميين أهم قاعدة بحرية استخدموها في مهاجمة الاحتلال الصليبي لفلسطين، ولم يعد بامكانهم القيام بأي عمل حربي ضد هذا العدو الغاصب(١).

---

1 - Runciman Ahistory, op. cit. 11 p. 340.

الفصل الخامس

النظم السياسية والإدارية
في العصر الفاطمي

أولاً ـ الخلافة

لقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة عند الساسانيين في بلاد الفرس قبولاً عند الخلفاء الفاطميين، وأصبح الإمام في نظر العامة ظل الله على الأرض، كما أصبح شخصاً مقدساً، وفي كثير من الأحيان تعرض الناس للموت إذا أظهروا سخطاً أو تذمراً أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه، لأنها صادرة عن الله الذي أملاها على الإمام المعلم أو بمعنى أوضح تلقى علمه من الله عن طريق الوحي.

وقد انتشرت فكرة تقديس الخليفة الفاطمي في جميع أرجاء المغرب حتى أصبحت قبلة ايمان أهل أفريقية فقالوا: «وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة»[1].

وكان الخلفاء الفاطميون يرون في تقديس الناس لهم إعلاء شأنهم واعتبروا أنفسهم هداة لهم، فلقبوا انفسهم بألقاب كثيرة منها: الخليفة أو العلوي أو أمير المؤمنين. إلا أن أفضل الألقاب المحببة إليهم لقب إمام وصاحب الزمان

---

1 ـ ديوان ابن هانيء... ص 96.

والسلطان والشريف القاضي[1].

أخذ الفاطميون منذ قيام دولتهم بمبدأ نظام الوراثة الذي ينص على أن الإمامة يجب أن تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق التعين بالنص، لكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج عليه. فعهدا الخليفة الحاكم بأمر الله بالخلافة من بعده لابن عمه عبد الرحيم بن الياس، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه أبا الحسن الذي لقب بالظاهر، كذلك خولف هذا النظام بعد وفاة الخليفة الآمر حين ولي الخلافة بعده عمه الحافظ، كما أنه بعد وفاة الفائز ولي الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله[2].

وكان الخليفة الفاطمي يعين ولي عهده قبل وفاته ولهذه الطريقة ميزاتها إذا كان ولي العهد كبير السن واسع التجربة كفؤاً لتولي ذلك المنصب. فالمعز كان قبل توليته الخلافة ماهراً في الحرب حاذقاً في السياسة. كما أثبت العزيز جدارته في قيادة الجيوش وإدارة الدولة في حياة أبيه وبعدها. أما الخلفاء الذين كانت تنقصهم التجارب والكفاءة أثاروا المتاعب في وجه الدولة وكانوا من عوامل ضعفها فيما بعد قتل الظاهر والمستنصر[3].

لم يكن يحق للخليفة الفاطمي أن يعهد بالإمامة من بعده لأكثر من واحد بعكس الأمويين والعباسيين الذين كانوا يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد، مما أدى إلى قيام المنافسة بين افراد البيت، وكان من أسباب انهيار الدولتين في النهاية.

---

1 ـ الحمادي: كشف أسرار الباطنية... ص 19 وابن النديم الفهرست... 265.

وابن خلدون: المقدمة، ص 21، وابن الأثير: الكامل... ج 8، ص 8 و 9.

2 ـ مجموعة الوثائق الفاطمية ص

3 ـ إن عدم تعيين الخليفة لو كي عهده في حياته يؤدي إلى وجود فترة انتقالية قد يخلو العالم فيها من إمام وهذا ما ترفضه العقيدة الفاطمية.

ثانياً ـ الوزارة:

إن أهم ما يميز العصر الفاطمي انقسامه إلى مرحلتين

أ ـ مرحلة السلطة والقوة امتدت من سنة (358هـ ـ 971م) حتى سنة (464هـ ـ 1075م)

ب ـ مرحلة الضعف والتدهور امتدت من سنة (466هـ ـ 1076م) حتى سنة (567هـ ـ 1174م).

الوزارة في العصر الفاطمي الأول

كانت الوزارة في هذا العصر وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا على جانب كبير من القوة بحيث استأثروا بإدارة شؤون البلاد[1]. وكان اختيار الوزراء يتم من بين الذين توافرت عنده الكفاية اللازمة لهذا المنصب حتى ولو اضطروا إلى تولية شخص من غير ملتهم[2].

ومن وزراء هذا العصر: جعفر بن الفرات السني ويعقوب بن كلس اليهودي (اعتنق المذهب الشيعي الاسماعيلي)، وعيسى بن نسطورس النصراني.

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي الأول أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح، وأبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، أبو منصور صنعة بن يوسف الفلاني[3].

والخلاصة أن سلطة الوزير في هذا العصر كانت محدودة، إذا كان بقاؤه في مركزه يتوقف على رضا الخليفة وكسب ثقته.

---

1 ـ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ص 92، 93.

2 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص 167 ـ 168 وص 180.

وانظر أبو شجاع: ذيل كتاب الأمم لمسكويه، ج 3، ص 27.

3 ـ ابن منجب الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص 21 ـ 22 و 27 و 38، 39.

الوزارة في العصر الفاطمي الثاني

أصبحت الوزارة في هذا العصر وزارة تفويض بعد أن تقلدها أرباب السيف والقلم، وأصبح الخلفاء في حماية الوزراء الذين استفحلت قوتهم وازدادت ثروتهم، وأصبح في أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم. ومن وزراء هذا العصر أبو علي الحسن بن أبي سعيد بن سهل التستري وأصله يهودي ثم أسلم[1]. وأبى منصور بن أبي اليمن، وكان نصرانياً[2]. والوزير بدر الجمالي الذي كان والياً على عكا، واستدعاه المستنصر لينقذ عرش الخلافة بعد أن اشتدت الفتن والحروب الأهلية[3]. ثم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الذي اصبح في قبضة يده موارد الدولة الواسعة ونقل الدواوين إلى داره. والوزير رضوان الولخشي ثم طلائع بن زريك ،وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير في العصر الفاطمي الثاني أن أضاف إلى القابه ألقاباً تدل على قوته مثل أمير الجيوش الناصر للدين، غياث المسلمين، قاضي القضاة ـ حتى أضيف إليها لقب ملك[4].

النظام الإداري

أولاً ـ الولاة

كانت سلطة الدولة الفاطمية على ولاياتها التي شملت بلاد المغرب ومصر ووالشام والفلسطين وبلاد الحجاز واليمن متفاوتة بين ولاية وأخرى. فبعضها كان يدين بالتبعية المطلقة مثل الشام وفلسطين حين كانوا يولون عليها

---

1 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 32.

2 ـ المصدر نفسه، ص 33.

3 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص ٤٤. وانظر ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 13 ـ 22 ـ 34.

4 ـ المصدر نفسه ج 2 ص 305.

العمال ويجبيون الضرائب، وكثيراً ما كان أهل البلاد يشعلون نار الفتنة للخروج على الخلفاء الفاطميين[1].

وثمة ولايات كانت تتمتع بنصب وافر من الاستقلال الذاتي مع التبعية الإسمية للخليفة الفاطمي التي تتمثل في ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة. ومن هذه الولايات إفريقية، صقلية، الحجاز واليمن[2].

أما مصر وهي قاعدة الدولة الفاطمية فكانت مقسمة إلى أربع ولايات كبيرة وهي: أ ـ ولاية قوص وكانت أعظم ولايات مصر وهي تشمل جميع بلاد الصعيد وإقليم الأشمونين.

ب ـ ولاية الشرقية وتشمل الأراضي الواقعة شرق فرع دمياط.

ج ـ ولاية الغربية وتشمل البلاد الواقعة بين فرعي رشيد ودمياط.

د ـ ولاية الاسكندرية ويضاف إليها إقليم البحيرة[3].

وكان كل والي من ولاة هذه الأقاليم له الحرية في تعيين العمال على جميع المدن والقرى الداخلة في نطاق ولايته، كما لهم حق العناية بمرافقة إقليمهم دون الرجوع إلى الحكومة الفاطمية[4].

وكان على القاهرة وال، كما تولى على الفسطاط وال آخر، وتمتع كل منهما بمركز ممتاز عند الخليفة، غير أن مرتبة والي القاهرة كانت أعلى من مرتبة والي الفسطاط[5] وقد ذكر ابن الأثير الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يرشح لولاية

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 164.

2 ـ زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج 1، ص 107 ـ 183.

3 ـ القلقشندي. صبح الأعشى، ج 8، ص 497 ـ 498.

4 ـ د. إبراهيم حسن وطه شرف: المعز لدين الله، إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة 1928، ص 160 ـ 161.

5 ـ ابن مماتي: كتاب قوانين الدواوين، نر عزيز سوريال عطية، القاهرة 1943 ص

الأقاليم: الحزم ـ الشجاعة ـ الاحسان إلى صالح الأعوان ـ الاستعداد للحوادث ـ الحكم بالسوية بين القوي والضعيف ـ علم يمنعه من التهور والتغرير في الأشياء[3].

ثانياً ـ الدواوين

كان يشرف على شؤون الإدارة في العصر الفاطمي عدة دواوين، على رأس كل منها موظف كبير، نذكر من بينها: ديوان الإنشاء، ديوان المالية، ديوان الأحباس «الأوقاف» ديوان الرواتب، ديوان الشام وديوان الحجاز، ديوان الخليفة الخاص. وكانت الدواوين الرئيسية تنقسم بدورها إلى عدة دواوين يختص كل منها بعمل معين، فمثلاً ديوان الجيش يختص بشؤون الأجناد وخيولهم، ديوان الكسوة والطراز...[4]. وكان ديوان الانشاء أهم دواوين الإدارة، وهو يلي الوزارة في الأهمية وكان صاحب هذا الديوان يطلق عليه صاحب الدست الشريف لكتابته على الدست ويتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً ـ ويلي صاحب الانشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذي يوقع على المظالم ومجالس الخليفة، وكان يتقاضى مائة دينار كل شهر، ثم صاحب القلم الجليل ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على الخليفة[5]. وقد حرص الفاطميون على أن يكون موظفوا الإدارة من ذوي الخبرة، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية، وتمتع الموظفون في هذا العصر بالعيش الرغيد بفضل

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 7، ص 66.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3، ص 495، ابن ميسر، تاريخ مصر ص 54، وابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص 55 ـ 59.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3 ص 490 و 491 ـ 492.

الرواتب التي كانو يتقاضونها[1]. ولما كان الأقباط والنصارى الملكيين على دراية واسعة بالأعمال الكتابية والحسابية، فقد عينوا في كافة فروع الإدارة، وتدرجوا في المناصب حتى أسندت إليهم الوزارة، ولكن هذه السياسة التي حازت القبول من الوجهة العلمية، إلا أنها أشعلت الكراهية في نفوس المسلمين[2].

ثالثاً ـ البريد

اهتم الفاطميون بالبريد اهتماماً كبيراً، وصار أصحابه يعرفون في أيامهم بأصحاب الأخبار، وكان في بعض الأحيان يتولى صاحب الإنشاء إدارة البريد. وقد اعتمد الفاطميون على حمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل مما ساعد على سرعة ورود الأخبار من كافة الولايات[3]. وبذلك لم يعد يخفى عليهم شيء من أمور دولتهم.

رابعاً ـ الشرطة

اهتم الفاطميون بالشرطة، ومهمتها حفظ النظام واستتاب الأمن، ويتولى صاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاة. وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشرطة يعاونهم بعض الجند.

قسمت الشرطة في مصر إلى قسمين الشرطة العليا في القاهرة والشرطة السفلى في مصر (الفسطاط والعسكر). وكان أشهر من تولى رئاسة الشرطة كان

---

1 ـ ابن ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ج 1، ص 95 ـ 96 ـ 103.

2 ـ المقريزي: خطط... ج 2، ص 31، وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 52.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى: ج 14، ص 391.

جبر وعروية بن ابراهيم وشبل المعرضي[1].

خامساً ـ النظام المالي

لم يحدث الفاطميون اي تغيير على النظام المالي الذي كان سائداً في مصر منذ العهد العباسي فكان مال الضرائب ينقسم إلى قسمين: خراجي وهلالي. بلغ خراج مصر في السنة الأولى من ولاية جوهر ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار[2]. ولما جاء المعز لدين الله الفاطمي مصر في أواخر سنة 362هـ ـ 975م، أمر يعقوب بن كلس وعلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب. فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة الرشيدة[3].

سادساً النظام الحربي

أ ـ الجيش:

وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوي يحمي دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم في أراض الدولة الإسلامية، فكونوا جيشهم من عدة أجناس لم يكن بعضها معروفاً في مصر، فاعتمد المعز بعد أن استقرت له الأمور في مصر على المغاربة بشكل أساسي[*] ولما ولي العزيز استخدم الأتراك والديلم، وفي عهد الحاكم ظهر عنصر السودان الذي تضاعف عدده في عهد الخليفة المستنصر حتى

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص 95.

2 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 99.

3 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 46.

(*) كان المغاربة يشملون عدة طوائف من البربر: الكتامية، الزنانية، المصادقة، الحورية...

ـ المقريزي: خطط... ج 2، ص 8، وابن ماجد: نظم الفاطميين... ج 1، ص 195.

زاد عن الخمسين ألفاً، بالاضافة إلى العناصر الأرمنية التي وفدت إلى مصر. ففي عهد الوزير بدر الجمالي حضر قسم منهم من بلاد الشام، وأثناء توليه بهرام الأرمني الوزارة استقدم عدد كبير منهم من تل باشر وأرمينة، حتى بلغ عددهم أكثر من ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير[1]. كذلك جاء الأكراد إلى مصر مع أسد الدين شيركوهه وصلاح الدين الأيوبي[2]. وقد أدى تعدد العناصر في الجيش إلى قيام صراع حاد بين طوائف الجند وهذا ما حدث في عهد المستنصر من خلاف بين طائفتي الأتراك والسودانيين كان له أسوأ الأثر في حالة مصر الداخلية[3].

وبالإضافة إلى طوائف الجند كان الأمراء وهم القادة، ويتميز الأمراء بعضهم عن بعض بعلامات في الأعياد والمواكب الرسمية، فالأمراء الكبار يحملون حول أعناقهم أطواق الذهب ويقود كل منهم ألف جندي، أما البعض الآخر يعرفون بأصحاب القصب الفضية: ويقود كل منهم مائة جندي[4].

وقد اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة، فأنزل جوهر الصقلي العساكر المغاربة في أماكن بالقاهرة عرفت بالحارات، وبها دكاكين، وأسواق لمنعهم من مضايقة سكان القاهرة وكان الفاطميون لا يألون جهداً في سبيل تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج من أسلحة: سيوف، رماح، خود أقواس ـ وما شابه ذلك[5]. وقد برع الجند الفاطمي في استخدام الرماح والسيوف والمنجانيق، كما زود الجيش بفرقة من النفاطين الذين يقومون بإعداد القوارير المملوءة بالنفط ورميها على

---

1 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 71، 79، 80.
2 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 11، ص 120 ـ 121 ـ 126 ـ 136.
3 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، 46.
4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 480.
5 ـ المصدر نفسه، ج 3، ص 482. وانظر المقريزي: خطط، ج 1، 417 ـ 420.

الأعداء لتمنع تقدمها[1].

ب ـ البحرية

أمام هجمات البيزنطيين المتكررة لبلاد الشام التي كانت تابعة لمصر، واستيلائهم على بعض المدن مثل انطاكيا وحلب، وجد الفاطميون أنفسهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوي[2]. فأنشأ المعز الفاطمي مركزاً لإنشاء السفن الحربية في مدينة مصر (الفسطاط والعسكر)، وجزيرة الروضة، والإسكندرية ودمياط والمقس.

وقد احتكر الفاطميون أجود أنواع الخشب لبناء السفن الحربية من مناطق الغابات المزروعة في الوجه القبلي، كما عمدوا إلى استيراد الخشب من بلاد الشام «أرز لبنان» ومن تجار البندقية، وكثيراً ما تدخل الأباطرة البيزنطيين لمنع المدن الايطالية من تزويد مصر بما تحتاج إليه من هذه المادة[3].

كان الأسطول الفاطمي يتألف من أنواع عديدة من السفن الحربية منها:
الشواني امتازت بأبراج الدفاع والهجوم واحتوت على اهراءات لخزن القمح والماء[4].
الحراريق وهي المراكب الحربية المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط والسهام[5].
ثم الطرائد لنقل الخيول، والشلنديات لحمل العتاد والجند، والحمالات تستخدم

---

1 ـ المقريزي: خطط، ج 2، ص 3.
2 ـ الجوذري: سيرة الأستاذ جوذر، ص 97، 102، 103.
3 ـ Heyd: Hid. Du Commerce de leyant au moyen age. T. 108, 114, 392.
4 ـ المقريزي: خطط... ج 2، 428.
5 ـ ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم، ج 1، ص 221.

في حمل الذخيرة[1].

وكان من اهتمام الفاطميون بقواتهم البرية والبحرية، الإحتفال بتوديعها عند رحيلها لمحاربة الأعداد واستقبالهم عند عودتهم مظفرين[2].

سابعاً ـ النظام القضائي

احتل القاضي في الدولة الإسلامية مركزاً مرموقاً غير قابل للعزل كغيره من موظفي الدولة. وقد بلغ من محبة الناس للقاضي أن أصبح الولاة في مصر يخشون عزلهم حتى لا يتعرضون للكراهية، وكانت مراسيم تعيينهم وتحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة وحده. وعندما وصل الفاطميون إلى مصر في سنة 358هـ ـ 971م كان أبو الطاهر قاضي القضاة، فرأى جوهر الصقلي أن عزله وإحلال قاضي من الشيعة مكانه قد يثير غضب المصريين، فأقره في منصبه لغرض سياسي فقط، وعمل في الوقت نفسه على الحد من نفوذه[3]. لكن بعد استقرار الدولة الفاطمية في مصر بدأ تضييق الخناق على أبي الطاهر لحمله على الإستقالة وتعيين علي بن النعمان الشيعي مكانه[4].

ظل أولاد النعمان يتولون هذا المنصب حتى سنة 398هـ ـ 1011م. وفي سنة 405هـ ـ 1015م قلد الخليفة الحاكم أبا العباس بن العوام الحنبلي المذهب منصب القضاء وعندما سئل عن سبب ذلك قال: «لم أجد عند الشيعة من يصلح لهذا الأمر غيره»[5].

1 ـ ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج 1، ص 223.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3، ص 523 ـ 524. والمقريزي: خطط، ج 1، ص 481 ـ 482.

3 ـ الكندي: كتاب القضاة، ص 548.

4 ـ المصدر نفسه ص، 585.

5 ـ ابن حجر: رفع الإصر... ورقة 194 ب.

وقد رفع الفاطميون رواتب القضاة حتى يحولوا بينهم وبين أخذ الأموال بغير حق[1]. أما بالنسبة للمظالم فقد حافظ الفاطميون على النظام الذي كان سائداً في مصر قبل احتلالهم لها، حيث كان يوجد ديوان خاص يعرف بديوان المظالم، وهي هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر، وكانت محكمة المظالم تعقد في المسجد، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات! الحكام، الحماة والأعوان، الفقهاء، الكتاب، الشهود وفي الحق أن الضرورة تحتم وجود مثل هذا النظام، انصافاً للمظلومين وإغاثة للمستضعفين[2].

ولم تكن محكمة المظالم تنظر في قضايا الأفراد وحدهم، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعوب عامة.

ثم المحتسب ووظيفته النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات مما تستدعي الفصل فيها إلى السرعة. وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد، بالرغم ما بين العملين من التباين[3]. وكانت أعمال المحتسب متعددة مختلفة فكان يعهد إليه النظر في الأسواق على الآداب والفضيلة، وإدارة الشرطة، والأمانة وعدم مضايقة الجمهور، والاشراف على الموازين والمكاييل، وعلى استيفاء الديون، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور[4].

---

1 ـ ابن حجر: رفع الإصر ورقة 43 ب وما يليها.

2 ـ ابن خلدون: المقدمة... ص 193، والماوردي الأحكام السلطانية، ص 73 ـ 79.

3 ـ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 61 ـ 72.

4 ـ المصدر نفسه، ص 227، 219، 230.

الفصل السادس

الحالة الاقتصادية

أولاً ـ الزراعة

أ ـ توزيع الأراضي واهتمام الدولة

اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها أهم مصادر الثروة في مصر، وبلغت مساحة الأراضي المزروعة في العصر الفاطمي الأول 285،714 فداناً[1]. أما في العصر الفاطمي الثاني تضاءلت الزراعة أو كادت تنعدم، والسبب في ذلك عدم اهتمام الحكام بتنمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخلجان وإقامة الجسور وغير ذلك.

يضاف إلى ذلك المشاكل التي كان يعاني منها الفلاح نتيجة النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في مصر، فالملتزم لا يتردد في إرهاق الفلاحين وإثقالهم بالضرائب الباهظة ليستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحفظ ما زاد لنفسه، ونادراً ما تصل شكاوى الفلاحين إلى السلطة المركزية، فقد كان بعض الجباة يسلكون معهم أسوأ أنواع التعذيب[2].

غير أن التعديلات الكبيرة التي أدخلها الفاطميون على النظام الاقطاعي

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 80 ـ 83.

2 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 97. وانظر أبو يوسف: كتاب الخراج، ص 18، 61، 70، 71.

ساهمت في عمارة الأرض والعناية بها، فزاد الانتاج الزراعي. ذلك أن الوزير الأفضل بدر الجمالي عندما بلغه شكاوى صغار المقطعين من قلة دخل إقطاعاتهم، أمر بحل جميع الاقطاعات وإعادة توزيعها دون أن يتعرض للأراضي المملوكة[1]. وكان أكثر المقطعين في ذلك الوقت من الأجناد فسمح لهم الأفضل بأن يستغلوا إقطاعاتهم مدة ثلاثين سنة، مما ساعد ذلك في زيادة خراج مصر في تلك الفترة إلى أكثر من ثلاثة ملايين دينار[2].

وفي أواخر العصر الفاطمي كان المقطع يرفع ضريبة منتظمة عن كل فدان قدرها ديناران وخمسة قراريط، وإذا انقطعت مدة الإقطاع، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها، ولا ينقل شيئاً من المنشآت التي أقيمت عليها[3]. وقد أظهر الفاطميون عناية كبيرة بنظم الري، من صيانة الترع والمحافظة على الجسور، لتنظيم الانتفاع بماء النيل، وتجنباً لغرق الأراضي الزراعية في وقت الفيضان[4].

كما اهتم الفاطميون بمقاييس الينل، لأنها أشبه بميزان الرخاء أو الكساد فإذا ارتفع منسوب المياه إلى ستة عشر ذراعاً استبشر المصريون خيراً بوفرة المحصول، وضمنت الدولة زيادة الخراج، أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحلول كارثة الفيضان، وفي حال نقص الماء عن أربعة عشر ذراعاً يعني ذلك حلول القحط وما يصحبه من أزمات اقتصادية، كما حدث سنة 457هـ 1067م في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، حيث حل بالبلاد المصرية الشدة العظمى[5].

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 100.

2 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 83.

3 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 83.

4 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 100.

5 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 59.

وقد عمل الفاطميون منذ عهد الخليفة المعز على كتمان أمر المقياس وعدم إعلانه على الناس كما جرت العادة في عهد الدولة العباسية، حتى يبعد العامة عن القلق والتجار عن الاحتكار[1].

ويلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشأوا إدارة خاصة تشرف على أمورها، كما قاموا بمشروعات زراعية عظيمة الأهمية مثل الخليج الذي أشرف على حفره أبو المنجا متولي لري الأراضي الواقعة في شرق فرع دمياط[2]. دون أن ينسوا الفلاح الذي هو عماد الزراعة فعاملوه معاملة تنطوي على التسامح والرعاية[3].

ب ـ المحاصيل الزراعية

تنوعت المحاصيل الزراعية في مصر في العصر الفاطمي، وكان أهمها القمح وهو يؤلف المحصول الرئيسي في البلاد، وزراعته تشغل الجزء الأكبر من الأراضي الخصبة وعلى الأخص أنحاء الدلتا والوجه القبلي. ثم الشعير ويأتي في المرتبة الثانية بعد القمح. أما الذرة فلم تكن معروفة في مصر في ذلك الوقت. وكان الكتان يزرع في الأراضي المنخفضة التي تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة كالدلتا والفيوم، كما توسع الفاطميون في زراعة قصب السكر وهذا ما أكده ناصر خسرو الذي زار مصر حوالي سنة 400 ـ م[4]. هذا بالإضافة إلى زراعة الحمص والعدس والبرسيم والبصل والثوم والسمسم... وكانت تعرف بالمحاصيل الشتوية، أما المحاصيل الصيفية فقد اقتصرت زراعتها على الأراضي المحاذية لنهر النيل[5].

---

1 ـ المقريزي: خطط، ج 1، ص 58.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3، ص 305 ـ 306.

3 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 5 ـ ناصر خسرو: كتاب سفرنامة ص 67 ـ 70.

4 ـ وانظر ابن مماتي (القاضي شرف الدين أبو المكارم الأسعد) قوانين الدواوين، ص 201 ـ 204.

5 ـ البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص 67.

كما اشتهرت مصر في العصر الفاطمي بزراعة أنواع مختلفة من أشجار الفاكهة أهمها: الكرمة والنخيل والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والموز... كما عنوا بزراعة الورود كالنرجس والياسمين والريحان والمنثور[1]، وقد اهتمت الدولة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء اسطولها الحربي، ومراكبها التجارية. ومن أشهر مناطق الغابات في العصر الفاطمي أسيوط والبهنسا والأشمونين وقوص وآخيهم.

ثانياً ـ الصناعة

إن الاستقرار الذي عرفه العصر الفاطمي ـ باستثناء فترات الأحداث ساعد على ازدهار الانتاج الصناعي. وكان من أشهر الصناعات التي اشتهرت في مصر الصناعة الكتانية بسبب وفرة الكتان. ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة: الفيوم وتنيس ودمياط وشطا وديبق التي ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالديبقي ومنه تصنع الثياب المثقلة والعمائم...[2]. وفي ذلك يقول الثعالبي «إن القطن لخرسان والكتان لمصر»[3]. كما اشتهرت صناعة الأقمشة الصوفية وبلغت درجة عالية من الرقي، ومن مراكزها بلدة القيس وقرية طحا وكانت بعض هذه المنسوجات تصدر إلى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم المصري[4]. وكانت القاهرة في عهد الفاطميين من أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية، فقد بنى المعز فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفي الدولة

---

1 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص 171 ـ 172.

2 ـ متز: الحضارة الإسلامية، ج 2، ص 296.

3 ـ المقريزي: خطط، ج 1، ص 226.

4 ـ متز: الحضارة الإسلامية، ج 2، ص 296. خسرو: كتاب سفرنامة ص 70.

على اختلاف مراتبهم، وفي هذه الدار أمر المعز بصنع كسوة الكعبة الشريفة، كما كان يصنع فيها الخلع التي يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف في عيد الفطر[1]. فأنشأوا عدة مصانع لإنتاج الأنواع الفاخرة. وكانت دار الديباج منذ عهد الأفضل بن بدر الجمالي تنتج نوعاً من الحرير يعرف بالحرير الديباج[2]. كما أن خزانة البنود التي بناها الخليفة الظاهر كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب[3].

كذلك تقدمت الصناعة الخشبية، فبالإضافة إلى بناء السفن ـ تكلمنا عنها سابقاً ـ ازدهرت صناعة الحفر على الخشب حتى بلغت الغاية في هذا العصر، إذ أبدع الفاطميون في نقش الفروع النباتية وأوراق الأشجار ورسوم الحيوانات والطيور. ويرجع الفضل في ذلك إلى الأقباط الذين أبدعوا في صناعة النجارة والحفر على الخشب. ومن روائع التحف الخشبية الفاطمية المحاريث الثلاثة المحفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة، وأقدمها كان بالجامع الأزهر، والثاني بجامع السيدة نفيسة والثالث بجامع السيدة رقية[4] ولما كانت الأخشاب المحلية من الجميز والسنط والنبق والسرو تفتقر إلى المتانة والصلابة اضطروا إلى استيراد الأخشاب من كرواتيا ودلماشيا، كما جلبوا خشب الأرز والصنوبر من بلاد الشام (لبنان) وآسيا الصغرى، والأبنوس من السودان والتلك من بلاد الهند وشبه جزيرة الملايو[5]. أما الأخشاب المحلية فكانت تستخدم في صناعة الأثاث والسواق والطواحين والمحاريث والأنوال والمغازل...[6].

---

1 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 43.

2 ـ المصدر نفسه ص 43.

3 ـ المصدر نفسه ص 44.

4 ـ زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين... ص 198.

5 ـ المصدر نفسه ص 198.

6 ـ البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عصر الفاطميين، ص 171.

ومن الصناعات التي راجت في هذا العصر صناعة الورق واشهرها ورق البردى، التي انتشرت صناعته في طبرية ودمشق وطرابلس[1]. ثم الورق المنصوري وكان أجود أنواع الورق ومن مراكزه الفسطاط[2]. وقد صاحب صناعة الورق تقدم في تجليد الكتب من الجلود والحرير والديباج والأطلس لتجليد المصاحف بصفة خاصة[3].

كما تقدمت صناعة الزجاج وكانت الفسطاط من أهم مراكزه بالاضافة إلى الفيوم والأشمونين والاسكندرية وصدرت مصر هذه الصناعة إلى بلاد الشرق والغرب. أما الخزف فكانوا يضعون فيه أنواعاً مختلفة، وبلغ من انتشار استعماله في مصر أن البقالين كانوا يضعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلاً من الورق[4].

وبرع صناع مصر في العصر الفاطمي في صناعة المعادن على اختلاف أنواعها، كما راجت صناعة السكر رواجاً عظيماً، ويذكر ابن دقماق أن مطابخ السكر في الفسطاط وحدها بلغت 58 مطبخاً[5]. كما اشتهرت صناعة الزيوت من الزيتون والسيرج والسمسم، ورافق هذه الصناعة صناعة الشمع والصابون[6].

ثالثاً ـ التجارة

ازدهرت التجارة في العصر الفاطمي على الصعيدين الداخلي والخارجي، وأصبحت بعض المدن المصرية مراكز تجارية مهمة يفد إليها التجار وتقصدها

---

1 ـ الجاحظ: التبصر بالتجارة، ص 41.
2 ـ المقريزي: خطط، ج 1، ص 367.
3 ـ ابن دقماق: الانتصار، ج 4، ص 108.
4 ـ ناصر خسرو: كتاب سفرنامة، ص 151.
5 ـ المقريزي: خطط، ج 1، ص 367.
6 ـ المصدر نفسه، ج 1 ص

المراكب وتقام بها الأسواق لبيع السلع. ومن هذه المراكز مدينة الفرما ومدينة بلبيس، والمحلة الكبرى، ومدينة الاسكندرية[1].

وكانت مدينة الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية في ذلك العصر لتوسطها بين الوجهين القبلي والبحري، واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، فضلاً عن كونها نقطة انطلاق لطرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب[2]. كل ذلك جعلها تتمتع برخاء عظيم، فكثرت بها المتاجر والأسواق، فكانت ترد إليها تجارة الشام والمغرب والعراق والمشرق، كما كان يأتي إليها العديد من مراكب الجزيرة وبلاد الروم[3].

وظلت الفسطاط عامرة ولم يؤثر إنشاء القاهرة على مركزها التجاري لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط. مما جعل الأسعار في الفسطاط أقل منها في حاضرة الخلافة الفاطمية[4].

ثم مدينة دمياط التي تميزت بازدهار التجارة والصناعة وأصبحت الميناء المصري الوحيد في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، كما احتلت مدينة قوص أهم مراكز التجارة الداخلية، كذلك اشتهرت أسوان بسبب ورود تجارة النوبة والسودان إليها. وازدهرت مدينة عيذاب في هذا العصر بعد تحول طريق التجارة الفاطمية بإتجاه الجنوب نتيجة لاشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة، ولإستيلاء الصليبيين على أيلة في 510هـ - 1102م[5].

---

1 ـ المقدسي: أحسن التقاسيم... ص 195 ـ 196.

2 ـ المصدر نفسه، ص 197.

3 ـ المصدر نفسه، ص 203.

4 ـ البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص 199.

5 ـ د. حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص 602.

أما على الصعيدالخارجي احتلت التجارة الفاطمية مكانة مرموقة فقد اتسع نطاقها مع البلاد الأسيوية والأوروبية، فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين، كما أن حاجاتها إلى المواد الخام كالخشب والحديد حملها على استيرادها من بعض الدول الأوروبية، واصبحت الاسكندرية من المراكز الرئيسية للتجارة، فتنقل منها البضائع الآسيوية إلى أوروبا وترد إليها السفن الأوروبية محملة بالسلع اللازمة للصناعة المصرية، ولم تكتف مصر بأن تكون طريقاً لمرور الغلات الآسيوية، بل كان لديها ما تصدره إلى البلاد الأوروبية كالنطرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها[1].

وكان نتيجة العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا أن أقدمت المدن الإيطالية وبخاصة جنوه والبندقية على التعامل مع الدولة الفاطمية، فأخذت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد إلى الموانىء المصرية على الرغم من التهديد البابوي رافضة أي طلب لا يتفق ومصالحها الخاصة. وأرسلت إلى مصر بعثات استطاعت أن تحصل على امتيازات مغرية تحافظ على سلامتهم وسلامة سفنهم. وهكذا أدلت البندقية بدلوها في تجارة الهند الرابحة، كذلك حرصت جنوه على الفوز بود الدولة الفاطمية في النصف الأخير من القرن الحادي عشر، وصارت مراكبها تبحر إلى موانىء مصر والشام[2].

وبالرغم من العلاقات السيئة التي كانت بين مصر والدولة البيزنطية إلا أن العلاقات التجارية بين الدولتين لم تتوقف[3]. وهذا ما أكده الرحالة الفارسي ناصر خسرو عندما ذكر أن كثيراً من السلع التي رآها وأعجب بها في أسواق

---

1 ـ البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص 222 ـ 243.

2 ـ Heyd. Hid... du commerce de le vant aumoyen agt T. 1. p. 114, 392.

3 ـ ابن ميسر: أخبار مصر... ص 6 ـ 7.

الفسطاط كانت من واردات بلاد الروم[1]. وكانت العلاقات التجارية بين مصر وصقلية وثيقة في العصر الفاطمي، فكان تجار صقلية يعاملون معاملة ممتازة، فقد عقد الخليفة الفاطمي معاهدة تجارية مع رودجر صاحب صقلية[2].

أما العلاقات بين مصر وبلاد النوبة فكانت ودية للغاية، بحيث أن ملوك بلاد النوبة ما فتأوا يرسلون الهدايا إلى الخلفاء الفاطميين ويعقدون معهم المعاهدات[3]، كما كانت علاقة مصر بالعراق وايران وبلاد المغرب علاقة جيدة إلى حد كبير[4]. وقد حرصت الدولة الفاطمية في سياستها الخارجية ألا تخسر الأسواق التجارية في الشرق والغرب. فسمحت للتجار الايطاليين وغيرهم من الأوروبيين بإقامة الفنادق الخاصة بهم في الموانىء الهامة، متمتعين بكامل حريتهم وكأنهم في بلادهم[5].

ولم تكن هذه الفنادق منتشرة في الموانىء فحسب، بل تعدتها إلى داخل البلاد. وكان أشهرها فندق بلال المغيثي حيث تباع صناديق الذهب والفضة، وابن قرشي ودار التفاح وفندق طرقطاي وينزل به تجار الزيت الوافدون من الشام[6]. كذلك أقيمت في مصر في ذلك العصر الوكالات وهي كالفنادق وإلى جانب هذه الفنادق والوكالات أنشئت في مصر أبنية أخرى أطلق عليها اسم القياسرة وهي عبارة عن أبنية على هيئة رواق من أروقة الدير، تحتوي على حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن. ومن أشهر هذه القياسر: قيسارية ابن قريش، وابن أبي

---

1 ـ ناصر خسرو: كتاب سفرنامة، ص 107 ـ 111.

2 ـ حسن أحمد محمود: بنو زيري وسياستهم الداخلية، مخطوط، ص 90.

3 ـ ناصر خسرو: كتاب سفر نامة، ص 175.

4 ـ البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص 30، 47، 49، 82.

5 ـ ابن حوقل: الممالك والمسالك، ص 90 ـ 91.

6 ـ المقريزي: خطط، ج 2، ص 92 ـ 93.

اسامة، وبيبرس، والجامع الطولوني، وقيسارية عبد الباسط وبها مارستان ووكالة[1] كما كثرت الخانات بمصر في هذا العهد وأهمها خان السرور حيث تباع مهمات الأساطيل والرقيق، وخان السبيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر. وخان الخليل[2]. وبالإضافة إلى تقديم التسهيلات في بناء المنشآت، كانت الدولة الفاطمية تفرض رقابة محكمة على العمليات التجارية وتحدد الأسعار، وتقاوم الغش وتراقب المكاييل والموازين، وتحرس الطرق والمسالك وتوفر للتجار جميع أسباب الراحة.

أما نظم المعاملات التجارية فلم تكن موحدة في الدولة الإسلامية، ففي مصر والشام شاع استعمال الدنانير الذهبية، أما في بلاد الفرس والعراق فكانت الدراهم الفضية[3].

واستمر الدينار في مصر حتى بعد الفتح الفاطمي، غير أن القائد جوهر سك دنانير جديدة سماها المعزية، وأبقى التعامل بالدينار الراضي (نسبة إلى الخليفة العباسي الراضي).

وفي أوائل سنة 363هـ ـ 967م عهد الخليفة المعز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالاشراف على الخراج، فصارا يجبيان بالدينار المعزي، فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضي[4].

وفي عهد الخليفة الحاكم، أصدرت الحكومة الفاطمية دراهم جديدة وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهماً بدينار، فصارت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية[5].

---

1 ـ المقريزي: خطط، ج 2، ص 86 ـ 91.

2 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 92 ـ 94.

3 ـ متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج 3، ص 316 ـ 328.

4 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 46.

5 ـ الكرملي (أنتاس ماري): النقود العربية وعلم النحيات: القاهرة 1939 ص 58 ـ 59.

الفصل السابع

الحالة الاجتماعية في العصر الفاطمي

أولاً ـ طبقات المجتمع

كان المجتمع في العصر الفاطمي ينقسم إلى عدة طبقات هي:

أ ـ أهل السنة وكانوا يؤلفون السواد الأعظم من المصريين

ب ـ المغاربة وكانوا يشكلون عصب الدولة الفاطمية وقوتها، كما كانوا مصدر الفتن والقلاقل وإثارة الشغب بين الأهالي.

ج ـ الشيعة من المصريين وكان عددهم قليلاً اشتد أزرهم بعد مجيء المغاربة

د ـ أهل الذمة وهم من النصارى واليهود. وقد عاملهم الفاطميون معاملة تنطوي على العطف والمحاباة، وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها.

هـ ـ الأتراك الذين أتوا إلى مصر في عهد الدولة الطولونية ظهر أمرهم في عهد الحاكم.

ز ـ السودانيون الذين كثر عددهم في مصر منذ عهد كافور الأخشيدي، استعان بهم الحاكم لمحاربة الأتراك، وتفاقم خطرهم في عهد المستنصر حيث بلغ عددهم خمسين ألفاً[1].

---

1 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص 87، 93 ـ 94. وابن ميسر: تاريخ مصر، ص 45.
وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 44 ـ 45. وأبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ص 222.

ثانياً ـ مظاهر البذخ والترف

سادت الحياة الاجتماعية بمصر في العصر الفاطمي مظاهر خاصة من البذخ والترف قل أن نجدها في اية دولة إسلامية أخرى، وفي هذا يقول لينبول: «إن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حباً بالمظاهر... وإن ثرواتهم كما دونها المؤرخون ليس من الممكن تصديقها بدون تردد...»[1] ويمدنا المقريزي في كتابه خطط الجزء الأول ببيان واضح عن ثروة الخلفاء وبذخهم ابتداءً من الخليفة المعز والحاكم والمستنصر والعاضد...[2]. ولم تقتصر حياة البذخ والإسراف على الخلفاء الفاطميين بل تعدتهم إلى كبار رجال الدولة الذين أظهروا ميلاً شديداً للأبهة والعظمة، فيصف لنا ابن أياس وابن منجب ثروة برجوان وزير الحاكم بما لا يصدق، ومع تحفظنا على صحة هذه الأرقام إلا أنها تؤكد لنا الغنى الفاحش لدى هذا الوزير[3].

كذلك يبين لنا ابن ميسرو والمقريزي ما كان يتمتع به الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي من ثروة هائلة استغل قسماً منها في بناء قصره وامتلاك البساتين[4]. وأن كثيراً من ثروات وزراء العصر الفاطميين الأخير كانت تصادر عند وفاتهم إلا أن بعضها كان يرد إلى من يخلفهم من أبنائهم. فقد ذكر أبو المحاسن أن أبا علي بن الأفضل لما آلت إليه السلطة بعد أبيه، حبس الخليفة الحافظ واستولى على ما في القصر زاعماً أن ذلك كان لأبيه، غير أن الخليفة قد استرد هذه الثروة بعد

---

1 ـ Lane, poobe: Ahistory of Egypt, op, cit, p. 133.

2 ـ المقريزي: خطط... ج 1 ص 385 ـ 376 وص 414 و 415.

3 ـ ابن أياس: تاريخ مصر، ص 51 ـ 52 وابن منجب: الإشارة، ص 28.

وانظر المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 240.

4 ـ المقريزي: خطط، ص 483 ـ 484. وخطط ج 2، ص 379.

وانظر ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 58.

وفاة الوزير وجعلها في قصره[1].

ثالثاً ـ الأعياد والمواسم

اهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية في شيء كثير من الأبهة والعظمة منها:

أ ـ الاحتفال بشهر رمضان وعيدي الفطر والأضحى

اعتبر الفاطميون شهر رمضان من أهم المواسم الدينية، فكانوا يحتفلون في أول يوم منه بركوب الخليفة من القصر الشرقي ـ الكبير وبصحبة وزيره وحوله حرسه الخاص، فيخترق موكبه شوارع القاهرة ومصر حتى جامع عمرو بن العاص، حيث يكون خطيب المسجد في انتظاره وبيده المصحف المنسوب خطه إلى علي بن أبي طالب: فيتناوله الخليفة ويقبله عدة مرات، ثم يأمر بتوزيع الأموال على خطيب المسجد ومؤذنيه، وإذا ما انتهى الخليفة من أداء الصلاة بالمسجد، عاد إلى دار الملك وفي الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان كان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب إلى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمر بن العاص على التوالي لصلاة الجمعة[2]. وفي ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم، يبلغ طوله نحو ثلاثمائة ذراع في عرض سبعة أذرع، وتنثر عليه من أنواع الأكل وأصناف الحلوى ما يعجز عن وصفه، وإذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر، عاد إلى مجلسه وفي يوم العيد يخرج الخليفة في موكبه

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 3، ص 3. والمقريزي: اتعاظ الحنفا، ص 76.
وانظر الكندي: كتاب الولاة والقضاة، ص 854.
2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3، ص 503 ـ 520 والمقريزي: خطط ج 2، ص 280 ـ

لإداء صلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب والعسكر... وإذا ما عاد الخليفة من الصلاة وجد سماطاً آخر صفت عليه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى وكان يجلس إليه رجال الدولة والعظماء[1].

أما في عيد الأضحى، فكان الاحتفال يجري على النحو الذي اتبع في عيد الفطر، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه في إجراءات النحر، وكان الخليفة إذا انقضى اليوم الثالث خلع على وزيره ثوبه الأحمر الذي كان يرتديه يوم العيد[2].

ب ـ عيد رأس السنة الهجرية

كان الاحتفال الفاطمي بهذا العيد مثال الروعة والعظمة، وقد أورد المقريزي وصفاً لمراسيم الاحتفال بهذا العيد، فيقول أنهم كانوا يعدون العدة للاحتفال به منذ العشر الأخير من شهر ذي الحجة في كل سنة، وإذا ما اصبح اليوم التاسع والعشرون من هذا الشهر، خرج الخليفة من قصره راكباً الخيل قاصداً السد حيث يجلس في مكان محجوب بالستائر. أما الوزير فيخرج من داره يصحبه الأمراء ومحاطاً بحاشيته وغلمانه حتى يصل إلى مكان الخليفة حيث ترفع الستائر فيرى الخليفة جالساً فيقف الوزير ويسلم عليه، ثم يتلو القراء بعض الآيات المناسبة، وبعدها يشرع الخليفة في عرض الخيل ثم تلاوة بعض آيات الذكر الحكيم[3]. وفي أول محرم يصحب الخليفة وزيره في موكب صبيان الركاب (الحرس الخاص) حتى يصل إلى الجامع الأقمر بالقماحين ثم يعود الموكب الخلافي إلى القصر[4].

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 4، ص 97.
2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3 ص 511 ـ 512.
3 ـ المقريزي: خطط، ج 1، ص 446 ـ 450.
4 ـ المصدر نفسه، ج 1، ص 451، وانظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3، ص 384 ـ 485.

ج ـ ليلة مولد النبي

اهتم الفاطميون بالاحتفال بليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم احتفالاً باهراً يليق بمكانته رغم رفضه من قبل بعض المسلمين المتمسكين بالعادات الإسلامية. ومن المظاهر الدينية المألوفة في هذا العيد قراءة السير النبوية الشريفة في المساجد[1].

د ـ غدير خم

كان الاحتفال بهذا العيد من أهم الاحتفالات الدينية عند الفاطميين حيث يتم الاحتفال بركوب الخليفة وكبار رجال الدولة إلى الايوان الكبير بالقصر الخلافي حيث يتلو قاضي القضاة قول رسول (ص) لعلي بن أبي طالب يوم غدير خم، ويعدها يتبادل الحاضرون التهاني. ثم يقام سماط ضخم، توزع فيه الأطعمة والكسى[2].

هـ ـ يوم عاشوراء

وهو يوم العاشر من شهر محرم، كان يجله المسلمون ويصومونه. فقد روى عن الرسول (ص) أنه لما هاجر إلى المدينة، رأى اليهود يصومون هذا اليوم، فسألهم عنه، فأخبروه أنه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وآله، وبني موسى ومن معه، فقال عليه الصلاة والسلام: «نحن أحق بموسى منهم»، فصام وأمر الصحابة بصومه[3]. وقد سار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول الكريم، فكانوا يحترمون

---

1 ـ متز: الحضارة الاسلامية، ص 250.

2 ـ المقريزي: خطط، ج 1، ص 389 ـ 390. وانظر ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ج 2، ص 126 ـ 128.

3 ـ البيروني: الآثار الباقية، ص 330.

هذا العيد حتى كان عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان واستشهاد الحسين بن علي في موقعة كربلاء في العاشر من محرم سنة إحدى وستين للهجرة، فتركت هذه المأساة في نفوس أنصار علي بن أبي طالب وأولاده حزناً عميقاً، فاتخذوا من هذا اليوم مأتماً تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع ليلقوا الأناشيد في رثاء الحسين[1]. جعل الفاطميون يوم عاشوراء ذكرى تحتفل بها الحكومة والشعب، فيخرجون إلى الطرقات بعد الصلاة في الجامع العتيق وهم ينوّحون ويبكون. وفي نفس اليوم يقام سماط حزن في بهو بسيط يقدم فيه خبز الشعير والعدس والجبن، ويحضره الخليفة ورجال حاشيته وهم ملثمون حفاة مرتدين الثياب القاتمة، مبدين أبلغ مظاهر الحزن والأسى[2].

و ـ الاحتفال بفتح الخليج

كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بوفاء النيل بأبهة عظيمة، فكانوا يركبون إلى المقياس بالروضة إذا ما بلغ منسوب الفيضان ستة عشر ذراعاً كان موكب الخليفة يخترق شوارع القاهرة ومصر، يحف به افراد الشعب حتى يأتي منظرة «دار الملك» بالقرب من المقياس، فيركب منها في العشاري بصحبة وزيره وكبار رجال حاشيته قاصداً المقياس، فإذا دخله صلى هو والوزير ركعتين. ثم يأمر بفتح الخليج ـ فينساب الماء فيهرع الناس إلى زوارقهم فرحين مسرورين يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تيمناً وتفاؤلاً[3]. وبعدها يعود الخليفة بموكبه إلى القصر[4]. ومن مظاهر الاحتفال بفتح الخليج كان يقام سماط عظيم على شاطىء

---

1 ـ البيروني: الآثار الباقية، ص 329. وانظر المقريز: خطط، ج 1، ص 431.

2 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 431.

3 ـ ناصر خسرو: كتاب سفرنامه ص 135 ـ 142.

4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3، ص 512 ـ 513.

النيل، يأكل عليه من يدعوهم الخليفة ومن يتبعهم وعدد كبير ممن كانوا يسيرون من وراء المواكب[1].

ز ـ مجالس الغناء والطرب

عني الفاطميون بالغناء والموسيقى فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات، وكان معظم المغنيات من الجواري، ويذكر أن الأمير تميم بن المعز لدين الله اشترى جارية من بغداد تجيد الغناء، فغنت له ولجلسائه حتى ازداد طرباً فقال لها تمني ما شئت، فتمنت أن تغني ما غنت ببغداد، فلبى الأمير طلبها وأعادها إلى بغداد. وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطىء الخليج بالقاهرة، ولكن كثرة الانحلال الاجتماعي من جراء هذه المجالس. جعلت الخليفة الحاكم يصدر بين سنتي 398هـ ـ 401 ـ 1008م ـ 1011م قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب وسماع الموسيقى والمغنيات[2]. ويذكر بن خلكان «أن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولي الظاهر بن الحاكم الخلافة»[3].

وقد ذكر المؤرخون أن أبا الحارث البساسيري عندما أقام الخطبة للخليفة المستنصر في بغداد وقفت احدى المغنيات تحت قصر الخليفة الفاطمي وأنشدت تقول:

يا بني العباس صدوا	ملك الأمير معد
ملككم كان معـــاراً	والعواري تسترد

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3، ص 520.

2 ـ المقريزي: خطط، ج 2، ص 287 ـ 288.

3 ـ ابن خلكان وفيات الأعيان، ج 2، ص

فأعجب المستنصر بغنائها وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم في مدينة القاهرة، باسم أرض الطبالة[1].

أما مجالس الشرب فقد كثرت في العصر الفاطمي وتعددت[2].

ج ـ وسائل التسلية

كان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والولاة وكبار رجال الدولة في العصر الفاطمي، وقد أباح الفقهاء هذه الرياضة شرط أن لا تكون وسيلة لكسب المال، وبلغ من شغف الناس أن كان الفائز يستولي على الحصان المسبوق[3].

وقد اشتهرت لعبة الشطرنج والنرد، كما أولع بعض الخلفاء بالصيد ولعاً شديداً[4]. كذلك كان اللعب بالتماثيل والسماجات معروفاً في هذا العهد، يضاف إلى ذلك التقليد والمحاكاة، فكان بعض الناس يقلدون طوائف السكان، والأهالي يقبلون على سماع نوادرهم[5].

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد في قصور الخلفاء والوزراء والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة[6].

إن ولع الخلفاء الفاطميين بالاحتفالات المتنوعة دفعهم إلى انفاق الكثير، بحجة أن هذا العمل يساعدهم على نجاحهم في سياستهم غير أن ذلك النجاح

---

1 ـ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 12.

2 ـ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص 58.

3 ـ متز: الحضارة الإسلامية، ج 2، ص 215.

4 ـ المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 521 ـ 522. والمقريزي: خطط ج 1، ص 477.

5 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 207.

6 ـ متز: الحضارة الإسلامية/ ج 2 ص 214 ـ 215.

وما تتطلبه من بذخ واسراف صار عبئاً ثقيلاً مع الأيام، حتى أدى إلى سرعة انحلال خلافتهم وسقوطها.

رابعاً ـ المرأة في العصر الفاطمي

لم يظهر بين طبقة العامة في العصر الفاطمي نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي محصوراً في نساء الخلفاء والأمراء، وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة التي احتلت مكانة كبيرة في الدولة الفاطمية. فكن يتدخلن في شؤون الدولة مثل زوجة الخليفة العزيز وابنتها ست الملك، فقد تمتعا بنفوذ عظيم وتدخل في سياسة الدولة إلى حد لا يطاق، وعندما حاول الحاكم أن ينتقد ست الملك والحد من حريتها تآمرت على قتله مع سيف الدولة بن داوس أحد شيوخ كتامة[1].

أما زوجة الخليفة الظاهر وكانت أمة سودانية اشتهرت بعطفها على أبناء جلدتها السودانيين الذين كثر عددهم وازداد بطشهم مما كان له أسوأ الأثر في حالة مصر الداخلية[2].

كما اشتهر كثير من النساء بالثراء والبذخ فكانت تغريد زوجة الخليفة المعز تملك ثروة ضخمة أنفقت قسماً كبيراً منها على بناء قصر فخم ومسجد رائع في منطقة القرافة[3]، وكان لها ابنتان تركتا ما لا يعد ولا يحصى من الأموال والذخائر[4]. أما الخليفة الحاكم بأمر الله فقد عامل النساء بالقسوة والعنف بعد

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 4، ص 186 ـ 187.

2 ـ د. حسن ابراهيم حسن، الدولة الفاطمية ص 625 ـ 626.

3 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 486.

4 ـ المصدر نفسه، خطط، ج 1، ص 415.

انغماس العديد منهن في حمأة الملاهي والرذائل، فأصدر في سنة 395هـ ـ 1008م قانوناً منع فيه ظهورهن سافرات[1]، وألا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس في حالة منافية للآداب والحشمة، كما حرم عليهن دخول الحمامات دون ازار[*].

1 ـ يحي بن سعيد: التاريخ المجموع، ص 208.

(*) ازار وتعني تستر. انظر المقريزي: خطط، ج 2، ص 85.

الفصل الثامن

الحياة الثقافية في العصر الفاطمي

ازدهرت الحياة الثقافية في العهد الفاطمي ازدهاراً يدعو إلى الإعجاب بفضل كثرة التآليف والترجمة. وتشجيع الخلفاء والأمراء رجال العلم والأدب. بالإضافة إلى ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق غاياتها السياسية والدينية، وخير مثال على ذلك الآثار التي تركها المعتزلة ودعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم وكان للجدل والنقاش بين هذه الفرق من ناحية وعلماء السنة من ناحية أخرى، أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها العصر الفاطمي.

أولاً ـ مراكز الثقافة في مصر في العصر الفاطمي

أ ـ الأزهر:

بدأ الأزهر كغيره من المساجد لإقامة الشعائر الدينية، فكان مركزاً لفقهاء المذهب الشيعي يحاضرون الناس في عقائد المذهب الإسماعيلي، وقد ظهرت فكرة الدراسة به في أواخر عهد الخليفة المعز حين قام قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان المغربي بشرح كتاب الاقتصار الذي وضعه أبوه، ويشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت[1].

---

1 ـ متز: الحضارة الإسلامية... ص 230.

وفي أوائل عهد العزيز جلس الوزير يعقوب بن كلس[*] بالجامع الأزهر وقرأ على الناس رسالة ألفها في الفقه الشيعي على المذهب الاسماعيلي، تضمنت ما سمعه في ذلك من الخليفة المعز وولده العزيز.

وفي سنة 378هـ ـ 991م أشار ابن كلس على العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية، فرحب العزيز بذلك ورتب للفقهاء الذين تم اختيارهم أرزاقاً شهرية ثابتة. وأنشأ لهم دار للسكن بجوار الأزهر[1]. ورغب الخلفاء الفاطميون في جعل الأزهر من الأهمية بمكان بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الإسلامية. ولكي يشجع الطلاب وطنين وأجانب كان يقدم إليهم المأكل والملبس وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر[2].

وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمي إلى أن بني جامع الحاكم فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم.

ب ـ المكتبات

اهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات وتزويدها بعدد من الكتب التي تتناول شتى فروع العلم، فألحقوا بالقصر الشرقي الكبير مكتبة فاقت كل المكتبات الإسلامية بما في خزانتها من كتب قيمة، فكانت تضم أربعين خزانة من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد في سائر العلوم من الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء[3]. وصف المؤرخ أبو شامة

(*) ابن كلس هو يهودي من أهل بغداد أسلم وأصبح حجة في العلوم الإسلامية

1 ـ د. حسن ابراهيم حسن، الدولة الفاطمية ص 536.

2 ـ المرجع نفسه ص 27.

3 ـ المقريزي: خطط... ج 1، ص 409.

مكتبة القصر فقال: «... ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري...»[1]: وقد سعى الفاطميون من جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد، حتى لا يتاح لأية مكتبة أقتناء هذه الكتب، فقدت مكتبة القصر الفاطمي عدداً غير قليل من الكتب القيمة التي كانت بها نتيجة المصائب والبلايا التي حلت بالبلاد في عهد الخليفة المستنصر، فاستولى الجند والأمراء على الكثير منها[2]:

وعلى الرغم من ذلك استطاع الفاطميون أن يعيدوا إلى هذه المكتبة شيئاً من سابق عظمتها وروائها، إما بإعادة بعض كتبها أو بإضافة كتب جديدة حتى أصبح في قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة[3].

ج ـ دار العلم

ومن مراكز الثقافة الفاطمية بمصر دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة 395هـ ـ 1008م وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية التي كانت تسمى مجالسها بمجالس الحكمة، فالتحق بها عدداً من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء، وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب في مختلف الميادين.

وقد اختلفت مناهج التعليم في دار الحكمة عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة، إذ كانت تغلب عليها الصفة العلمية، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية، ومن أشهر أساتذة دار الحكمة ابن يونس المنجم،

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين، ج 1، ص 200.

2 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 459.

3 ـ زكي حسن: كنوز الفاطميين، ص 29.

وأبو علي الحسن بن الهيثم، وعلي بن رضوان[1].

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل أساتذتها أن تجتذب كثيراً من أعلام المشرق[2].

ظلت دار العلم مفتوحة إلى سنة 516هـ ـ 1105م عندما أمر الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بإغلاقها بسبب ما وصل إليه من أن رجلين يعتنقان الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أتباعها بمذاهب السنة الثلاثة وهي الشافعي والحنفي والمالكي يترددان على دار العلم. لكن فترة إغلاق دار العلم لم يدم طويلاً، فقد عادت إلى ما كانت عليه في عهد الخليفة الآمر[3].

د ـ قصور الخلفاء والوزراء

كان من شدة ولع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم بتشجيع الحياة الثقافية، أن أصبحت قصورهم من مراكز الحركة العلمية في مصر، ففتح الخليفة المعز أبواب قصره للعلماء والطلاب واباح لهم جميعاً الإطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر. كذلك عقد الحاكم في قصره مجلساً من مساجد العلماء في الرياضة والمنطق والفقه والطب... فتناظروا في شتى المسائل وعند انتهاء المجلس منح الخليفة لهؤلاء العلماء الخلع والجوائز[4]. كما جعل الوزير ابن كلس قصره ملتقى القضاة والفقهاء وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة من أصحاب المواهب الممتازة، بالإضافة إلى عدد كبير من الموظفين يشتغلون بنسخ الكتب الدينية والعقلية.

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 458 و ج 2، ص 342.

2 ـ خطاب عطية: التعليم في مصر في العصر الفاطمي، ص 159.

3 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 459.

4 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 261 ـ 275.

أجرى ابن كلس على القراء والأئمة في قصره الرواتب الخاصة، ووكل إليهم إقامة الصلاة في المسجد الذي بناه، وكان الفقيه الحسين بن عبد الرحيم الملقب بالزلازلي صاحب كتاب الأسجاع من رواد هذا الوزير[1].

ثم قصر الوزير محمد بن جعفر الذي احتوى على مكتبة جذبت إليها رجال العلم والأدب[2].

إن المجالس والمناظرات التي كانت تعقد في قصور الخلفاء والوزراء لم تكن تقل في قيمتها التعليمية عن الدروس التي تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

ثانياً ـ العلوم التي اشتغل بها الفاطميون

أ ـ التفسير

اتخذ الفاطميون التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجئوا إلى التأويل غير المشروع، أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية. فنراهم يفسرون قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان[3]، إن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس وآدم المشهوران في القرآن هما أبو بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر[4]. وهكذا دفعهم التعصب إلى ارتكاب مغالطات في التفسير جعلت جهودهم في هذا الميدان لا قيمة لها ولا معنى.

---

1 ـ د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية. ص 426.

2 ـ المرجع نفسه ص 428.

3 ـ القرآن: سورة الرحمن رقم 55، آية 5.

4 ـ الغزالي: فضائح الباطنية (نشرة جولد تسيهر ـ ليدن سنة 1916) ص 13.

ب ـ اللغة والنحو

نبغ في العصر الفاطمي عدد كبير في اللغة والنحو كان أشهرهم أبو عبد الله بن جعفر التميمي القيرواني الذي طلب منه العزيز تأليف كتاب يجمع فيه الحروف التي ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وقد تم وضع هذا الكتاب «المعجم» بما يزيد على ألف ورقة، ثم أبو الطاهر النحوي وكان يتولى ديوان الشام في عهد الحاكم[6]. ومن علماء هذا العصر أبو الفضل جعفر الذي أعجب به الحاكم وأوكل إليه تدريس اللغة والنحو في دار العلم وأقطعه إقطاعاً كبيراً[7]. وأبو الحسن علي بن إبراهيم النحوي الذي كان عالماً باللغة والتفسير[1].

ج ـ الأدب

كانت الدعوة الفاطمية تقوم على مذهب يحتاج دعاته والقائمون به إلى نصيب كبير من التعليم. فاحتاجت هذه الدولة إلى قوة البنيان تضيفها إلى قوة الأجناد والأعوان، فكان لهم شعراء يتغنون بمفاخرهم وينظمون القصائد في مآثرهم، لما كانوا يغدقونه عليهم من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق. ولقد دفعت الرغبة في الحصول على هذه المنح والهبات بالشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين مثل أبو قاسم محمد ابن هانىء[*] الذي أسف عليه الخليفة المعز عندما علم بوفاته وقال: «هذا

6 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق 59 ـ 60 وصفحة 205 ـ 206.

7 ـ ابن حجلا: رفع الأمر عن قضاة مصر (مخطوط) ورقة 43.

1 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص 5.

(*) من قبيلة أزد ولو بأشبيلية انهمك بالملذات فنقم عليه أهل الأندلس فاضطر إلى الرحيل والاتصال بالفاطميين ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 2، ص 437 ـ 438.

الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك»[1].

ومن الشعراء الذين لمعوا في هذا العصر كان أبو حامد الأنطاكي، وقد وصفه الثعالبي بأنه «هو نادرة الزمان وجملة الإحسان... وهو بالشام كابن حجاج بالعراق»[2].

إن تشجيع الفاطميين للأدب والشعر، دفع الكثير من الشعراء إلى هجرة أوطانهم والاستقرار في مصر. يذكر ابن خلكان أن الفقيه والأديب والشاعر عبد الوهاب بن نصر المالكي اضطر أن يترك بغداد إلى مصر، وفي يوم رحيله خرج كبار رجال القوم يودعونه فقال هذا الشاعر الكبير معبراً عما كان يشعر به من ألم الفراق!

بـغداد دار لأهـل المـال طيبـــة   وللمفاليس دار الضنك والضيق

أصبحت فيها مضاعاً بين أظهرهم   كأنني مصحف في بيت زنديق[3].

لقد أصبحت مصر في العصر الفاطمي ملاذاً لشعراء يلجأون إليها رغبة في التمتع بتعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة. وليس أدل على ذلك من أن مائة شاعر قاموا برثاء الوزير يعقوب بن كلس. ولم تكن عناية الفاطميين للأدباء أقل من الشعراء فتركت لنا هذه الفترة زخماً من الكتب نذكر منها: «ديوان الشريف الرضي»، والرسائل التي يطلق على «رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته».

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 2، ص 437 ـ 438.

وانظر ياقوت: إرشاد ج 7، ص 126.

2 ـ الثعالبي: يتيمة الدهر، ج 1، ص 278

3 ـ ابن خلكلن: وفيات الأعيان، ج 1، ص 438.

د ـ الفلسفة

إن تعصب الفاطميين لمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر أدى إلى ظهور فريقين من الفلاسفة، يعمل أولهما على تأييدهم، ويفند الآخر آرائهم[1]. واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تألبف الكتب، وكان أبي حنيفة النعمان المغربي[*] من أهم دعائم الدعوة الإسماعلية، وله في الفقه الإسماعيلي عدة مؤلفات منها: «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». حيث أضاف النعمان في هذا الكتاب إلى قواعد الإسلام الخمس الولاية وهي حب أهل البيت، والطهارة[2]. وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب دعائم الإسلام في أحكامهم، حتى أن حميد الدين الكرماني داعي الخليفة الحاكم جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث. وكانت مجالس الدعوة الإسماعيلية «تبتدىء بقراءة شيء من قوارع القرآن، ومن كتاب (دعائم الإسلام)»[3].

من فلاسفة هذا العصر كان جعفر بن منصور بن حوشب، ومن أشهر أثاره العلمية كتاب «تأويا الزكاة» حيث ذهب هذا الفقيه إلى تأليه الأئمة، مؤيداً النظرية الإسماعيلية التي تقول: «من عرف إمام زمانه عرف ربه» وكتاب «سرائد النطقاء» الذي يعتبر من أهم المراجع التي تصدت لبحث تاريخ فرق الشيعة[4]. وعلى الرغم من تعصب الفاطميين لمذهب الإسماعيلية وتشجيعهم

---

1 ـ أحمد أمين: ظهر الاسلام ج 1، ص 188.

(*) كان مالكي المذهب تحول إلى المذهب الإسماعيلي وقدم إلى مصر

2 ـ H. Hamdani (J.R.A.S), 1933. p. 309.

3 ـ المؤيد هبة الله الشيرازي: السيرة المؤيدية، ص 62.

4 ـ د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص 485 ـ 486.

فقهاء، فقد ظهر في عهدهم بعض فقهاء السنة نذكر منهم أبا بكر محمد الثعالبي المالكي[1].

هـ ـ الطب

اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية. وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية. وخاصة السريالية واليونانية ومن الأطباء الذين نبغوا في هذا العصر، أبو الحسن علي بن رضوان المصري تسلم رئاسة الأطباء في البلاط الفاطمي بفضل سعة فكره واطلاعه، فلم يعمد في مؤلفاته إلى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار[2].

ثم أبو عبد الله محمد بن سعيد التميمي المقدسي الذي أتقن طريقة تركيب الأدوية ومن أشهر مؤلفاته كتاب «مخلص النفوس» في معالجة السموم القاتلة مثل سم الأفاعي والثعابين والعقارب[3].

و ـ الرياضيات

نبغ في العصر الفاطمي عدد كبير من الرياضيين من أمثال أبي علي محمد بن الهيثم البصري، أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة في توزيع مياه النيل.

امتاز ابن الهيثم بغزارة علمه وسعة اطلاعه، ألف نحو مائتي كتاب في

---

1 ـ أحمد أمين: ظهر الإسلام ج 1، ص 197.

2 ـ ابن القفطي أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 443 ـ 444.

3 ـ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج 2، ص 75 ـ 89.

الرياضيات والطبيعة والفلسفة[1].

ز ـ الفلك والنجوم

اعتمد الفاطميون على الفلك والتنجيم في توجيه سياستهم، ويذكر بعض المؤرخين أنهم اختاروا ابن حوشب لرياسة دعوتهم في اليمن عن طريق النجوم[2].

وذكر المقريزي «أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس فكان المريخ وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة»[3]. كذلك اهتم الخليفة الحاكم بعلم النجوم. فأنشأ مرصداً عند سفح جبل المقطم أطلق عليه «الرصد الحاكمي» وأوكل أمر إدارته إلى أبي الحسن علي بن يونس المنجم المصري[4]. لكن الحاكم ما لبث أن اصدر أمراً في سنة 404 ـ 1012م نهى بموجبه دراسة النجوم والفلك، ونفى جميع المنجمين عن البلاد، إلا أن تدخل قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي جعلت الحاكم يلغي عقوبة النفي بعد أن أعلنوا توبتهم[5].

ح ـ التاريخ

ظهر في العهد الفاطمي عدد كبير من المؤرخين منهم أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي الذي ولاه العزيز خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه، من مؤلفاته كتاب «الديارات» أورد فيه ما جرى من حوادث وأمور في أديرة العراق

---

1 ـ أحمد أمين: ظهر الإسلام ج 1، ص 204.

2 ـ عمارة اليمني: تاريخ اليمن، لندن 1892، ص 140.

3 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 377.

4 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 375.

5 ـ يحي بن سعد الأنطاكي: التاريخ المجموع... ص 200، 202، 206.

والجزيرة والشام ومصر[1].

كما نبغ من المؤرخين الأمير المختار عز الملك المسيحي الذي شغف بكتابة التاريخ وألف فيه عدة كتب منها «تاريخ مصر»، وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزي وأبي المحاسن[2]. ومن المؤرخين أيضاً أبو عبد الله القضاعي، وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي. وقد ولي القضاء في عهد المستنصر. من أشهر مصنفاته في الفقه والتاريخ كتاب «مناقب الإمام الشافعي»، وكتاب «تواريخ الخلفاء». وكتاب خطط مصر ويظهر أن هذا الكتاب كان عوناً للمقريزي على كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»[3]. ثم أبو عبد الله محمد القرطبي الذي صنف كتاب «تاريخ مصر» في عهد الخليفة العاضد[4]. وأبو القاسم علي بن المنجب الصيرفي، وكان من أعيان زمانه من مؤلفاته كتاب «قانون ديوان الرسائل» وكتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» وقد أمدنا المصنف بمادة لا يستهان بها عن تاريخ الفاطميين[5]. ومن أشهر كتب الرحالة والجغرافيين في هذا العصر كتاب «سفر نامة» لناصر خسرو. والحق يقال أن الخلفاء الفاطميين بتشجيعهم للحركة العلمية أوجدوا زخماً من الإنتاج الثقافي الواسع لا يزال محط تقدير واجلال.

---

1 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 426.

2 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 653 ـ 654.

وانظر السيوطي: حسن المحاضرة، ص 319.

3 ـ أحمد أمين: ظهر الإسلام ج 1، ص 204.

4 ـ ابن سعيد: كتاب المغرب، ص 8 ـ 9.

5 ـ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج 15، ص 78.

الفصل التاسع

ظهور الدعوة الدرزية

في العصر الفاطمي

أولاً ـ نشأة الدرزية

ظهر في العصر الفاطمي حركة يقودها بعض المتطرفين من دعاة الإسماعيلية تدعو إلى تأليه الخليفة الحاكم بأمر الله متأثرين بالفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملكي المقدس، ومن هؤلاء الدعاة حمزة بن علي الزوزني، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم ومحمد بن اسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي.

يعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي للمذهب الدرزي جاء إلى مصر سنة 405هـ ـ 1015م وانضم إلى دعاة الفرس الذين كانوا مرابطون في دار الحكمة التي أرسسها الحاكم ثم ما لبث أن جهر بها بعد أن وجد تشجيعاً من الخليفة الفاطمي نفسه الذي كان كثيراً ما يلتقي به وأصحابه في القرافة ويظهر عطفه عليهم وتودده إليهم ويسألهم عن عدد أنصارهم ومدى النجاح الذي وصلوا إليه[1].

وكان من أثر اهتمام الحاكم بهذه الحركة أن غلا حمزة بن علي في تلقيب نفسه بألقاب متعددة مثل الإمام والدليل على عبادة الله، والداعي إلى توحيد الله،

---

1 ـ يحي بن سعيد الأنطاكي التاريخي المجموع ص 223 ـ 224.

والناطق بحق الله، والبرهان على الله... وإنه السبيل إلى معرفة مولانا (الحاكم) جل ذكره والطريق إلى توحيده، والحجة إلى عبادته[1]. وقد وصف النويري الدور الذي قام به حمزة فقال: «إنه ظهر من دعاة الحاكم رجل يقال له حمزة بن اللباد الأعجمي الزوزني، ولازم الجلوس في المسجد الذي خارج باب النصر، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم، وأن الإله حل فيه. واجتمع إليه جماعة من غلاة الإسماعيلية، وتلقب بهادي المستجبين، وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة، خرج إليه حمزة من المسجد وانفرد به...»[2]. وفي سنة 408هـ ـ 1108م صنف حمزة بن علي كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن ابي طالب، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم أي أن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلهاً عن طريق الحلول[3].

اتخذ حمزة بن علي عدداً من الخواص لقب بعضهم بسفير القدرة، وجعله رسولاً له. وكان يرسله لأخذ البيعة من الرؤساء على اعتقاده بألوهية الحاكم، ومن هؤلاء الأخرم الذي اشتهر بالجرأة والإقدام، وقد وصفه النويري فقال: «ظهر رجل يقال له حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، يرى حلول الإله في الحاكم، ويدعوا إلى ذلك، ويتكلم في إبطال النبوة... فاستدعاه الحاكم وخلع عليه خلعاً سنية، وحمله على فرس مسرجة... وركبه في موكبه في ثاني شهر رمضان، فبينما هو يسير في بعض الأيام، تقدم إليه رجل كرخي فألقاه عن فرسه ووالى الضرب عليه حتى قتله، وأمسك الكرخي، فأمر الحاكم بقتله فقتله لوقته. ونهب الناس دار

---

1 ـ كتاب النقط والدوائر وهو من كتب الدرزية، وقد ذيل ببعضهم رسائلهم... الرسالة المرسومة ببدء الزمان، الرسالة المرسومة بكشف الحقائق... نشره سيبولد الألماني سنة 1319هـ ـ 1902م

2 ـ النويري: نهاية الأرب... مخطوط بدار الكتب المصرية ج 26 ورقة 59.

3 ـ يحي بن سعيد الأنطاكي: التاريخ المجموع... ص 220 ـ 221.

الأخرم بالقاهرة. وكان بين الخلع عليه وقتله ثمانية أيام[1].

ويقول أبو المحاسن: أن الأخرم قتل بعد أن أثار الفوضى والاضطراب في جامع عمرو بن العاص. فقد ذهب على رأس خمسين رجلاً من أنصار حركة تأليه الحاكم بأمر الله، ودخلوا الجامع راكبين دوابهم، وسلموا إلى القاضي السني بن أبي العوام فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمان الرحيم، مما أثار ذلك حنق المصريين السنيين، فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم، فتمكن الأخرم من الهرب، ولكنه قتل بعد قليل[2]. أثار قتل الأخرم إستياء الخليفة الحاكم بأمر الله فأصدر أمراً حرم بموجبه «ألا يركب معه أحد إلا الركابية فقط، ولا يدخل إلى مصر من رؤوساء دولته سوى أحد عشر رجلاً أسماهم، وأن يدخل أيضاً الكتاب والقراءون، والأطباء والمؤذنون وخدام القصر، من غير أن يختلف بهم غيرهم من الناس[3].

بعد قتل الأخرم ظهر محمد بن اسماعيل الدرزي في سنة 409هـ ـ 1019م وكان هذا الداعي قد وصل إلى مصر في سنة 408هـ / 1018م حيث رحب به الحاكم وأجزل له العطاء. وقد سلك الدرزي في سبيل تأييد دعوته (ألوهية الحاكم) مسالك شتى. فألف الكتب في ذلك، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم، ويقول أبو المحاسن في ذلك: «وقربه وفوض الأمور إليه، وبلغ منه أعلى المراتب بحيث أن الوزراء أو القواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضي لهم شغل إلا على يديه، وكان قصد الحاكم الانقياد إلى الدرزي المذكور فيطيعونه»[4].

---

1 ـ النويري: نهاية الأرب: مخطوط بدار الكتب المصرية ج 26 ورقة 59.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ص 182 ـ 183.

3 ـ المصدر نفسه، ج 4 ص 183.

4 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 4 ص 184.

حذا الدرزي حذو حمزة بن علي في نقل رياسة الدعوى إليه، فكتب إلى ختكين داعي دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه كما كتب إلى عبد الرحيم بن الياس الذي يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى العديد من رجال البلاط والموظفين يدعوهم إلى دعوته، إلا أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك مع بعض السنيين في القضاء عليها وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزي وأنصاره وغلوهم، لكن الخليفة الفاطمي لم يأبه لذلك لأنه كان يناصر هذه الدعوى ويعطف عليها لأنها تتفق مع ميوله، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسن في دور بعض الناس، وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها. ثم تقديم تقاريرهن إليه في اليوم التالي فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للمثول بحضرته وأخبرهم ما حدث في دورهم، كما اتخذ جواسيس عهد إليهم أن يقدموا تقارير مسهبة عن كل ما يحدث في الطرقات، حتى أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم بعلم الغيب[1]. ولم يكتف الحاكم بذلك بل سرعان ما ادعى تجسم الإله في شخصه ـ وإن لم يصرح علناً بذلك ـ فقد كان يوافق على آراء أنصاره الذين نسبوا إليه الصفات التي لا يتصف بها إلا الله، لهذا اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت[2]. ولهذا كان إذا بدا للناس في الطرقات، خروا له سجداً وقبلوا الأرض[3]. ومن أبى ذلك كان نصيبه الموت[4]. وإذا كانت هذه العقيدة قد ازداد تغلغل نفوذها بين المصريين طمعاً في التقرب من الخليفة الحاكم بأمر الله إلا أنها ما لبثت أن بدأت تنحصر بعد أن أخذ الدرزي في قراءة كتابه الذي صنفه في عقائد المذهب الدرزي في الجامع الأزهر، مما

---

1 ـ ابن زولاق: فضائل مصر المكتبة الأهلية بباريس، مخطوط رقم 1817، ورقة 53، 54، 56.
2 ـ المصدر نفسه ورقة 56.
3 ـ القطاعي: عيون المعارف وفنون الخلاف المكتبة الأهلية بباريس مخطوط رقم 1491 ورقة 27.
4 ـ ابن زولاق: فضائل مصر: المكتبة الأهلية بباريس، مخطوط رقم 1817، ورقة 86.

أثار سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعة، وكادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام، وأقام بوادي التيم في سفح جبل الشيخ (قضاء حاصبيا وقضاء راشيا الوادي ـ حالياً). وأخذ ينشر دعوته على أهالي هذه المناطق، حيث استطاع أن يستميل إليه كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية. ولا يزال هذا المذهب منتشراً في جبال لبنان وحوران.

ثانياً ـ خصائص الدرزية

تمتاز الدرزية بمجموعة من الخصائص تستند على الأسس التي وضعها حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية. من أهمها:

أ ـ اتخاذ تقويم جديد لتأريخ الحوادث يبدأ من سنة 408هـ/ 1013م وهي السنة التي ظهرت فيها دعوة تأليه الحاكم بأمر الله على يد حمزة بن علي وأنصاره، ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون أي ظهور التوحيد.

ب ـ إغلاق باب الإستجابة الخارجية، بمعنى أن هذه الإستجابة تغلق أبوابها في وجه كل من لا ينتمي إليها سابقاً. ويبررون ذلك بقولهم أن الدعوى قد أبطلت وأغلقت الأبواب، فمن لم يؤمن بقي كذلك إلى الأبد، ومن آمن فقد آمن بلا ردة[1].

واستناداً إلى هذه الخصائص تنقسم الدرزية إلى طائفتين الأولى طائفة الروحانيين، وهي الطبقة المتفقة التي تلم بأصول المذهب الدرزي وتنقسم إلى ثلاث فئات:

أ ـ الرؤوساء: وهم الذين بيدهم مفاتيح أسرار الدرزية

ب ـ العقلاء: ومنهم الأسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب.

---

1 ـ حمزة بن علي: التقاليد في مذهب التوحيد، نشره ميخائيل شارويم ص 23.

ج ـ الأجاويد: ومعهم الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيرهم من المذاهب.

الثانية: طائفة الجثمانيين وتنقسم إلى فئتين:

أ ـ الأمراء: وبيدهم شؤون الحرب والزعامة الوطنية

ب ـ العامة أو الجهال: وهؤلاء لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه فقط وحظر على أبناء هذه الطائفة بعض الأمور منها:

أ ـ عدم الدخول في مجالس طائفة الروحانيين، بأي حال من الأحوال ومهما ارتفعت مكانتهم العلمية.

ب ـ عدم السماح لهم بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل وصعب يظهر فيه الفرد على أتم الاستعداد لتلقي اصول المذهب الدرزي والتأكد من أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفقهاً في عقائده بل بعد أن يؤخذ عليه عهداً يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب. ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها[1].

وقد وضع حمزة بن علي صيغة هذا العهد الذي أسماه «ميثاق ولي الزمان» وجاء فيه: «توكلت على مولانا الحاكم الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه، وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره طائعاً غير مكره ولا مجبر أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافتها، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، والطاعة في العبادة، وأنه لا يشرك في عبادته أحد مضى أو حضر أو ينتظر، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملك

1 ـ Hitti. the origins of the druge and religion, colombia, 1928 p. 43.

لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير مفترض ولا منكر لشيء من أفعاله، ساءه ذلك أم سره. ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره، الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه، وأشار به على غيره، أو خالف شيئاً من أوامره، كان بريئاً من الباري المعبود، وحرم الإفادة من جميع الحدود(*) واستحق العقوبة من الباري العلي جل ذكره...

ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين. وكتب في شهر كذا وكذا، ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن أحمد، هادي المستجيبين المنتقم من المشتركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وجده»[1].

بالإضافة إلى ميثاق حمزة بن علي كانت رسائل الحاكم بأمر الله بمثابة وثيقة أخرى لها أهمية عظيمة يتجلى منها للقارىء ما إدعاه الحاكم من صفات الألوهية، وقد بنيت هذه الرسائل على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة، لأن الفلسفة، وهي أساس الشريعة عند الفاطميين، قد حلت في عهد الحاكم بأمر الله محل القرآن والسنة[2].

إن دراسة هذه الرسائل ومقارنتها مع مؤلفات حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين تكشف لنا الكثير من غوامض هذا المذهب ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره.

(*) إن كلمة «حدود» في اصطلاحات الدروز الدينية تشير بطريق المجاز لما جاء في القرآن إلى الحدود التي لها السلطة الدينية حسب أصول هذا المذهب وعلى ذلك، فإن «أئمة الحدود» معناها الشرائع التي التي أوجدها الأئمة في طائفة الدروز وهذا ما ورد عن دي ساسي.

1 ـ Desacy chrestomathie Arabe. T. 11. p. 199 – 242.

2 ـ De sacychrestomatie Arabe. T.11.p. 199, 242.

الفصل الأول

قيام الدولة الأيوبية

أولاً ـ العلاقة بين الأيوبيين والزنكيين

تتفق المصادر التاريخية على أن الأسرة الأيوبية هي كردية من قرية دوين في أطراف أذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج[1]. وقد اتصل شادي بن مروان جد صلاح الدين بحاكم العراق السلجوقي مجاهد الدين بهروز... في عهد السلطان السلجوقي مسعود بن ملكشاه ـ فرحب به لصداقة قديمة بينهما وأقطعه قلعة تكريت القائمة بين بغداد والموصل وهي بلدة كردية وسكانها من الأكراد[2]. ولما مات شادي خلفه في حكم قلعة تكريت ابنه نجم الدين أيوب الذي أتاحت له الظروف أن يؤدي خدمة للأمير عماد الدين زنكي الموصل وحلب عندما انهزم هذا الأخير في الحرب التي خاضها ضد الخليفة المسترشد بالله العباسي سنة

---

1 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 3 ص 470 ـ 471.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 6 ص 3 و 4.

منح سلاطين السلاجقة القلاع والمدن والولايات إقطاعاً للقادة من مماليكهم وهم الذين سموا الأتابكة وذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها لهم وقت الحرب والأتابك، لفظ تركي معناه الأمير ـ السيد ومعناه المربي مدين السلطان، ثم اصبح لقباً تشريفياً، يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة ومن مشاهير الأتابك في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والشامل وديار ربيعة ومضر وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذي بدأ حياته مملوكاً للسلطان فلكشاه القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4 ص 185. ومحمد كرد علي، خطط الشام/ ج 1 ص 171.

526هـ/ 1132م وفر مع فلول جيشه إلى مدينة تكريت ملتجئين إلى نجم الدين أيوب الذي أكرمهم وآواهم ومونهم، وقدم لهم السفن لعبور نهر دجلة، بالرغم مما في ذلك من تحد للخليفة وتعرض للخطر[1].

وشاءت الظروف أن يتنكر مجاهد الدين بهروز لنجم الدين أيوب شيئاً فشيئاً، وتعددت الأسباب حول ذلك فمنهم من أرجع ذلك إلى مساعدته للزنكي، وقال بعضهم أن أسد الدين شيركو أخو نجم الدين أيوب قتل أحد الضباط بتكريت ظلماً، كما أجمع البعض الآخر على أن نجم الدين أيوب رمى مملوكاً من مماليك مجاهد الدين بهروز بسهم قتله فثارت المدينة؛ عندئذٍ أرسل إليه بهروز يأمره بتسليم القلعة إلى عامل آخر والخروج مع أهله من تكريت[2].

غادر نجم الدين أيوب قلعة تكريت ومعه أخوه أسد الدين متوجهاً نحو الموصل علّ عماد الدين زنكي «يذكر له هذه اليد ويعرف له تلك الضيعة»[3].

وصدق ظن نجم الدين أيوب، فأحسن عماد الدين زنكي وفادتهما. وبالغ في اكرامهما وأقطعهما اقطاعات جليلة وكان ذلك في عام 532هـ/ 1138م، ويقال أنه في نفس الليلة التي خرج فيها نجم الدين أيوب من قلعة تكريت ولد له يوسف صلاح الدين الأيوبي الذي تنتسب إليه الدولة الأيوبية[4].

قابل نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه مكرمة عماد الدين زنكي بما تستحقه من عرفان الجميل، فخدما في جيشه، وأخلصا له وأحرزا انتصارات عديدة زادت في حب الزنكي لهما وتقديره إياهما، فعين نجم الدين أيوب حاكماً

---

1 ـ ابن الموصل: مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ج 1 ص 80.

2 ـ قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ص 152.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 18.

4 ـ قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ص 155.

من قبله على بعلبك بعد استيلائه عليها سنة 534هـ - 1139م[1].

قتل عماد الدين زنكي سنة 541هـ - 1146م فانقسم ملكه بين ولديه سيف الدين غازي في الموصل، ونور الدين محمود في حلب، فاغتنم الفرصة صاحب دمشق إذ ذاك مجيد الدين أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين ومعاونه الأتابك معين الدين أنر فحاولا استرجاع بعلبك، فأدرك نجم الدين أيوب أن سقوط المدينة في أيدي الدمشقيين أمر سهل المنال لضعف حاميتها، فسلمهم إياها مقابل تعهدهم بإعطائه إقطاعاً جليلاً، ونزل نجم الدين أيوب إلى دمشق وتسلم الإقطاع الذي عين له وهو عبارة عن عشرة قرى بجوار دمشق، فضلاً عن مبلغ كبير من المال، ودار يقيم فيها بدمشق[2]. وقد ذكرت بعض المصادر أن تسليم نجم الدين أيوب بعلبك إلى أسرة طغتكين كان سببه أنه راسل الأمير سيف الدين غازي في الموصل ليسلم إليه بعلبك ويرسل إليها من يحفظها فأبطأ عليه، وخاف نجم الدين أيوب أن تؤخذ منه بعلبك عنوة ويناله أذى فسلمهم المدينة، ومهما يكن من أمر صحة هذه المصادر فقد أصبح لنجم الدين أيوب مركز مرموق في دمشق، ولم يلبث أن أصبح قائداً لقواتها، واستمر يشغل هذه الوظيفة حتى استولى نور الدين على دمشق سنة 549هـ - 1154م[3].

أما أسد الدين شيركوه فقد بقي في خدمة نور الدين محمود بحلب، وصار من أخص أصحابه ومقدماً على سائر أمرائه لما اشتهر به من الشهامة والشجاعة، واقدامه في الحرب على ما لا يقدم عليه غيره، ولم تزل مكانته تزداد عنده إلى أن

---

1 - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 3 ص 474. والمقريزي: خطط، ج 3، ص 378.

2 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 9، ص 16.

3 - أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: ج 1، ص 11.

جعله قائداً لقواد حلب[1]. ولما كان ملك نور الدين محمود يتسع، ونفوذه يتعاظم، فقد تطلع إلى الاستيلاء على مدينة دمشق، ووجه إليها في أواخر سنة 547هـ ـ 1154م جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه فحاصرها، ووقف أخوه نجم الدين أيوب على رأس جيش مجيد الدين آبق مدافعاً عنها. استدرك نور الدين محمود هذا الموقف الحرج بين الأخوة وأوعز إلى أسد الدين شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين يحثه على المساعدة، فطلب نجم الدين أيوب مقابل ذلك الحصول على كثير من الإقطاعات بمدينة دمشق، فوعده نور الدين بتنفيذ ما طلب وأقسم له على ذلك، واستمرت هذه المفاوضة ستة أيام انتهت بتسليم دمشق في سنة 549هـ ـ 1154م، ووفى نور الدين بما أقسم له عليه، وأصبح نجم الدين من أخص المقربين إليه، فعينه حاكماً على دمشق، وصار أسد الدين شيركوه مقدم جيوشه وعساكره[2].

ثانياً ـ الصراع على مصر وتوليه صلاح الدين الوزارة

تكلمنا عن هذا الموضوع سابقاً عند سقوط الدولة الفاطمية.

ثالثاً ـ الخلاف بين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي

بدأت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين منذ قبل هذا الأخير وزارة الخليفة العاضد الفاطمي قبل أن يأتيه من نور الدين إذن بهذا القبول، وكان يعتقد بأن صلاح الدين إنما يعمل للاستقلال بحكم مصر من دونه، وإن كان الملك الناصر لم يدع عملاً يدل على ولائه له إلا قام به، فأمر بالخطبة له بعد الخليفة

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 10. وانظر المقريزي، خطط... ج 3 ص 378.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 10 وانظر ابن الأثير تاريخ الأتابكة ص 21.

العباسي وضرب النقود باسمه، وأرسل إليه الهدايا الثمينة من كنوز العصر الفاطمي[1]. ولكن ذلك كله لم يكن ليخدع نور الدين عما يجري في مصر، وعن الهدف الذي ينزع صلاح الدين إليه، وكان بين رحال نور الدين من لا يفتأون يوعزون صدره على صلاح الدين من أمثال عين الدين الباروقي الذي غادر مصر غاضباً إثر إسناد الوزارة إلى صلاح الدين[2].

ومما زاد في الأمر شكاً إن صلاح الدين بعد سقوط الدولة الفاطمية بدأ يسعى إلى تثبيت أقدامه في مصر بشكل يدل ولو ضمني أنه أصبح السيد المطلق فيها، فأخذ يفكر في أن ينشىء على جبل المقطم قلعة كبيرة على غرار القلاع الحصينة في مدن الشام، ليجعل مقامه ودواوينه فيها، ويمتنع بها إذ تعرض لخطر مداهم، كما فكر في بناء سور حول المدن الأربع التي تألفت منها مدينة الفسطاط[*]: وقد عزز الملك الناصر مقام أقاربه وأبناء عشيرته في الجيش والحكومة، وأحاط نفسه بسور منهم، وأزال من رجالات الدولة وأفراد العسكر العديد ممن لم يكن يثق بإخلاصهم، ولم تكن هذه الحيطة التي احتاط بها لتدل على شيء بقدر ما تدل على رغبته بالاستقلال بمصر.

إن جميع هذه الأعمال أوعزت صدر نور الدين إذ رأى فيها أن منافسه سوف يغدو حاكم مصر وصاحب الأمر فيها.

ومن مظاهر الجفوة بين الرجلين كان في سنة 567هـ ـ 1171م عندما خرج صلاح الدين من مصر بناءً على أوامر صدرت إليه من نور الدين لمهاجمة حصن الشوبك بعد استيلاء الصليبيين عليه وتعرقل سير التجارة بين مصر

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1 ص 197 ـ 198.

2 ـ ابن الأثير: الكامل... ج 11، ص 145.

(*) الفسطاط، العسكر، القطائع، القاهرة.

والشام. ولم تستطع حامية الحصن الصليبية الثبات في المقاومة، فطلبت إعطاءها مهلة عشرة أيام للتسليم. ولكن صلاح الدين لم يلبث وقبل أن ينال من الحصن، حتى علم بمسير نور الدين إليه لمساعدته، وعندئذ خشي صلاح الدين أن يقبض عليه نور الدين إذا رآه، فأسرع بالانسحاب والعودة إلى مصر، معتذراً بإختلال أحوال مصر، وأنه يخاف عليها إذا بعد عنها[1].

استاء نور الدين من مسلك نائبه «وعظم عليه ذلك ولم يقبل عذره» ورأى فيه دليلاً صارخاً على تهربه منه، ولم يجد لذلك إلا تفسيراً واحداً وهو أن صلاح الدين قد انفصل نهائياً عنه. فقرر الزحف إلى مصر والإستيلاء عليها، الأمر الذي أخاف صلاح الدين فعقد اجتماعاً من أقاربه وبعض خاصته واستشارهم فيما ينبغي أن يفعل، فقام ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر وقال: «إذا جاء نور الدين قابلناه كلنا وصددناه عن البلاد»[2]. فاستولى الغضب على والد صلاح الدين ـ وهو الشيخ نجم الدين أيوب ـ وصرخ فيهم وقال لصلاح الدين: «والله لو رأيت ـ أنا وخالك هنا (شهاب الدين) ـ السلطان نور الدين، لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا! وهذه البلاد له وقد أقامك فيها نائباً عنه، فإذا أراد عزلك وأي حاجة له إلى المجيء؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي البلاد من يريد»[3]. ثم طلب نجم الدين من ولده صلاح الدين أن يكتب إلى نور الدين بأنه خاضع له ومنفذ لأمره، فعمل صلاح الدين بنصيحة أبيه، وأرسل إلى نور الدين هدايا ثمينة من الحيوانات

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 1، ص 221. وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1 ص 203.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين؟ ج 1، ص 304 ـ وانظر ابن الأثير: الكامل ج 11 حوادث 567هـ ص 244.

3 ـ المقريزي: السلوك، ج 1، ص 49.

النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والعطر[1].

استلم نور الدين هدية صلاح الدين ومعها كتاب الولاء والطاعة، ولم يعد هناك من حجة يبرر بها الزنكي حملته على مصر، لكنه أراد تجربة صلاح الدين فكتب إليه في سنة 569هـ ـ 1173 ـ 1174م أن يخرج لغزو الفرنجة في الكرك، على أن يسير هو أيضاً إلى هناك، فأيهما سبق صحبه أقام إلى أن يوافيه الآخر، فذهب الناصر بجيشه إلى الكرك وحاصرها، ولكنه ما كاد يعلم باقتراب نور الدين حتى رفع الحصار وعاد إلى مصر، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى نور الدين يعتذر عنه بأنه اضطر إلى العودة لمرض والده «وأنه يخاف أن يحدث عليه حادث الموت» وبالفعل كان والده يعاني سكرات النزاع، وقد توفي قبل وصول صلاح الدين إلى القاهرة في ذي الحجة سنى 568هـ ـ 1173م[2].

لم يقتنع نور الدين زنكي باعتذار صلاح الدين وأيقن هذه المرة أن نائبه قد خرج عليه وخلع طاعته. فتأجج غضبه ونفذ صبره، وأقسم لينتقمن منه أشنع انتقام، فصمم نهائياً على فتح مصر والقيام بعمل حاسم لتأديب صلاح الدين. ولكن الحظ خدم الملك الناصر مرة أخرى. فإن نور الدين ما كاد يستعد للقيام بحملته على مصر، حتى فاجأه الموت في 21 شوال سنة 569هـ / الخامس عشر من أيار سنة 1174م، وبذلك اتسع الأمل أمام صلاح الدين لتحقيق الأحلام التي تراوده في تأسيس الدولة الأيوبية بعد أن أصبح الميدان خالياً[3].

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 1 ص 223 ـ 224.

2 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ص 76.

3 ـ ابن الأثير: الكامل، ج 2، ص 287.

الفصل الثاني

الصعوبات التي واجهت صلاح الدين

أ ـ المؤامرة الكبرى سنة 569هـ/ 1174م

رفضت جماعة من الشيعة التي خسرت بزوال الدولة ـ الفاطمية الخضوع للحكم الجديد فضلاً عن عدد ضخم من أتباع النظام القديم، الذين عز عليهم أن يسيطر على البلاد رجل قوي مثل صلاح الدين. فقاموا بتنفيذ مؤامرة كبرى في القاهرة سنة 569هـ ـ آذار ونيسان 1174م اشتركت في حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد واتخذت ستاراً شيعياً يستهدف إنهاء حكم صلاح الدين وإعادة البلاد إلى ما كانت عليه. وكان من أبرز زعماء هذه المؤامرة الشاعر عمارة بن أبي الحسن اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العوريس داعي دعاة الشيعة، وابن عبد القوي، فضلاً عن عدد كبير آخر من أتباع الدولة الفاطمية من رجال القصر وأمراء الجيش وبقايا الجند السودان(*)، ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده[1].

(*) بعد تولية صلاح الدين الوزارة قام رجال القصر من جند وأتباع بزعامة أحد طوشية القصر مؤتمن الخلافة جوهر الخصي بتدبير مؤامرة للتخلص من صلاح الدين اتصلوا بالصليبيين لمساندتهم لكن مؤامرتهم انكشفت وتم قتل الخصي جوهر، فأثار مقتل جوهر الجند السودان وكان عددهم أكثر من خمسين ألفاً فأرسل إليهم صلاح الدين أخوه ثوران شاه الذي أنزل فيهم هزيمة نكراء في شوارع القاهرة، فأدبروا ولجأوا إلى محلتهم المنصورية قرب زويلة واعتصموا فيها، عندها أرسل صلاح الدين من أشعل الحريق فيها، فلم يبق إلا القليل منهم هربوا إلى الصعيد حيث استمروا عدة سنوات حتى قضي عليهم بعد سنوات. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2 ص 510.

1 ـ المقريزي: كتاب السلوك ج 1 ص 53.

أدرك المتآمرون أنهم في مسيس الحاجة إلى قوة خارجية تساعدهم في تنفيذ مؤامرتهم، فكاتبوا راشد الدين سنان شيخ الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) وهي القوة الشيعية الكبرى بالشام وقالوا له «إن الدعوة واحدة والكلمة جامعة، وأنه ما بين أهلها خلاف، إلا فيما لا تفترق به كلمة، ولا يجب به قعود عن نصرة» وطلبوا منه من يتمم على الملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة[1].

ولم يكتف المتآمرون بذلك وإنما اتصلوا أيضاً بعموري ملك بيت المقدس واتفقوا معه على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر في الوقت الذي يشعلون هم نار الثورة في القاهرة والفسطاط، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين[2]. كما اتصلوا بوليم الثاني النورماني ملك صقلية ليهاجم أسطوله الاسكندرية في الوقت الذي يداهم فيه الصليبيون مصر من جهة الشرق. وقبل أن يبدأ التنفيذ أرسل عموري الأول رسولاً إلى القاهرة يحمل في ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبي لصلاح الدين. وهي في الحقيقة لرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين، أما وليم الثاني ملك صقلية فقد استجاب للدعوة وأعد أسطولاً ضخماً عدته «مائتي شيني في كل شيني مائة وخمسون راجلاً، وست وثلاثين طريدة تحمل ألف وخمسمائة رأس من الخيل، وست سفن كبار تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها، وأربعين مركباً لحمل الأزواد والرجال. وفيه من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتم خمسين ألف راجل»[3]. وقد بلغ بثقة المتآمرين في نجاح مؤامراتهم أنهم عينوا أعضاء الجهاز الحكومي الجديد «وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأملاك»

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 1 ص 249.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 221.

3 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية، ج 1، ص 244.

بحيث لم يبق إلا التنفيذ[1].

ولعب القدر دوره لإنقاذ صلاح الدين من هذه المؤامرة المحكمة التي أحبطت قبل أن تولد. ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم في سرهم الفقيه الواعظ زين الدين علي بن أبي نجا الذي قام بإطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولاً فأول، فقبض صلاح الدين على قادة المؤامرة، واستفتى العلماء فيما يكون عليه جزاؤهم فأفتوه بالقتل. فقتلهم يوم السبت من رمضان سنة 569هـ ـ السادس من نيسان سنة 1174م. وصلب رئيسهم الشاعر عمارة اليمني وثمانية من أصحابه، واكتفى بأن نفى من اشترك في المؤامرة من أجناد المصريين، وتحفظ على من بالقصر من سلالة الفاطميين وكان بينهم ابن الخليفة العاضد[2].

أما عموري ملك الصليبيين في بيت المقدس فلم يكد يعلم بنبأ القبض على المتآمرين وفشل خطته الموضوعة لغزو مصر حتى مات مقهوراً في شوال سنة 569هـ / حزيران 1174م. ولم يبق سوى إفرنج صقلية الذين لم يسمعوا بما حدث وقاموا بدورهم المرسوم فوصلوا إلى الاسكندرية في السادس والعشرين لذي الحجة سنة 569هـ/ 28 تموز سنة 1174م ليجدوا كل شيء قد انتهى. ومع ذلك حاولوا اقتحام الاسكندرية، ولكن المسلمين صمدوا لهم وأحرقوا بعضاً من سفنهم، في الوقت الذي وصل صلاح الدين مسرعاً فهاجم النورمان، وأغرق بعض سفنهم، وأنزل بهم الهزيمة، فآثر الباقون الإنسحاب يجرون أذيال الفشل والخيبة، بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في الرجال والعتاد والسفن[3].

---

1 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 85.

2 ـ أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ج 3، ص 54. وانظر ابن واصل: مفرج الكروب ج 1 ص 244. وأبو شامة كتاب الروضتين ج 1، ص 219.

وانظر Wiet. G. L'egypte Arabe, op, cit., p. 311.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 55 ـ 57 وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1 ص 231 ـ 235.

وهكذا نجا صلاح الدين من أعظم خطر تعرض له في مطلع حكمه الجديد كسلطان لمصر.

ب ـ صلاح الدين يوحد الجبهة الإسلامية

1 ـ وفاة نور الدين زنكي وبداية الصراع في بلاد الشام

توفي نور الدين محمود زنكي بدمشق في الحادي والعشرين من شوال سنة 569هـ/ الخامس عشر من أيار سنة 1174م. وكان الوريث الوحيد له في حلب ودمشق ابنه الملك الصالح اسماعيل الذي لم يتجاوز عمره عند وفاة أبيه إحدى عشرة سنة، فبدأت المنازعات بين ورثة وأمراء نور الدين حول الوصاية على الملك الصالح فاضطرب الأمن في بلاد الشام، وتصدعت الوحدة التي نذر لها الزنكي محمود نفسه، وقضى حياته في بنائها وتوطيد دعائمها وكثرت الفتن والحروب بين هؤلاء القواد. وكان أبرزهم سيف الدين غازي أتابك الموصل الذي استغل وفاة عمه نور الدين واستولى على بعض المواقع في الجزيرة مثل نصيبين والخابور وحران والرها والرقة وغيرها[1]. وشمس الدين محمد المقدم صاحب دمشق الذي تولى رعاية الملك الصالح اسماعيل وخليفته في الحكم، وشمس الدين علي بن الداية الذي احتل حلب أراد أن يحضر الملك الصالح إلى كنفه بالقوة ليتخذه ترساً ودرعاً، لكن القائد كمشتكين الذي أرسله لحفظ الملك الصغير ثار عليه وأودعه في السجن مع عدد كبير من الأمراء و «انفرد هو بأتابكة الملك الصالح اسماعيل واستبد بتدبير أموره»[2]. وهكذا غدت الوصاية على الملك الصالح موضوع نزاع بين دمشق وحلب.

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 1، ص 6 ـ 8.

2 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 8 ـ 9.

في الوقت الذي اشتدت فيه الخلافت بين أمراء البيت النوري انتهز الصليبيون الفرصة وشرعوا في مهاجمة المدن والمعاقل الإسلامية في الشام، فحاصروا قلعة بانياس وحاولوا الإستيلاء عليها، ولكن المدينة صمدت للحصار أسبوعين، وبدلاً من أن يحاول الأمير ابن المقدم صاحب دمشق محاربة الصليبيين فإنه راسلهم ولاطفهم» وعرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال واطلاق أسرى الصليبيين في دمشق[1].

وعندما علم صلاح الدين بأمر ذلك الاتفاق أنكره، و«استصغر أهل الشام وعلم ضعفهم». وكتب إلى أمراء دمشق، «يقبح عليهم ما فعلوه»[2]. ويظهر استعداده لمحاربة الفرنج في عقر دارهم لمنعهم من قصد بلاد الملك الصالح، وكان الهدف الحقيقي من وراء ذلك فتح طريق له إلى بلاد الشام للسيطرة عليها وهو الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين.

ولبث الملك الناصر يترقب الفرص ولا يقدم على أي أمر يثير غضب الشام ويخاوفها منه حتى استنجد به أبناؤها للزحف إليها، بعدما رأوا استبدادكمشتكين بالملك الصالح وقبضه على ابن الداية وأنصاره، فكتبوا إليه أن يسرع لإنقاذهم من خطر أحدق بهم[3].

خرج صلاح الدين من مصر في مستهل صفر سنه 570هـ/ أيلول سنة 1174م على رأس جيش من سبعمائة فارس، بعد أن استخلف على مصر أخاه الملك العادل، فوصل دمشق في آخر ربيع الأول سنة 570هـ/ أواخر تشرين الأول سنة 1174م دون أن يصطدم بالصليببن أثناء الطريق. واستولى عليها كما

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين، ج 1 ص 231 ـ 233.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 8.

3 ـ المصدر نفسه، ج 2 ص 3.

يقول ابن العماد «من غير مدافع وبلا ضربة ولا طعنة»[1]. بينما امتنع جمال الدين ريحان في القلعة. فأرسل صلاح الدين قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري إلى ريحان يطلب منه تسليم القلعة ويؤكد له أنه ما جاء إلى الشام إلا لتربية السلطان الطفل والإنابة عنه في تدبير دولته: «أنا مملوك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه» فما لبث ريحان حتى أرسل إلى صلاح الدين لاستلام القلعة، فمضى إليها وأخذ ما فيها من الأموال والكنوز، ففرقها على الأهالي وأمر بالمناداة بإزالة المكوس وابطال القبائح والمنكرات والضرائب المستحدثة بعد نور الدين[2]. فاستبشر الناس خيراً بهذه البادرة الكريمة[3]. ولا يسعنا إلا أن نؤكد أن صلاح الدين عندما خرج إلى الشام لم تكن غايته مجرد تحقيق أطماع ومكاسب شخصية وإنما كان حريصاً على أن يسعى لتحقيق الوحدة الإسلامية. وقد أوضح ذلك في رسالة بعثها إلى ابن المقدم قال فيها: «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم»[4].

بعد أن استمال صلاح الدين قلوب الدماشقة، غادر دمشق متوجهاً شمالاً ضد كمشتكين الذي استبد بالأمور في حلب[5]، فاستولى على حمص في مستهل جمادي الأولى سنة 570هـ/ تشرين الثاني سنة 1174م ثم على حماة في مستهل جمادي الآخرة سنة 570هـ/ كانون الأول سنة 1174م. أما حلب فقاومت صلاح الدين ورفضت الاستسلام، لكن الملك الناصر صمم الاستيلاء

---

1 ـ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج 4، ص 236.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين، ج 1 ص 236. وانظر المقريزي: السلوك ج 1، ص 58.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 20 وانظر Wiet, G. L'egypte Arabe, op. cit., p. 313.

4 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 18.

5 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 72.

على المدينة، وأمام ضغط الهجوم وتشديد الحصار أسرع كمشتكين إلى الاستعانة براشد سنان صاحب الإسماعيلية الحشيشية بقلعة مصياف لدفعه إلى قتل صلاح الدين مقابل أموال كثيرة وعددٍ من القرى، فلبى سنان الطلب وأرسل إلى معسكر صلاح الدين جماعة من أتباعه الفدائيين لإغتياله، وأوشك هؤلاء على النجاح في مهمتهم لولا انكشاف أمرهم[1]. ولما فشل الإسماعيلية في قتل صلاح الدين، أرسل الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي يطلبون منه المساعدة، ويعدونه بدفع الثمن إذا هو نجح في تخليص حلب من حصار صلاح الدين[2].

وجدت دعوة الحلبيين كل التجاوب في نفس الأمير الصليبي، فأسرع بجيشه إلى حمص ليستولي عليها في غفلة من صلاح الدين ثم يزحف إلى حلب فيهدد مؤخرته، ويضعه بين قوتين معاديتين.

يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري: «إن حملة ريموند الثالث لم تكن حباً أو خدمة لإمراء حلب، وإنما ليسد الطريق في وجه صلاح الدين ويحول دون قيام وحدة إسلامية في الشرق الأدنى»[3].

ما كاد الملك الناصر يعلم بحملة ريموند حتى فك حصاره عن حلب وأسرع إلى ملاقاة الفرنج، فإذا بهم يعودون من حيث أتوا تجنباً لمنازلته، لا سيما وأنهم قد حققوا مهمتهم وهي رفع الحصار عن حلب، وقد رد كمشتكين جميلهم بأن أطلق سراح أسرى الصليبيين في حلب وبينهم رينو دي شانيون وجوسلين دي كورتناي[4].

---

1 ـ أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 1، ص 239.

2 ـ المصدر نفسه، ج 1، ص 240.

3 ـ أبو شامة، كتاب الروضتين ج 1، ص 239.

4 ـ William of Tyre, A History... op. cit., t. 11. p. 1014.

تابع صلاح الدين سيره إلى دمشق، فحاصر قلعة حمص التي كانت قد استعصت عليه واضطرها إلى التسليم في الحادي والعشرين من شعبان سنة 570هـ/ آذار سنة 1175م ثم سار إلى بعلبك وحاصرها، فأرسل خادمها يمن إلى صلاح الدين يطلب الأمان له ولمن معه، فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة في الرابع من رمضان من سنة 570هـ/ الثامن والعشرين من آذار سنة 1175م[1].

ثم أرسل صلاح الدين الخطيب شمس الدين بن أبي طالب المضاء رسولاً إلى الخليفة العباسي المستضيء بنور الله يحمل كتاباً يوغر صدره فيه على ما آلت إليه الحال في بلاد الشام والتي دفعته إلى قيام حملته إليها بهدف التغيير والعمل على تحرير البلاد وتوحيدها في ظل خلافته. ثم يقول إن مجيئه إلى الشام هو مطلباً قومياً وليس مطلباً شخصياً: «والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة...»[2] وفي الوقت الذي حاول صلاح الدين الحصول على تأييد الخليفة العباسي سعى إلى استمالة الزنكيين، فكاتب عماد الدين بن مودود صاحب سنجار وأطمعه في الملك، فمال عماد الدين إلى صلاح الدين وانحاز إليه فاستشاط الحلبيون غضباء عندما علموا بالأمر وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجدونه، ويطلبون منه أن يعبر نهر الفرات ليجتمعوا على حرب صلاح الدين. استجاب صاحب الموصل لطلبهم وأرسل عساكره إلى حلب حيث اجتمعوا بالعساكر الحلبية وتقدموا إلى حماه فحاصروها فأرسل صلاح الدين إليهم ينصحهم بحقن داء المسلمين ويحذرهم من عدوان الفرنجة. رفض قادة الجيش المهاجم طلب صلاح الدين. وفي الموقعة التي دارت بين الطرفين عند قرون حماه في التاسع عشر من رمضان سنة 570هـ/ الثالث عشر من نيسان سنة 1175م

1 ـ Schlumberger, G, Renaud de chatillon. op. cit., p. 144.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 29.

انتصر صلاح الدين انتصاراً عظيماً ثم اتبع انتصاره بدخول حلب، حيث أعلن عزل الصالح اسماعيل واتخذ لقب «ملك مصر والشام». ولم يلبث الخليفة العباسي أن أقر الوضع الجديد وأرسل إلى صلاح الدين بالتشريفات السلطانية والتقليد الخلافي بما اراد من الولايات فضلاً عن الخلع له ولأقاربه وصلته إلى حماه[1].

وعلى الرغم من أن معظم الأمراء رأوا وقتذاك أن هذا ليس إلى أجراء شكلياً، فإن صلاح الدين اعتبره أمراً عظيم الأهمية.

2 ـ عودة صلاح الدين لحصار حلب

حنق سيف الدين غازي صاحب الموصل من الاتفاق الذي تم بين حلب وصلاح الدين وزاد سخطه ما صار إلى صلاح الدين من نفوذ وقوة في بلاد الشام. وصار يتخوف من أن يهاجمه صلاح الدين في عقر داره (الموصل)/ فأخذ يتأهب لخوض معركة جديدة وقام بحركة تعبئة ضخمة، في الوقت ذاته أرسل إلى الشام رسولاً حمله كتابين أحدهما إلى صلاح الدين يطلب فيه العهد والميثاق، والثاني إلى امراء حلب يلومهم فيه على مصالحة صلاح الدين ويدعوهم إلى استئناف القتال، فدخل الرسول على صلاح الدين أولاً، وأخطأ فسلمه كتاب غازي إلى أمراء حلب فقرأه وعرف ما يبيته الموصوليون والحلبيون فأعاده إلى الرسول قائلاً: «لعلها قد تبدلت!» فعرف الرسول غلطته، ولم يكن باستطاعته أن يتدارك ما فات، وتحقق صلاح الدين أنهم نقضوا العهد، فكتب إلى أخيه العادل نائبه بمصر يطلب إليه إعداد العساكر وإرسالها إلى الشام[2].

حشد سيف الدين غازي عساكره، واستنجد بصاحب حصن كيفا

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 250. وابن واصل: مفرج الكروب ج 2، 21 ـ 23.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 36 ـ 37.

وصاحب ماردين وغيرهما من الأمراء التركمان، بالاضافة إلى الحلبيين، ولكي يضمن النصر أكثر راسل الصليبيين في بيت المقدس ليكونوا عوناً لهم على صلاح الدين، كما اتصل بالحشاشين ودبر معهم اغتيال صلاح الدين[3] وفي المعركة التي دارت عند تل السلطان ـ على الطريق بين حماه وحلب في التاسع من شوال سنة 571هـ/ الحادي والعشرين من نيسان سنة 1176م حلت الهزيمة بالزنكيين وحلفائهم وقتل فيهم كثيرون واستولى صلاح على غنائم ضخمة[4]. وبعد ذلك ركز الملك الناصر جهوده في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقي حلب ليقطع الصلة بينها وبين الموصل، فاحتل بزاغة ومنبج وعزاز وخلال حصاره قلعة عزاز الذي دام ثمانية وثلاثين يوماً حاول الحشاشون اغتيال صلاح الدين مرة أخرى في ليلة الأحد 11 ذي القعدة سنة 571هـ/ صيف 1176م فباءت محاولتهم بالفشل مثل سابقتها[1].

بعد أن استولى صلاح الدين على عزاز توجه إلى حلب فحاصرها في منتصف ذي الحجة سنة 571هـ/ 25 حزيران سنة 1176م وشدد عليها الخناق، فضاق الحلبيون ذرعاً وخشي الملك الصالح إسماعيل أن يفقد هذا الملجأ الأخير الذي يلوذ به فراسل صلاح الدين وتذلل له طالباً الصلح، فأجابه الملك الناصر، واتفق عل نفس الشروط السابقة، وهي أن تكون حلب وأعمالها للصالح اسماعيل بما فيها مدينة عزاز[*]، وأن تكون مصر وبلاد الشام من مدينة حلب وما يليها

---

3 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 747.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 60. وانظر Baldwin, Crusades, t. op. cit., p. 570.

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 44 ـ 47.

(*) جاءت خاتون «ابنة نور الدين الصغيرة مع الوفد الحلبي المفاوض فاستقبلها صلاح الدين أحسن استقبال وقدم إليها المال والهدايا، وسالها عما يطلبه أهلها فأجابت أنهم يريدون عزاز فوهبها إياها، ثم أوصلها إلى باب المدينة بنفسه وقدم لها من الجواهر والأموال شيئاً كثيراً.

ـ ابن الأثير الكامل، ج 11، ص 295.

جنوباً لصلاح الدين. ثم حلف الجميع، ودخل في الصلح المواصلة وأهل ديار بكر في ذي القعدة سنة 571هـ/ تموز سنة 1176م، فأقسموا جميعاً على أن يجتمعوا على كل من ينقض الصلح[1].

لم يكد صلاح الدين يفرغ من الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار قلعة الحشاشين في مصياف، فنصب عليها المنجنيق وأوسعهم قتلاً وأسراً وضرب ديارهم، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع فيهم شهاب الدين الحارسي خال صلاح الدين[2].

كان صلاح الدين يدرك تماماً أن تحصين مصر وحمايتها لا يقل اهتماماً عن بلاد الشام بعد أن أثبتت التجارب أن الصليبيين أشد طمعاً في مصر منهم في الشام والعراق، وأنهم يحسبون حساباً كبيراً لإستيلاء صلاح الدين على مصر بالذات[3]. فأناب عنه أخاه ثوران شاه في إدارة بلاد الشام وعاد لتفقد أحوال مملكته في مصر في جمادي الأول سنة 572هـ/ أيلول سنة 1176م[4].

ستتكلم عن موضوع تحصين مصر لاحقاً لنحرص على وحدة البحث في توحيد الجبهة الإسلامية في الشرق الأدنى التي كانت غاية صلاح الدين ومطلبه الأساسي.

3 ـ استيلاء صلاح الدين على حلب والموصل

أثناء وجود صلاح الدين بمصر بلغته أنباء مثيرة من الشام، إذ توفي سيف الدين غازي صاحب الموصل وترك ملكه لأخيه عز الدين ارسلان بن مسعود،

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 44 ـ 46. وابن شداد: النوادر السلطانية، ص 273.

2 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ص 273. وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1 ص 174.

3 ـ د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 750.

4 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 51. Wiet. L'egypte Arabe, op. cit., p 315.

ثم توفي الملك الصالح بحلب في 25 رجب سنة 577هـ/ الرابع من كانون الأول سنة 1881م موصياً بملكه لإبن عمه عز الدين ارسلان بن مسعود «الكثرة عساكره وبلاده وأمواله فيستطيع أن يحفظها من صلاح الدين ويبقى على البيت الزنكي»[1]. غادر صلاح الدين القاهرة في الخامس من محرم سنة 578هـ/ الحادي عشر من أيار سنة 1182م[2]. متوجهاً إلى الشام عن طريق إيلة، فوصل دمشق في صفر سنة 578هـ/ حزيران، 1182م[3]. تابع سيره باتجاه حلب فحاصرها وضيق عليها الخناق، فما كان من المواصلة إلا أن كاتبوا الصليبيين وحرضوهم على مهاجمة الثغور الإسلامية ليشغلوا صلاح الدين عن قصدهم، فاضطر الملك الناصر إلى رفع الحصار عن حلب واتجه يطلب الموصل، فوصلها يوم الخميس الحادي عشر من رجب سنة 578هـ/ العاشر من تشرين الأول سنة 1182م، وفشلت جميع جهوده في الدخول إلى المدينة بفضل حصنها المنيع، ومقاومة أهلها الباسلة في الدفاع عنها، فقرر صلاح الدين فك الحصار والابتعاد عن أسوارها[4].

يبدو أن صلاح الدين أخذ يشعر بالحرج لفشله في الاستيلاء على الموصل، وحاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فأرسل رسالة إلى الخليفة يتهم فيها الزنكيين بالتحالف مع الصليبيين. في الوقت ذاته كان عز الدين مسعود صاحب الموصل قد أرسل المؤرخ ابن شداد يسأل الخليفة الناصر المساعدة ضد صلاح الدين، فأرسل الخليفة رسوله صدر الدين شيخ الشيوخ ومعه بشير الخادم ليتوسط بين الفريقين وجوهر الموضوع في هذه

---

1 المصدر نفسه ج 2، ص 107 ـ 108 وانظر Baladwin, Crusades... op. cit., t. 1. p. 576.

2 ـ المصدر نفسه ج ص 15 ـ 18.

3 ـ المصدر نفسه ج، ص 119.

4 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2 ص 119 ـ 120.

المفاوضات لم يكن بأي حال من الأحوال قائماً على دعوى صلاح الدين في امتلاك إمارة الموصل إنما دارت المحادثات حول الشروط التي بمقتضاها ينحاز أمير الموصل إلى صلاح الدين، ويرسل إليه جيوشه لتسهم في الجهاد ضد الفرنجة[1]. ولكن أتابك الموصل لم يأبه لطلب الخليفة، وبالرغم من توقف المفاوضات فإن صلاح الدين أصر على احتلال الموصل. فبدأ بالإستيلاء على القلاع المحيطة بمدينة الموصل، فاستولى على سنجار ومدينة آمد وتل خالد وعين تاب، ثم سار صلاح الدين إلى حلب لتسوية حسابه مع أميرها عماد الدين لكنه حاول أن يفتح حلب صلحاً بدون قتال، فأرسل إلى عماد الدين يعرض عليه الصلح فأجابه الزنكي الموافقة مقابل أن يعوضه صلاح الدين عنها بسنجار، فوافق صلاح الدين وأضاف إليه أيضاً الخابور ونصيبين والرقة وسروج[2].

وباستلام حلب بقيت الموصل وحدها. فاتجه إليها صلاح الدين في ربيع الأول سنة 581هـ/ حزيران سنة 1185م، فحاصرها وأمام إصرار الملك الناصر على فتح المدينة وجد الأمير مسعود ألا فائدة من مواصلة القتال، فانتهز فرصة مرض صلاح الدين وطلب من صاحب سنجار التوسط بينه وبين صلاح الدين، وتم الصلح فعلاً بين صلاح الدين وعز الدين مسعود في التاسع من ذي الحجة سنة 581هـ/ آذار سنة 1186م، على أن يعترف مسعود بتبعيته لصلاح الدين، وأن يخطب له على منابر بلاده، وأن يضرب اسمه على السكة، وأن يحضر بعسكره في خدمة صلاح الدين حين يدعوه إلى المشاركة في قتال الافرنج[3].

وبذلك تحققت الوحدة الإسلامية الكبرى من الفرات إلى النيل، ولم يبق

---

1 ـ ابن واصل ج 2، ص 124.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 45 وانظر ابن الأثير: الكامل ج 12، ص 57.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 105.

أمام صلاح إلا أن يوجه جهوده نحو تحصين مصر من ناحية ومواصلة النضال ضد الصليبيين.

ج ـ صلاح الدين يحصن مصر

الواقع أن صلاح الدين مذ وطأت أقدامه أرض مصر بدأ يضع الخطط لتحقيق حلمه الكبير وهو إجلاء الصليبيين عن الشرق. وأدرك أن ذلك لن يحصل إلا بتحقيق الوحدة الإسلامية، وتأمين قوة القاعدة لهذا الجهاد وهي مصر، ولا قوة لمصر إلا بإحكام شؤونها العسكرية والاقتصادية، فشرع في تحصين مصر حتى يتمكن من مواجهة أية محاولة يقوم بها الصليبيون لغزوها على غرار حملات بلدوين ـ ملك بيت المقدس ـ السابقة(*) ـ حاول صلاح الدين أن يحيط القاهرة والفسطاط بسور واحد حصين بعد أن «تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً»[1]. فعهد ببنائه إلى رجله الأكبر بهاء الدين قراقوش الخصى فبدأ في هذا العمل منذ سنة 567هـ/ 1171م ولما رجع صلاح الدين من الشام في جمادي الأولى سنة 571هـ/ أيلول سنة 1176م استحث قراقوش لإتمام هذا العمل ففرع منه هذا الأخير في السنة نفسها، وكان السور مبنياً كله من الحجارة، ويبدأ شماله عند قلعة المقس المطلة على النيل، ويظل يطوف بالقاهرة والفسطاط حتى ينتهي عند النيل أيضاً جنوب الفسطاط، ويقول المؤرخون أن محيط السور كان تسع وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان[2]. ولا شك في أن صلاح الدين الذي

(*) في آذار سنة 531هـ/ 1120م خرج بلدوين على رأس حملة وصلت إلى مدينة الفرما شرق بور سعيد، فقتل جميع من فيها وأحرق مساجدها، ثم سار إلى مدينة تنيس فأحرقها وتابع سيره حتى وصل إلى مصب نهر النيل.

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 9، ص 171.

وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 192.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 268.

شاهد في بلاد الشام مدناً محضة وحصوناً مسورة، وأسوار عالية محكمة البناء، أخذ فكرة واضحة عنه أساليب الحصار والدفاع والحرب، وعن أهمية الحصون والقلاع والاستحكامات في حماية المدن، فقرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزاً للحكام، وملجأ للشعب عند الضرورة، وتقوم بالدفاع عن العاصمة ضد اي خطر خارجي كما هو الشأن في قلاع حلب ودمشق والموصل. وقد أحسن صلاح الدين اختيار موقع القلعة بحيث تشرف على القاهرة ومصر اشرافاً تاماً، وتستطيع حاميتها أن تقوم بعمليتين مزدوجتين، هما ضبط الأهالي وإخماد أية فتنة داخلية فضلاً عن مقاومة أي محاولة خارجية للإستيلاء على القاهرة[1].

وسرعان ما أخذ الملك الناصر في تنفيذ مشروعه، فجلبت الأحجار اللازمة للبناء من منطقة الجيزة، وساعد في العمل عدد كبير من أسرى الصليبيين[2]. وقد روعي في بناء السور والقلعة أن يكونا محصنين بأبراج منيعة بعضها من طبقة واحدة والبعض الآخر من طبقتين، ويتكون البرج من قبو نصف دائري يؤدي إلى ستار الحائط بمزاغل تستخدم لرمي العدو المهاجم بالسهام منها، أو إلقاء المواد الكاوية والزيت المغلي[3]. ولما كان الماء هو أهم ما سيحتاجه المحاصرون فقد حفر في أساس القلعة بئراء لإمدادها بالماء، ولا يزال هذا البئر موجوداً حتى الآن، ويسميه العامة بئر سيدنا يوسف صلاح الدين الأيوبي.

وقد استغرق تشييد القلعة زمناً طويلاً، فالنقش المؤرخ بتاريخ سنة 576هـ/ 1180م والكتابة الواردة بنفس سنة 579هـ/ 1183م تشير إلى أن بناء القلعة التي تجاور القاهرة جمع بين الإفادة في جمالها[1]. والموقع في مناعتها

---

1 ـ نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ص 92.

2 ـ زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص 69.

3 ـ Wiet. G. L'egypte Arabe. Op. cit., p. 355.

وحمايتها[1].

كما أشاد المؤرخ العماد الأصفهاني والرحالة ابن جبير في بناء القلعة وعظمتها[2].

إن جهود صلاح الدين في تحصين مصر لم تقف عند حد القاهرة وإنما امتدت إلى مختلف الثغور والموانىء المصرية لا سيما بعد أن تكررت اعتداءات السفن الصليبية على تنيس ودمياط وغيرهما من الموانىء، من ذلك ما يرويه أبو شامة من خروج صلاح الدين سنة 572هـ/ 1177م إلى دمياط والاسكندرية وبصحبته ولداه الأفضل علي والعزيز عثمان حيث تفقد تحصينات مينائهما، وقوى دفاعهما ورمم أسوارهما وقلاعهما وحشد فيهما الجنود[3].

ويقول المقريزي كان من شدة عناية صلاح الدين بمدينتي دمياط وتنيس أن أمر بالعناية بتحصينهما «ورتب المقاتلة على البرجين بدمياط، وجهز خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر في السلسلة التي بين البرجين، وعمل تقريراً يرسم ما يحتاج إليه سور تنيس وإعادته كما كان في القديم»[4]. كما أمر صلاح الدين في العام نفسه بتشييد برج في مدينة السويس، يتسع لعشرين فارساً «ورتبت فيه الفرسان»[5].

وعني صلاح الدين بالأسطول المصري الذي كان قد تهدم وضرب، فنفخ فيه الحياة من جديد، وأنشأ ديواناً اسمه الأسطول ووضع تحت يد القائم

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 51 وص 54 حاشية رقم 2.

2 ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 25، وأبو شامة: كتاب الروضتين: ج 1 ص 268.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1 ص 267.

4 ـ المقريزي: السلوك، ج 1، ص 72، 73.

5 ـ المصدر نفسه، ص 74.

على الديوان كل الامكانيات اللازمة لإعادة إنشاء الأسطول وإعداده للغزو والقتال[1].

وهكذا استطاع صلاح الدين خلال فترة لا تزيد على الست سنوات 572هـ ـ 577هـ/ 1176 ـ 1181م أن يحصن مصر وينظم أمورها ويهتم بمنشآتها حتى يأمن عادية أي عدو خارجي.

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 268 ـ 269.

الفصل الثالث

صلاح الدين والصليبيون

أولاً ـ مقدمة

بعد أن تمكن صلاح الدين من تأليف جبهة اسلامية متحدة تمتد من الفرات شرقاً إلى برقة غرباً، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً وجه اهتمامه لمحاربة الصليبيين واستئصال شأفتهم من كافة البلاد الاسلامية (العربية).

والواقع أن صلاح الدين لم يغفل أمر قتال الصليبيين مطلقاً، بالرغم من توجيه كل جهوده نحو توحيد القوى الإسلامية تحت زعامته. فقد اشتبك مع الصليبيين في حروب عديدة غلب عليها الطابع الدفاعي، لمنعهم من الاعتداء على أملاك المسلمين وأراضيهم، وإما ليحول بينهم وبين تقديم أية مساعدة، لا سيما وأنهم أصبحوا الملجأ الذي يلجأ إليه كل أمير مغلوب أو أمير طامع أعمته شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجي فاستعان بهم على خصومه من الأمراء الأقوياء وفي المقدمة صلاح الدين.

الواقع أن احتدام الصدام العسكري بين صلاح الدين والصليبيين كان على مرحلتين:

المرحلة الأولى امتدت من سنة (559هـ ـ 573هـ) (1164 ـ 1177م) أي منذ وصول صلاح الدين ـ صحبة عمه شيركوه ـ إلى مصر لأول مرة حتى توليه الوزارة في مصر.

وتعتبر المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين في أرض مصر في تلك الفترة ولا سيما في موقعة البابين سنة 562هـ/ نيسان 1167م، وحصار الصليبيين للاسكندرية بعد ذلك وتضيق الخناق عليها براً وبحراً كانت مرحلة تجارب واكتساب خبرات لصلاح الدين التي أظهر بسالة فائقة وشجاعة نادرة قل نظيرها عند قادة عصره.

تحدثنا عن هذه المرحلة في القسم الأول من الكتاب «سقوط الدولة الفاطمية».

المرحلة الثانية: امتدت من سنة (573 ـ 576هـ) (1177 ـ 1180م) أي منذ توليته الوزارة حتى صلح الرملة.

وستتكلم عن هذه المرحلة بالتفصيل.

أ ـ اصطدام صلاح الدين بالصليبيين وهزيمته في الرملة.

لم يهمل صلاح الدين أمر الصليبيين أثناء انصرافه إلى تحصين مصر وتصريف شؤونها، وإن لم يكن القصد من حملاته في هذه المرحلة سوى رد الصليبيين عن مهاجمة أملاكه في مصر والشام، مثلما حدث من مهاجمة أسطول صقلية للاسكندرية سنة 570هـ/ 1174م، ومهاجمة حمص سنة 571هـ/ 1175م، وفي كل مرة كان يحاول صلاح الدين مهادنتهم حتى كانت سنة 573هـ/ 1177م حيث بلغته أبناء مثيرة من الشام مفادها أن الصليبيين نقضوا الميثاق الذي عقد معهم، وحاولوا الاستيلاء على بعلبك في غير طائل، ثم غزوا أطراف دمشق فانتصروا على جنوده وأسروا قائده ابن سلار، وهزموا أخاه ثوران شاه شر هزيمة، فساوره الغضب الشديد وأسرع في مهاجمة غزه وعسقلان في جنوبي فلسطين عله يخفف الضغط عن الحاميات الإسلامية المرابطة بحماه وحارم[1]، بعد

---

1 ـ نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري... ص 9.

أن اتجهت الحملات الصليبية إليها، أسرع بلدوين الرابع لنجدة عسقلان، إلا أن صلاح الدين ما لبث أن حاصره فيها فخلت بذلك المدن والقلاع الصليبية من جيوش تحميها، ولما رأى المسلمون ذلك «انبسطوا واسترسلوا، وتوسط السلطان البلاد»[1]. ووصلت جنوده إلى اللد والرملة، وتسلل بعضهم إلى الجهات الواقعة بين أرسوف ونابلس، وتفرقوا جميعاً لجمع الأسلاب والغنائم، فأتاحوا الفرصة لبلدوين الرابع كي ينجو من الحصار ويحشد القوات الصليبية القريبة منه، ويباغت صلاح الدين بمساعدة رينو دي شاتيون «أرناط» وكان في قلة من الرجال عند تل الصافية على مقربة من الرملة، فأوشكوا أن يقضوا عليه ومن معه ولم ينج منهم إلا بأعجوبة، ثم انقضوا على أفراد الجيش المبعثرين فكادوا أن يفنوهم، وكانت هذه أقس هزيمة لقيها صلاح الدين في حياته كلها[2]. ركز الصليبيون على صلاح الدين، وكل همهم النيل منه، والقضاء عليه، إلا أنه «اضطر إلى الإفلات من بينهم والانطلاق في الفلاة على غير هدى، يتبعه أصحابه الثلاثة «إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيض، وسويد بن غشم المصري» تائهين في الرمال لا ماء ولا دليل ولا زاد ولا علف، حتى تبعه بما كان معه من الماء والزاد... ثم تابعوا سيرهم إلى مصر، أما العسكر الذي تفرق في طلب الغنيمة داخل حصون الصليبيين فإن أكثرهم ذهب بين قتيل وأسير»[3].

وكان من أسرى المسلمين في تلك المعركة الفقيه الهكاري الصديق القديم لصلاح الدين وقد افتداه فيما بعد بستين ألف دينار ومهما كانت أسباب هزيمة

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 59.

2 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 758.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 273 وانظر المقريزي: السلوك ج 1، ص 64.

وانظر: A.Champdor. Saladin. Le plus Hèros de l'islame p. 98.

صلاح الدين في الرملة وتعليل بعض المؤرخين لها[1]. فإن هذه الهزيمة تركت أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين، وأقسم أن لا تضرب له نوبة حتى يهزم الصليبيين. ثم أمر بمعاقبة جماعة من الأكراد لأنهم كانوا السبب في هذه الهزيمة، فصادر إقطاعاتهم الزراعية، وكتب إلى أخيه توران شاه أمير دمشق يخبره بما حدث له وقال: «لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى»[2].

وفي نفس السنة 573هـ/ 1177 ـ 1178م اغتنم الصليبيون فرصة قيام الخلاف بين الملك الصالح وكمشتكين وحاصروا حارم التي كانت اقطاعاً لهذا الوزير، ولم يتخلوا عنها إلا بعد أن أعطاهم الملك مبلغاً كبيراً من المال[3]. وما إن وصلت أبناء هذه التحركات إلى صلاح الدين وهو في بركة الجب حيث يقضي عيد الفطر حتى أسرع في المسير إلى دمشق فدخلها في الرابع والعشرين من شوال سنة 573هـ/ الخامس عشر من نيسان سنة 1178م. وقام باتخاذ مجموعة من التدابير ضد الصليبيين، فجعل تقي الدين عمر على حماه، لمواجهة صاحب أنطاكية، ورتب ناصر الدين بن شيركوه على حمص لوقف حركات ريموند أمير طرابلس ـ وطلب إلى أخيه العادل أن يبعث إليه من مصر نحو ألف وخمسمائة فارس والمؤونة، نظراً لما حدث بسوريا وقتذاك من المجاعة بسبب عدم سقوط الأمطار[4]. وفي أوائل شهر ربيع الآخر سنة 574هـ/ أيلول 1178م، هاجم الصليبيون مدينة حماه، فتصدى لهم المسلمون وأسروا مقدمهم في جماعة من جنده، وبعثوا بهم إلى صلاح

---

1 ـ A.Champdor. Saladin. Le plus Hèros de l'islame p. 79.
وانظر يوسف الريس: تاريخ سورية ج 1، ص 79.

2 ـ ابن الأثير: الكامل ج 12، ص 297.

3 ـ ابن الجوزي: مرآة الزمان ص 225.

4 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2 ص 73 ـ 74... وانظر Baldwin, op. cit., p. 574

الدين بدمشق فأمر بضرب أعناقهم، وقد انتهز الصليبيون انشغال صلاح الدين بمحاربة شمس الدين بن المقدم في بعلبك وشرعوا في بناء قلعة بالقرب من طبرية عند بيت النبي يعقوب في مكان يسمى «بيت الأحزان» لزعمهم أن «يعقوب اعتاد الانفراد فيه للبكاء على يوسف»[1]. وملؤوها بالمؤونة والذخيرة، وحصنوها تحصيناً قوياً لجعلها قاعدة لغزواتهم ضد المسلمين.

وفي نفس العام 574هـ/ 1178م سار بلدوين الرابع لغزو دمشق فأرسل صلاح الدين لملاقاته ابن أخيه عز الدين فرخشاه على مقدمة جيشه، فاصطدم بالفرنج، وقتل جماعة من مقدميهم وكاد يأسر بلدوين الرابع[2]، وخرج صلاح الدين لنجدة ابن أخيه، ولكن وافته الأسرى ورؤوس القتلى، فسر بذلك وعاد على دمشق[3].

استشاط الصليبيون غضباً لهزيمة بلدوين الرابع واتحد نبلاؤهم وتألبت جموعهم وساروا في جيش عظيم من صفد إلى أعالي وادي الأردن، وانحدروا إلى مدينة مرجعيون وأنزلوا هزيمة فادحة في النفوس والأرزاق، ولكن صلاح الدين ما لبث أن وافاهم إلى هناك، وخاض معهم معركة عنيفة تكللت بإحرازه نصراً حاسماً في الثاني من محرم سنة 575هـ/ 10 حزيران 1179م وأسر عدداً من فرسانهم بينهم ريموند أمير طرابلس، وهوج أمير طبرية، وبلدوين أمير الرملة، وقد افتدى هذا نفسه ـ على ما قيل ـ بمائتين وخمسين ألف قطعة من الذهب وألف من أسرى المسلمين[4].

غير أن صلاح الدين لم ينسى قلعة يعقوب لأهميتها الاستراتيجية وخطرها

---

1 ـ ابن الجوزي مرآة الزمان ص 225.

2 ـ Guillame de Tyre, op. cit., p. 1052.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 73 ـ 74.

4 ـ المصدر نفسه ج 2، ص 75 ـ 77 وانظر Baldwin. Grusades. T. op. cit. p. 57.

على مواصلات المسلمين فهاجمها في أواخر المحرم سنة 575هـ/ 29 آب 1179م وشدد عليها الحصار، وضربها بالمنجنيقات حتى سقطت في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة 575هـ/ 28 أيلول 1179م وأسر كل من فيها وأطلق سراح أسرى المسلمين واستولى على غنائم وفيرة من الأسلحة والأقوات[1]. ولم يبرح صلاح الدين مكانه حتى تم هدم القلعة من الأساس، وردم آبار المياه بها[2].

وهكذا استعاد صلاح الدين هيبته، ومسح آثار هزيمة الرملة، وسرت فيه حميا النصر، فأغار على مدينة عكا براً وبحراً، بينما كانت سراياه تغزو أنحاء صفد وطبرية، فاضطرب ملك القدس وشعر بحرج موقفه ولم يجد بداً من مصالحته، فعقد معه سنة 576هـ/ 1180م هدنة لمدة سنتين شملت جميع المدن التي كانت بيد الصليبيين ما عدا طرابلس التي ظلت تقاتل المسلمين ردحاً من الزمن ثم صالحتهم، وانطاكيا التي حالت صراعاتها الداخلية دون القيام بعمل عدائي ذي شأن ضد المدن المجاورة لها[3]. كان صلاح الدين أميناً للعهد الذي قطعه على نفسه مع ملك القدس لكن رينو دي شانيون (أرناط) صاحب الكرك، وهو من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين خالف شروط المعاهدة، وقام في صيف سنة 577هـ/ 1181م بحشد قواته وسار إلى تيماء الواقعة بين الشام ووادي القرى، على طريق الحجاج المسلمين، فسلب قافلة غنية، وقطع طريق الحج نهائياً، عازماً الزحف على المدينة المنورة للإستيلاء عليها[4]. كان رد صلاح الدين على حملة أرناط أن هاجم مدينة دمياط واستولى على مركب ينقل بعض السياح الأوروبيين، بينما أغار نائبه في الشام عز الدين فرخشاه على مدينة الكرك فخرب قراها واكتسح

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 14.

2 ـ Wiet. G. L'egypte Arabe, op. cit., p. 317.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 79. وانظر Baldwin, Crusades. T. p. 575.

4 ـ نظير حسان... سعداوي: التاريخ الحربي المصري... ص 126.

نواحيها، وظل مرابطاً تجاه القوات الصليبية، فاضطرب أرناط وتخلى عن مشروعه العدواني، وصرف جنده، فعاد فرخشاه إلى دمشق[1]..

وفي خريف سنة 577هـ/ 1181م استقبل صلاح الدين رسولاً من قبل الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومتين الثاني، وعقد معه صلحاً وطد أواصر الصداقة والسلام بين الدولتين كفل صلاح الدين بموجبه عدم مساهمة الأسطول البيزنطي في اية حركة هجومية على مصر، ومن ذلك التاريخ صارت علاقة مصر بالدولة البيزنطية ودية للغاية واستمرت بيزنطية في الاحتفاظ بالعلاقة الحسنة مع صلاح الدين نكاية بالصليبيين[2].

وعلى الرغم من أن جميع الحروب التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين عقب توليه عرش السلطنة في مصر بين سنتي 573هـ ـ 576هـ/ 1177م 1180م، لم تتخذ صورة الحرب الشاملة، ولم يترتب عليها تغيير في الأوضاع الاقليمية، فإن ذلك لم يقلل من أهميتها، فقد استطاع صلاح الدين إثبات وجوده بكل ثقة واعتزاز، وحمل الصليبيين على توقيع هدنة معه في أواخر سنة 580هـ/ 1184 مدتها أربع سنوات، انصرف خلالها إلى توطيد ملكه على دعائم راسخة استعداداً لإنجاز البناء الذي وضع أسسه، وتحقيق الهدف الذي يطمح إليه وهو طرد الصليبيين من بلاد الشرق.

ب ـ صلاح الدين ومملكة بيت المقدس

أراد صلاح الدين اتخاذ خطوة حاسمة ضد الصليبيين، ولكن ابرامه هدنة بينه وبينهم كان يحول دون ذلك لأن صلاح الدين كان ممن يحترمون العهود والمواثيق.

---

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 102، وانظر ابن الأثير: الكامل ج 11، ص 319.

3 ـ نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي... ص 127.

وشاء القدر أن يهيء لصلاح الدين فرصته، دون أن يكون هو الناكث بالعهد فقد نقض الأمير «أرناط» صاحب الكرك المعاهدة التي أبرمها الصليبيون مع صلاح الدين[1]، كعادته وانقض على قافلة تجارية كانت متجهة من الشام، فاستولى عليها وألقى بأفرادها في حض الكرك وراح يقول لهم: «أين محمدكم... دعوه يأتي لنصركم... »[2].

غضب صلاح الدين لهذه الفعلة وبادر إلى الاحتجاج لدى «أرناط» ثم إلى جان لوزجنان... لكن صاحب الكرك أبى الاصغاء إلى مذكرة السلطان واستخف بتهديده، ورفض أوامر ملك القدس باطلاق الأسرى وإعادة ما سلبه منهم، فاشتد غضب صلاح الدين، وأقسم ليتقمن منه شر انتقام، واعتبر عدوانه على القافلة وعجز لوزجنان عن تسوية الأمر، نقضاً للهدنة، وقرر اعلان الحرب على مملكة القدس[3] كان صلاح الدين يعتقد أن الحرب بينه وبين الصليبيين قد تقتصر على مملكة القدس وحدها، وذلك لأن ريموند الثالث أمير طرابلس كان على صلات ودية معه، وبوهمند الثالث أمير أنطاكية جدد الهدنة المعقودة بينهما[4].

لما اطمأن صلاح الدين لهذه الصداقة، وأيقن عدم تعرض مؤخرة جيشه لهجوم مفاجيء، أعلن الجهاد في جميع أنحاء البلاد، وطلب النجدة فجاءته من كل ناحية من مصر والشام وحلب والجزيرة وديار بكر... وخرج من دمشق في محرم سنة 587هـ/ الرابع عشر من آذار سنة 1187م بصحبة ولده الملك الأفضل فأبقاه عند رأس الماء قرب دمشق في انتظار مجمع العساكر، وتوجه هو إلى بصرى مرتقباً خوفاً عليهم من غدر أرناط، فلما وصل الحجاج سار إلى

---

4 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 75.

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 185. وانظر Baldwin, op. cit., p. 606.

2 ـ Crousset, R. Histoire de Groisades, t, 11 p. 778.

3 ـ Champ dor saladin, Le plus Hèros de L'islam p. 145.

الكرك ونازلها وقطع ما حولها من الشجر، وأفسد زرعها وكرومها، ثم قصد إلى الشوبك وفعل بها مثل ذلك، وفي هذه الأثناء وصلت العساكر المصرية بقيادة أخيه الملك العادل فضمها إلى جيش سورية، وسار بهما إلى الكرك، فنازلها وشدد الحصار عليها، ثم رحل عنها واتجه إلى بانياس ـ قرب طبرية ـ لمراقبة الموقف[1].

ج ـ موقعة حطين واستعادة بيت المقدس

في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين بعد العدة للموقعة الحاسمة بينه وبين الصليبيين، كانت الجيوش السورية تخوض المعركة مع الصليبيين بقيادة الملك غي دي لوزجنان قرب صفورية في ربيع الأول سنة 583هـ/ أيار 1187م، وفيها هلك عدد كبير من الصليبيين منهم مقدم الاسبتارية، ووقع في الأسر جماعة من فرسانهم[2]. إزاء هذه الكارثة التي حلت بالصليبيين، تناس أمراءهم خلافاتهم وتنادوا إلى عقد اجتماع قرروا بموجبه إرسال وفد إلى ريموند الثالث لإسترضائه، فقبل وساطتهم ونقض تحالفه مع صلاح الدين وعاد إلى صفوفهم[3]. اجتمعت الجيوش الصليبية في صفورية استعداداً للإنتقام من المسلمين بناء على نصيحة ريموند الثالث بأنها ملائمة للعمليات الدفاعية. وقد زاد عدد المحتشدين على اثنين وعشرين ألفاً بين راجل وفارس وهناك من يقول أنه بلغ عدد المقاتلين الخمسين أو الستين ألفاً[4]. رأى صلاح أن يتحاشى مهاجمة الصليبيين في صفورية، وعمل على إجبارهم على المسير إليه في الداخل وفي المكان الذي حدده للمعركة فهاجم مدينة

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 93.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 187. وانظر .Baldwin, op, cit, p. 585

3 ـ الدكتور عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص 115.

4 ـ المطران يوسف الدبس: تاريخ سورية ج 6، ص 101. وانظر Bahier, L'eglise et l'orient... p. 115.

طبرية واستولى عليها وأحرقها، وإن لم يستطع الإستيلاء على قلعتها التي امتنعت فيها البارونة إيشيفا زوجة ريموند الثالث مع أولادها وحاشيتها وأرسلت إلى الملك لوزجنان في صفورية تدعوه إلى انقاذها[1].

غضب الصليبيون لسقوط طبرية، فعقدوا مجلس حرب في عكا للتشاور في الزحف من صفورية إلى طبرية. فعارض ريموند الثالث الفكرة وأيدته بعض القيادات الصليبية لوعورة الطريق وقلة الماء وحرارة الجو، وفضل البقاء وانتظار المسلمين على الساحل، غير أن ارناط ولوزجنان رفضا رأي أمير طرابلس وأصرا على الزحف إلى طبرية، والواقع أن ما كان يراه ريموند هو الصواب من الناحية الاستراتيجية[2] وفعلاً نجحت خطة صلاح الدين، فترك الجيش الصليبي معسكره في صباح يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة 583هـ/ الثالث من تموز سنة 1187م، وسار في ظروف قاسية، لمنع صلاح الدين من الإستيلاء على قلعة طبرية[3].

وعندما علم صلاح الدين بزحف الصليبيين نحوه هتف فرحاً وقال: «الحمد لله جاء ما نريد»![4]. وانسحب من طبرية بعد أن ترك فيها قوة صغيرة تحاصر قلعتها، ورتب جيشه الرئيسي على التلال الواقعة قرب المدينة، وأمرهم بالاستيلاء على موارد الماء لندرته في تلك الفلاة القفر، فلما وصل الفرنجة إلى الموضع المعروف باسم اللوبيا الواقع في منتصف الطريق إلى طبرية، كان التعب قد أدركهم، والعطش أجهدهم لوعورة الطريق وحرارة الجو، فحملت عليهم جيوش المسلمين وهم على هذه الحالة، ونالت منهم منالاً عظيماً، وهي تحمل تارة

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 187.

2 ـ Baldwin. Grusades t. t. op. cit., p. 611.

3 ـ Ibid p. 611.

4 ـ أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص 76.

على طليعة الجيش الذي يقوده الكونت ريموند، وتلتف تارة لتهاجم مؤخرته التي كانت بقيادة أرناط، وتنقض تارة أخرى على القلب حيث يسير الملك لوزجنان وقد أحاط به كبار الأمراء.

استولى التعب والأعياء على الرجال والجياد، وصاح الجنود في قوادهم يطلبون الماء الذي تعذر وجوده. إزاء هذا الوضع المزري اضطر الصليبيون أن يأووا الى جبل حطين ليعصمهم من الهلاك[1]. فضايقهم المسلمون، حيث أشعلوا حولهم النيران في الأعشاب المجاورة، فارتفع لهبها واجتمع عليهم «حر الهاجرة وحر النار وحر العطش وألم الجراح»[2]. وانتهز صلاح الدين فرصة حلول الظلام وأحاط بالجيش الصليبي إحاطة الدائرة بقطرها، فجمدوا في أماكنهم فوق التل مترددين حائرين دون أن يستطيعوا حراكاً.

اغتنمت فصيلة من فرسان المسلمين حالة القنوط والتردد في صفوف الفرنجة، وكرت عليهم فقتلت منهم طائفة وأسرت طائفة أخرى، وألقى كثير منهم أسلحتهم مستسلمين من غير قتال بينما شهر بعضهم السلاح في وجوه رفاق لهم لاستيلابهم ما معهم من قُربِ الماء[3].

ولما اشتد الضرب والطعن أيقن الفرنجة أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه فأمر الملك لوزجنان ريموند قائد الفرسان بالهجوم فانحدر هو وفرسانه يتدفقون كالسيل محاولين إيجاد ثغرة يخرجون منها ليحطموا دائرة الحصار المضروب حولهم، فتراجع أمامهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين عامداً وتظاهر بالهزيمة وأفسح لهم طريق الخروج، فظن أولئك أنهم قد فتحوا ثغرة في

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص ١٩٥، وانظر .Baldwin, t. t. p[. cit., p. 613

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 76.

3 ـ ابن الأثير: الكامل... ج ١١، ص 362.

صفوف المسلمين فاندفعوا فيها متحمسين واذا بتلك الثغرة قد سدت وأغلقت دائرة الحصار مرة ثانية، فلما وجد ريموند نفسه وحيداً انسحب من المعركة متخذاً من إحدى التلال مركزاً للمراقبة[1].

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل تم الإتفاق بين ريموند وصلاح الدين على فتح تلك الثغرة في صفوف المسلمين، كي ينفصل عبرها عن موقعة ويخرج من المعركة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال عند مؤرخي الفرنجة أثار كثيراً من علامات الاستفهام حول موقف ريموند[2].

أما المؤرخون المسلمون فيرون أن ريموند بعدما شعر بصعوبة الموقف أراد الفرار بأية وسيلة «فحمل حملة مكروب» وعندئذٍ فتح له تقي الدين عمر طريقاً خرج منه ولما خرج «التأم الصف»[3]. ويبررون ذلك بالصداقة التي كانت بين ريموند وصلاح الدين. والموقف السابق لريموند من ابن صلاح الدين عندما حاول في صفر سنة 583هـ/ نيسان سنة 1187م الإغارة على أراضي الصليبيين، إنتقاماً لما وقع من الأمير أرناط عند اعتدائه على القافلة الإسلامية، ولما كان لزاماً عليه أن يجتاز طبرية التابعة ليريموند، استأذن هذا الأخير في عبور أراضيه وبالرغم من أن هذا الطلب أحرج ريموند الذي حرص على الابقاء على صداقة صلاح الدين، ومع هذا أجاب الطلب بشرط أن القائد الإسلامي ينبغي ألا يدخل المملكة إلا بعد شروق الشمس ويغادرها قبل الغروب وألا ينزلوا ضرراً ببلاده[4].

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 190 ـ 191.

2 ـ Champdor. A. Saladin. Le plus Hèros... pp 154 – 163.

3 ـ ابن شداد، النوادر السلطانية ص 62.

4 ـ Ruciman, History of the Crusades, t. 11, op. cit., p. 452.

وسواء أكان ريموند وأفراد فرقته خرجوا من المعركة اكراماً لضيفهم السابق، أو أخرجوا منها، فإن الصليبيين حملوا على المسلمين حملات عديدة كادت تزيلهم من مواضعهم، غير أن المسلمين ثبتوا لهم، وعاجلوهم بهجوم شامل أنهوا به المعركة واسروا جميع قوادهم وفي طليعتهم الملك لوزجنان وأرناط ودي مونتيفورت، وجفري أخو الملك، وهوغ صاحب جبيل، وابن همفري... وطائفة من الفرسان.

وكان صلاح الدين يراقب هذا المشهد على مقربة من التل إلى جانب ابنه الأفضل، فترجل وسجد وشكر الله تعالى على ما أحرزوه من نصر[3]. أما ريموند أمير طرابلس الذي كان يراقب المعركة من بعيد، عندما رأى استسلام الملك وحاشيته آثر النجاة بنفسه فأطلق العنان لجواده وظل هائماً مع قلة من فرسانه حتى وصل إلى مدينة صور، فمكث فيها قليلاً ثم غادرها إلى طرابلس حيث مات بعد ثلاثة أشهر في غمرة من الأس والحزن، إذ شاع بين قومه أنه قد خان رفاقه وتخلى عنهم في وقت حاجتهم إليه[4].

استقبل صلاح الدين الأسرى استقبالاً حسناً وقدم لهم الماء المثلج فشرب الملك لوزجنان وأعطى ما تبقى لأرناط فشربه، فغضب صلاح الدين من الملك وقال له: «لم آذن لك في سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أماناً له[*]».

ثم التفت الملك الناصر إلى أرناط وأخذ يوبخه على حنثه بقسمه وخرقه المواثيق والعهود، فقال أرناط «لقد جرت بذلك عادة الملوك!...»[1]. ثم ذكره

---

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 192 وانظر Baldwin, op, cit., p. 614.

4 ـ المصدر نفسه ج 2، ص 192.

(*) كانت من عادات العرب أن الأسير إذا أطعم وأشرب شيئاً في بيت من أسرة

ابن شداد: النوادر السلطانية ص 64. وأبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 79.

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 194. وانظر Grousset, R, Hist, des Croisades, p. 798.

صلاح الدين بافعاله الأثيمة وسخريته بنبي الإسلام. وقال له: ترى! «لو ركبت أنا رأسي وسلكت مسلكك ثم وقعت أسيراً في قبضتك فأي المواقف يكون موقفك مني؟».

فأجاب أرناط في صلف وتعال: «أقطع رأسك دون تردد!» فانتفض السلطان غاضباً وصاح به: «يا لك من وقح.. ثم استل الخنجر من وسطه وطعنه في كتفه، وتمم عليه من حضر من الخدم[1]. فلما رأى لوزجنان ذلك ارتعدت فرائصه وظن أن دوره قادم، ولكن صلاح الدين هدأ روعه، وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فتجاوز حده، فجرى عليه ما جرى» وأرسله مع مجموعة من النبلاء والفرسان إلى دمشق آمنين مكرمين. وأبق أسقف الناصرة مع مرضاهم كي يتولى العناية بهم حسب تقاليدهم[2].

كما أمر صلاح الدين بقتل أسرى الداوية والاستبارية لكثرة شرورهم وشدة وطأتهم على المسلمين[3].

توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى طبرية، حيث راسل البارونة إيشيفا زوجة ريموند الثالث فأجابت إلى التسليم، فأمنها السلطان هي ومن معها، فسلمت الحصن بما فيه، وخرجت بمالها إلى طرابلس، وولى صلاح الدين طبرية للأمير صارم الدين قايماز النجمي[4].

لم يصب الفرنجة، ولا وقعت بهم كارثة منكرة، منذ خرجوا إلى الشام في سنة 491هـ/ 1096م، أشد وأدهى مما وقع بهم في حطين[5]. حيث فنيت

---

1 ـ Champdor, A. Saladin, le plus Hèros, op. cit., p. 153.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 192.

3 ـ Baldwin, Grusades, t. e. op. cit., p. 614

4 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 15 ـ 196.

5 ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 2، ص 274. وانظر ابن شداد: النوادر السلطانية ص 290.

فيها زهرة شبابهم وفرسانهم وقد علق المؤرخ المعاصر ابن الأثير على هذه الواقعة بقوله: «وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أنه ليس هناك قتلى»[1]. ومهما تعددت آراء المؤرخين من مسلمين وغربيين حول هذا الانتصار فإن ما قاله رينه غروسيه هو أفضل ما يمكن: التعويل عليه، إن وحدة امبراطورية صلاح الدين وضعت الفرنج في حالة عسيرة جداً، وعاجلاً أو آجلاً كان لا بد لهم من هذا المصير![2].

د ـ صلاح الدين بعد حطين

1 ـ الاستيلاء على مدن الساحل

اتجه صلاح الدين بعد معركة حطين إلى الاستيلاء على المدن الساحلية ليحرم الصليبيين من أي معونة تأتي إليهم عن طريق البحر، فضلاً عن أن احتلاله لهذه المدن يسهل عليه اتصالاً بحرياً سريعاً بين شطري دولته، مصر والشام[3]. سار صلاح الدين إلى عكا فوصلها يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة 583هـ/ الثامن من تموز سنة 1187م، وبينما هو يستعد لحصارها، أرسل إليه صاحبها جوسلين الثالث دي كورتناي مفاتيح المدينة[4]. مشترطاً تأمين الفرنجة على أرواحهم وأرزاقهم. «فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الإقامة أو الرحيل»[5]. فاختاروا الرحيل، وحملوا ما أمكنهم حملة من أموالهم، ودخل صلاح الدين مع جيشه المدينة يوم الجمعة الثاني من جمادي الأولى سنة

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل ج 11، ص 224.

2 ـ رينيه غروسيه: رصيد التاريخ، خليل الباشا ص 129.

3 ـ Stevenson: the Grusades in the East. P. 249.

4 ـ Champdor, A. Saladin, le plus Hèros... p. 166.

5 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 201.

583هـ/ العاشر من تموز 1187م، واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر. وأطلقوا سراج من كان فيها من أسرى المسلمين وكانوا أربعة آلاف شخص، وقام القاضي الفاضل بتحويل كنيستها إلى جامع ورتبت فيه المنبر والقبلة وأقيمت فيه أول صلاة الجمعة بعد دخولهم إليها.

وأقطع صلاح الدين المدينة لولده الملك الأفضل نور الدين علي، وأعطى جميع ما في عكا من اقطاعات وضياع كانت للداوية للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، ترضيه له عما قاساه في أسره من قبل[1].

ويبدو أن السياسة الرحيمة التي اتبعها صلاح الدين مع أهل عكا ساعدته في الاستيلاء على كثير من المدن الساحلية والداخلية فيما بعد، فاستولى على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والحولة وسبطية وتبنين بسهولة[2] في الوقت الذي كان أخوه الملك العادل يزحف من مصر ويستولي على مجدل يابا ويافا[3].

واتجه صلاح الدين إلى صيدا فاستولى عليها في الحادي والعشرين من جمادي الأولى سنة 583هـ/ التاسع والعشرين من تموز سنة 1187م بعد أن هرب صاحبها وتركها خاوية، ثم سار إلى بيروت فحاصرها ثمانية ايام حتى طلب أهلها الأمان. فأمنهم وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادي الأولى سنة 583هـ/ السادس من آب 1187م. وكان هوغ صاحب جبيل من جملة الأسرى الذين أرسلوا إلى دمشق عقب معركة حطين فلما احتل المسلمون بيروت أرسل إلى السلطان يطلب منه اطلاق سراحه مقابل تسليمه جبيل ومن فيها من أسرى

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 86.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 202.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 11، ص 195.

المسلمين، فقبل السلطان ذلك، وأطلق سراحه وتسلم المدينة[1].

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يستولي في مدة قصيرة على معظم المدن الساحلية الكبيرة التي يحتلها الفرنج في فلسطين وجنوبي لبنان، ولم يبق في أيديهم منها إلا صور وعسقلان وبيت المقدس.

ولما كان صلاح الدين يعطي الحرية لأهالي المدن والقلاع التي احتلها، فقد آثر معظمهم الرحيل إلى صور «حيث اجتمع كل افرنجي بقي في الساحل»[2]. وبالرغم من كثرة عددهم بالمدينة، إلا أنه ليس لهم رأس يحميهم، فعزموا على مكاتبة السلطان وطلب الأمان منه وتسليم البلد له، غير أن وصول المركيز كونراد مونتفرات أحد أمراء إيطاليا من القسطنطينية قوى نفوسهم، وردهم عن عزمهم بفضل ثروته الطائلة وخبرته العظيمة. وضمن لهم حفظ البلد، مشترطاً عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له، وبدأ بتحصين المدينة، فحفر الخنادق، وأنشأ الأبراج، وجدد الأسوار ودرب الجند، وشحذ العزائم، حتى أصبحت صور مركزاً حصيناً للفرنجة يفدون إليه ويجتمعون به ويعتمدون عليه[3].

أدرك صلاح الدين خطأه في التهاون بأمر صور، وأراد أن يحتال على المركيز ليسلمه المدينة، فأحضر والده الدوق وليم مونتفرات وكان أسيراً في دمشق، وعرض عليه أن يطلق سراحه مقابل تسليمه المدينة، وهدده بقتله أمام عينيه إن هو رفض طلبه، فأجابه المركيز أنه لا يتخلى عن حجر واحد من حجارة صور ولو فقد أباه، وأن والده قد عاش طويلاً فيكفيه ما عمر، وليقتله السلطان إذا شاء! فأعجب صلاح الدين بجواب كونراد وأعاد أباه إلى الأسر في دمشق، ثم ما لبث

---

1 ـ العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 35.

2 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 126.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 208 ـ 209. وانظر الدكتور نظير سعداوي، التاريخ الحربي... ص 189.

أن أطلق سراحه وأرسله معززاً مكرماً إلى ابنه في صور[1].

تعرض صلاح الدين للانتقاد من بعض المؤرخين لأنه أجاز للصليبيين أن يجتمعوا في مدينة صور، الأمر الذي أدى إلى استحالة الاستيلاء عليها من ناحية، وإلى اتخاذها قاعدة لإحياء مملكة بيت المقدس فيها بعد من ناحية أخرى. ومنها صاروا يوجهون حملاتهم لاسترداد ما استولى عليه المسلمون من ممتلكات[2] وعندما اشتد اهتمام الصليبيين بتحصين مدينة صور أدرك صلاح الدين أن أمر احتلالها أصبح صعباً فقرر تركها مؤقتاً والسير إلى عسقلان لتأمين طرق المواصلات إلى مصر، فحاصرها هو وأخوه العادل وولده العزيز عثمان في 16 جمادي الآخر سنة 583هـ/ 23 آب 1187م وأراد صلاح الدين أن يعيد تجربته في صور مع حامية هذه المدينة، فأحضر الملك لوزجنان ومقدم الداوية من دمشق. وأبلغ الفرنج أنه مستعد لإطلاق سراحهما مقابل تسليم عسقلان له، فرفضوا ذلك وردوا عليه رداً قبيحاً، فأعادهما إلى الأسر ثم أفرج عنهما بعد بضعة أشهر، اعترافاً بوقوفهما إلى جنبه. وشدد على عسقلان بعد ضربها بالمنجانيقات. فاستسلمت بعد عدة أيام ودخلها صلاح الدين في التاسع عشر من جمادي الآخرة سنة 583هـ/ 15 أيلول 1187م، وخرج الفرنج إلى بيت المقدس[3]. ثم بعث صلاح الدين بسراياه في أنحاء عسقلان فاستولت على بعض قلاع الداوية بجنوب فلسطين وهي غزة والقطرون وبيت جبريل بغير قتال في مقابل الافراج عن ملوك الصليبيين ورؤوسائهم من الأسر[4].

وكان صلاح الدين يأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يعودوا لحربه،

---

1 - Grousset. Hist; des croisades, op. cit., p. 18.

2 - Baldwin, Crusades, op. cit., t. t. p. 615.

3 - د. حمدي عبد المنعم حسين: تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 73 - 74.

4 - قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي... ص 330.

ولكنهم لا يكادون يعودون إلى الحرية، حتى يسرعوا إلى مدينة صور متأهبين للحرب والقتال من جديد ضده.

2 ـ تحرير بيت المقدس

بعد أن تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على عسقلان وما حولها من الجهات، اتجه نحو بيت المقدس، بعد أن قطع على المدينة طريق النجدات التي تأتي من مدن الساحل أو من وراء البحار، ولإتقاء هذا الخطر أصدر أمره إلى قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ أن يتولى حراسة الشواطىء ومنع أية سفن من الاقتراب منه، وصل صلاح الدين القدس يوم الأحد 15 رجب سنة 583هـ/ 20 أيلول 1187م، إلا أنه لم يشأ مهاجمتها فوراً لحرمتها لديه، ففاوض حاميتها على التسليم، متعهداً باحترام الأماكن المقدسة وشعائر الديانة المسيحية وعواطف المسيحيين وكتب لهم كتاباً يؤكد ذلك[4]. لكنهم رفضوا الدعو، وأبو تسليم المدينة، وأصروا على القتال.

عندما رأى صلاح الدين عناد الصليبيين في بيت المقدس، أقسم على أن يستولى على المدينة بحد السيف، فبدأ هجومه على المدينة يوم الجمعة في العشرين من رجب سنة 583هـ/ الخامس والعشرين من أيلول سنة 1187م، ونصب عليها المنجانيق، وضايقها بالزحف والقتال، وفي 27 من رجب سنة 583هـ/ 2 تشرين الأول 1187م، حمل المسلمون على المدينة حملة رجل واحد، فأزالوا فرسان الفرنجة من مواقعهم على السور، واضطروهم إلى دخول المدينة، ووصلوا

---

4 ـ Grousset. Hist. des Groisades, op, cit., p. 809.

وانظر مونرود مكسيموس: تاريخ الحروب المقدسة في الشرق. تر. البطريرك مظلوم مكسيموس ج 2 ص 9.

إلى السور فنقبوه، تحت وابل من قنائف الفرنجة وسهامهم[1].

ولما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين، وأنهم أشرفوا على الهلاك، اتفقوا على طلب الأمان وتسليم المدينة، وأرسلوا «ابن بارزان» أمير الرملة(*) على رأس وفد من كبار الرجال للتفاوض مع السلطان في الصلح على أن يدفع سكان المدينة له مائة ألف دينار[2]. غير أن صلاح الدين تمنع عن إجابة الصليبيين إلى طلبهم تلك المرة بعد أن رفضوا عروضه السابقة. وأمسك بابن بارزان وقاده إلى باب الخيمة، وأشار إلى الأعلام الصفراء التي أخذت تخفق فوق عدد من أسوار المدينة[3]... فأيقن ابن بارزان شدة غضب السلطان، فخاف وطلب الأمان لنفسه، ولكن صلاح الدين لم يجبه إلى ذلك، واسترحمه فلم يرحمه، فقال له: «أيها السلطان إننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله... يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، ولكن إذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا ومتاعنا، ولا نترككم تغتنمون ديناراً أو درهماً واحداً... فإذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة فخربناها، والحقن المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة بها... ولا يقتل الرجل منا حتى يقتل منكم أمثاله...»[4]. فاستشار صلاح الدين أصحابه فاتفقوا على إجابتهم إلى الأمان بالشروط التالية.

ـ أن يدفع الفرنج عشرة دنانير عن كل رجل وخمسة عن كل امرأة ودينارين عن

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 294. وابن شداد: النوادر السلطانية ص 66.

كان باليان ديبالان (ابن بارزان) أسيراً لدى صلاح الدين، استأذنه في الرحيل إلى القدس ليعود بأمرائه وأولاده، ولكنه ما ان وصل إلى القدس حتى نسي العهد وترأس الفرنجة في مقاومة صلاح الدين.

Champdor. A. Saladin... op. cit. p. 181.

2 ـ Ibid. p. 181.

3 ـ ابن واصل مفرج الكروب ج 2، ص 212.

4 ـ المصدر نفسه ج 2، ص 214.

كل طفل في خلال أربعين يوماً، فمن دفعها خرج آمناً بنفسه وماله إلى مدينة صور، ومن لم يستطع أداء الفدية أخذ أسيراً، غير أن هذا الشرط لم يعمل به قط.

يستثنى من هذا الشرط مسيحيوا البلاد الأصليون، فلهم الإقامة في القدس والتمتع بحقوقهم المدنية كاملة، كما سمح بالبقاء للفرنج واللاتين الذين شاؤوا أن يقيموا في فلسطين كرعايا للدولة[1].

قبل الفرنج هذه الشروط وبدأوا يغادرون ودخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة الثاني من تشرين الأول سنة 1187م، وشاءت الظروف أن يوافق دخوله ذكرى ليلة الإسراء والمعراج، فاحتفل المسلمون بهذه المناسبة الدينية في بيت المقدس.. وأحسن صلاح الدين معاملة الصليبيين إذ سمح للبطريرك اللاتيني ايراكلوس أن يخرج من المدينة ومعه مقداراً كبيراً من الأموال والجواهر، فلما حاول الحراس أن يمنعوه، أبى صلاح الدين إلا أن ينفذ شرطه وقال لهم: «الوفاء خير». ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير كأي صليبي فقير[2].

كذلك أكرم صلاح الدين الملكة سبيل زوجة لوزجنان وماريا أرملة عموري وأرملة فوزي الأول، وزوجة ارناط..[3].

ولا يفوتنا أن نذكر معاملة الصليبيين السيئة إزاء بعضهم، إذا أن قوافل الفرنجة التي أرسلها مخفورة كي لا تتعرض لأي اعتداء[4]. قد أغلقت في وجهها أبواب طرابلس وانطاكيا اللتين كانتا ما تزالان في أيد الفرنجة، فساروا على

---

1 ـ Champdor, A. Saladin. Le plus Hèros de L'islam, p. 181.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 212، 214، 215. وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين. وانظر سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص 311. و Baldwin, Grusades, t. i. p. 615

3 ـ مكسيموس موندود: تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ج 2، ص 96.

4 ـ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 825.

وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب[1].

لقد كان هذا الأسلوب الذي اتبعه صلاح الدين، مثار سخط معاصريه الذين كانوا يريدون أن يكيلوا للصليبيين بالكيل الذي كالوه للمسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة 491هـ/ 1097م[2]. ونسوا أن صلاح الدين كان بهذه الروح العظيمة يطلع الصليبيين على روح الحضارة الإسلامية، هادماً بذلك كل المزاعم التي كانوا يشيعونها ضد المسلمين لتأليب الأوروبيين عليهم ولعل ما أقدم عليه هذا الملك الذي هزت انتصاراته العالمين في الشرق والغرب ليلة عيد الميلاد في بيت المقدس تجاه المسيحيين الحزانى المكلومين من تقديم الهدايا والمأكل والملبس والمال لهم حتى يشعرون بالغبطة والسعادة والرخاء في بيوتهم[3]. هو أكبر تقدير لإنسان نبيل لم يذكر التاريخ له مثيلاً من قبل أو بعد.

فلا عجب بعد هذا أن يتبارى المؤرخون الغربيون في الإشادة بسيرة صلاح الدين في فتوحه، مؤكدين أنه «ظهر على مستوى من كرم الأخلاق والشهامة لا يفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب، بل يفوق المثل العليا التي لم يصل إليها أولئك الفرسان في يوم من الأيام»[4]. أما المؤرخون الشرقيون فلم يكونوا أقل ثناءً على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين أثناء فتح بيت المقدس، فهم يتحدثون بإعجاب شديد على معاملته للمرضى والمسنين والمحتاجين من الفرنجة، ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المرؤة والشهامة[5].

---

1 ـ سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص 312. وانظر .Champdor A. Saladin... op cit. p. 183.

2 ـ Runciman. A History of the Grusades. T. 11. p. 464.

3 ـ حبيب جاماتي: الناصر صلاح الدين الأيوبي، ص 119.

4 ـ Stevenson, W. B. The Crusades in the East, p. 254.

5 ـ محمد العريان والدكتور الشيال: قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص 38.

وانظر Champdor, A. Saladin le plus Hèros... p. 183.

أعاد صلاح الدين إلى مدينة القدس طابعها الإسلامي، فأمر بإصلاح ما تخرب من مبانٍ وخاصة فيما يتعلق بالمسجد الأقصى الذي حوله الفرنج إلى كنيسة وأنزلوا الفرسان الداوية في قسم منه. وأطلقوا عليه معبد سليمان كما أمر بأن يحمل إلى المسجد العظيم منبراً كان السلطان نور الدين محمود قد أعده ليضعه بنفسه في المسجد الأقصى لأول مرة بعد أن ظلت معطلة ثمانية وثمانين عاماً يوم الرابع من شعبان سنة 583هـ/ التاسع من تشرين الأول سنة 1187م وخطب الجمعة الفقيه محي الدين بن زكي الدين.

3 ـ صلاح الدين يحاصر مدينة صور

بعد أن انتهى صلاح الدين من استرجاع بيت المقدس أخذ يستعد لمهاجمة مدينة صور التي كانت قد اصبحت من المنعة، ما يجعل الاستيلاء عليها أمراً صعباً، إن لم يكن مستحيلاً؛ بما أنشأ فيها المركز كونراد من أسباب الدفاع وجعل من جيشها قوة تستطيع مقاومة ما يفرضه أي مهاجم من الحصار[1].

وصل صلاح الدين إلى صور يوم الجمعة التاسع من رمضان سنة 583هـ/ الثاني عشر من تشرين الثاني سنة 1187م وأقام معسكره على مقربة من اسوار صور، منتظراً وصول العساكر الشامية والمصرية لفرض الحصار، وما أن جاءته الامدادات حتى بدأ في محاصرة المدينة يساعده ولداه الأفضل والظاهر وشقيقه العادل وابن عمه تقي الدين عمر وعدد من الأمراء فوزعهم على أسوار المدينة كل واحد بناحية، وبدأ برميها بالمنجانيق والعرادات، ومهاجمتها بالدبابات ولما لم يجد ذلك نفعاً قسم جنده إلى ثلاثة أقسام، وجعلهم يتناوبون على القتال طوال الليل والنهار، كي لا يدع للمدينة المحاصرة سبيلاً إلى الراحة، ولكن ذلك كله لم يؤد إلى

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2 ص 243.

نتيجة حاسمة، نظراً لموقع صور الجغرافي الذي يجعل منها مدينة بحرية أكثر منها مدينة برية. فكانت قذائف الفرنجة وسهامهم تفعل في المسلمين أضعاف ما تفعل قذائف هؤلاء وسهامهم في الفرنجة ولا عجب لأن مواقف المدافعين وهم وراء حصونهم المنيعة، أفضل من موقف المهاجين في الفلاة وفي بقعة ضيقة من الأرض تركزت هجماتهم فيها[1].

أدرك صلاح الدين خطورة الموقف فاستدعى الأسطول المصري من عكا، فجاء منه عشر سفن وصار القتال في البر والبحر، وتمكن الفرنج الا ستيلاء على خمس سفن وأسر مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفارسي[2] فألقى بعضهم بنفسه في مياه البحر، مما فتّ في عضد المسلمين فأمر صلاح الدين السفن الباقية التوجه إلى بيروت[3].

كان لهزيمة الأسطول المصري أثرها في رفع الروح المعنوية للفرنج، فخرجوا من صور يوماً بعد العصر، فالتقاهم المسلمون، وأنزلوا بهم ضربة قوية وأسروا مقدم كبير منهم كانوا يعتقدونه أنه كونراد دي منتفرات، فضربوا عنقه، ثم ثبت لهم أنه ليس كونراد[4].

ولما طال الحصار على صور وتعسر فتحها، عقد السلطان مجلس شورى للنظر في الأمر فانقسم أعضاء المجلس إلى فريقين، الأول يرى تأجيل حصار صور، بينما يرى الفريق الآخر وكان من رأي صلاح الدين الثبات حتى تسقط المدينة، وقال صلاح الدين: «إن السور قد تهدم، وقاربت الأمور النجاز، فاصبروا

---

1 ـ العماد الأصفهاني: الفتح القسي... ص 62 ـ 69. وابن شداد: النوادر السلطانية ص 715.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 245 ـ 246. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 2، ص 38.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 119 ـ 120.

وانظر Wiet, G. L'egypte Arabe, op. cit., p. 326.

4 ـ ابن الأثير: الكامل ج 11، ص 368 وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2 ص 129.

ولا تعجلوا تفلحوا». غير أن المجتمعين لم يوافقوه الرأي[1].

ولما كان صلاح الدين لا يريد إرغام قواده على الحرب وهم لها كارهون فأمر برفع الحصار عن صور ونقل بعض الأمتعة والأدوات إلى صيدا وبيروت.

سعى صلاح الدين بعد تركه صور إلى فتح بعض الحصون التي كانت لا تزال تشكل عائقاً أمام جنده في اقليم الجليل، مثل قلعة هونين، كما حاصر صفد وحصن كوكب، وإن كانت هاتان القلعتان قد أظهرتا مقاومة عنيفة بحيث لم يستطع صلاح الدين الإستيلاء عليهما إلى في أواخر سنة 584هـ / أوائل سنة 1189م[2].

وفي ربيع الأول سنة 584هـ/ أيار 1188 سار صلاح الدين إلى مدينة بعلبك ومنها إلى بحيرة قدس من أعمال حمص، فأقام بها فترة وجيزة، ثم رحل وخيم على تل قبالة حصن الأكراد، فشن الغارات عليه وعلى مختلف حصون الفرنج في هذه المنطقة، وبعدها أوغل صلاح الدين في إمارة أنطاكيا فاستولى على جبلة في التاسع عشر من جمادي الأول سنة 854هـ/ السادس عشر من تموز 1188م. ثم اتجه صوب اللاذقية فحاصرها في الرابع والعشرين من جمادي الأولى سنة 584هـ/ 21 تموز 1188م. ونجح في الاستيلاء عليها يوم الجمعة الثاني من جمادي الأخرى سنة 584هـ/ التاسع والعشرين من تموز 1188م، ثم هاجم حصن صهيون واستولى عليه بعد قليل، وبذلك أخذت معاقل أنطاكيا تتساقط في يد صلاح الدين واحداً بعد آخر مثل مرقب وقلعة الشغر وقلعة بكاس وقلعة سرمانية وحصن بزرية[3] وعندما حاول صلاح الدين التقدم للإستيلاء

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 245 ـ 246 وانظر Baldwin, Crusades... t. i. p. 618.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 131.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 131.

على حصني بغراس ودرباك[1]. خاف الأمير بوهيمند الثالث صاحب أنطاكية، وأرسل إليه يسأله الصلح، وكان صلاح الدين قد شعر بتبرم جنوده لكثرة ما قادهم إليه من المعارك، فأجابه بالموافقة على شرط أن يطلق بوهيمند سراح ما عنده من أسرى المسلمين وكانوا نحو ألف أسير وعقدت هدنة بين الطرفين مدتها ثمانية أشهر[2].

عاد صلاح الدين إلى دمشق فوصلها في النصف الثاني من شعبان سنة 584هـ/ 20 تشرين الأول 1188م ليتابع منها نضاله ضد الحصون التي بقيت مع الفرنجة لا سيما صفد وكوكب، فإنهما للداوية والاستبارية[3]. لكن جيشه لم يظهر الحماس، مما اضطر صلاح الدين أن يسير إلى صفد بحرسه وحده في منتصف رمضان سنة 584هـ/ تشرين الثاني 1188م، فحاصرها ونصب عليها المنجنيقان، واستمر في رميها ليلاً ونهاراً بالحجارة والسهام، حتى هلك أهلها، وطلبوا الأمان، فأمنهم صلاح الدين وتسلمها منهم وخرجوا إلى صور. ثم سار صلاح الدين إلى حصن كوكب وشدد الحصار عليها حتى استسلمت في منتصف ذي القعدة سنة 584هـ/ أوائل كانون الثاني 1889م.

وفي تلك الأثناء كان الأمير سعد الدين كمشيا الأسدي يفرض حصاراً شديداً على الكرك حتى اضطر أهلها إلى الاستسلام مقابل الحصول على الأمان، فتسلم الأسدي الكرك[4]، كما تسلم أيضاً بعض الحصون القريبة منها الشوبك وهرمز والوعر والسلع[5]. وهكذا لم يبق في أيدي الفرنجة من القلاع الحصينة.

1 ـ المصدر نفسه ج 2، ص 136 ـ 137. وانظر ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 267.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين، ج 2، ص 136 ـ 137.

3 ـ محمد كرد علي: خطط الشام ج 2، ص 65. وانظر العماد الأصفهاني: الفتح القسي... ص 129.

4 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 271.

5 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 134.

سوى حصن شقيف أرنون، فسار صلاح الدين في الثالث من ربيع الثاني سنة 585هـ/ الحادي والعشرين من نيسان 1189م إلى بانياس ومنها إلى مرجعيون استعداداً لمهاجمته، وكان يحتمي فيه رينو دي ساجيت صاحب صيدا الذي التجأ إليه إثر سقوط مدينته، فما كاد يعلم بأن السلطان يقصده حتى لجأ إلى الحيلة فأسرع إلى زيارته وأعلن عن رغبته في تسليم الحصن ريثما يستطيع «كسب الوقت وتعزيز وسائل الدفاع عن حصنه»[1]. فقبل السلطان بذلك، إلا أن حيلة دي ساجيت ما لبثت أن كشفت فاعتقل وسيق إلى دمشق[2] وبسقوط حصن شقيف أرنون لم يبق في أيدي الصليبيين من مملكة القدس سوى مدينة صور، ومن إمارة طرابلس سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب، عدا عن المواقع الثانوية الضئيلة الأهمية[3] بعد ذلك انتقل صلاح الدين إلى القدس ليعالج شؤونها ويتفقد حصونها إذ كان على يقين تام بأن أوروبا الغربية سوف تخف لنجدة صليبي الشرق واسترداد بيت المقدس عاجلاً أم آجلاً.

---

1 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 830 وابن شداد: النوادر السلطانية ص 80. وانظر Champdor. A. Saladin. Le plus Hèros de L'islam. P. 214.

2 ـ Ibid, p. 216.

3 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 837.

وانظر Crousset, Hid, des Croisades, t. ii. Pp. 834 – 835.

الفصل الرابع

الموقف الأوروبي بعد سقوط بيت المقدس

أولاً ـ الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا

أحدث سقوط بيت المقدس والمصائب التي حلت بالصليبيين في المشرق على يد صلاح الدين صدىً قوياً في أوروبا فارتفع صوت البابوية[1]. ينادي العالم المسيحي للقيام بحملة صليبية كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين بأي ثمن، والثأر مما حل بالصليبيين في الشام[2]. لبى ملوك وأمراء أوروبا الصرخة، وتناسوا من أجلها أحقادهم وخصوماتهم[3]: وفرضوا على رعاهم ضريبة عرفت باسم «العشور الصلاحية» أي تجهيز حملة ضد صلاح الدين. وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفعها وهي أول ضريبة عامة فرضت في تاريخ أوروبا[4]. وقد زاد من اهتمام الفرنجة وتدفق امداداتهم على الشرق أن الرهبان والقساوسة لبسوا السواد وطافوا برفقة بطريرك القدس إيراكلوس[5]. مدن أوروبا يستنجدون بأهلها، وقد صوروا السيد المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربي

---

1 ـ Rambaud, Hid: Generale. T. ii. P. 303.

2 ـ أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر ص 632 و د. سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص 62.

3 ـ Michaud. J. F. Hist. de Croisades, T.U.P. 314 – 315.

4 ـ Brèhier, L. L'eglise et l'orient aumoyen age p. 118.

5 ـ مكسيموس: تاريخ الحروب المقدسة، ج 1 ص 172 ـ 173.

يضربه بعصا والدماء تسيل على وجهه، وقالوا هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنجة، وحشدوا عدداً كبيراً من المحاربين ما لا يقع عليه الاحصاء وعزموا على التوجه إلى عكا ومحاصرتها[٦].

اشترك في الحملة الصليبية الثالثة، ثلاثة من أعظم ملوك أوروبا في تلك الفترة وهم ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وفردريك بربروسا أمبراطور ألمانيا، وقد انفرد كل من هؤلاء الثلاثة بالعمل مما أضعف فاعلية هذه الحملة وخطرها على الإسلام على الرغم من قوتها وضخامتها.

في الوقت الذي قرر ملك فرنسا وانكلترا المجيء عن طريق البحر اختار الامبراطور الألماني فردريك بربروسا أن يأتي إلى الشام عن طريق البر وآسيا الصغرى، على رأس حملة قوامها مائة ألف محارب[2] ومجهزة بكل ما تحتاج إليه[*]. وأرسل كتاباً إلى صلاح الدين ينذره فيه بأنه إذا لم يتخل عن جميع المناطق التي احتلها خلال اثني عشر شهراً فإنه سيشهر الحرب عليه مع جميع الشعوب الأوروبية التابعة له وعددها سبعة وعشرون شعباً. فأجابه صلاح الدين بأنه إذا أصر على تهديد السلام والأمن في بلاد الشام فسيغزو أوروبا نفسها[١].

وشاءت الأقدار أن تخذل فردريك بربروسيا فلا يصل إلى أرض المعركة إذ مات وهو يحاول عبور أحد أنهار آسيا الصغرى، فأدى موته إلى تبدد جيشه ولم يصل فيه إلى ارض فلسطين إلا أعداداً لا يأبه بها بقيادة ابنه فريدريك السوابي في السادس من رمضان سنة 856هـ/ السابع من تشرين الأول 1190م، ولكنه ما لبث أن لقي حتفه في الثاني عشر من ذي الحجة سنة 586هـ/ العاشر من كانون

---

6 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين، ج 2، ص 141. ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 289.

7 ـ محمد كرد علي: خطط الشام ج 2 ص 66، وابن شداد: النوادر السلطانية ص 98.

* ـ عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص 135.

1 ـ Champdor. A. saladin le plus Hèros de L'islam p. 207.

الثاني 1191م أثناء قتاله المسلمين أمام أسوار عكا[1].

وقد وقف الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيليوس موقفاً عدائياً من الامبراطور فردريك بربروسا بعد أن وجد من مصلحته أن يحالف صلاح الدين ضده فكتب إلى السلطان يتبرأ من أن يكون ضالعاً معه، وأكد أنه سوف يحول بينه وبين المرور داخل بلاده.

واظهارراً للود والتحالف بين الطرفين، تعهد صلاح الدين أن يسلم الأماكن المسيحية المقدسة لرجال الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية، مقابل أن يصبح لصلاح الدين حق الوصاية على الجالية الإسلامية في القسطنطينية، وعلى جامعها، ولذلك فقد بادر السلطان بإرسال خطيب ومؤذن للمسجد وكان دخولهما القسطنطينية يوماً مشهوراً من أيام الإسلام[2].

وفي الوقت الذي كانت البقايا الصليبية بعد موت فردريك السوابي تشدد الحصار على عكا لاستردادها من المسلمين، وصل فليب أوغست على رأس الحملة الفرنسية ليشجع الصليبيين ويبث فيهم روحاً جديدة، ويحيي فيهم الأمل، ولم يضع فيليب أوغسطس الوقت، وإنما تزعم على الفور معركة حتى وصل ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا إلى الشام في جمادي الأولى سنة 587هـ/ الثامن من حزيران 1191م، فاشتد الفرح في نفوس الفرنج الذين ضاعفوا هجماتهم على عكا بمساندة الأسطول الإنكليزي ومساهمة أساطيل صقلية وبيزة وجنوى والبندقية جميعاً، فاشتد الضيق على أهالي عكا وحاميتها ووهنت منهم القوى، وتهدمت أسوارهم، ولم يعد بهم طاقة على مواصلة الصمود، وفقدت معظم

---

1 - Champdor. A. saladin le plus Hèros de L'islam, p. 213.

2 - المقريزي: السلوك ج 6 ص 102، وأبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 159.
وانظر أسد رستم: الروم وصلاتهم بالغرب ج 2، ص 172.

قطع الأسطول الأيوبي التي كانت تقوم بمحاولات بطولية يائسة لإنقاذ المدينة المحاصرة إزاء هذا الوضع المتدهور أرسلت حامية المدينة آخر نداء بالحمام الزاجل إلى صلاح الدين يقولون فيه: «أما قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعد التسليم... وإن لم تعملوا معنا شيئاً، نطلب الأمان ونسلم البلد»[1].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين وعساكره لتلبية نداء الاستغاثة إلا أن جميع المحاولات باءت بالفشل بسبب تكاثر أعداد الفرنجة، وتعاظم تفوقهم البحري، وتململ أمراء الأجناد من المسلمين ورجوعهم إلى بلادهم[2].

ولما أيقن أمير عكا سيف الدين المشطوب أن سقوط المدينة أصبح لا محالة راسل الفرنجة في الصلح قائلاً لهم: «أن تعاملونا بمثل ما قدّعاملنا به قومكم يوم استولينا على المدينة» ولكنهم رفضوا ما طلب[3]. وتدخل صلاح الدين في المفاوضات ممثلاً بأخيه الملك العادل. ولكن الفرنج طلبوا باستعادة مملكة بيت المقدس كما كانت عليه قبل استيلاء صلاح الدين عليها، فرفض العادل ذلك وأخذ السلطان يعيد تنظيم جيشه استعداداً للاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، فلم يكن من القائد الصليبي كونراد إلا أن عقد مع حامية عكا اتفاقاً منفرداً على الشروط الآتية:

أولاً ـ أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والأسلحة.

ثانياً ـ أن تدفع مائتي ألف دينار فدية لمن بها من أسرى المسلمين.

ثالثاً ـ أن يطلق ألفين وخمسمائة من أسرى الفرنجة.

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 182 ـ 183.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 105.

3 ـ العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص 277.

رابعاً ـ أن يرد الفرنج صليب الصلبيون.

خامساً ـ أن يخرج جميع من في المدينة من المسلمين آمنين[1].

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الثانية سنة 587هـ/ الثاني عشر من تموز 1191م استسلمت عكا للصليبيين بعد مقاومة دامت سنتين تقريباً.

ثانياً ـ الموقف الأوروبي بعد تسليم عكا

أ ـ الفرنج ينقضون الصلح ويقتلون الأسرى.

ورفضوا تسليم الأسرى المسلمين[*] إلا بعد أخذ الفدية كلها، لكن المسلمين طلبوا من الفرنجة إعطاء الضمانات على الوفاء موعدهم قبل استلام المال، لئلا يأخذوا المال ويمتنعوا عن تسليم الأسرى، إلا أن الفرنجة أبوا عليهم ما طلبوا. عندها عرض المسلمون أن يدفعوا نصف الفدية بشرط أن يضمن رؤساء الداوية إطلاق سراح الأسرى عند رفع النصف الثاني، ولكن رؤساء الداوية رفضوا أن يكلفوا تنفيذ ريتشارد لوعده، فتوقف صلاح الدين عن دفع المال فلما كان يوم السابع والعشرين من رجب سنة 587هـ/ العشرون من آب 1191م خرج ريتشارد قلب الأسد من عكا وأحضر أسرى المسلمين، وأمر بقتلهم بإستثناء الأمراء والقواد.

ولما علم صلاح الدين بذلك بكى بكاءً شديداً[2]. ولكنه على الرغم من

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2 ص 356.

(*) كان عدد الأسرى يزيد على عشرة آلاف وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش. افتدى صلاح الدين سيف الدين المشكوب بعشرة آلاف دينار، أما بهاء الدين قراقوش فقد تمكن من الهرب.

وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين، ج 2 ص 187.

2 ـ ابن الجوزي مرآة الزمان ص 262.

شدة غضبه فقد استطاع الاحتفاظ بسماحته ورباطه جأشه وكان قد جيء إليه بجميع أسرى الفرنج من دمشق لتجري مبادلتهم بأسرى المسلمين، فأمر بإعادتهم إلى دمشق سالمين ولم يأخذهم بجريرة إخوانهم[1].

ب ـ الخلاف الصليبي وسيطرة ريتشارد ملك انكلترا

إن التحالف الودي بين الصليبيين كان قصير المدى فمنذ اليوم التالي لدخولهم إلى عكا بدأوا يتقاتلون فيما بينهم حول تقسيم الغنائم الكبرى التي عثروا عليها في المدينة، ومن ضمنها أرزاق التجار المسيحيين المواطنين الذين عاشوا في عكا منذ سنين عديدة، مطمئنين إلى الإدارة الإسلامية التي لم يصبهم منها أي أذى، فلما رأى هؤلاء التجار أن أولئك الأوروبيين هم غزاة أكثر مما هم فاتحين وسيسلبونهم كل ما لديهم، احتجوا إلى ملك فرنسا على أعمال النهب التي يتعرضون إليها.

ولما كان فيليب أوغست ينظر إلى الحرب الصليبية نظرة ملك عظيم، وجد أن من واجبه الدفاع عن قضيتهم، واتخذ التدابير اللازمة كي لا تساء معاملة المسيحيين المواطنين من قبل المتصرين. فاستاء ملك انكلترا من تصرف فرنسا وهو الذي يعتبر نفسه الوحيد الذي ينبغي أن يقدم له الجميع فروض الطاعة[2]. إزاء هذا التعالي الإنكليزي اضطر فيليب أوغست إلى الاعتذار بالمرض والسفر إلى فرنسا في رجب سنة 587هـ/ الثاني من آب 1191م على أسطوله المؤلف من خمس عشرة سفينة بعد أن أبقى ألفاً وخمسمائة من جنوده في الأرض المقدسة بقيادة هوغ الثالث دوف دي بورغونيه، كما أوكل إلى كونراد إدارة جميع المكاسب المقبلة

1 ـ محمد فريد أبو حديد: صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب ص 188.

2 ـ المصدر نفسه ص 170 وما بعدها.

التي سوف تحصل عليها فرنسا من جراء معاهدة عكا[1].

ولم يكن الخلاف الإنكليزي ـ الفرنسي هو الوحيد بين القوات المتحالفة فما هو إلا قليل حتى بدأ الصراع بين جميع الأفرقاء الأوروبيين ما أحدث تفكيكاً في الجبهة الصليبية وغدا ريتشارد قلب الأسد زعيماً لا ينازع للحملة الصليبية الثالثة، فقرر أن يصفي الحساب بين صلاح الدين والصليبيين[2].

ج ـ حملة ريتشارد على المدن الفلسطينية

سعى ريتشارد إلى استرداد القدس وإعادتها إلى سابق عهدها، فجمع جيشاً من القوى الصليبية بالشام زاد عددها على مائة ألف جندي سار به في مستهل شعبان سنة 587هـ/ آب 1191 من عكا جنوباً باتجاه عسقلان[3]. على مقربة من الشاطىء وأساطيله تسير بجواره في البحر كي يتجنب الاصطدام مع جيش المسلمين في معركة مكشوفة، فأسرع صلاح الدين في اللحاق بهم بعد أن تبنى خطة الأرض المحروقة فأمر بإخلاء المدن الساحلية وتدميرها واحراق مزارعها، وردم آبارها حتى لا ينتفع بها العدو.

أدرك صلاح الدين أن جنوده بسلاحهم الخفيف أعجز من أن يلاقوا الصليبيين المدججين بالحديد في معركة حاسمة، فلجأ إلى حرب العصابات وأخذ جيشه ينقض على أعدائه تارة من الأمام وتارة من الخلف حتى بات هم الصليبيين الوحيد حماية أنفسهم من هذه الغارات المفاجئة[4]. وفي يوم السبت

---

1 ـ Champdor A. Saladin Le Plus Hèros de L'islam. P. 284 – 285.

2 ـ Marin, Hist. de saladin, t. iii. P. 303.

3 ـ د. نظير سعداوي: التاريخ الحربي المصري... ص 226.

4 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 190.

الرابع عشر من شعبان سنة 587هـ/ السادس من أيلول 1191م التقى الفريقان عند أرسوف، ودارت معركة شديدة انهزم فيها المسلمون هزيمة عنيفة تمزق فيها جيشهم، وتشتت فرسانهم، وقتل منهم اثنان وثلاثون أميراً وأكثر من سبعة آلاف جندي[1].

تأثر صلاح الدين لهزيمة أرسوف. ورحل في التاسع عشر من شعبان 587هـ/ 21 أيلول 1191م، إلى الرملة ومنها سار ليلاً إلى عسقلان حيث عقد مجلساً ضم أخاه العادل وكبار الأمراء والقواد وأخبرهم رغبته في حشد قواته فيها وحولها ليتخذ منها قاعدة لمعركة فاصلة يستعيد فيها هيبته ويعيد للمسلمين ما فقدوه من أراضيهم ومعنوياتهم، لكن أمراءه خالفوه الرأي، وأشاروا عليه بتخريب عسقلان لعجزهم عن الدفاع عنها، وترك الساحل واتخاذ خط دفاعي داخل البلاد[2].

استجاب صلاح الدين لرأي الأمراء والقواد على مضض، وأمر بهدم المدينة وإحراقها بعد أن أخرج الناس منها[3]. ثم رحل إلى الرملة، فأمر بتخريب حصنها وهدم كنيسة اللد للغرض نفسه[4]. وسار إلى بيت المقدس لعلمه أنه غاية الفرنج حيث شرع في تحصين المدينة وبناء أسوارها وحفر خنادقها، وشارك السلطان بيده في هذه العمارة مع أولاده وأجناده وأمرائه ومعهم القضاة والعلماء[5].

عندما وصل ريتشارد إلى مشارف القدس، وجد أن السلطان قد أحكم تحصينها وأعد عدته للدفاع عنها وأفسد الآبار القريبة منها، فنصحه فرسان الداوية

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل ج 12، ص 45.

2 ـ عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص 145.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 106. وأبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 192.

4 ـ اللد هي قرية صغيرة قرب بيت المقدس.

5 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 369. وأبو شامة كتاب الروضتين ج 2، ص 191 ـ 192.

والاسبتارية والبارونات بعدم مهاجمة المدينة حتى لا يقع فريسة لجيش صلاح الدين المرابط على التلال خارج القدس، فقرر ريتشارد الارتداد والانصراف عن مهاجمة المدينة[1]. وعاد إلى الرملة، ومنها توجه إلى عسقلان حيث أقام أربعة أشهر انصرف خلالها إلى تعمير المدينة وتحصينها حتى أضحت أقوى حصن على ساحل فلسطين[2]. في اثناء ذلك وصلت الأنباء من عكا تشير إلى انقسام الصليبيين على أنفسهم ووقوع النزاع بين البيازنة والجنوبيين وبين المركيز مونتفرات والملك لوزجنان على عرش مملكة بيت المقدس - فأسرع ريتشارد بالعودة إلى عكا لتسوية هذه المنازعات، غير أنه فشل في ذلك فعاد إلى عسقلان[3].

وأخيراً أدرك ريتشارد أن مشاكل الصليبيين كثيرة ومعقدة، وأن مركز صلاح الدين قوي ومتين، وأن الأحوال في غرب أوروبا تستدعي سرعة عودته إلى بلاده، فلجأ إلى باب المفاوضات لتسوية النزاع بطريقة سلمية، وراسل الملك العادل عارضاً عليه الزواج من أخته الأميرة جوانا أرملة ملك صقلية، على أن يقوم الزوجان بحكم دولة فلسطين. وحظي هذا الاقتراح بموافقة العادل وصلاح الدين، لكن معارضة رجال الدين المسيحي أبطل هذا الزواج[4].

ويتفق العديد من المؤرخين الشرقيين والغربيين أن كلاً من ريتشارد وصلاح كان معجباً بالآخر[5]. وأن السلطان لما علم بمرض ريتشارد اشتد قلقه وأرسل إليه طبيبه الخاص فعالجه وشفاه[6].

---

1 - ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 388. وأبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 198.

2 - Runciman, History of rhe Crusade... t. III. P. 61.

3 - Ibid. t. III. P. 62.

4 - Ibid. t. III. P. 63.

5 - أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 103 Champdor. A. Saladin. Op. cit. p. 300 - 301.

6 - العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص 309. وابن شداد: النوادر السلطانية ص 189.

والواقع أن ريتشارد قد رغب في الاجتماع بصلاح الدين، فأبى هذا تحقيق رغبته على كره منه، وقال للرسول الانكليزي! «إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة، ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة، وإذا أراد ذلك لا بد من تقرير قاعدة سلمية أولاً، ثم يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة»[1].

ولكن قلب الأسد اجتمع مع الملك العادل مرات عديدة «وأعجب كل منهما بالآخر، وكانا يتجاذبان الحديث في سمر ودعابة وقد نسيا أنهما في حرب ضروس»[2].

اغتنم المركيز كونراد دي مونتفرات صاحب فشل المفاوضات بين ريتشارد وصلاح الدين وأرسل يفاوض السلطان على عقد صلح منفرد يكون من شروطه، أن تكون له صيدا وبيروت مقابل مجاهرته لعداوة الفرنج، وأن يقصد عكا ويحاصرها ويسلمها للمسلمين، ويطلق سراح جميع اسرى المسلمين في عكا وصور[3]. ولكن صلاح الدين لم يكن واثقاً من صدق نيته، فاشترط عليه أن يبدأ بمحاربة الفرنج ومهاجمة عكا قبل أن يصالحه فلما علم ريتشارد بذلك، عاد إلى عكا لإفساد الاتفاق، واسترضاء المركيز حتى لا يعاود اتصالاته مع صلاح الدين.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى قتل المركيز كونراد على أحد الحشاشين في فراشه بمدينة صور يوم السابع عشر من ربيع الثاني سنة 588هـ/ 27 نيسان 1192م، وقيل أن ريتشارد حاول التخلص من خصمه المركيز بعد أن

---

1 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ص 51 و 195.

2 ـ ابن الأثير: الكامل ج 2، ص 47. وابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 374. فيليب حتي: تاريخ العرب ج 2 ص 771.

3 ـ ابن شداد: النوادر ـ ص 197 وانظر Champdor, saladin op. cit., p. 302.

اختاره الفرنج ملكاً عليهم عوضاً عنه، وتولى الحكم في صور هنري دي شمانيا «الكندهري»[1].

حاول ريتشارد تجديد مفاوضات الصلح، فأرسل إلى صديقه الملك العادل كي يتوسط بينه وبين أخيه، فاستشار صلاح الدين القواد والأمراء، فوافقوه على الصلح مع ريتشارد وكتب السلطان إليه! «... وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القيامة، وبقية البلاد نقسمها، فالساحلية التي بيديك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العلمين يكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها خراباً لا لنا ولا لكم، وإذا أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان[2].

إلا أن المفاوضات تعثرت لأن ريتشارد رفض التنازل عن عسقلان، فانتهز صلاح الدين فرصة مسير قلب الأسد إلى بيروت وسار إلى يافا وشدد الحصار عليها حتى أخذها غنوة[3]. فلما علم ريتشارد بسقوط يافا عاد إليها بعد حرب دامية كاد يقع أسيراً في إحدى ضواحي المدينة[4].

وفي يافا عاود المرض ريتشارد، واشتدت رغبته في العودة إلى وطنه بعد أن تأكد له أنه من الصعب أن ينتصر على صلاح الدين انتصاراً حاسماً، وأن معظم الانتصارات التي حققها كانت جزئية لا تذكر أهميتها بالنسبة للخسائر التي تكبدها، فقد قضى من أجلها ما لا يقل عن مائة وعشرين ألف صليبي[5]. في الوقت الذي بقيت فيه مملكة صلاح الدين شامخة الصرح، راسية الأساس،

---

1 ـ العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص 330 وأبو شامة: كتاب الروضتين ج 2 ص 196.

2 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ص 217.

3 ـ المصدر نفسه ص 221، والمقريزي السلوك ج 1 ص 110.

4 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ص 226 ـ 227.

5 ـ Champdor, A. saladin... op. cit., p. 284.

مترامية الأطراف تحيط ببقايا المستعمرات الصليبية من كل مكان.

لهذا كله وجد ريتشارد أنه من الضرورة الوصول إلى وقف القتال فراسل السلطان إلى طلب الصلح مجدداً. وأمام إلحاح ريتشارد في طلب عسقلان ورفض صلاح الدين توقفت مفاوضات الصلح. وفي أثناء ذلك اشتد المرض على ريتشارد وأرسل إلى صلاح الدين يطلب فاكهة وتلجاً، فأمده السلطان بهما[1].

وأخيراً وجد ريتشارد أن تمسكه بعسقلان لا جدوى منه فأعلن تراجعه عن هذا الطلب[2]. وتم عقد الصلح في يوم الأربعاء 22 شعبان سنة 588هـ/ الثالث من أيلول 1192م وهو المعروف بصلح الرملة ومثل صلاح الدين فيه ولداه الملك الأفضل والملك الظاهر وأخوه الملك العادل وناب عن ريتشارد في التوقيع على الاتفاقية الكندهري وابن بارزان واونغروا الرابع دي تورون. واستقر الرأي على الشروط الآتية:

أولاً ـ يسود السلام بين الفريقين مدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

ثانياً ـ يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ـ وما عدا ذلك ـ بما فيه بيت المقدس ـ تظل بأيدي المسلمين.

ثالثاً ـ يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس دون دفع أية ضريبة.

رابعاً ـ أن يكون للمسلمين والمسيحيين الحرية في أن يجتازوا أرض بعضهم بعضاً[3].

يقول ألبير شامبدور: «لقد استطاع صلاح الدين بالرغم من خسارته في عكا وعسقلان ويافا، أن يملي شروط المعاهدة التي كان يستطيع فرضها لو كان

1 ـ ابن شداد النوادر السلطانية ص 227.

2 ـ المصدر نفسه ص 233.

3 ـ المصدر نفسه ص 233.

هو الغالب المنتصر[1].

وما كاد يتم الاتفاق بين المسلمين والصليبيين حتى عادت البلاد إلى حالتها الطبيعية، وذهبت جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ووصل خلق عظيم من جيش الصليبيين إلى القدس للحج. بعد أن تجرد من السلاح فاستقبلهم السلطان بالترحاب وقدم لهم كل ما يحتاجونه من العناية والرعاية[2].

وفي رمضان سنة 588هـ/ أوائل تشرين الأول 1192م أبحر ريتشارد من عكا إلى بلاده، غير أنه وقع أسيراً في يد الامبراطور الألماني هنري السادس الذي اتهمه بقتل المركيز كونراد مونتفرات، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة، ولما عاد إلى انكلترا وقع في نزاع مع أخيه ومع ملك فرنسا فيليب أوغست، ولم يلبث أن أصيبت بسهم قاتل، فقضى نجمه في سنة 592هـ/ 26 آذار 1199م.

أما صلاح الدين فقد سار بعد معاهدة الصلح إلى بيت المقدس لتفقد أحوالها وتشييد أسوارها وتحصيناتها، واصلاح المسجد الأقصى، كما عمل على تنمية العمران والزراعة في عسقلان.

وفي الخامس من شوال سنة 588هـ/ الرابع من تشرين الأول 1192م رحل السلطان من القدس، ليقوم بجولة زار خلال مدينة نابلس وبيسان كما زار طبرية وصفد وقلعة تبنين وقلعة هونين وأوصى بإعادة بنائهم. ثم وصل إلى بيروت حيث زاره فيها بوهمند صاحب أنطاكية حيث تم توقيع صلح نهائي بين الطرفين، ثم تابع سيره إلى دمشق فوصلها يوم الأربعاء الخامس والعشرين، ثم تابع سيره إلى دمشق فوصلها يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شوال 588هـ/ الثالث من تشرين الثاني 1192م حيث قضى فيها أربعة اشهر أمضاها في المناقشة مع

---

1 - Champdor, A. Saladin lr plus Hèros de l'islam. P. 320.

2 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ص 238.

العلماء في المسائل الدينية، وفي مجالسة أولاده الصغار وأصدقائه المقربين، ولكنه ما لبث أن مرض بالحمى وتوفي بعد فترة قصيرة يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة 589هـ/ الرابع من آذار 1193م وهو في السابعة والخمسين من عمره، ودفن ومعه سيفه الذي كان معه بالجهاد! «ليتوكأ عليه إلى الجنة»[1].

وقد وصف العماد الأصفهاني يوم وفاة صلاح الدين فقال: «كان يوماً مشهوداً لم يصب الإسلام والمسلمون مثله منذ فقد الخلفاء الراشدين، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى...»[2].

---

1 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2 ص 899. والمطران يوسف الدين تاريخ سورية ج 6، ص 132.

2 ـ عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي ص 17 ـ 30 وما بعدها.

وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين، ص 207 ـ 213 ـ 214 ـ 215.

الفصل الخامس

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

أولاً: توزيع السلطنة الأيوبية

عقب وفاة صلاح الدين توزعت أقاليم الدولة الأيوبية على عدد كبير من بني أيوب، فاستأثر بعض أبناء صلاح الدين بالأجزاء المهمة، وأخذ بقية الأبناء وإخوته وأقاربه اقطاعات ثانوية صغيرة.

خلف صلاح الدين الأيوبي بنتاً وسبعة عشر ولداً أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي فاستولى على دمشق وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرة وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم قرب حدود مصر.

أما الابن الثاني لصلاح الدين وهو الملك العزيز عثمان وكان يتولى حكم مصر نيابة عن أبيه فاحتفظ بها، ومن حوله جمهور العسكر الصلاحية والأسدية والأكراد.

أما الابن الثالث وهو الملك الظاهر غياث الدين فقد حكم حلب وشمال الشام.

وأما الملك العادل سيف الدين أبو بكر ـ أخو صلاح الدين ـ فقد أخذ الكرك والأردن، فضلاً عن الجزيرة وديار بكر، وكلها اقطاعات ثانوية لا تساوي شيئاً من مكانته ومقدرته وسابقته في الجهاد ومشاركته في بناء الدولة الأيوبية[1].

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 378 ـ 379.

وتوزع بقية الإخوة والأبناء الإمارات الصغيرة أو المماليك كما كانت تسمى فأخذ ظهر الدين طغتكين شقيق صلاح الدين اليمن وجزيرة العرب، والظاهر خضر بن صلاح الدين أخذ بصرى وحوران، والأمجد بهرام شاه ابن أخي صلاح الدين أخذ بعلبك، وشيركوه الثاني ابن شيركوه الأول عم صلاح الدين أخذ حمص والرحبة وتدمر[2].

إلى جانب هؤلاء من أفراد الأسرة الأيوبية احتفظ من البيت الزنكي عز الدين مسعود الأول بن مودود بالموصل، وأخوه عماد الدين الثاني بن مودود بسنجار، ومن البيت الأرتقي كان قطب الدين سقمان الثاني بكيفا وآمد، وعماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بخرتبرات، فضلاً عن بني سكمان في خلاط[3].

ثانياً ـ النزاع بين أبناء البيت الأيوبي

كان أشد ما يهدد العالم الإسلامي أن يقع الشقاق والنزاع بين أفراد الأسرة الواحدة، فتنهار الدولة الأيوبية، وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين ومستشاره الخاص قد أوجس خيفة من ذلك وكتب إلى الملك عزيز عثمان في مصر إثر وفاة السلطان يصور له هول الفاجعة إذا وقعت الواقعة[1]. لكن وصية القاضي لم تنفع وأمنية الأصدقاء المخلصين، فسرعان ما دب الخلاف بين أولاد صلاح الدين بعضهم ببعض، وبينهم وبين عمهم العادل، وأوشكت الدولة الإسلامية أن تتمزق وتتفرق، وذلك أن صلاح الدين أوصى لابنه الأفضل ـ صاحب دمشق ـ بالسلطة من بعده، على أن تكون له السلطة في بقية أنحاء الدولة الأيوبية، ولكن

2 ـ عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي ص 364.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 226.

1 ـ محمد كرد علي: خطط الشام ج 2، ص 73.

الأفضل لم يكن الشخص الذي يصلح لتلك المهمة لضعفه وسؤ سيرته، وانصرافه إلى اللعب واللهو وتظاهره بلذاته[1]. وزاد من كراهية الناس له أنه استوزر الشاب ضياء الدين ابن الأثير، أخي المؤرخ الشهير، فحسن له هذا الوزير، إبعاد أمراء أبيه وكبار قواده، وأن يستجد أمراء وقواداً غيرهم، فأصغى الملك الأفضل إليه، وأقصى العقلاء من مستشاريه وأمراء دولته المدافعين عن حوزتها الغيورين على بقائها، فنقموا عليه هؤلاء وفروا إلى بلاط الملك العزيز عثمان بمصر فأكرمهم وأحسن إليهم.

وكان من بينهم الأمير فخر الدين جهاركس والأمير فارس الدين ميمون، والأمير شمس الدين سنقر، كما لجأ إلى مصر القاضي الفاضل بهاء الدين بن شداد، الذي أحسن الملك العزيز استقباله، وأحله محل الوالد، وصار لا يصدر أمراً إلا عن رأيه ومشورته.

أخذ هؤلاء الأمراء المستبعدون إلى مصر يشجعون الملك العزيز عثمان على توحيد المملكة تحت سلطانه، ويدفعونه لغزو دمشق[2]. في تلك الأثناء كان أمراء الشام قد اتفقوا على ألا يعترفوا بسيادة سلطان مصر الذي زعم أن له السيادة عليهم، لما لدمشق من أهمية في توجيه السياسة المصرية السورية الجزرية[3]. فاستغل الملك العزيز تلك الفرصة وخرج من مصر في صيف سنة 590هـ/ 1194م على رأس جيش كبير قاصداً الشام، وشرع في محاصرة الأفضل في دمشق، الأمر الذي جعل الأفضل يستنجد بعمه العادل والملك الظاهر صاحب حلب والملك المنصور صاحب حماه والملك المجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك[4].

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 120.

2 ـ المصدر نفسه ص 120.

3 ـ Wiet. G. L'egypte Arabe... op. cit., p. 337.

4 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 121.

وصل إلى دمشق الملك العادل، وملوك البيت الأيوبي لنصرة الملك الأفضل، وبعث الملك العادل إلى ابن أخيه الملك العزيز يشفع له في الملك الأفضل ويستأذنه في الاجتماع به، وتم الاجتماع بينهما في صحراء المزة غربي دمشق، فطيب الملك العادل نفسه وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها، ونصحه بالعودة من حيث أتى، بعد أن تم الاتفاق على تعديل في ممتلكات الإخوة الثلاثة: بحيث يحتفظ الملك الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور، في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين. ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية فضلاً على ما بأيديهم[1].

وهكذا أتيحت الفرصة للملك العادل فأخذ يتدخل، علّه يحقق أطماعه الخاصة بتغيير تلك القسمة غير العادلة بينه وبين أبناء أخوته، وليس فيهم من يدانيه في حسن السياسه وكثرة التجربة وبعد النظر، ولم يشأ أن يتعجل الحوادث عقب وفاة أخيه صلاح الدين، فأخذ يتصرف من تعديل ريثما تنضج الأمور، حتى بدا وكأنه الشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الأيوبي، والمحافظة على كيان المسلمين أمام الأخطار الخارجية[2].

ثالثاً ـ الملك العادل يصبح وزيراً للعزيز في مصر

لم تستقر الأمور طويلاً بين الأخوين، فقد كانت حاشية كل منهما تحرضه على الآخر تحقيقاً لمآربها، وكانت سيرة الملك الأفضل الغارقة في اللهو والترف تغري العزيز عثمان العودة إلى مطامعه، فخرج من مصر، قاصداً دمشق في سنة 592هـ/ 1195م، فلما علم الأفضل سارع بالاستنجاد بعمه العادل، فلبى العادل النجدة وحرض أمراء العزيز على تركه.

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 120 ـ 124.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 271.

يقول المقريزي: «... كاتب الملك العادل أمراء العزيز سراً واستمالهم، وكان الأمراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسدية تنافس لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية فعملت حيل العادل حتى وقعت الوحشة بين الطائفتين، واتفقوا بأجمعهم على مقاومة العزيز والانضمام إلى العادل والأفضل»[1]. فلما أحس الملك العزيز بما حدث قرر العودة إلى مصر وسرعان ما تم الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ الفضل مصر ويترك دمشق للعادل. وجمع الاثنان جيوشهما وزحفا على بيت المقدس واستوليا عليها، ثم زحفا إلى مصر حتى وصلا بلبيس وحاصراها، إلا أن العادل خشي أن يخلف الأفضل وعده فيأخذ مصر ولا يعطيه دمشق، فأرسل العادل سراً إلى العزيز يطلب منه الصمود ويتعهد له بالانسحاب من بلبيس[2]: وفي الوقت ذاته كان يقنع الملك الأفضل أن يتصالح مع أخيه، واقترح أن يتم الصلح على يدي القاضي الفاضل الذي استطاع أن يتوصل إلى حل يحقن به الدماء، ويرأب الصدع، وهو أن يعود الملك الأفضل إلى دمشق ملكاً عليها وأن يكون ملك مصر للعزيز عثمان على أن يدير شؤونه الملك العادل باعتباره وزيراً للعزيز عثمان[3].

عاد الأفضل إلى دمشق ليستسلم نهائياً إلى لذاته وعبثه، تاركاً جميع شؤون الحكم في يد وزيره ابن الأثير «الذي اختلت به الأحوال غاية الاختلال وكثر شاكوه، فضج الناس من سوء الحكم وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الأثير جميعاً»[4].

وجد العادل أن الفرصة قد سنحت له أخيراً لتحقيق أهدافه، فبدأ يحرض

1 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 124 ـ 125.

2 ـ Wiet. G. L'egypte Arabe... op. cit., p. 338.

3 ـ محمد كرد علي: خطط الشام ج 2، ص 74 ـ 75.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 129.

العزيز عثمان على عزل أخيه الأفضل، وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الغرض، ثم خرج الاثنان ـ العادل والعزيز ـ إلى الشام في سنة 592هـ حزيران 1196م، ولم يكن للملك الأفضل أي رغبة بمقاومة العزيز عثمان بعد أن أصبح العادل يشد أزره، «فما صدهم عن البلد صادٌ ولا ردهم رادٍ»[1]، ففتحت لهما أبواب دمشق في يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب سنة 592هـ/ 1196م، وتسلم العادل حكم دمشق وأواسط الشام ليكون نائباً للسلطان عليها، في حين أخذ العزيز لقب السلطنة وبقيت له مصر وبيت المقدس. أما الأفضل فتقرر نفيه إلى مدينة صرخد في اقليم حوران شرقي بصرى «عاكفاً على التقوى والعبادة وكتابة القرآن، ولبس الصوف الخشن، نسياً منسياً»[2].

رابعاً ـ مصر في عهد العزيز عثمان

تولى العزيز عثمان حكم مصر في سنة 589هـ/ 1193م، وكان قبل ذلك يحكم مصر بالنيابة عن أبيه، فلم يكد صلاح الدين يموت، حتى بادر أمراء مصر وقضاتها وأعيان الدولة بمبايعة العزيز عثمان خلفاً لأبيه، وكان عمره وقتذاك اثنين وعشرين سنة[3].

ويلاحظ أن العزيز عثمان ولد بالقاهرة، وهو لذلك يمثل أول حاكم من بني أيوب يولد بمصر ويتولى حكمها. وفي السابع والعشرين من المحرم سنة 595هـ أواخر تشرين الثاني 1198م لقي العزيز عثمان مصرعه بسبب سقوطه عن ظهر جواده في أثناء خروجه للصيد، ومده ملكه ست سنوات إلا شهراً[4].

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 3، ص 61.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 116.

3 ـ المصدر نفسه ص 120.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 146.

يقول أبو المحاسن عن العزيز عثمان أن أمور مصر استقامت في أيامه وعدل في الرعية وعف عن أموالها[1]. أما ابن خلكان فقال: «كان العزيز عثمان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً إلى الناس»[2]. وقد انفرد ابن اياس عن سائر المؤرخين بالحملة على العزيز عثمان فقال عنه: «... وقع في أيامه غلاء بسبب توقف النيل... واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصي...»[3].

والحقيقة أن أحوال مصر الاقتصادية تأثرت في عهد الملك العزيز عثمان إلى حد كبير بسبب انخفاض النيل سنة 591هـ/ 1194م وما ترتب على ذلك من نقص الغلاء وانتشار الوباء، فهلكت المواشي، وكثر الزحام في الأسواق على الخبز لقلته «وكثرت الطرحى من الأموات على الطرقات وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتي نفس، وبقي في مصر من لم يوجد من يكفنه وأكثرهم يموت جوعاً»[4]. ولعل انشغال العزيز عثمان بالنزاع مع أخيه الأفضل في تلك الفترة كان السبب في اهمال تلك الضائقة التي أدت إلى اختلال في أحوال البلاد وفساد الأمور.

خامساً ـ العادل يتسلم السلطة في مصر

تولى الملك المنصور ناصر الدين محمد عرش مصر بناء على وصية والده الملك العزيز عثمان ولم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره، فاتفق أمراء الدولة مع القاضي الفاضل على مكاتبة عمه الملك الأفضل ليحضر إلى مصر ويتولى الأتابكية للملك

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 125 ـ 146.
2 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 1 ص 217...
3 ـ ابن أياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ج 1، ص 59.
4 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 130.

المنصور حتى يبلغ سن الرشد[1]. جاء الأفضل إلى مصر وتولى إدارة المملكة ولكنه لم يلبث أن سيطر على أمور البلاد ولم يبق للمنصور غير الاسم فقط.

حاول الأفضل إعادة سلطانه في بلاد الشام، فاستغل غياب الملك العادل في محاصرة مدينة ماردين في ديار بكر، واتفق مع أخيه الملك الظاهر صاحب حلب في القضاء على سيادة عمهما الملك العادل والاستيلاء على دمشق[2]. وسار الأخوان الأفضل من مصر والظاهر من حلب قاصدين دمشق، ولكن الملك العادل الذي علم بالمؤامرة كان أسرع منهم في الوصول إلى دمشق، فدخلها وأغلق أبوابها استعداداً للدفاع، ولم يبق أمام الأفضل والظاهر إلا أن يحاصرا المدينة، واستمر الحصار طوال ستة أشهر، ولكن دون جدوى.

استغل العادل طول مدة الحصار وسؤ تدبير الأخوين «الأفضل والظاهر». وأخذ يبذر بذور الخلاف بينهما حتى أقنع العديد من أمرائهم إلى تركهما والانضمام إليه، ففشل الحصار وانسحب الفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب[3]. ولم يشأ العادل أن يترك الأفضل يعود في سلام إلى القاهرة بل أسرع في أعقابه إلى مصر، وأنزل به هزيمة ساحقة قرب بلبيس، فأعلن الأفضل خضوعه وطلب أن يسمح له بالعودة إلى إقطاعه المتواضع في حوران.

وفي الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة 596هـ/ شباط 1200م، دخل الملك العادل إلى القاهرة، أتابكاً ومدبراً لشؤون الملك الصغير على مصر والشام[4].

ولما استقر الوضع للملك العادل بالقاهرة خطا خطوته الأخيرة التي

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 235.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 147.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 236.

4 ـ Wiet. G. L'egypte Arabe... op. cit. p. 340.

عمل لها جاهداً، فأحضر الأمراء والقضاء والفقهاء وأقنعهم بالقول: «إن الملك ليس هو بالإرث، وإنما هو لمن غلب وقام بالانفراد وحده بأمور الدولة...»[1]. فأقره المجتمعون على قوله، وأقسم له يمين الطاعة. وبذلك أصبح العادل هو الحاكم للدولة الموحدة التي كان يحكمها أخوه صلاح الدين من قبل[2].

استاء الظاهر والأفضل من انفراد العادل بالحكم، واتفقا على انتزاع بلاد الشام منه وزحفا على دمشق ليحاصراها من جديد، ولكن العادل استطاع كما هو دأبه، أن يوقع من جديد بين الأخوين، فعاد الظاهر إلى حلب واعترف بسيادة عمه على الدولة الأيوبية، أما الأفضل فقد اختار عمه العادل أن يعاقبه، فلم يعطه هذه المرة غير سمياط[3]. وهكذا نجح العادل في توحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت سلطانه. واستعان بأبنائه عندما حاول اعادة تنظيم دولته، فأناب ابنه الكامل محمد في حكم مصر، وجعل المعظم عيسى في دمشق، وأعطى الأشرف موسى حران، والأوحد ميافارقين، واحتفظ هو لنفسه بالاشراف التام على جميع تلك الأنحاء وصار «ينتقل في ممالك أولاده والعمدة في كل الممالك عليه»[4].

وشاءت الأقدار أن يبدأ العادل حكمه بفترة من المجاعة والقحط نتيجة ما أصاب مصر من انخفاض النيل وما نجم عنه من الأوبئة والمجاعات وهجرة السكان، فضلاً عن الزلزال الذي ضرب البلاد وأحدث كارثة مخيفة أفاض المؤرخون في وصف أحوالها حتى قال المقريزي أن العادل كفن في مدة يسيرة مائتي وعشرين ألفاً من الموتى[5].

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 149 ـ 150.

2 ـ المصدر نفسه ص 152.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 6، ص 159.

4 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 227.

5 ـ المقريزي: إغاثة الأمة... ص 29 ـ 32. وانظر النجوم الزاهرة ج 6 ص 170.

وإذا كان سعي الملك العادل الدؤوب الحد من هذه الكوارث الطبيعية التي أثرت تأثيراً خطيراً في أحوال البلاد إلا أن ذلك لم يثبط من عزيمته في درء الخطر الصليبي الذي بات يهدد الدولة الأيوبية ويقضي عليها.

سادساً ـ السلطان العادل والصليبيون

أ ـ حملة هنري السادس الصليبية وفشلها

حاول الصليبيون أن يستغلوا وفاة صلاح الدين والنزاع بين ملوك البيت الأيوبي، فتنادت البابوية إلى تأليف حملة صليبية جديدة وهي الحملة المعروفة بحملة هنري السادس امبراطور ألمانيا[1]. وضع هنري برنامجاً ضخماً لحملته يستهدف اخضاع الدولة البيزنطية والشرق اللاتيني بأجمعه لسلطة الامبراطورية الألمانية. وصلت حملة هنري إلى عكا في أوائل سنة 594هـ/ 1197م، ولم يرحب هنري دي شمباني ملك بيت المقدس بقدومها بعد أن أثاره مسلك جنودها العدائي، لا سيما بعد أن أخذوا يغيرون على الأرض الإسلامية دون اشتئذانه، ويعكرون صفو السلام السائد في الشرق[2]. وجد الملك العادل بالرغم من الهدنة القائمة بين الصليبيين والمسيحيين نفسه مضطراً إلى الرد على غارات الصليبيين الألمان، فأسرع إلى جمع القوى الإسلامية، وأنزل الهزيمة بالصليبيين عند تل العجول قرب غزة، ثم أسرع إلى احتلال مدينة يافا، وبينما كان هنري دي شمباني يستعد لنجدتها فاجأه الموت في سنة 594هـ/ العاشر من أيلول 1197م[3].

كان هنري دي شمباني قبل وفاته طلب المساعدة من ملك قبرص

---

1 ـ هنري السادس هو ابن الامبراطور فردريك بيروت الذي غرق في احدى أنهار آسيا الصغرى.

2 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ص 917 ـ 918.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 233.

عموري لوزجنان لنجدة يافا، فلبى هذا الأخير الدعوة، ولكنه ما إن وصل إلى شواطىء الشام حتى بلغه أن المدينة قد سقطت. فعمد إلى الاستيلاء على بيروت وما كاد يحاصرها حتى هرب أميرها واستسلمت المدينة وتابع الصليبيون زحفهم للاستيلاء على بيت المقدس فهاجموا مدينة تبنين، مما اضطر العادل إلى طلب النجدة من العزيز عثمان من مصر. فحضر إليه على رأس جيش كبير، فما أن علم الصليبيون بقدومه حتى انسحبوا إلى مدينة صور[1] بعد هزيمة تبنين توفي المبراطور هنري السادس فعادت الجيوش الألمانية الباقية إلى بلادها، فوجد عموري نفسه وجهاً لوجه مع المسلمين في حرب تورط فيها فآثر المصالحة وعقدت هدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات على أن يحتفظ كل واحد بفتوحاته الجديدة وتقسيم صيدا مناصفة[2] وكان الملك العادل أحوج إلى هذه الهدنة من عموري، فقد توفي العزيز عثمان واختل حبل الأمن وفسدت الأمور، فأضحى الملك العادل في حاجة إلى وقف الحرب مع الصليبيين لتحقيق أهدافه وإصلاح ما حدث.

ب ـ الحملة الصليبية الرابعة

إستاء الفرنجة من فشل حملة هنري السادس امبراطور ألمانيا، فأخذ الباب أنوسنت الثالث يدعو من جديد لتجهيز حملة صليبية رابعة. لكن نداءه لم يلق آذاناً صاغية من الملوك، فقد كان لدى كل منهم ما يشغله، ولم يستجب لدعوته سوى الاقطاعية الفرنسية ممثلة في بعض الأمراء. وكانت تجارب الحملات الأوروبية السابقة أكدت للأوروبيين أهمية مصر بوصفها القاعدة الكبرى التي اعتمد عليها الأيوبيين في نشاطهم الداخلي والخارجي. لذلك كان هدف الحملة الرابعة هو

---

1 ـ ابن واصل: كتاب مفرج الكروب ج 2، ص 74 ـ 75.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 235.

الاستيلاء على مصر. ولما كان الوصول إلى مصر لا يتم إلا بحراً. فقد اتفق زعماء الحملة مع البندقية لتقديم مساعدتها البحرية مقابل 85 ألف مارك ذهبي فضلاً عن النزول لها عن نصف الغنائم المنتظرة، ولكن زعماء الحملة عجزوا عن تأمين المبلغ، فانتهز دوق البندقية الفرصة في تحقيق مآربه وطلب من قواد الحملة مهاجمة مدينة زارا الخارجة عليه وتسليمها له ثمن لنقلهم إلى مصر، فاستجاب قادة الحملة واتجهوا إلى زارا وهاجموها واحتلوها، فاستاء البابا أنوسنت من هذا العمل الشائن واصدر قرار الحرمان على الحملة الصليبية الرابعة[1].

وصادف في تلك الأثناء أن قام نزاع شديد على العرش بين افراد الأسرة الحاكمة في القسطنطينية، فوجد دوق البندقية «داندولو» الفرصة سانحة وكان بينه وبين بيزنطية منافسات تجارية وسياسية عنيفة، فأقنع قادة الحملة الصليبية أن يغيروا وجهتهم للإستيلاء على القسطنطينية بدلاً من مصر[2].

والسؤال هل كان للملك العادل أثر في هذا التحول؟

يعتقد بعض المؤرخين أن سياسة الملك العادل كان لها دور في تحويل الحملة الرابعة عن مصر والشام، حيث استغل فترة المفاوضات بين قادة الحملة وجمهورية البندقية وبعث إلى الدوق «داندولو» سفارة تحمل بعض الهدايا ووعد بمنح البندقية مزايا تجارية إذا استطاع إبعاد هذه الحملة عن مصر، وقد شك عدد من المؤرخين في هذه الرواية، ولكن الباحث التاريخي المراقب للأحداث التي تلت ذلك يجد أن العادل عقد بالفعل في سنة 604هـ/ 1207م معاهدة مع البندقية منحها فيها الكثير من المزايا التجارية في مدينة الاسكندرية مقابل التعهد بمنع أي

---

1 - Grosset> Hist, des Groisades, T.III. P. 182.

2 - Ibid., T. III. P. 184.

حملة صليبية من المجيء إلى مصر[1]. ومهما كانت الدوافع فقد اتجه الصليبيون إلى القسطنطينية بدلاً من مصر، واستولوا عليها، وأقاموا امبراطورية لاتينية خاضعة لنفوذ البندقية استمرت قرابة خمسين عاماً (601 ـ 661هـ) (1204 ـ 1261م)[2].

إزاء هذا الانحراف في اتجاه الحملة فقد الفرنجة الأمل بوصول القوة المنقذة التي كانوا يعتقدون بأنها ستعيد لهم مستعمراتهم القديمة، ورأى الملك عموري دي لوزجنان ضرورة تجديد الصلح مع المسلمين، ولم يكن الملك العادل بأقل منه رغبة في هذا الصلح، فعقد الفريقان سنة 601هـ/ 1204م هدنة جديدة لمدة ست سنوات تنازل فيها العادل عن مدينة يافا وعن النصف الخاص بالمسلمين في صيدا واللد والرملة[3].

ج ـ حملة الأطفال الصليبيين (609هـ/ 1212م)

من أغرب الحملات الصليبية التي جاءت لنجدة الفرنجة في الشام كانت حملة الأطفال التي تزعمها صبي من الرعاة الفرنسيين يدعى اسطفان الفندومي، لم يكن قد تجاوز الثانية عشر من عمره ادعى أن المسيح عليه السلام أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس فاستجاب له عدد كبير من أترابه كانوا خليطاً من الأولاد والبنات، وعندما وصل هذا الحشد إلى مرسيليا أصيب بخيبة شديدة لأنهم لم يجدوا في البحر طريقاً عجائبية تقودهم إلى فلسطين، فعاد

---

1 ـ Wiet. G. L'egypte Arabe, op. cit., [. 340.

2 ـ Ibid. p. 341.

3 ـ Grousset, Hist, des Groisades, T. III. P. 184.

وانظر ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 162 ـ 163. والمقريزي: السلوك ج 1، ص 164.

قسم منهم إلى بيوتهم، أما الباقي منهم فغرر بهم التجار وأصحاب السفن من أهل مرسيليا وعرضوا عليهم أن ينقلوهم إلى الأرض المقدسة دون مقابل، فنزلوا في سبع سفن أقلت بهم إلى الشرق لكن لا لتقلهم إلى بيت المقدس بل إلى الثغور الإسلامية وخاصة الإسكندرية حيث بيعوا في سوق النخاسة[1].

وفي الوقت الذي تألفت فيه حملة اسطفان في فرنسا كان هناك حملة مماثلة تماماً قامت في ألمانيا يقودها صبي يدعى نيقولا الكولدني حيث حشد جيشاً من الأطفال وعبر بهم جبال الألب ونزلوا إلى شواطىء إيطاليا متوقعين أن البحر سينشق أمامهم ويصلوا إلى القدس، وكابدوا في الطريق من الأهوال ما قضى على قسم منهم والبقية منهم استقبلهم البابا وأقنعهم بالعدول عن رأيهم والعودة إلى بيوتهم[2].

د ـ الحملة الصليبية الخامسة (614هـ ـ 1217م)

اهتزت الدول الأوروبية وتلطخت سمعة الحركة الصليبية نتيجة الأحداث المؤلمة التي ارتكبها الصليبيون في القسطنطينية فدعا البابا أنوسنت الثالث ومن بعده البابا هونريوس الثالث جميع الدول الأوروبية إلى ضرورة القيام بحملة صليبية جديدة إلى الشرق لإبقاء الفكرة الصليبية حية، فاستجابت لندائهم جموع كثيرة تحت قيادة أندرو ملك المجر، وهيولوزينا ملك قبرص وليو ملك أرمينيا، وحنا دي برين ملك بيت المقدس، إلى دوقات النمسا وبافاريا وصاحب طرابلس[3]. وصلت الحشود الصليبية إلى مدينة عكا في سنة 614هـ/ 1217م

---

1 ـ فيليبي فان نس مير: التاريخ العام ص. ف.

2 ـ فيليب فان نس مير: التاريخ العام ص 249.

3 ـ Runciman: Hidory of the Grusades, T. III. P. 133 – 140.

ويدأوا غاراتهم على المدن السورية، فأسرع الملك العادل بعساكره من مصر إلى الشام لمواجهتهم ووصل إلى الرملة ومنها تقدم إلى بيسان، فلما شاهد جموع الصليبيين الضخمة، امتنع عن منازلتهم وآثر التريث ريثما تصل إليه نجدات ملوكه وأمرائه، وانسحب إلى عقبة فيق(*). فاغتنم الصليبيون فرصة انسحابه وعاثوا في الأرض فساداً يسرقون وينهبون ويحرقون، حتى أفزعت أعمالهم الأهالي وراحوا يستغيثون بالملك العادل الذي كان يهدىء روعهم بقوله: إن الخلاف سيقع قريباً في جيش الصليبيين، وليست هذه الحشود سوى سحابة ستنقشع بأقل ريح تهب عليها.

وصدقت توقعات الملك العادل حتى وقع الخلاف في صفوف الصليبيين بسبب التنازع على تزعم الامارات الصليبية، وما رافق ذلك من مشاحنات بين الطوائف الدينية العسكرية، يضاف إلى ذلك أن شراسة الصليبيين جعلت المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ويفضلون حكم المسلمين، وهكذا لم ينته شتاء 614هـ/ 1217م حتى كان القسم الأكبر من الجيش الصليبي قد قضى نحبه، ويئس ملك المجر من الوصول إلى نصر حاسم فعاد إلى بلاده، أما ملك قبرص لوزجنان فقد مرض ولم يلبث أن مات[1].

وكان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى انتهاء الحملة الصليبية الخامسة دون أن تحقق شيئاً، ولكن الجيوش ما فتئت تنهال من وراء البحار حتى تجمع للصليبيين في عكا سنة 615هـ/ نيسان 1218م جيش ضخم جديد.

(*) هي بلدة تقع على الطريق بين طبرية ودمشق.

1 - Runciman: History of the Crusades. T. III. P. 146 0 147.

هـ ـ الصليبيون يهاجمون مصر

بعد تدفق الحشود الصليبية إلى عكا، عقد الفرنج اجتماعاً للتشاور في ماذا سيبدأون فعله، فاتفقوا على ضرورة مهاجمة مصر، وبرروا ذلك. «أن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها، وحينئذٍ فلا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد»[1].

ترك الصليبيون حامية قوية في عكا وأبحروا بقيادة جان دي بيرين ملك بيت المقدس قاصدين مصر، فوصلوا إليها يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الأول سنة 615هـ/ الثامن من حزيران سنة 1918م، ونزلوا على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط، وكانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً، إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل عند مصبه سلاسل ضخمة من الحديد تحول دون دخول المراكب العادية من البحر إلى النيل، بالإضافة إلى برج السلسلة، وهو برج ضخم مشحون بالمقاتلة بناه المسلمون وسط مجرى النيل لحماية المدينة من أي عدوان يقع عليها[2].

وجه الصليبيون جهدهم أول الأمر للإستيلاء على برج السلسلة، فهاجموه بأسطولهم وبآلات الحصار التي أقاموها على سفن مسطحة، مربوطة بعضها إلى بعض، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل أمام استبسال حامية البرج وشجاعتهم[3].

وعندما علم الملك الكامل ـ الذي كان ينوب عن والده الملك العادل في حكم مصر ـ بنبأ نزول الصليبيين مقابل دمياط، أسرع على رأس جيشه إلى دمياط،

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 3، ص 256 وانظر Bréhier, L'eglise – L'orient, p. 191 – 192.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 188.

3 ـ Runciman, History of the Crusadaes, T. III. P. 150 – 151.

وعسكر في العادلية على ضفة النيل الشرقية، ليكون على اتصال بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبيين من الوصول إليها من ناحية أخرى، في الوقت الذي أمر العادل نوابه وقواته في الشام بالغارة على أطراف المستعمرات الصليبية ليشغلهم عن محاصرة دمياط، إلا أن ذلك لم يمنع الصليبيين من احتلال البرج السلسلة وتحطيم المآصر التي تحمي النهر، بعد نضال استمر أربعة أشهر، وكان ذلك البرج يعتبر «قفل الديار المصرية»[1]. وبسقوطه استطاع الصليبيون أن يدخلوا أسطولهم من البحر إلى النيل[2]. فلما سمع الملك العادل بذلك الخبر حزن حزناً شديداً أدى به إلى فرض الموت، حيث توفى يوم الخميس السابع من جمادي الثانية سنة 615هـ/ الحادي والثلاثين من آب 1218م[3].

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج ١، ص ١٩٥.

2 ـ Wiet, L'egypte Arabe. Op. cit., p. 346.

3 ـ Ibid. p. 346.

الفصل السادس

الدولة الأيوبية بعد وفاة العادل

أولاً ـ أبناء العادل ومحاربة الصليبيين

إن موت الملك العادل لم يثبط من عزيمة أبنائه في مواصلة الجهاد ضد الخطر الذي يهددهم ويهدد المسلمين جميعاً، لاقتناعهم بأن الصليبيين لو تملكوا مصر، لم يبق أمامهم مانع من طرد المسلمين من مصر والشام. لذلك بذلوا كل ما في وسعهم لطرد الصليبيين من مصر، ومضايقتهم في الشام لتخفيف الضغط عن مدينة دمياط. وأخذ الكامل يعمل على عرقلة تقدم الأسطول الصليبي في النيل. فنصب جسراً من السفن في عرض النيل ولكن الفرنج استطاعوا قطعه واختراقه، عندئذٍ أمر الملك الكامل بإغراق عدد من المراكب الكبيرة في النيل فاستحال بذلك على السفن الصليبية التقدم جنوباً.

لم ييأس الصليبيون من هذا الإجراء وقابلوا ذلك بالإلتجاء إلى حفر خليج كان النيل يجري فيه قديماً، وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط، وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النهر حتى وصلت إلى موضع يقال له بورة[1] مقابل لمنزلة العادلية حيث عسكر الكامل[2].

ولم تكد أخبار الانتصارات التي أحرزها الصليبيون أمام دمياط تصل إلى الشام،

---

1 ـ محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ج 1 ص 176، 179.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 195، والدكتور سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 568.

حتى اشتدت حماسة إخوانهم وهاجموا بعض المراكز الإسلامية قرب عكا، ولكن المسلمين تصدوا لهم وأنزلوا بهم خسائر جسيمة، كما خرج الملك المعظم عيسى من دمشق واقتحم قيسارية وهدمها، في الوقت الذي أغار فيه الأشرف موسى على إمارة طرابلس[1]. كانت هذه الأحداث تجري في بلاد الشام، ودمياط لا زالت آمنة سالمة وسورها يحميها، والميرة والإمداد تصل إليها دون انقطاع.

ثانياً ـ سقوط دمياط

إن احتلال الصليبيين لبرج السلسلة لم يوفر لهم مكاسب سريعة، لأن كثيرين منهم اعتبروا أن مهمتهم قد انتهت وانسحبوا عائدين إلى بلادهم، وصار على حنا دي برين أن ينتظر وصول إمدادات أوروبية جديدة كي يتابع الزحف على مصر. وقد وصلت هذه الإمدادات في سنة 615هـ/ أيلول 1218م، وعلى رأسها الكاردينال بلاجيوس مندوباً عن البابا وقائداً أعلى للحملة.

في الوقت الذي كان الصليبيون ينتظرون المعونة الخارجية أرسل الملك الكامل يستنجد بأهل الإسلام، على قتال الفرنج ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، فقدمت النجدات من حماه وحلب. حاول الكامل القيام بهجوم مباغت على معسكر الصليبيين في سنة 615هـ/ أوائل تشرين الأول سنة 1218م ولكنه أخفق في هجومه وتكبد خسائر فادحة، إلا أنه استطاع صد الصليبيين عندما حاولوا انتهاز الفرصة للعبور إلى الضفة الشرقية[2]. وزاد من موقف الكامل سوءاً أن البدو أتوا من سيناء والشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى السائدة نتيجة الغزو الصليبي، فأغاروا على القرى ونهبوها «وبالغوا في

---

3 ـ د. سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص 84.

1 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2 ص 971.

الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج»[1]. وزاد من خطورة الموقف أن أحد قواد الكامل وهو ابن المشطوب دبر مؤامرة كبرى لعزل الكامل وتولية أخيه الملك الفائز إبراهيم، فعرف الكامل بالمؤامرة، إلا أنه أخذ يداري المتآمرين «لكونه في قبالة العدو ولا يمكنه المقاهرة»[2]. ثم ما لبث أن ترك معسكره بمنزلة العادلية وتسلل إلى أشموم طناح ونزل بها في مساء يوم 16 من ذي القعدة سنة 612هـ/ الخامس عشر من شباط 1219م، ولما شعر قادة الجيش باختفاء الكامل غادروا المعسكر تاركين أموالهم وأسلحتهم وأثقالهم ولحقوا بالملك الكامل، فاغتنم الصليبيون الفرصة وانتقلوا إلى الضفة الشرقية من النيل من غير منازع ولا مدافع، واستولوا على ما في المعسكر وضربوا الحصار على دمياط[3].

أمام هذه الأخطار خشي الملك الكامل على نفسه وعزم على مغادرة مصر والتوجه إلى بلاد اليمن وكانت بيد ولده الملك المسعود، ولكن الملك المعظم وصل في الوقت المناسب، فأعاد الثقة إلى أخيه الكامل، وتخلص من ابن المشطوب، وأعاد تنظيم الجيش الإسلامي الذي عند فارسكور «فارس كور» جنوبي العادلية لمهاجمة الصليبيين من الخلف إذا هاجموا دمياط، وبفضل هذه الاجراءات الجديدة استطاعت دمياط أن تستعيد رباطة جأشها وتصمد في وجه الحصار الصليبي تسعة أشهر أخرى قاومت فيها جميع المحاولات التي بذلها الفرنج للإستيلاء عليها[4].

وزاد في خطورة الموقف أن البلاد العربية ـ الإسلامية أخذ يتهددها غزو جديد أكثر وأشد هولاً من الخطر الصليبي، وهو الغزو المغولي الزاحف

---

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 195 ـ 196.
3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 230.
4 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 196.
5 ـ المصدر نفسه ج 1 ص 197.

من الشرق، وكان لا بد لهذه البلاد أن تواجه هذا الغزو بالاتحاد والاستعداد، ولم يعد باستطاعتها تقديم الإمداد لمساعدة مصر رغم استغاثة الملك الكامل[1]، ثم ضاعف من صعوبة الوضع وصول نجدات قوية للصليبيين من أوروبا، والمجاعة التي كانت تهدد الشعب المصري لإنخفاض النيل في تلك السنة[2]. كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الملك الكامل يتقدم إلى الصليبيين بعرض سخي مقابل الجلاء عن مصر، وهو التنازل لهم عن مملكة بيت المقدس وإعادتها كما كانت قبل معركة حطين، بإستثناء الأردن الذي يبقى بيد المسلمين.

قبل هذا العرض حنا دي برين وامراء مملكته والصليبيون الفرنسيون، في حين رفضه المندوب البابوي الكاردينال بلاجيوس وفرسان الداوية والاسبتارية «الذين ظنوا أن احتلال مصر بات أمراً سهلاً»[3]. ورأى أبناء البندقية وجنوى أن احتلال الدلتا سيؤمن لهم مكاسب تجارية هامة، وأصبحت استعادة بيت المقدس بالنسبة لهم جميعاً أمراً ثانوياً[4].

وفي سنة 616هـ/ آب 1219م وصلت نجدات قوية للصليبيين، فشددوا هجماتهم على دمياط التي أوشكت على السقوط، فخشى الملك المعظم من نتيجة الحرب مع الصليبيين، فقام بهدم عدة حصون قوية في الشام حتى لا يستفيد الصليبيون منها إذا استولوا عليها، بل إنه هدم أبرج مدينة بيت المقدس وأسوارها الأمر الذي اثار موجة من الذعر بين صفوف المسلمين في المدينة[5].

اشتدت حماسة الصليبيين وقاموا بهجوم واسع على جيش الكامل،

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 195.

2 ـ المصدر نفسه، ج 1، ص 206.

3 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 976.

4 ـ Grousset. Hist. des Croisades. T. III. P. 223.

5 ـ Ibid. p. 214.

ولكنهم سرعان ما ارتدوا عنه خاسرين وقد فقدوا كثيراً من القتلى والأذى، فانتهز الكامل الفرصة وجدد طلبه بعقد الصلح معلناً استعداده لإعطائهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية، وكل ما حرر صلاح الدين من بلاد الساحل باستثناء الكرك والشوبك[1]. ومرة أخرى رفض العرض مجدداً من قبل بلاجيوس، الذي أصر على أن يهزم المصريين هزيمة تامة ساحقة بالاستيلاء على القاهرة وأيده الهيكليون والايطاليون وفرسان المستشفى[2].

اشتد الخناق على أهل دمياط، وفشلت محاولة الملك الكامل بمدهم بخمسمائة من جنوده، وقعوا في أيدي الفرنجة، فقتلوهم وصفوا رؤوسهم على الخنادق فراع ذلك أهل دمياط، وزاد في قنوطهم نفاذ الأقوات، وكثرة الأوبئة حتى غصت شوارع دمياط بالموتى ولم يبق أمامهم إلا التسليم على أن يتعهد الصليبيون بحماية أرواحهم[3]. وفي الخامس والعشرين من شعبان سنة 616هـ/ الخامس من تشرين الثاني 1219م دخل الصليبيون مدينة دمياط فنكثو بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم بحماية الأرواح، وأكثروا من أعمال السفك والعدوان في أهلها، كما انتهكوا حرمة المسجد بأفعالهم الشنيعة داخله، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى بلادهم، وحولوا الجامع إلى كنيسة[4].

ثالثاً ـ الصليبيون والزحف على القاهرة

لم يتقدم الصليبيون إلى داخل البلاد بعد احتلالهم دمياط بسبب الانقسامات التي وقعوا لرغبة كل فريق في الاستئثار بحكمها، فانسحب الملك

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 205.

2 ـ ريتز جورج وزملاؤه: دراسات إسلامية ص 217.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 206.

4 ـ أحمد حسين موسوعة تاريخ مصر ج 2ن ص 651.

حنا دي برين عائداً إلى عكا تاركاً مهمة القيادة للكردينال بلاجيوس وحده، وانصرف إلى تحسين دمياط وتوطين الجاليات الفرنجية فيها، بغية اتخاذها مركزاً منيعاً دائماً لهم، وهذا ما جعله يتباطأ في الزحف على القاهرة حتى أواخر سنة 618هـ/ حزيران 1221م، كان هذا التلكؤ الذي وقع فيه الصليبيون فرصة للملك الكامل ليعيد تنظيم جيشه ويتخذ له موقعاً بالقرب من طلخا «البحر الصغير» حيث أمر ببناء موقع تحول إلى مدينة عرفت فيما بعد بالمنصورية[1].

استغل الملك الكامل فرصة اشتداد الخلاف بين الصليبيين، فأرسل عدداً من السفن الإسلامية إلى عرض البحر، فأحرقت عشر سفن للعدو[2]. كما أرسل في الوقت ذاته يطلب النجدات من ملوك وأمراء البيت الأيوبي من جمع أنحاء البلاد الشامية. حتى بلغت عدة فرسان المسلمين المجتمعين في المنصورة في سنة 618هـ/ أواخر تموز 1221م نحو الأربعين ألفاً استعداداً للمعركة مع الصليبيين، على أنه يجدر الإشارة إلى أن الملك الكامل خلال تلك الفترة جدد عرضه السلمي للمرة الثالثة فرفضه الافرنج، والحقيقة أن العروض السخية التي قدمها الملك الكامل لم تكن لولا الظروف السيئة التي كانت تحيط به في تلك الفترة، فقد كان الشقاق بينه وبين البيت الأيوبي قد بلغ ذروته، يضاف إلى ذلك الخطر المغولي في الجناح الشرقي للعالم الإسلامي عندما استولى جنكيزخان على خوارزم وما وراء النهر، ودق أبواب العراق مهدداً العاصمة بغداد[3].

وصلت حملة صليبية بقيادة لويس بافاريا إلى دمياط فاشتد ساعد الكاردينال بلاجيوس وقرر الزحف على القاهرة، فأرسل إلى حنا دي برين في

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 201.

2 ـ Grousset. Hist, des Groisades. T. III. P. 232 – 234.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 260 ـ 273.

عكا يرجوه العودة إلى دمياط ومساعدة الصليبيين في فتح مصر، فوجد ملك بيت المقدس نفسه مضطراً إلى العودة لئلا يتهم بعرقلة أعمال الصليبيين فحضر إلى دمياط في الوقت الذي شرع الصليبيون فعلاً في الزحف جنوباً بمحاذاة النيل[2].

لم يفقد الكامل أمله في مفاوضات الصلح، فجدد طلبه، ولكن الصليبيين بقوا على عنادهم وأصروا على الحصول على الكرك والشوبك إلى جانب ما عرضه من البلاد، بالإضافة إلى خمسمائة ألف دينار، وأخذوا يواصلون زحفهم وسط مثلث كبير تحيط به المياه من ثلاث جهات، وهي بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً[2]. اضطر الملك الكامل أمام فشل الجهود السلمية إلى حسم أمر الحملة الصليبية عسكرياً، معتمداً على تفوق المصريين في معرفة طبيعة بلادهم، وأرسل سفناً من أسطوله بقيادة الأمير بدر الدين حسون عن طريق بحر المحلة، فحالت بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالمؤمنة وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة، وكان قد استجاب لاستنفار الكامل عدد كبير من الأهالي المتطوعين، فعبر جماعة منهم في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها معسكر الفرنج، وفتحوا السدود والنهر مليء بماء الفيضان فغمرت الأراضي المحيطة بمعسكر الصليبيين، بحيث لم يبق ما يصلهم بدمياط سوى ممر ضيق من الأرض، فأمر الملك الكامل في الحال بنصب الجسور عند بحر آشموم طناح، وعبرت العساكر الإسلامية عليها وسيطرت على الطريق المؤدي إلى دمياط[3].

---

2 ـ المقريزي السلوك ج 1، ص 203.

3 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 982.

4 ـ المقريزي: السلوك، ج 1، ص 207.

رابعاً ـ فشل الصليبيين وانسحابهم من دمياط

تنبه الصليبيون إلى خطورة موقفهم بعد أن أصبحوا محاصرين من كل الجهات، وأيقنوا أن الهزيمة تنتظرهم لا محالة، فلا هم يستطيعون القتال في الوحل ولا هم يتمكنون من العودة إلى قواعدهم، فهدموا خيامهم ومجانيقهم وأشعلوا النار فيها، ولاذوا إلى طلب الصلح، وبعثوا إلى الملك الكامل يطلبون الأمان لأنفسهم على أن يتركوا دمياط للمسلمين دون قيد أو شرط.

يصف أبو المحاسن حالة الصليبيين في تلك الفترة فيقول: كان وضعهم خطيراً للغاية، ولو صبر الكامل يومين لأخذ برقابهم[1].

استشار الملك الكامل ملوك البيت الأيوبي حول قبول الصلح أو رفضه، فأشار عليه البعض بمواصلة القتال حتى يتم له النصر النهائي ما دامت إبادتهم أصبحت مسألة زمن، وإذا كان لا بد من عقد فيجب أن ينسحبوا من الشريط الساحلي الذي لا زال بأيديهم في أرض فلسطين. لكن خوف الملك الكامل، من أن تصل إلى الصليبيين نجدات جديدة تغير الموقف، جعله يرفض هذا الرأي ويقبل العرض الصليبي[2].

رضخ قادة المسلمين لقرار الملك الكامل، واتفق الفريقان على أن يقدم كل منهما رهائن للآخر حتى يتم تسليم دمياط، فأرسل الصليبيون عشرين من كبرائهم على رأسهم حنا دي برين والمندوب البابوي بلاجيوس، في حين أرسل إليهم الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه[3]. تم تسليم دمياط يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب سنة 618هـ/ السابع من أيلول

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 2، ص 242.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 208.

3 ـ المصدر نفسه ص 208.

1221م، فدخلها الملك الكامل في يوم مشهود وحوله أخوانه الملوك وقواده وعساكره، والشعب يصيح بالتهليل والتكبير محققين بذلك نصراً لم يكن في حسبانهم، وأرسلت البشائر إلى أنحاء العالم الإسلامي باسترجاع دمياط، وأطلق الفرنج الصالح نجم الدين أيوب ومن معه، كما أطلق الكامل رهائنه من الملوك والأمراء وفي اليوم التالي لدخول المسلمين دمياط، أبحرت الحملة الصليبية إلى أوروبا وعاد حنا دي برين إلى عكا، بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين لمدة ثماني سنوات كان الشرط الوحيد فيها أن يطلق كل منهما ما عنده من الأسرى[1].

خامساً ـ الملك الكامل والحملة الصليبية السادسة

أ ـ الخلاف بين الأخوة الأيوبيين:

بعد انسحاب الحملة الصليبية الخامسة عاد الأمراء الأيوبيون إلى ما درجوا عليه من صرف أيامهم في المنازعات الداخلية لتحقيق مطامع إقليمية. حاول الملك المعظم عيسى صاحب دمشق أن يضاهي أخاه الكامل في النفوذ والسلطان بتوسيع أملاكه، فهاجم حماه واستولى على المعرة والسلمية، فغضب الملك الكامل وأرسل إلى أخيه المعظم عيسى يطلب منه الرحيل عن حماه والتخلي عن كل ما اغتصبه بدون وجه حق، فاضطر المعظم أن ينزل عند إرادته وهو حانق[2].

ويبدو أن هذا الحدث كان فاتحة النزاع بين الملك الكامل وأخيه المعظم، إذ قطع هذا الأخير الخطبة عن أخيه الكامل، واتصل بالسلطان جلال الدين خوارزم

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 405 ـ 406.

وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 204 ـ 205. وأبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر ج 3 ص 135 ـ 137.

وانظر ابن خلدون: ديوان العبر والمبتدأ والخبر ج 2 ص 349 ـ 350.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 212.

الذي أصبحت أملاكه تجاور أملاك الأيوبيين وطلب منه أن يكون حليفاً له ضد أخيه الكامل، إذا حاول أن يتعرض له في مقابل أن يخطب له على المنابر ويدعو له[1].

استغل الخوارزمي فرصة تحالفه مع الملك المعظم عيسى وأغار في سنة 622هـ/ 1225م على ربض من أرباض أخلاط يقع في إمارة الأشرف موسى، وحدث في هذه الأثناء أن زحف صاحب أربيل على الموصل، وهاجم السلاجقة باسيا الصغرى ديار بكر، وهددوا أملاك حلب فخشي الأشرف أن يتم تطويقه وهرع إلى دمشق طالباً معونة أخيه المعظم[2].

انتهز المعظم فرصة مجيء الأشرف إليه وقبض عليه ولم يطلق سراحه إلا بعد أن جرت تسوية بينهم تعهد له الأشرف بتأييده ومساندته ضد أميري حمص وحماه والملك الكامل، ولأن الأشرف ما كاد يفلت من يد المعظم، حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل، وأخبره بكل ما حدث فلم يسع الملك الكامل إلا أن يستنجد بالامبراطور فردريك الثاني ـ امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غرب أوروبا ـ لمساعدته في الشام ضد أخيه المعظم وحلفائه من الخوارزمية، وتعهد له مقابل ذلك أن «يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل»[3].

ب ـ البابوية والحملة الصليبية السادسة

كانت البابوية الموقد الحقيقي لإشعال الحروب الصليبية، فكلما خبت نارها سعت إلى إذكائها حتى تشتعل وتضطرم من جديد فبعد فشل الحملة

---

1 ـ الشيرزي: النهج المسلوك في سياسة الملوك ص 3 ـ 4.

2 ـ المقريزي: السلوك في سياسة الملوك ص 215.

وانظر Wiet: L'egypte, Arabe. P. 350 – 351.

3 ـ المقريزي: السلوك، ج 1، ص 221 ـ 223.

الصليبية الخامسة أخذ البابا ينادي إلى القيام بحملة صليبية جديدة، ولكن هذه المناداة لم تجد لها آذاناً صاغية هذه المدة لأن الحماس الديني الطاغي الذي صاحب الحملات الصليبية السابقة، قد انتهى، وحل محله الجشع المادي الاستعماري.

والمعروف أن غربي أوروبا شهد في هذه الحقبة من التاريخ ـ القرن السابع الهجري ـ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ـ صراعاً بين السلطتين الزمنية والدينية، فقد بدأ البابا غريغوري التاسع يستحث الامبراطور فردريك الثاني الذي ساعدته البابوية في القضاء على خصومه في صقلية وجنوبي إيطاليا وألمانيا، على تنظيم حملة صليبية يسترد بها بيت المقدس ويعيد للفرنجة معنوياتهم التي انهارت بعد هزائمهم المتكررة.

وأراد البابا أن يوجد للامبراطور مصلحة مباشرة في الحرب الصليبية، فأيد فكرة زواجه من إيزابيلا ابنة حنا دي برين التي كانت تعتبر الملكة الإسمية لمملكة بيت المقدس، قبل الامبراطور بطلب البابا، وتعهد على نفسه بإيداع كفالة مالية قدرها مائة ألف وقية من الذهب في خزينة البابوية بروما ولا ترد إلى الامبراطور إلا إذا وفى بوعده[1]. ولكن الامبراطور لم ينفذ العهد أو يحقق الوعد رغم رغبته الشديدة من أن يسترد بيت المقدس، ولعل السبب في ذلك كان خوفه من المجيء إلى الشرق، حتى لا يترك البابا حراً طليق اليد في العدوان على مصالح الامبراطورية أثناء غيابه، لذلك أخذ فردريك يماطل ويتقاعس عن تجهيز حملة عسكرية مما أخنق البابا غريغوري التاسع عليه فأصدر قرار الحرمان ضده في سنة 622هـ/ أواخر أيلول 1227م[2].

---

1 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 994.

2 ـ يوسف الدين: تاريخ سورية ج 6، ص 232.

ج ـ الملك الكامل والامبراطور فردريك الثاني

نشأ فردريك الثاني في جزيرة صقلية، في جو الثقافة الإسلامية التي خلفها العرب، والثقافة الغربية التي أدخلها النورمان[1]. وما إن أصبح فردريك ملكاً لجزيرة صقلية، حتى بات أميناً على تراث الجزيرة، فانكب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية محاولاً فهمها وإدراك مكنوناتها، وكثيراً ما كانت تعترضه مشكلات علمية ولا يجد من العلماء المحيطين به من يقدم له حلاً شافياً لها فكان يرسلها إلى أصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والإجابة عليها، من ذلك مثلاً عدة مسائل هندسية ورياضية وفلسفية أرسلها إلى الملك الكامل، فعرضها هذا الأخير على الشيخ علم الدين الحنفي وأرسل جوابها إليه مع كتاب في علم الفلك على سبيل الهدية[2].

وكان فردريك يكرم علماء المسلمين، وكانت لديه فرق إسلامية يشترك معها في المناظرات الأدبية والعلمية التي تعقد في بلاطه، وقد أنشأ لأفرادها جامعاً يؤدون فيه صلواتهم، ضارباً بذلك مثلاً أعلى في التسامح في وقت كانت أوروبا غارقة حتى أذنيها في التعصب الديني.

هذه الأخبار كان ينقلها شيخ الشيوخ الأمير فخر الدين يوسف المبعوث الخاص للملك الكامل بعد عودته من سفارته لدى فردريك الثاني، فكان لها أثر كبير في نفس الكامل الذي بلغ من عطفه على رعاياه المسيحيين درجة جعلت الكنيسة القبطية تعده أكثر الملوك إحساناً إلى أبنائها[3].

فلا عجب بعد هذا إذا ارتبط الملكان بعلاقات ودية، دفعت بالكامل

---

1 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 995.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 232.

3 ـ فيليب حتي ورفيقاه: تاريخ العرب ج 2، ص 774.

أن يطلب من فردريك ليعاونه في منازعاته الداخلية[3]. وأمام هذا الطلب لم يتردد الامبراطور بالزحف على بلاد الشام ليدحض عنه هجوم البابوية العنيف، وليظهر نفسه حامي المسيحيين وممتلكاتهم[4]. غادر فردريك الثاني أوروبا في سنة 625هـ/ حزيران 1228م، قاصداً بلاد الشام على رأس حملة صغيرة قوامها ستمائة جندي فقط فكانت أشبه ما تكون بزيارة ودية يقوم بها الامبراطور مع أفراد حاشيته لصديقه ملك مصر[5]. مما يدل على أن الأمر قد سوي بشكل سري وتام بين الامبراطور فردريك والملك الكامل.

وصلت الحملة المعروفة في كتب التاريخ باسم الحملة الصليبية السادسة إلى عكا سنة 626هـ/ أواخر سنة 1228م وشاعت الأقدار أن الملك المعظم صاحب دمشق قد مات في السنة الماضية 622هـ/ الحادي عشر من تشرين الثاني سنة 1227م، وزال بوفاته الخطر الذي كان يتهدد الكامل والذي دعا الامبراطور فردريك الثاني من أجله، بل أن الكامل ما لبث أن اتفق مع أخيه الأشرف على اقصاء الملك الناصر داوود بن المعظم عن عرش أبيه واقتسام مملكته، حتى لا تقع في يد الصليبيين، فاحتل الكامل القدس ونابلس، واستولى الأشرف على دمشق[1].

د ـ المفاوضات بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثاني

عندما وصل الامبراطور فردريك إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل

---

3 ـ ابن الأثير الكامل، ج 12 ص 315. وانظر أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ج 3 ص 148.

4 ـ ابن الأثير الكامل ج 11 ص 162 ـ 168. وانظر أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ج 3 ص 99ـ102.

5 ـ Grousset, Hist, des Croisades. T. III. P. 281.

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 1، ص 333. وانظر Wiet. L'ygpte... p 355. وانظر Runciman, History of the Grousades, T. III. P. 169.

وأمره أن يقول له! «الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء... ولا أجيء إليهم. والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي ـ في زمن حصار دمياط ـ الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالاسكندرية وما فعلناه وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم، ومن نائبي إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له؟»[1].

حار الملك الكامل في الموقف الذي يجب أن يتخذه من الامبراطور، الذي جاء إلى الشام بناءً على طلبه، ولما وصل إليها لم يعد في حاجة إلى مساعدته لأن المعظم كان قد توفي، وغدت الأملاك الموعودة بالتقسيم بين الاثنين جزءاً من مملكته، وأصبح من واجبه أن يدافع عنها، إن لم يكن بعامل الرغبة الصادقة في المحافظة عليها، فبعامل الحفاظ على سمعته أمام جماهير المسلمين. يصف ابن واصل الموقف فيقول: «تحير الملك الكامل ولم يمكنه دفعه ولا محاربته، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق فراسله ولاطفه»[2]. ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبي أن يصطدم بالصليبيين بالشام في تلك المرحلة التي تعرض فيها الوطن العربي لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول، فأراد أن يطيل أمد المفاوضات بينه وبين فردريك ريثما يجد الحل المناسب. أدرك الامبراطور أن موقف الملك الكامل أصبح على غير ما كان ينتظر، ولكن ما العمل؟ وهو الذي خرج من بلاده محروماً من الكنيسة، مغضوباً عليه من البابوية، معتمداً على وعد الكامل له بإعطائه بيت المقدس، لاستعادة نفوذه في أوروبا، ولو كان الامبراطور يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلاً، أو لكان استقدم معه جيشاً قادراً على الغزو والحرب ضد المسلمين.

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 228 ـ 229.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 251 ـ 252.

وزاد من حرج موقف الامبراطور فردريك أن البابا غريغوري التاسع أخذ يرسل الكتب سراً إلى ملوك بني أيوب بوجه عام ـ والسلطان الكامل بوجه خاص ـ محرضاً إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور، ولا عجب في ذلك الموقف الذي اتخذته البابوية، إذ كانت المعركة بينها وبين الامبراطورية في الغرب أهم في نظرها من المعركة بين المسلمين والصليبيين في الشام[1]. وأنه «لو قدر لفردريك الانتصار في مهمته، فإن ذلك سيكون في نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للامبراطور المحرم»[2].

لم يبق للامبراطور فردريك الثاني أمام هذا الموقف الحرج سوى سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوروبي مرفوع الرأس] فأرسل إلى الملك الكامل سفارة من رسولين تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية، وأواني ذهبية وفضية، مطالباً إياه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس، فبعث إليه الكامل رسوله الأمير فخر الدين الذي سبق أن حمل إليه دعوة ملك مصر للقدوم إلى الشام، مرحباً به ومقدماً إليه هدايا ثمينة، ومصارحاً إياه في الوقت نفسه بأنه كان سيعطيه بيت المقدس ثمناً لمناصرته إياه على أخيه المعظم، أما وقد تبدلت الظروف ولم يعد في حاجة إلى هذه المناصرة، فإنه لا يستطيع التفريط في بيت المقدس، لأن ذلك سيثير عليه نقمة المسلمين[3].

إزاء تنكر الكامل لوعوده ساء موقف فردريك الثاني لا سيما بعد أن جاءته الأخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته،

---

1 ـ د. سعيد عاشور: أوروبا في العصور الوسطى ج 1 ص 402 ـ 403.

2 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2 ص 1008.

3 ـ د. سعيد عاشور: الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ص 206.

فأخذ يرجو الملك الكامل ويستعطفه، حتى قيل أنه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات. وليس أدل على تذلل الامبراطور من الكلام الذي جاء في رسائله إلى الملك الكامل: «أنا أخوك أحترم دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة بيت المقدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك[1].. وجاء في رسالة أخرى: «أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج. وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خايباً انكسرت حرمتي بينهم! وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر...»[2].

هـ ـ عودة الصليبيين إلى بيت المقدس

استطاعت الكلمة الطيبة أن تفلح مع الملك الكامل، وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة يافا في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة 626هـ/ الثامن عشر من شباط سنة 1229م، على الشروط التالية:

أولاً ـ يسلم بيت المقدس للأمبراطور باعتبارها قد آلت إليه بعد زواجه من يولاند ابنة الملك حنا دي برين الوريثة الوحيدة، شرط أن يبقيها على ما هي عليه من الخراب، ولا يجدد أسوارها، وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج.

---

1 ـ المطران يوسف الدبن: تاريخ سورية ج 6، ص 234.

2 ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2 ص 1010، نقلاً عن المكتبة الصقلية ج 2 ص 14، (ذيل الباب الثاني والسبعين من كتاب الوافي بالوفيات).

ثانياً ـ أن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى تكون بأيدي المسلمين، يمارسون فيها شعائرهم الدينية شرط أن لا يحملوا أي سلاح، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة.
ثالثاً ـ يأخذ الامبراطور مدن بيت لحم والناصرة وجميع القرى الواقعة على الطريق من يافا إلى بيت المقدس.
رابعاً ـ يطلق الملك الكامل سراح من بيده من الأسرى المسيحيين.
خامساً ـ يتعهد فردريك الثاني بمحالفة الملك الكامل ضد جميع أعدائه حتى ولو كانوا مسيحيين صليبيين.
سادساً ـ يضمن الامبراطور عدم وصول امدادات صليبية إلى الامارتين الصليبيتين أنطاكية وطرابلس.
سابعاً ـ يستمر العمل بهذه المعاهدة لمدة عشر سنوات[1].

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ، وفي الثامن من ربيع الأول سنة 626هـ/ 22 شباط 1229م «نودي بالقدس بخروج المسلمين من المدينة وتسليمها إلى الفرنج[2]. كما أعلن فردريك الثاني في جنوده، «اشكروا الله واحمدوه إذ أتم عليكم نعمته، فإن إتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة أو الحروب، وما أتمه الله لم تستطع قوة من قوى البشر على الأرض إتمامه لا بكثرة العدد ولا بالقسوة ولا بأية وسيلة أخرى»[3].

على أن تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة أثار موجة من السخط والأسى في العالم الإسلامي «فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 231، وأبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج 3، ص 147.
2 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 231. وانظر Wiet, L'egypte Arabe. P. 356.
3 ـ Brchier, L'eglise et l'orient, p. 203.

له من الوهن والتألم مما لم يمكن وصفه»[1].

ويصف المقريزي الأسى الذي حل بالمسلمين من جراء اتفاقية لم يجد لها مبرراً ولم يستطع لها تفسيراً فيقول: «فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الانكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك وزجرهم: «أمضوا إلى حيث شئتم»[2].

وسرعان ما أحس الكامل أنه تورط مع ملك الفرنج، فحاول أن يهون من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين، ويبررها بأعذار لم يقبلها معاصروه، حتى أن الامبراطور فردريك شعر بحرج موقف السلطان «فاعتذر للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه، ما كلف السلطان شيئاً من ذلك»[3]. وإذا كان المسلمون قد شعروا بالغبن من جراء تفريط الكامل بقسم كبير من فلسطين دون قتال، فإن المسيحيين أيضاً لم يهللوا لإستعادة بيت المقدس على يد امبراطور محروم، لأنهم كانوا لا يريدون مسالمة المسلمين، بل كانوا يعتقدون بوجوب مجاريتهم، وبلغ من توتر الموقف المسيحي أن «وقع جيرولد بطريرك بيت المقدس بأمر من البابا قرار الحرمان على المدينة نفسها، وعلى من فيها من المسيحيين إذا هم استقبلوا الامبراطور[4]. وذلك عندما دخل فردريك بيت المقدس في جمادي الأولى 626هـ/ السابع عشر من أذار سنة 1229م، وتسلم مفاتيحها من القاضي

---

1 ـ ابن الأثير الكامل ج 12، ص 315 ـ 316.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 231.

3 ـ المصدر نفسه ص 231.

4 ـ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 1 ص 1013 نقلاً عن .Wridge, med Hit. P. 314

شمس الدين قاضي نابلس الذي أرسله الملك الكامل لمرافقة الامبراطور، لم يجد قسيساً واحداً يقبل أن يتوجه ملكاً على بيت المقدس. فاضطر أن يضع التاج بنفسه على رأسه، وتفيض كتب التاريخ عن الراحة التي أمنها الملك الكامل للامبراطور أثناء زيارته للمسجد الأقصى والتي وصلت إلى حد أنه أصدر أوامره بالتوقف عن الأذان احتراماً لشعوره، فلما علم الامبراطور بذلك أظهر أسفه، وقال للقاضي شمس الدين: «والله أنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل»[1].

نزل الامبراطور في الدار التي خصصت لإقامته في القدس، وبعد فترة قصيرة رحل إلى يافا ومنها إلى عكا، ومنها رحل إلى بلاده في أواخر جمادي الآخرى سنة 626هـ/ أول أيار سنة 1229م[2].

وبذلك انتهت الحملة الصليبية السادسة التي تعتبر من أغرب الحملات الصليبية على المشرق العربي لما أحاط بها من ظروف وملابسات.

سادساً ـ حروب الملك الكامل بعد انتهاء الحملة الصليبية السادسة

أ ـ الملك الكامل يستولي على دمشق

هيأت معاهدة يافا مع الصليبيين الملك الكامل كي يتفرغ لتصفية الخلافات الداخلية في الدولة الأيوبية، وقرر الزحف على دمشق لمحاربة ابن أخيه الملك الناصر داود، فوصل ظاهرها في جمادي الأولى سنة 626هـ/ نيسان 1229م، وكان أخوه الملك الأشرف يحاصرها، فاتفق معه على تضييق الخناق على المدينة وقطع المياه عنها، وطالت فترة الحصار إلى شهر رجب من العام نفسه فاشتد

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 231. wiet, L'egypte Arabe, op. cit., p. 357.

2 ـ Wienson, the Crusades in the East, p. 314.

ذلك على أهل دمشق لإقبال الصيف، وغلاء الأسعار، كما نفذت أموال الملك الناصر فتخلى عنه جماعة من الأمراء والعساكر وانضموا إلى الكامل والأشرف[4].

عندئذٍ رأى الملك داود أن العناد ليس من مصلحته فخرج ليلاً من قلعة دمشق في نفر يسير من أصحابه وألقى نفسه على باب مخيم عمه الكامل معلناً خضوعه واذعانه، فلما بلغ الكامل مجيئه خرج إليه وتلقاه وأكرمه، ثم أمره بالرجوع إلى قلعة دمشق فعاد إليها[2]. ثم تقرر عقد اتفاق بين الكامل وابن أخيه الناصر داود، ترتب عليه أن أخذ الأشرف إمارة دمشق أما الناصر داود فعوضه الكامل بالكرك والشوبك وأعمالها، والصلت والبلغاء والأغوار جميعها، ونابلس وبيت المقدس وبيت جبريل، واحتفظ الكامل بما تبقى من فلسطين فضلاً عن جهات الجزيرة التي حصل عليها من الأشرف مقابل التنازل عن دمشق.

وما أن انتهى الكامل من الصراع مع الناصر داود حتى بلغه خبر وفاة ابنه مسعود صاحب اليمن، وأن ابنه الصالح ولي عهه في مصر، وضع خطة لعزل أبيه عن الحكم، إذ اشترى عدداً كبيراً من المماليك الترك وكون منهم حرساً خاصاً به، وبعد أن استنفذ ما في خزانة الدولة من الأموال لجأ إلى فرض ضرائب باهظة على التجار، لذلك قرر الملك الكامل العودة إلى مصر، فدخلها في رجب سنة 627هـ/ 1230م، وأعلن عزل ابنه عن ولاية العهد، وأمر بحبس الأمراء الذين تواطأوا معه، وأعاد إلى التجار ما اغتصب من أموالهم[3].

ب ـ الكامل يواجه المغول الخوارزمية

في الوقت الذي كان فيه الكامل منهمكاً في حروبه مع الصليبيين في دمياط

---

4 ـ أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2، ص 658.

1 ـ Wiet, L'egypte Arabe. Op. cit., p. 357.

2 ـ Ibid. p. 358.

كانت الأبناء ترد أن أقواماً من التتار المغول أكثر وحشية من الفرنجة استطاعوا بقيادة جنكيزخان أن يستولوا على الصين شرقاً، ثم يزحفوا غرباً ليستولوا على بلاد تركستان ويجتازوا ما وراء النهر ليقتحموا سمرقند وبخارى وهمذان ومنطقة قزوين مهددين العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرمينة فيخربونها ويقتلون أكثر أهلها، وقد استطاع محمد جلال الدين منكبرتي شاه خوارزم الذي انتصر على سلاجقة المشرق واقام دولة خوارزمية في بلاد فارس وخرسان، أن يقف في وجههم بصلابة وعناد ولكنهم هزموه هزيمة شنعاء واستولوا على بلاده سنة 617هـ/ 1220م[1]. مما اضطره إلى الفرار إلى الهند، حتى إذا ما علم بعودة جنكيزخان إلى أواسط آسيا رجع جلال الدين إلى فارس حيث التف حوله الأتراك الخوارزم وأقام دولته مرة أخرى متخذاً من أصفهان عاصمة له. وبدلاً من أن يتحالف في هذه المرحلة مع خليفة بغداد وملك مصر انتهز فرصة سكوت التتار عنه وهاجم الخليفة العباسي في العراق، وطارد جيشه حتى أبواب بغداد، وبعد ذلك هاجم جورجيا القريبة من أملاك الملك الأشرف الأمر الذي دفع هذا الأخير أن يهرع إلى دمشق طالباً معونة أخيه المعظم[2].

وفي سنة 624هـ/ 1227م توفي جنكيزخان، والغرابة أن هذا الطاغية لم يكن مجرد سفاح، بقدر ما كان رجل دولة، فهو من وضع دستور الحكم للمغول، وأطلق عليه اسم الباساق، ويعني باللغة المغولية سي يسا، والتي تحولت إلى كلمة سياسية[3].

بعد موت جنكيزخان ارتاح الخوارزمي منكبرتي من الخطر المغولي، فأخذ

---

1 ـ أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2، ص 654 ـ 655.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 215.

3 ـ أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2 ص 655 ـ 656.

يغير على أراضي الدولة العباسية، ونجح في الإستيلاء على مدينة خلاط في سنة 627هـ/ نيسان 1230م بعد حصار دام ستة أشهر، وعندئذٍ دخل الخوارزمية المدينة ليعتدوا على الأهالي اعتداءً وحشياً. وكان من جملة الأسرى زوجة الملك الأشرف الأيوبي، فانتهك السلطان جلال الدين عرضها في الليلة نفسها التي استولى فيها على المدينة. وفي سنة 628هـ/ أواخر سنة 1230م أغار المغول على مملكة خوارزم شاه، ولم يستطيع السلطان منكبرتي مقاومتهم ففر إلى إحدى القرى الكردية حيث لقي مصرعه، فتمزقت عندئذٍ دولته، وهامت جموع الخوارزمية في بلاد الشرق الأدنى يعرضون خدماتهم على من يرغب من شرائها من حكام المسلمين[3].

بعد مصرع جلال الدين منكبرتي احتل التتار جميع بلاد فارس واستولوا على أرمينيا. فأصبحوا يشكلون خطراً على الخلافة العباسية وعلى أملاك الأيوبيين في شمالي سوريا، فخرج الملك الكامل لمحاربتهم بعد أن استنجد به الخليفة العباسي، وصحب معه ابنه الصالح وانضم إليه أخوه الأشرف، وتداعى إليه ملوك الأيوبيين وأمراؤهم، وقصد إلى ديار بكر وألقى الحصار عليها وهي في حوزة الأراتقة لخوفه من ممالأتهم للتتار، وأثبتت الحوادث صحة شكوك الكامل عندما حاصر التتار خلاط، فاستولى الكامل على أملاك الأراتقة، وجعل ابنه الصالح على امارة حصن كيفا وما حولها ليقف في وجه التتار إذا أعادوا الهجوم عليها مرة ثانية[4]. ولكن التتار ما أن علموا بخروج الكامل إليهم حتى تراجعوا إلى بلادهم:

---

1 ـ د. سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص 102.

2 ـ العيني: عقد الجمان ج 23 ص 179. والمقريزي: السلوك ج 1 ص 241 ـ 255.

ج ـ الكامل وحربه مع سلاجقة الروم

أرعب الخطر الخوارزمي حكام الأيوبيين فتحالفوا مع عدوهم السابق علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمي وفي المعركة التي دارت بين الفريقين بالقرب من أذربيجان في سنة 627هـ/ آب 1230م حلت هزيمة ساحقة بالخوارزمية وفر سلطانهم إلى أذربيجان بعد أن قتل العديد من رجاله[1].

لكن التحالف الأيوبي السلجوقي لم يدم طويلاً، لأن استيلاء الملك الكامل على الإمارة الأرتقية أقلق سلاجقة الروم والرها وحران[2]. ولما علم الكامل بهذا الخبر أدرك حقيقة نوايا السلاجقة، فغادر القاهرة وطلب من أمراء الشام أن يوافوه بجيوشهم لمنازلة السلاجقة في الأناضول سنة 631هـ/ أيار 1234م، غير أن ملوك بني أيوب عادوا وخافوا عاقبة ازدياد نفوذ الملك الكامل. وخشوا إن هو نجح في السيطرة على سلاجقة الروم أن يسهل عليه القضاء عليهم جميعاً. لذلك تآمروا على الملك الكامل وأرسلوا في الخفاء يطلبون التحالف مع الأراتقة، في إمارة خاريوط، كما كتبوا إلى علاء الدين السلجوقي يخبرونه بوقوفهم إلى جانبه ضد الكامل[3].

ما إن اكتشف الكامل خيانة الأمراء حتى عاد إلى القاهرة، فاغتنم السلاجقة الفرصة واستولوا على حران والرها وأخذوا يهددون الأطراف الشامية[4]. بعد أن اطمأن الكامل إلى سلامة مركزه في مصر غادر القاهرة إلى الشام في سنة 632هـ/

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 273.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 147.

3 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 149ز

4 ـ Wiet L'egypt Arab. Op. cit. p. 359.

الثاني عشر من أيار سنة 1235م فاستولى على الرها وحران، وبعد أن وطد مركزه في الجهات الشرقية لماردين، جعل ابنه الصالح على هذا الإقليم ثم عاد إلى دمشق ومنها سار إلى مصر[1].

هـ - نهاية الكامل وقيام الصالح نجم الدين أيوب

اغتنم الأشرف صاحب دمشق سفر أخيه الكامل إلى مصر، وبدأ يدبر ثورة شاملة ضده مستعيناً في ذلك بأسد الدين شيركوه صاحب حمص وضيفة خاتون الوصية على حلب[2]. وشاءت الأقدار أن يموت الأشرف في سنة 635هـ/ أواخر آب 1237م، فانتشرت بوفاته فوضى عارمة أدت إلى نزاع رهيب بين أبناء البيت الأيوبي[3]. وذلك لأن الأشرف كان قد أوصى قبل وفاته بخلافة دمشق إلى أخيه الصالح إسماعيل صاحب بصرى، ولم يكد الصالح يتسلم دمشق حتى بادر إلى تكوين الحلف الأيوبي ضد الكامل، فاتصل بأسد الدين شيركوه صاحب حمص، والمظفر صاحب حماه وضيفه خاتون في حلب. وقد استجاب جميع ملوك الأيوبيين بالشام لدعوة الصالح اسماعيل، ما عدا صاحب حماه وصاحب الأردن والكرك الناصر داود - اللذان بادرا إلى الاعتراف بسيادة الكامل. ولكن الملك الكامل أسرع بالحضور من مصر وقضى على تلك الحركة وجاء دمشق وقطع الماء عنها حتى استولى عليها في سنة 635هـ/ كانون الأول 1237م، وانتهى الأمر بعزل الصالح اسماعيل من دمشق وإعطائه اقطاعاً صغيراً في بعلبك والبقاع[4].

---

1 - Ibid. p. 360.

2 - المقريزي: السلوك ج 1، ص 224.

3 - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 300.

4 - المقريزي: السلوك ج 1، ص 257.

وفي دمشق استقبل الكامل سفارتين من الخليفة العباسي المستنصر، الأولى تعرض التحكيم فيما حدث من نزاع بين الأيوبيين، والثانية تلتمس مساعدة مصر ضد التتار، فوجه الكامل ثلاثة آلاف جندي إلى بغداد، وهو بهذا العمل يبين لنا مدى اهتمام مصر بالدفاع عن بغداد قبل سقوطها في أيدي التتار بواحد وعشرين سنة[1].

ثم شرع الكامل في الاستعداد لغزو إمارة حلب غير أنه أصيب بمرض أودى بحياته في الحادي والعشرين من رجب سنة 636هـ/ التاسع من آذار 1238، وكان عمره ستين سنة، وقد أجمع المؤرخون على مدحه فوصفه أبو الفدا بأنه كان «ملكاً جليللاً مهيباً حازماً حسن التدبير أمنت الطريق في أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه»[2].

ويعتبر الكامل أعظم شخصية في الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، فقال ابن خلكان: «حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل إلى الدعاء للسلطان الكامل قال: سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين»[3]. ومن أهم ما اشتهر به الكامل كراهيته للحرب وجنوحه إلى إجراء المفاوضات ومن الأمور التي أنكرها عليه الناس أنه عقد اتفاقاً مع فردريك الثاني ضد أقاربه، على أن هؤلاء الأقارب قاموا بمثل هذا العمل. حين لجأوا إلى الخوارزمية ثم سلاجقة الروم.

---

1 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 258.

2 ـ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج 3، ص 186.

3 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 1، ص 327.

والحق يقال إن ما قام به الملك الكامل من أعمال إنما كان الغرض منها المحافظة على إرث صلاح الدين وتقاليده، إذ أن الأسرة الأيوبية قامت بمصر وذاع صيتها في سائر الأقطار حتى أضحت القاهرة مقصد جميع السفراء من الغرب والشرق، بالرغم من المؤامرات التي حيكت ضده من أبناء الأسرة الأيوبية، والتي لم تتوقف إلا بزوال هذه الأسرة[1].

---

1 ـ Wiet, L'egypte Arabe, op. cit., p. 363.

الفصل السابع

بداية انحلال الدولة الأيوبية

أولاً ـ نهاية السلطان العادل الثاني وقيام الصالح أيوب

بعد وفاة الملك الكامل اتفق أمراء الدولة الأيوبية على تولية ابنه الملك العادل الثاني سلطاناً على مصر باعتباره ولياً للعهد، على أن يبقى أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب على ولايته بالبلاد الفراتية فلما وصل النبأ إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب أبدى احتجاجه وسعى لأن يكون هو السلطان، وكان من الطبيعي أن الأمراء الذين حقدوا على الكامل، رفضوا حكم سلطان صغير السن، فلم يعترف به مثلاً الناصر صلاح الدين يوسف أمير حلب، يضاف إلى ذلك أن العادل انغمس في الفجور والفسق وغمر عساكره بالمال حتى يضمن ولاءهم ثم أقصى عن البلاط رجال أبيه، وأحل محلهم رفقاء السؤ، فاضطربت الدولة الأيوبية وبدأت تتمزق وتسير نحو الانهيار، ونشبت الحروب بين المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماه من جهة، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص وحليفه أمير حلب الناصر صلاح الدين يوسف من جهة ثانية[1]. وطلب أمير حلب المساعدة من سلطان سلاجقة الروم ليخسروا الثاني فنهض لمساعدته، كما أنه استقدم الخوارزمية الذين تفرقوا بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتي.

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 256 ـ 257.

حاملين معهم الويل والخراب[1].

ولما كانت غاية الخوارزمية النهب والسلب، فقد أثاروا سخط من استخدمهم وانتقلوا من خدمة سلاجقة الروم إلى خدمة الصالح أيوب ثم ما لبثوا أن تخلوا عنه. وثاروا عليه وأرادوا قتله فهرب إلى سنجار، تاركاً خلفه أمواله وأمتعته، فأخذ السلطان السلجوقي ليخسروا يوزع أملاكه على حليفيه أميري حلب وحمص وعلى الأمير الأرتقي بماردين، ثم توجه لمحاصرة سنجار، غير أن لؤلؤ أتابك الموصل سبقه إلى ذلك وحاصر الصالح أيوب لأنه يكرهه لما اشتهر به من الظلم والاستبداد. واستطاع الصالح ايوب بفضل قاضي سنجار أن يفلت من الحصار ويستميل الخوارزمية بعد أن وعدهم بإعطائهم مدن سنجار والرها وحران. فانقلب الخوارزمية عندئذٍ من محاصرة الصالح أيوب إلى مهاجمة قوات أتابك الموصل وأجبروهم على الفرار،، وتولى الملك الصالح قيادتهم، فألزم الجيش السلجوقي على رفع الحصار عن ديار بكر المحاصر بداخلها ابنه توران شاه[2].

وبالرغم من المصاهرة التي تمت بين الأيوبيين والخوازمية بعد زواج المقدم حسام الدين بركة خان من أخت الصالح أيوب من أمه، إلا أن الخوارزمية عادوا إلى نهب بلاد الشام معلنين أن ما يفعلونه هو لخدمة الصالح أيوب[3].

وفي أثناء ذلك كان الجواد يونس الذي تولى حكم دمشق نيابة عن سلطان مصر «العادل الثاني» انصرف إلى اللهو والصيد تاركاً أحد خدامه يقوم بتيسير أمور دمشق فاستبد في الرعية وأمعن في مصادرتهم فخاف الجواد يونس وعرض على الصالح أيوب أن يتنازل له عن دمشق مقابل الحصول على سنجار ومدن

---

2 - Wiet. L'egypte Arabe, op. cit., p. 364.

1 - المقريزي: السلوك ج 1، ص 269 - 271.

2 - المصدر نفسه ج 1، ص 271.

أخرى في الجزيرة فقبل الصالح ذلك وتوجه إلى دمشق واستولى عليها في سنة 636هـ/ 1239م، مما أوقعه في نزاع مع أخيه العادل الثاني[1].

أحدث استيلاء الصالح أيوب على دمشق تغييراً كبيراً في وضع الأمراء الأيوبيين، إذ اصبح لأمير دمشق اهمية كبيرة عند أمراء سائر الجهات فتحالف مع أمير حما المظفر الثاني كما تحالف مع عمه الصالح اسماعيل أمير بعلبك[2].

استغل الصالح أيوب مكانته المرموقة التي حظي بها في دمشق ليحقق إرادته في أن يكون سلطان مصر، فأخذ يعمل على إحداث الشقاق والفرقة في جيش أخيه العادل، حتى انضم إليه عدد كبير من الأمراء المصريين، وأعلن الجند الترك في مصر التمرد والعصيان، وبالرغم من هزيمتهم أمام جيش العادل إلا أنهم تابعوا سيرهم إلى دمشق فأحسن الصالح أيوب استقبالهم ووجدها فرصة ليبدأ حملته على مصر يضاف إلى ذلك الرسائل التي وصلته من الأمراء المماليك المصريين يعدونه بالمساعدة ويؤكدون أن كل البلاد سوف تعترف به سلطاناً، فزحف بجيش تألف من ستة آلاف فارس، لكنه ما أن وصل إلى نابلس حتى شعر أن الموقف قد تغير فالناصر داود صاحب الكرك الذي كان يحرص على مساعدة الصالح أيوب في الاستيلاء على مصر، اغتنم الفرصة وطلب مقابل هذه المساعدة أن يجعل له دمشق. فلما رفض الصالح طلبه انحاز الناصر داود إلى العادل الثاني، كما حذا حذو الناصر داود أيضاً من الأمراء الأيوبيين أصحاب حلب وحمص.

وزاد من صعوبة موقف الصالح أيوب أن عمه الصالح اسماعيل تناسى تحالفه معه واغتنم فرصة خروجه إلى مصر واحتل دمشق التي كان أخوه الملك الكامل قد طرده منها[3]. ولما شعر عساكر الصالح أيوب بحرج مركزه تخلوا عنه،

1 _ Wiet. L'egypte Arabe. Op. cit., p. 365.

2 _ Ibid. p. 365.

3 _ Wiet. L'egypte Arabe, op. cit., p. 361.

فلم يبق معه بنابلس سوى مائة من رجال حرسه، فاختطفه جماعة من البدو، غير أن الناصر داود انتزعه منهم واقتاده أسيراً إلى قلعة الكرك ومعه زوجته شجرة الدر وقليل من صحابته، فبقي في أسر الناصر شهوراً طويلة وهذا يفاوض بشأن العادل في مصر، حتى يئس الناصر من بلوغ أمنيته في اعتلاء عرش دمشق عن طريق العادل، فأطلق سراح الصالح أيوب بعد أن اتفق معه على القيام بحملة على مصر لإنتزاعها من العادل الثاني[1].

وشاءت الظروف أن كبار امراء العادل الثاني قد استاؤوا منه في ذلك الوقت لتحجبه عنهم وانشغاله باللهو عن مصالح الدولة، فثاروا عليه وعزلوه واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب الذي دخل القاهرة يوم الاثنين 25 من ذي الحجة 637هـ/ 1239 ليصبح سلطاناً على مصر[2].

ثانياً ـ الصالح أيوب يوطد سلطانه ويثبت أركان ملكه

بوصول الصالح نجم الدين أيوب إلى الحكم في مصر، كان التنافس بين أمراء الأسرة الأيوبية قد بلغ ذروته، لذلك فكر الصالح نجم الدين أيوب أن يتخذ لنفسه جنداً من نوع جديد يكونوا محل ثقته إذا حصل اجتماع الملوك الأيوبيين ضده بزعامة عمه اسماعيل الذي استاء من وصوله إلى السلطنة، وليحلوا محل الأكراد والعناصر التي قامت عليها الدولة الأيوبية[3]. فأقدم على شراء المماليك من الترك وبعض القبائل المغولية حتى صار معظم جيشه منهم[4].

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 310.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 295.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 239 ـ 240.

4 ـ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر: ج 3، ص 188، وابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص.

هذا، ويبدو أن الصالح أيوب أباح لهؤلاء المماليك الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى حتى ضج الناس من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال[1]. عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة فابتنى لهم سنة 638هـ/ 1341م قلعة خاصة بجزيرة الروضة قرب المقياس وأسكنهم فيها وسرعان ما تحولت قلعة الروضة إلى مدينة صغيرة أقيمت فيها الدور والقصور، وكان يحيط بها ستون برجاً مزودة جميعها بكثير من آلات الحرب ما يحتاج إليه من الغلال والمؤن[2].

كان عدد المماليك الذين بدأ بهم الصالح أيوب جيشه الخاص، ألف مملوك أطلق عليهم المماليك البحرية الصالحية لأنهم أصبحوا يسكنون في جزيرة وسط النيل. والمماليك البحرية مثل غيرهم من المماليك أبعد ما يكونوا من الخجل من أصلهم وفصلهم أو نشأتهم بل طالما افتخروا بأنهم مماليك لأن علاقة المملوك، بسيده في الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبودية. وكان هؤلاء الأتراك المجلوبين من وراء النهر «سيجون وجيحون» يتعهدون بالتربية الدينية والعسكرية من نعومة أظافرهم، فمن يبدي منهم استعداداً ونباهة يحرره سيده ويعهد إليه بوظيفة من وظائف الحاشية، وكلما أبدى رغبة في التقدم والتطور، رفع سيده مكانته إلى مقدم عشرة ثم مقدم مائة ثم أمير.

ولا شك أن قدر أي أمير من أمراء المماليك يقاس بقوته وشجاعته الشخصية ومدى ما يملكه من أتباع يحرسونه بعناية ويزدون عنه[3] فلا عجب بعد هذا إذا تحول المماليك وهذا شأنهم إلى القوة الحاكمة الحقيقية في الدول التي احتضنتهم أو انتموا إليها.

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 319.

2 ـ المقريزي: الخطط ج 2 ص 216 ـ 217.

3 ـ المصدر نفسه الخطط ج 1 ص 213 ـ 214.

ثالثاً ـ الأيوبيون في الشام يستعينون بالصليبيين

ما كاد الصالح أيوب يتولى ملك مصر حتى أبدى أمراء الأيوبية في الشام استياءهم ورفضوا الخضوع لسلطانه، وكان أشدهم تصلباً عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق الذي اتفق مع الملك المنصور صاحب حمص أن يكونوا حلفاً ضد نجم الدين، ومدوا يدهم إلى الصليبيين «وطلبوا محالفتهم ضد سلطان مصر والناصر داوود في الأردن وفي مقابل ذلك تعهدوا بإعطاء الصليبيين مدينة القدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً، بما فيها الأردن. ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين، بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان فضلاً عن قلعة الشقيف أرنون وأعمالها وقلعة صفد وأعمالها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهم وجبل عامل وسائر بلاد الساحل»[1].

أمام هذا السخاء ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح اسماعيل حتى أن حاميات بعض القلاع رفضت إطاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح اسماعيل، فسار هو بنفسه ليؤدب تلك الحاميات ويسلم الحصون للصليبيين.

في تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلم بيت المقدس وحصنوا قلعتي طبرية وعسقلان. ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية، وهنا وعدهم الصالح اسماعيل «بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءاً منها» فسال لعابهم لذلك واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر[2]. سار الصالح اسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور الأيوبي صاحب حمص على رأس جيوشهما لمعاونة الصليبيين في مهمة غزو مصر. ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 303 وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 322.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 322.

المصريين، فما كادوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة حتى انضمت إلى جانب الجيش المصري في مهاجمة الصليبيين وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين، فقتل منهم عدد ضخم، وسيق الأسرى إلى القاهرة، في حين انسحب الباقون إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر سنة 638هـ/ 1240م[1].

والواقع أن انحياز طائفة من عساكر دمشق إلى المعسكر المصري في معركة غزة، وازدياد كراهية أهل دمشق للصالح اسماعيل، دفعت هذا الأخير إلى إعلان الخطبة باسم سلطان سلاجقة الروم، مما أدى ذلك إلى تفاقم النقمة عليه، ولم ير الصالح اسماعيل بداً من مصالحة ملك مصر فذكر اسمه في الخطبة، ثم لم يلبث أن تم الاتفاق بين الصالح اسماعيل والصالح أيوب على حساب الناصر داود، فانتزعا منه إمارة الكرك[2]. ومن شروط الاتفاق أيضاً أن يصبح السلطان اسماعيل سلطاناً على دمشق والكرك، على أن يذكر اسم الصالح أيوب في خطبة الجمعة وينقش اسمه على النقود، غير أن الاتفاق فشل في اللحظة الأخيرة.

رابعاً ـ الخوارزمية واسترداد بيت المقدس

بعد فشل عملية الصلح بين الصالح أيوب وعمه الصالح اسماعيل عمد الصالح أيوب إلى استدعاء الخوارزمية وتحريضهم على مهاجمة دمشق، فما كان من الصالح اسماعيل إلا لأن استعان بالناصر داود مرة أخرى[3] واتفق الملكان «دمشق والأردن» على طلب مساعدة الفرنجة، مقابل تعهدهم، بأن تكون سيطرة

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 305.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 321.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 322.

الصليبيين على بيت المقدس تامة مطلقة، بمعنى أن يستولي الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة[1]. وهي الأماكن التي ظلت في حوزة المسلمين وتحت إشرافهم منذ إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس بمقتضى اتفاقية يافا سنة 627هـ/ 1229م[2]. وفي الوقت ذاته حاول الصالح أيوب محالفة الصليبيين ضد خصومه مقابل الثمن نفسه الذي عرضه صاحب الأردن ودمشق على الصليبيين. رحب الصليبيون بدعوة ملوك الأسرة الأيوبية وبحدوث النزاع الجديد لأن مكاسبهم تزداد بسبب ذلك وهو الذي مكنهم من الحصول على عسقلان وطبرية وبيت المقدس[3].

لكن الصليبيين أدركوا أن سياسة المداورة والخداع التي اتبعوها في الماضي ليحتفظوا بالمستعمرات التي استولوا عليها دون عناء، لم تعد تجدي نفعاً ولا بد لهم من الوقوف في صف أحد الجانبين ومجاهرة الطرف الآخر بالعداء، فآثروا محالفة الصالح اسماعيل والناصر داود، لأن توطيد أواصر الصداقة مع ملكي دمشق والأردن كان أجدى عليهما من محالفة ملك مصر، لا سيما وأن غزو مصر بالتعاون مع هذين الملكين يجدد أمامهم الأمل في احتلالها والاستيلاء على كنوزها وخيراتها، مما دفع الملك الصالح أيوب إلى الاستعانة بالخوارزمية ودعوتهم لمساندته في صد الهجوم الثلاثي الموجه على مصر، فعبر الخوارزمية نهر الفرات في عشرة آلاف مقاتل، وأمعنوا في سيرهم حتى بلغوا دمشق، «وهم ينهبون ويقتلون ويسبون»[4]. وارتكبوا من الفواحش ما ارتكبه التتار»[5]. فساد الذعر

---

1 ـ محمد كرد علي: خطط الشام ج 2، ص 103، وانظر د. سعيد عاشور في الحركة الصليبية ج 2 ص 104.

2 ـ Grousset, Hist des Croisades. T. III. P. 294 – 304.

3 ـ Wiet, L'egypte Arabe, op. cit., p. 373.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 316.

5 ـ محمد كرد علي: خطط الشام ج 2، ص 102.

واشتد الخوف في جميع البلاد والأراضي التي اجتازوها، وصار الناس يهربون من وجوههم، ثم سار الخوارزمية إلى طبرية فاستولوا عليها، ومنها توجهوا إلى نابلس وبيت المقدس وأحس الصليبيون بما يحيق بهم من الخطر، فسارع بطريرك المدينة ومن معه من مقدمي الداوية والاسبتارية، إلى تعزيز الحاميات التي تحصنت وراء الاستحكامات التي شيدها من جديد الداوية، غير أن جميع الجهود ذهبت سدى وفي الثاني من صفر سنة 642هـ/ الحادي عشر من تموز 1244م اقتحم الخوارزمية المدينة وجرى القتال في الشوارع.

استنجد الصليبيون بأمير إنطاكية وطرابلس، وبملك قبرص، وبإخوانهم في عكا، وبخلفائهم المسلمين في دمشق والأردن، فلم ينجدهم أحد، وكل ما قام به الناصر داود أنه توسط في خروج من يرغب منهم في مغادرة المدينة وكان عددهم ستة آلاف، غير أن الخوارزمية لم يتركوهم ينصرفوا آمنين فاعتدوا عليهم في الطريق، ولم يصل منهم إلى يافا سوى ثلاثمائة[1].

وكانت هذه المرة الأخيرة التي تحررت فيها القدس من أيدي الصليبيين ولم يعد يجرؤ أي من الفرنجة أن يدخلها مرة ثانية.

خامساً ـ الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية

بعد أن تمكن الخوارزمية من تحرير بيت المقدس ساروا إلى الملك الصالح أيوب يخبرونه بقدومهم فأمرهم بالإقامة في غزة، وفي الوقت ذاته سير الصالح أيوب عسكراً من مصر بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس، فسار إلى غزة وانضم إلى الخوارزمية، وفي الثاني عشر من جمادي الأولى سنة 642هـ/ السابع عشر من تشرين الأول سنة 1244م حدث اللقاء عند غزة بين الجيش المصري والخوارزمية

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 323.

من ناحية والصليبيين وجيوش حمص ودمشق والأردن من ناحية أخرى، فحلت هزيمة ساحقة بالصليبيين وحلفائهم من المسلمين الخونة، وقدر بعض المؤرخين المعاصرين خسائر الصليبيين بثلاثين ألف قتيل وثمانمائة أسير[1]. وهذه أكبر كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة 583هـ/ 1187م، حتى أطلق المؤرخون عليها اسم «حطين الثانية»[2].

كان الخوارزمية يأملون بعد البلاء الذي أبدوه في بيت المقدس وفي غزة أن يكافئهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار في مصر، ولكن، نجم الدين أيوب رفض طلبهم وأصر على بقائهم في الشام لحمايتها من الصليبيين ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت تغير على ممتلكات الصليبيين وضياعهم حتى وصلت إلى مشارف عكا.

أما الجيش المصري بقيادة ركن الدين بيبرس، فقد انفصل عن الخوارزمية بعد موقعة عكا وسارع إلى الاستيلاء على غزة والساحل، والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار، ثم حاصر دمشق وفيها صاحبها الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وبعد حصار دام ستة أشهر استسلمت دمشق في الثامن من جمادي الأولى سنة 643هـ/ الأول من تشرين الأول سنة 1245م، وعوض الصالح إسماعيل عنها ببعلبك وبصرى وأعمالها[3].

أما الخوارزمية، فقد انقلبوا على الصالح نجم الدين أيوب لأنهم لم يحصلوا

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 5، ص 174. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 234.
وانظر .Runciman< Hist. of the Grusades op. cit., T. III. P. 327

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 5، ص 175.
والمقريزي: السلوك ج 1، ص 317.

3 ـ المقريزي السلوك ج 1، ص 317 ـ 318؟

على ما كانوا يطمحون إليه، فهم ظنوا أنهم بعد أن ساعدوه في التغلب على خصومه وفي تملك بلاد الشام سوف يقاسمهم الغنائم ويشاطرهم الملك، لكن ظنهم خاب عندما منعهم من دخول دمشق وأقطعهم بلاد الساحل «فتغيرت نياتهم واتفقوا على الخروج من طاعة السلطان»[1]. وأعلنوا الثورة واتصلوا بالأمير ركن الدين بيبرس وحسنوا له الانضمام إليهم فمال إليهم لأن أمه كانت خوارزمية، كما سارع الناصر داود صاحب الكرك، والملك الصالح اسماعيل بالانضمام إليهم، زحفوا جميعاً على دمشق وحاصروها وقطعوا عنها الإمدادات فاشتد الغلاء بها، ومات كثير من الناس جوعاً وأكل الناس القطط والكلاب والميتات، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر، وهنا أظهر الصالح أيوب صبراً ومهارة فلجأ إلى «أعمال الحيلة والتدبير» فأغرى الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص على الانضمام إليه، فضلاً عن استمالة الحلبيين، كما تحايل على الأمير ركن الدين بيبرس حتى استحضره إلى مصر حيث قبض عليه وأعدمه، وبفعل هذه الاجراءات تمكن الصالح أيوب من إنزال الهزيمة بالخوارزمية بالقرب من حمص في أول المحرم سنة 644هـ/ 1246م. فتبدد شملهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة[2].

وبعد القضاء عل الخوارزمية توجه الصالح أيوب إلى دمشق حيث لقي بها استقبالاً حافلاً في سنة 645هـ/ أذار سنة 1247م، ثم سار إلى بعلبك وبصرى وبيت المقدس، في أثناء ذلك كان جيشه المصري بقيادة الأمير فخر الدين يعطي الصليبيين درساً قاسياً في معاركهم، والتي أسفرت عن استيلائه على قلعة طبرية في سنة 645هـ/ 17 حزيران 1247م، ثم على عسقلان في منتصف تشرين

---

1 ـ المقريزي السلوك ج 1، ص 322.

2 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 324، وانظر محمد كرد علي في خطط الشام ج 2، ص 104 وانظر أبو المحاسن في النجوم الزاهرة ج 6 ص 324 ـ 326.

الأول من العام نفسه، وبذلك انحسرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا[1]. وهكذا تمكن الصالح أيوب من توحيد الدولة الأيوبية بكاملها تقريباً حتى حلب والجزيرة العليا[2]. ولم يبق عليه إلا التفرغ لمواجهة الصليبيين الذين قاموا بحمله جديدة لإنقاذ مستعمراتهم في الشرق.

سادساً ـ الحملة الصليبية السابعة

أ ـ وصول الحملة والاستعداد لمواجهتها

أحدث تحرير المسلمين لمدينة القدس في سنة 642هـ/ 1244م رد فعل قوي في أوروبا، فنشطت الدعوة البابوية لإرسال حملة صليبية إلى الشرق، لكن ظروف الغرب الأوروبي في تلك الفترة ـ منتصف القرن الثالث عشر ـ تختلف عن الظروف الأوروبية التي أعدت للحملة الصليبية الأولى، في أواخر القرن الحادي عشر فالتعصب الديني كان في طريق الزوال، وحرية الفكر كانت قد بدأت تنير مشاعلها في معاقل الظلام.

ويقول بروكلمان: «كانت فكرة الحرب في سبيل الأرض المقدسة قد انكمشت في تلك الفترة، وعفى عليها النسيان أو كاد»[*].

لهذا لم يستجب لنداء الدعوة البابوية سوى لويس التاسع ملك فرنسا الذي اشتهر بتقواه وورعه، أما ملكا ألمانيا وايطاليا فقد أعرضا عن تلك الاستغاثة

---

1 ـ Wiet. L'egypte, Arabe, op. cit., p. 374.

2 ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ج 2، ص 238.

(*) يعلل بعض المؤرخين تحمس لويس التاسع لهذه الحملة. أنه أصيب بعد أن تولى الملك بحمى ملارية شدشدة، فنذر أن يخرج على رأس حملة صليبية من فرنسا إذا هو شفي من مرضه، ولما تم شفاؤه أعلن عن عزمه على الوفاء بنذره.

لإنصرافهما وقتذاك إلى النزاع الإمبراطوري البابوي، وفشلت جميع المساعي التي قام بها فردريك الثاني. وهكذا كانت الحملة الصليبية السابعة فرنسية بأغلبها[1].

وعلى الرغم من تظاهر الامبراطور فردريك الثاني بتأييد الحملة، فقد أرسل سراً إلى الملك الصالح أيوب ابن صديقه القديم الملك الكامل يخبره بأن ملك فرنسا «عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها»[2].

وكان الصالح أيوب مريضاً في دمشق عندما بلغته تلك الأخبار، فأسرع بالعودة إلى مصر، وعسكر بجيشه، عند تخوم طناح، وأمر بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ووضع فيها حامية من عرب بني كنانة، كما أرسل جيشاً إليها بقيادة الأمير فخر الدين يوسف وأمره أن يعسكر على الشاطىء الغربي ليحول بين الصليبيين والنزول إلى البر[3] ولا بد من الإشارة إلى أن البندقيين عارضوا الحملة ولم يشتركوا فيها حفاظاً على مصالحهم التجارية في مصر ولا سيما في الاسكندرية[4].

وصل لويس التاسع على رأس حملته إلى جزيرة قبرص في سنة 646هـ/ أيلول 1248م حيث قضى بضعة أشهر جرى خلالها اتصالات عديدة مع المغول بغية تحويلهم إلى المسيحية والاستفادة من جهودهم في تطويق العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، ولكن جميع المباحثات التي دارت بين الطرفين لم تصل إلى اتفاق[5].

وفي قبرص اجتمع لويس التاسع بقيادة الصليبيين في الشام من أمثال نائب مقدم طائفة الاسبتارية، ومقدم طائفة الفرسان الداوية، وغيرهم من الشخصيات،

---

1 - Runciman, op, cit., T. III. P. 257.

2 - المقريزي: والاعتبار ج 1، ص 219.

3 - ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 355 - 356.

4 - Eyd. G. Hist, du Commerce, op. cit., T. I. p. 409 - 412.

5 - أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2، ص 664 - 665.

واتفق الحاضرون على أن تكون مصر هي هدف الحملة، لأن الإستيلاء عليها هو الكفيل بحل المسألة الصليبية على خير ما يتمنى العالم الأوروبي الغربي. لأن مصر هي المركز الاستراتيجي الحامي لظهر الحركات الحربية الإسلامية ضد الصليبيين ببلاد الشام، كما أن الاستيلاء على دمياط بالذات فيه محو للعار الذي لحق بالصليبيين بالجلاء عنها من قبل زمن الملك جان دي برين[1].

أبحرت الحملة الصليبية من ميناء ليماسول في شهر المحرم سنة 647هـ/ يوم الخميس 13 أيار سنة 1249م متجهة إلى مصر، وكان عدد وحداتها البحرية نحو ألف وثمانمائة قطعة بحرية كبيرة وصغيرة ومتوسطة، تحمل نحو خمسين ألف مقاتل من مشاة وفرسان، بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم[2]. غير أن رياحاً عاصفة شديدة لم تلبث أن هبت على هذه السفن فشتت شملها، وجنحت باتجاه عكا وشواطىء الشام، بحيث لم يصل منها إلى مصر سوى ثلث عدد الفرسان فقط[3].

وكان أول ما فعله لويس التاسع حين بلغت سفنه مياه دمياط في العشرين من صفر 647هـ: الرابع من حزيران سنة 1249م أنه مهد لهجومه بنوع من حرب العصاب فكتب إلى الملك الصالح مهدداً متوعداً، شارحاً له سؤ موقف المسلمين في الأندلس طالباً منه التسليم فوراً: «... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء»[4].

---

1 ـ حمدي عبد المنعم حسين: تاريخ مصر ج 2، ص 664 ـ 665.

2 ـ محمد العريان والشيال: قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص 35.

3 ـ Runciman. Hist of the Crasades. T. III. P. 257 – 261.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 334.

وصلت رسالة لويس التاسع إلى الملك الصالح أيوب، فتأثر واغرورقت عيناه بالدموع لاختلال صحته ـ وقال إنا لله وإنا إليه راجعون، وأمر القاضي بها، الدين زهير كاتب الإنشاء بكتابة الرد بخطه على كتاب لويس التاسع قائلاً فيه: «وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأت عيناك أيها المغرور! حد سيوفنا وعظم حروبنا... لكان أن تعض على أنا ملك بالندم، ولا بد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك...»[1].

وعلى الرغم من استعداد المصريين الكامل لملاقاة الصليبيين استطاعت العساكر الصليبية بعد تفوقها على المقاومة الإسلامية العنيفة بقيادة الأمير فخر الدين يوسف أن تنزل على الضفة الغربية المواجهة لدمياط، مما جعل الأمير فخر الدين ينسحب بمن بقي سالماً من أفراد جيشه إلى الضفة الشرقية حيث توجد دمياط، ولكنه خشي الإحتماء بالمدينة فتابع سيره إلى المعسكر السلطاني بأشموم طناح[2].

ارتاع سكان دمياط وحاميتها حين شاهدوا هذه الهزيمة، وتراءت لهم صور المجازر الوحشية التي عاناها أهل المدينة أيام حملة حنا دي برين فغادروا المدينة هاربين، بعد أن أشعلوا النار في سوقها، وفاتهم كما فات الجيش من قبل أن يحطموا الجسر المؤدي إلى الضفة الغربية، فغدت دمياط لقمة سائغة في أيدي الصليبيين، حتى أن هؤلاء لم يصدقوا الأمر، وظنوا أن إخلاء المدينة وترك أبوابها مفتوحة على هذا الشكل مكيدة، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا الحقيقة، فدخلوا المدينة بغير كلفة، واستولوا على ما فيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال صفواً

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 335.

2 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 335.

عفواً[1]. وكان سقوط دمياط بهذه السرعة، مصيبة لم يجر مثلها[2].

استشاط الملك الصالح أيوب غضباً لما وقع، واشتد حنقه على الكنانيين، وأمر بشنقهم بعد أن استفتى الفقهاء فأفتوا بقتلهم، فشنق ما يزيد على خمسين من أمرائهم، ووبخ مماليكه على تخاذلهم وقال لهم: «ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرنج» فتخوف المماليك من نواياه وارادوا الفتك به، فقال لهم فخر الدين: «اصبروا عليه فهو على شفا... فإن مات فقد استرحتم وإلا فهو بين أيديكم...»[3].

أمام تصارع الأحداث في مدينة دمياط اضطر الملك الصالح إلى الارتداد بمعسكره إلى مدينة المنصورة حيث نزل بالقصر السلطاني على ساحل النيل ورابطت السفن الحربية في النيل تجاه المدينة، كما أخذت جموع العربان والجنود المتطوعة تفد إلى تلك القاعدة الجديدة لمواجهة الخطر الداهم.

أما الصليبيون لم يحاولوا أن يستفيدوا من الأخطاء التي وقعت بها الحملة الصليبية الخامسة سنة 616هـ/ 1219م، فبدلاً من أن يبادر لويس التاسع بالزحف إلى داخلية البلاد لإستغلال الحالة السيئة التي سادت الجيش المصري وهو يتراجع بغير انتظام والسلطان يشنق قادته والشعب في حالة فزع لسقوط دمياط[4]. أضاع الصليبيون الوقت خمسة أشهر كاملة (647هـ-حزيران/ تشرين ثاني 1049م) انصرفوا خلالها إلى العناية بالمدينة وتحصينها منتظرين مجيء بقية قوات الحملة التي بعثرتها الرياح إلى سواحل الشام، وربما اعتقد لويس التاسع أن جيوشه لن تكون كافية لهجوم كامل على المنصورة، فأرسل إلى فرنسا يطلب مجيء

---

1 - المصدر نفسه ج 1، ص 335.

2 - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 328.

3 - المقريزي: السلوك ج 2، ص 336.

4 - أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2، ص 666.

أخيه الثالث كونت بواتيه بقوات فرنسية وأسلحة ومؤونة إلى دمياط، يضاف إلى ذلك أن الملك الفرنسي أراد أن ينتظر انحسار فيضان النيل الذي كان سبباً في فشل حملة حنا دي برين على مصر قبل ثلاثين سنة[1].

لا شك أن بقاء لويس التاسع في دمياط أعطى الفرصة للملك الصالح أيوب لإعادة تنظيم جيشه ومهاجمة الصليبيين بإغارات فدائية ليلية جريئة، واختطاف كل من تصل أيديهم إليه، فإذا شعر بهم الفرنج ألقوا بأنفسهم في الماء وسبحوا حتى يصلوا إلى بر المسلمين، وقد وقع في أيدي المسلمين أعداداً كبيرة من الأسرى الصليبيين كان الملك الصالح يرسلهم إلى القاهرة لعرضها في الشوارع بهدف رفع الروح المعنوية في أنحاء البلاد[2]. ولا عجب بعد ذلك إذ قال نابوليون بعد نيف وخمسة قرون: «إن جمود الجيش الفرنسي في دمياط كان غلطة من أبعد الأغلاط عاقبة في تاريخ الحروب»[3].

وعندما وصلت الامدادات إلى لويس التاسع في سنة 647هـ/ تشرين الأول سنة 1240م. عقد اجتماعاً لتقرير خطة الزحف فاقترح بعض القادة أن يكون نحو الاسكندرية للحصول بسرعة على الامدادات من أوروبا وفرنسا. ولكن الكونت دارتوا ـ أخ الملك لويس ـ رفض هذا الاقتراح وقرر الزحف إلى يالقاهرة مباشرة والإستيلاء عليها أولاً باعتبارها عاصمة الدولة الأيوبية ومتى سقطت استسلمت البلاد جميعاً وقد أيده الملك لويس وقرر المسير إلى القاهرة في الثاني عشر من شعبان 647هـ/ العشرين من تشرين الثاني سنة 1209م بفارسهم

---

1 ـ Runciman. Hist. of the Crusades, op. ciy., T. III. P. 263.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 337.

3 ـ قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ص 529.

وراجلهم وشوانيهم في نفس الطريق الذي سلكته من قبل حملة حنا دي برين[1].

لم يكد لويس التاسع يشرع في المسير باتجاه المنصورة حتى توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب في ليلة النصف من شعبان 647هـ/ الموافق الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة 1249م[2].

كان وفاة الملك الصالح في غمرة هذه الظروف الصعبة، ضربة ساحقة للمصريين والمسلمين، فقد كان من المألوف في تلك الأيام أن تثير موت الملك أطماع القادة والأمراء، فيتنافسون على السلطة في سبيل الوصول إليها والاستئثار بها، مما يؤدي ذلك إلى تمزق وحدة الأمة والجيش، ويفتح أبواب البلاد للغزاة والمعتدين.

ويجمع المؤرخون بأن القدر أحدث معجزة من معجزات التاريخ إذ وضع مقدرات البلاد في تلك الفترة الدقيقة من فترات الحرج في يد شجرة الدر التي قررت عدم إعلان وفاة زوجها السلطان على الجيش، حتى يصل توران شاه ابن الملك الصالح أيوب من حصن كيفا بالموصل اتقاءً للفتنة[3]. ولم تكتف شجرة الدر بذلك بل أخذت المواثيق على كل من وقف على وفاة الملك، ورتبت الأطباء بحيث يدخلون كالعادة إلى حجرة السلطان وكأنهم يعودونه، وظلت الخدمة السلطانية على حالتها في قصر المنصورة، بحيث أن الأوامر السلطانية تدخل إلى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بتوقيع السلطان وعلامته، ويقال إن شجرة الدر هي التي كانت تقلد توقيعه، وان كانت هناك روايات أخرى تقول أن الذي كان يقلد الخط هو خادم يسمى سهيل[4]. وأمرت شجرة الدر بغسل الجثمان سراً، وأودع

---

1 ـ حسن حبشي: الشرق العربي بين شقي الرحى ص 64. Wiet. Hist. de la Nation Egyptienne op. cit., p. 37.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 328 ـ 329.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 342 ـ 343.

4 ـ أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج 3 ص 127.

في محفة، ونقل من المنصورة ليلاً في سفينة صغيرة عبر النيل إلى القلعة القائمة في جزيرة الروضة حيث كانت ثكنات المماليك[1].

كان عمر الملك الصالح نجم الدين أيوب عند وفاته أربعاً وأربعين سنة وكانت مدة سلطنته على مصر تسع سنين وسبعة أشهر وعشرين يوماً.

يصور بعض المؤرخين صورة قاتمة للملك الصالح من حيث بطشه وجبروته وما ارتكبه من قتل أخيه العادل يعتبر عملاً بغيضاً[2]. وما لجأ إليه من تخريب بلاد خصومه، وما قام به الخوارزمية الذي يعتبر مسؤولاً عن قدومهم، من الخراب والدمار بالبلاد، وفات هؤلاء النقاد أن الخوارزمية الذين حرروا بيت المقدس؟ يضاف إلى تلك المآخذ على الملك الصالح شراؤه لأعداد كبيرة من المماليك الترك، الذين أصبحوا من أهم عناصر الجيش الأيوبي، وبذروا في مصر الاضطراب والفوضى، يعزلون السلاطين كلما ضاقوا بهم ذرعاً[3]. والحق يقال أن ما لقيه الملك الصالح أيوب أثناء ولايته للعهد من العنت، وما تعرض له من النفي في إمارته بأعالي الجزيرة، ما يبرر سلوكه ويوفر له من الأعذار[4].

ولا يفوتنا أن نذكر في خضم هذا النقد اللاذع بعض مفاخر الملك الصالح أيوب كالشجاعة التي ابداها عند مقابلة العدو بالمنصورة وهو على فراش الموت[5] وميله إلى تشييد العمائر التي لم يقم بها سلطان أيوبي قبله، ولا يزال سكان القاهرة حتى وقتنا الحاضر يعبرون جسر الملك الصالح الذي كان هو أول من أنشأه ليربط

---

1 ـ أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ص 127.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 326 ـ 327.

3 ـ المصدر نفسه ج 6، ص 316.

4 ـ Wiet. G. Hist. de lanation Egyptienne. Op. cit., p. 379.

5 ـ Ibid. p. 379.

جزيرة الروضة بالقسطاط آية من الجمال والروعة[1].

ب ـ موقعة المنصورة

كان للصالح أيوب ولد واحد اسمه توران شاه ولاه أعالي الجزيرة ـ حصن كيفا وديار بكر ـ بعد أن غادرها[2]. وأدرك الصالح أيوب قبيل وفاته، ما اشتهر به توران شاه من صفات لا تؤهله للحكم، ولعل هذا هو السر في أن شجرة الدر في سبيل المحافظة على سلطتها أخفت خبر موت زوجها وأرسلت إلى توران شاه تستدعيه سرعة القدوم إلى مصر، وفي انتظار وصوله نظمت الوصاية، فجمعت في اليوم التالي لوفاة السلطان، أمراء الجيش ورجال الدولة وأبلغتهم مشيئته بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم توران شاه من بعده وللأمير فخر الدين شيخ الشيوخ بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة، ففعلوا ما أمر به السلطان!... ثم أرسلت إلى الأمير حسام الدين محمد نائب السلطان في القاهرة أمراً ممهوراً بتوقيعه ليقوم بتحليف أكابر الدولة ومقدمي الجند، فأطاع الأمير حسام الدين أمر الملك وبدأ الخطباء بالجوامع يدعون لتوران شاه بعد أبيه، كما نقش اسمه على الدنانير والدراهم بعد اسم أبيه[3].

ويبدو أنه رغم كل هذه الاحتياطات تسرب خبر وفاة السلطان لا إلى المصريين فحسب، بل إلى الصليبيين أيضاً فأرادوا انتهاز الفرصة ليستفيدوا من تلك الظروف قبل وصول توران شاه[4].

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 335، 336، 337.
وانظر أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2، ص 668.
2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 364.
3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 362 ـ 363.
4 ـ المصدر نفسه ص 363. وانظر Michaud. Hist. des Croisades. T. IV, p. 54.

أسرع الفرنج في تحركهم حتى وصلوا إلى قرية فارسكور دون أن يلقوا في طريقهم أية مقاومة عسكرية، فلما وصلت هذه الأخبار إلى معسكر المنصورة، سارع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بإبلاغ القاهرة بتلك الأنباء في رسالة يحض فيها الناس جميعاً على الجهاد، وقرأت هذه الراسلة على الناس في صلاة الجمعة بالجامع الأزهر الشريف، فكان لها صدى كبير في نفوس الناس إذ دفعتهم إلى تقديم كل المساعدات الممكنة للقوات المصرية المدافعة عن المنصورة حتى تستطيع المقاومة والثبات ضد الغزو الصليبي.

فاجأ الأمير فخر الدين الصليبيين في معركة ضارية نشبت بين فارسكور وشرمساح قتل فيها الكثير من المصريين والفرنجة ومن أبرز هؤلاء رينو فيشه رئيس فرسان الهيكل، وعلى أثر هذه المعركة انتقل لويس التاسع بجيشه إلى البرمون في مواجهة المنصورة فوصلها في السابع من رمضان 647هـ/ الرابع عشر من كانون الأول 1249م، ثم واصل الصليبيون زحفهم حتى لم يبق بينهم وبين الجيش الأيوبي سوى بحر أشموم طناح، وبدأ كل فريق يستعد للمعركة المنتظرة، وكان الجيش الأيوبي مطمئناً إلى مناعة المنصورة، وصعوبة اجتياز النهر، فكانوا يقومون بهجمات جانبية ومناوشات صغيرة يقوم بها جماعات غير نظامية، فيختطفون الغزاة أحياء ويتصيدونهم بالنبال، كما كانوة يمطرونهم بقذائف من النار الإغريقية[1].

استمرت المناوشات بين المسلمين والصليبيين شهرين كاملين، خنق فيهما لويس التاسع من صعوبة اجتياز النيل إلى المنصورة، فعقد مجلساً حربياً ضم بارونات الجيش وقادته بحث ما يجب اتخاذه من خطة تمكنه من عبور النهر، وبينما

---

1 ـ جوزيف يوسف: هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ص ٩٩.

المناقشة تجري، حضر إلى المعسكر الصليبي أحد الخونة من البدو ودلهم على مخاضة في بحر أشموم طناح تعرف باسم مخاضة سلمون مقابل مبلغ من المال[1]، فارتاح لويس التاسع ووضع خطة جديدة للمعركة، تتلخص في أن يعبر الكونت دارتوا بفرقة الفرسان المخاضة، فإذا وصل إلى الشاطىء الذي يعسكر فيه المصريون اشتبك معهم في قتال مؤقت حتى تمكن الملك مع بقية جيشه من العبور، وانقضوا جميعاً على الجيش الأيوبي[2]. وفي الخامس من ذي القعدة سنة 647هـ/ الموافق الثامن من شهر شباط 1250م عبرت الخيالة المخاضة دون أن تلقى أية مقاومة، ولم يشعر المسلمون إلا والفرنج معهم في المعسكر، فانتشر الذعر بين الجند، وهرع فخر الدين بن شيخ الشيوخ لملاقاتهم مضطرباً، وامتطى صهوة جواده دون أن يلبس درعه، يرافقه بعض مماليكه وأجناده، غير أن فرسان الداوية أحاطوا به، ففر من كان معه، وتركوه وحيداً في الدفاع والمقاومة حتى سقط قتيلاً مثخناً بالجراح[3]. مما جعل موقف المسلمين حرج حتى «كادت تكون الهزيمة بالكلية»[4]. ولم ينقذ الموقف سوى حماقة الصليبيين، فقد هزت نشوة النصر الكونت دارتوا فاندفع إلى مدينة المنصورة قبل أن يدركه باقي الجيش وأوغل في طرقاتها حتى وصل إلى قصر الملك، حيث كان المملوك ركن الدين بيبرس البندقداري يقف لدراسته فاستطاع أن يرد هجمة الفرنج، ويطوق جيشهم، ويطارهم في شوارع المدينة، يشاركه الأهالي بإقامة المتاريس في الشوارع وإلقاء القنانف والحجارة على الصليبيين من الأسطح والنوافذ فتحولت تلك الموقعة التاريخية إلى نصر باهر للقوى الإسلامية

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 1 ص 211 ـ 232 حاشية رقم 5.

2 ـ محمد العريان والدكتور الشيال: قصة الكفاح... ص 63.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 345. وانظر أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ص 128.

4 ـ ابن واصل: مفرج الكروب. ج 2، ص 366.

وكارثة مروعة للصليبيين كان من بين القتلى الكونت دارتوا وعدد كبير من القادة والفرسان، فلا عجب بعد ذلك إذا وصف غروسيه المنصورة بأنها كانت مقبرة الصليبيين[1] في حين وصفها المقريزي بأنها كانت «أول ابتداء النصر على الفرنج»[2].

ويبدو أن نشوة النصر في موقعة المنصورة أعادت الثقة إلى نفوس المسلمين، وقرروا خوض المعركة الحاسمة ضد الصليبيين، فوضع القائد بيبرس البندقداري خطة الهجوم، ثم أمر بقرع النقارات[3]. ومن ثم بدأ هجوم المسلمين الصاعق على الصليبيين من جمع النواحي كما لو كانوا يلعبون الشطرنج على حد قول مؤرخ الحملة الصليبية جوا نفيل[4]، واستخدم المماليك النار الإغريقية في هجومهم، مما اضطر لويس التاسع أن يخرج بنفسه لإنقاذ الموقف، ولكن قلة المؤن وتناقص عدد الفرسان بسبب كثرة القتلى في المنصورة، فضلاً عن انتشار الأمراض والحميات في معسكر الصليبيين[5]. كل ذلك أنهى المعركة لصالح المسلمين وهزيمة ساحقة للفرنج الذين أيقنوا بعدها أنهم لا يستطيعون البقاء في مراكزهم، وأن عليهم الإنسحاب قبل فوات الفرصة[6].

سابعاً ـ توران شاه والصليبيون

وفي هذه الأثناء وصل توران شاه إلى مصر واستقر في قصر الملك بالمنصورة

---

1 ـ Grousset, R. Hist. des Groisades, op. cit., T. III. P. 465.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 351.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 475.

4 ـ Joinville, j. vist. Du saint louis, paris, p. 1874, p. 80.

5 ـ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 1070.

6 ـ Joinville, Ibid. p. 80

يوم الجمعة في الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة 647هـ/ الموافق الخامس والعشرين من شباط سنة 1250 م، فأعلنت شجرة الدر وفاة الملك الصالح لأول مرة وتسلم ولي العهد مقاليد الحكم، وكان في الخامسة والعشرين من عمره وفيه صلابة وصلف وكبرياء.

تولى ثوران شاه قيادة الجيوش بنفسه وأخذ في تدبير خطته لإجبار لويس التاسع على التسليم، فأمر ببناء عدة سفن حملت أجزاؤها على الجمال إلى شمال المعسكر الصليبي حيث ركبت وأنزلت في الماء وشحنت المقاتلين. ولم تلبث هذه السفن الإسلامية أن انقضت على المراكب الصليبية وأخذتها أخذاً وبيلاً، فاستولت على اثنين وخمسين سفينة بما فيها من الأزواد والأقوات، وقتلت واسرت نحو ألف جندي[1]. وبذلك قطعت الطريق على السفن الصليبية وحالت دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم في دمياط[2].

ارتفعت الروح المعنوية عند المصريين فاندفعوا في هجمات متكررة على الصليبيين انتهت جميعها باستيلائهم على العديد من السفن الصليبية وأسر بضعة آلاف من رجالهم، فضلاً عن كميات ضخمة من المؤن والعدد[3].

بعد هذا التدهور في الوضع الصليبي أرسل لويس التاسع إلى السلطان الأيوبي يطلب الصلح ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل إعطائه بيت المقدس. ولكن السلطان رفض هذا الطلب، فعرض الملك لويس حينئذ إعطاءه بعض المدن الساحلية، وكان جواب توران شاه: «إن بيت المقدس وكل شبر من

---

1 ـ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2 ص 1071. والمقريزي السلوك ج 1، ص 353 ـ 354. وانظر حسن حبشي في الشرق والغرب بين شقي الرحى ص 91. وابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 371.

2 ـ المقريزي: لاسلوك ج 1، ص 353.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 371. والمقريزي: السلوك ج 1، ص 354.

أرض العرب هي أرضنا لا نفرط فيها قط... إنكم مقضي عليكم ولا شك، ولكني مع ذلك ـ رعاية للسلام وحقناً للدماء ـ أعرض عليكم الجلاء فوراً عن بلادنا بحيث تحملكم سفنكم إلى بلادكم دون غيرها، فإذا قبلتم فحسناً فعلتم، وإذا أبيتم فالسيف حكم بيننا وبينكم»[1].

إزاء هذا الموقف الأيوبي رأى الملك لويس التاسع ضرورة الانسحاب الصليبي إلى دمياط، وفي غزة المحرم سنة 648هـ/ الخامس من نيسان 1250م مساءً بدأ تنفيذ الخكة، وقد حرص الصليبيون على غشعال النار فيها لديهم من أخشاب ومراكب كي لا ينتفع بها المسلمون، غير أن الانسحاب ليلاً وفي عجلة من أمرهم سهوا عن قطع الجسر الذي شيدوه على بحر أشموم طناح، فاغتنم المصريون الفرصة، وعبروا الجسر خلف الصليبيين، حيث دارت معارك رهيبة بين الفريقين، والمسلمون يطاردونهم ويضيقون الخناق على فلولهم الهاربة، ويهاجمونهم من كل ناحية بسهامهم تارة وبالسيوف والرماح تارة أخرى حتى فارسكور حيث أحدقوا الصليبيين من كل جانب، فقتلوا وأسروا منهم عدداً كبيراً[2]. وغنموا معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم، وأبلى المماليك البحرية الصالحية ولا سيما فارس الدين إقطاعي وبيبرس البندقداري، في فارسكور بلاءً حسناً حتى أطلق ابن واصل عليهم «داوية الإسلام»[3]. وعلى الرغم من الكفاية التي أظهرها لويس التاسع في الدفاع وتنظيم الجيش إلا أن المرض اشتد عليه ولم يعد يقوى على القتال، فقاده أحد رجاله ليستريح في منية أبي عبد الله، وهي إحدى قرى شرمساح، وكان الفرنجة أضعف من أن يقاوموا ويصمدوا في وجه القوى

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 336.
2 ـ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج 5، ص 240.
3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب جج 2، ص 369.

الإسلامية المحيطة بهم ولم يلبث الملك لويس أن طلب الأمان لنفسه ولأصحابه، فاستجاب المسلمون لهم، غير أن الصليبيين استأنفوا القتال من جديد، فأحدق بهم المسلمون وصاروا يحملون عليهم فلم يسع الفرنجة إلا أن أعلنوا استسلامهم بدون قيد أو شرط وألقوا بأسلحتهم وجرى تطويقهم وسوقهم إلى الأسر، فكان من جملة الأسرى الملك لويس التاسع، الذي سيق مكبلاً بالاغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان وعهد بحراسته إلى الطواشي صبيح المعظمي[3].

حاول توران شاه الضغط على لويس التاسع للحصول على بعض المعاقل الصليبية في بلاد الشام أو الحصول على قلاع الداوية والاسبتارية في الشام، ولكن لويس التاسع رفض هذين الاقتراحين وأجاب أن لا سلطان له على هذه الممتلكات وأنها تابعة للامبراطور فردريك الثاني[4].

اغتاظ توران شاه لموقف الملك لويس، وصمم على غزو الشام وطالب بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي، على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسي نفسه[5] لأن مقامه من الشهرة بحيث لا يصح أن تقدر فديته بمال.

وافق الملك لويس التاسع على هذه الشروط وأبرمت معاهدة بينه وبين ثوران شاه لمدة عشر سنوات، وأقسم الطرفان على احترام المعاهدة وعدم الاخلال بها[6]. وهكذا وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى نهايتها الفاشلة وأحرز المسلمون انتصاراً عظيماً على الفرنجة لم يسبق لهم أن أحرزوا مثيلاً له منذ انتصار حطين.

---

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 356.

Joinville. J. Hist. de saint louis. P. 154. ـ 4

Grousset. Hist. des Croisades. Op. cit. T. III. P. 424. ـ 5

6 ـ جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع. ص 61.

ثامناً ـ مقتل الملك المعظم ثوران شاه

اغتر توران شاه بنشوة النصر، وأحلام المجد، ففقد اتزانه، وتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر التي صانت البلاد، وحفظت الملك، وأخذت العهد له تمهيداً لجلوسه على العرش، وراح يطالبها بتركة أبيه ويسألها أن ترد إليه ما تحت يدها من جواهر ومال ويهددها بالقتل إن هي تأخرت في أداء الحساب، ويتوعدها بأشهر أنواع العقوبات.

كما أمر توران شاه باعتقال جماعة من أمراء أسرته، وأبعد مماليك أبيه الذين أحرزوا النصر، كما تنكر للأتابك فارس الدين إقطاي الذي ذهب بتعليمات من شجرة الدر لاحضاره من حصن كيفا، وكان قد وعده بمنحه لقب أمير وتعيينه على ولاية الاسكندرية، مما أغضب إقطاي وجعل المناصب العالية للأمراء الذين صحبوه من الشرق من حصن كيفا، فجعل الطواشي مسروراً ـ وهو خادمه ـ استادرا السلطان وأقام صبيحاً وكان عبداً جشياً ـ أمير جاندار وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة، وأمر أن تصاغ له عصا من الذهب[1]. ولم يكتف توران شاه بأن ينتزع من مماليك الصالح أيوب كل سلطان ونفوذ بل صار يحرقهم، ويسخر منهم، ويمضي في إهانتهم والإساءة إليهم، والدليل على ذلك أنه كان إذا سكر، يجمع الشموع، ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول: «هكذا أفعل بالمماليك البحرية... ويسمي كل واحد باسمه...»[2]. فلما بلغ مماليك أبيه ذلك أضمروا له السوء، واتفقوا على قتله قبل أن يفتك بهم.

والظاهر أن اثنين من زعماء المماليك البحرية هما فارس الدين إقطاعي وبيبرس البندقداري دبرا مؤامرة اغتياله، ففي الثامن والعشرين من المحرم سنة

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 371.

2 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 72.

648هـ/ الثاني من أيار سنة 1250م أقام توران شاه احتفالاً بالانتصار على الصليبيين وجلس على عادته ليتناول طعامه، فتقدم إليه بيبرس البندقداري، وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده فقطعت بعض أصابعه[1]، فأسرع توران شاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه عل النيل ليمضي فيه بعض وقته أثناء إقامته بفارسكور، واحتمى بإعلاله وهو يصرخ من جرحني؟ فقالوا: «الحشيشية» فقال: «لا والله! البحريةّ والله لا أبقيت منهم بقية!». فاجتمعوا وقرروا قتله وقالوا! «بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها». ودخل بيبرس البندقداري وفارس الدين إقطاعي وغيرهما من أمراء المماليك البحرية إلى البرج وهم شاهرون سيوفهم، ففر توران شاه إلى أعلى البرج، وأغلق بابه، فأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب فألقى توران شاه نفسه من أعلى البرج، وهو يصيح مستنجداً «ما أريد ملكاً، دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين، أما فيكم من يصطنعني ويجيرني»[2]. فلم يجبه أحد وأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح إلى احدى سفنه الراسية ليعتصم بها ولكن سرعان ما لحق به إقطاعي وقتله، وتركت جثته على شاطىء النيل ثلاثة أيام دون أن يتجاسر أحد على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن، بعد أن حكم واحداً وستين يوماً[3].

وبموت توران شاه انتهت الدولة الأيوبية بعد أن استمرت في حكمها احدى وثمانين سنة ليحل مكانها في حكم مصر والشام دولة المماليك بشقيها البحري والجركسي منذ عام 648هـ/ 1250م حتى انتهت على يد العثمانيين الأتراك سنة 923هـ/ 1517م بعد أن عمرت حوالي قرنين وثلاثة أرباع القرن.

---

1 ـ أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج 3، ص 190.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 1، ص 371.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ص 185.

الفصل الثامن

الحياة الدينية والعلمية في العصر الأيوبي

أولاً ـ الحياة الدينية في العصر الأيوبي

عمدت الدولة الأيوبية إلى القضاء على المذهب الشيعي ومحو آثاره وتدعيم المذهب السني في كافة أنحاء البلاد، ولا غرابة في ذلك بعد أن بلغ الصراع الديني في الإسلام ذروته في تلك الفترة. فالسياسة التعليمية التي لجأ إليها الفاطميون لنشر الدعوة لمذهبهم في مصر وما رافقها من تعذيب وتفكيك قابلها السلاجقة في الشام بتعصبهم للمذهب السني وأنشأوا المدارس لمكافحة المذهب الشيعي[1].

وسار نور الدين زنكي على هذا النهج في الشام، وليس أدل على ذلك من أن القائد العسكري أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي عندما حاول إقناع سيده نور الدين بمهاجمة مصر قال له: «إن محاربة مصر هي جهاد ديني وبفتحنا إياها إنما نحارب عدوين للإسلام، أحدهما الخلافة الفاطمية الشيعية وثانيهما الصليبيون، وبذلك ينقذ الإسلام وهذا البلد من الفوضى السياسية وغيرها»[2].

لذلك لم تكد تتم لنور الدين السيطرة على مصر حتى تعجل صلاح الدين بمحو الخلافة الفاطمية وتوحيد البلاد تحت راية الخليفة العباسي السني[3].

---

1 ـ ياقوت الحموي: معجم الأدباء ـ ج 5، ص 415.

2 ـ حسن حبشي: نور الدين والصليبيون ص 109.

3 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 343.

وقد اخذ صلاح الدين منذ أن ولي وزارة مصر للخليفة العاضد سنة 564هـ/ 1169م يعمل على نشر المذهب السني بطرق سلمية، فأنشأ عدداً من المدارس ـ نتكلم عنها لاحقاً ـ دون أن يمارس سياسة العنف والقتل على من كان يعتنق المذهب الشيعي باستثناء عمارة ثورة عمارة اليمني الذين اتخذوا الشيعة ستاراً لهم واتصلوا بالصليبيين وملك صقلية لتنفيذ مؤامراتهم بالقضاء على الدولة الأيوبية. لأن احترام عقائد الناس على اختلاف مللهم، كانت نزعة أصيلة في نفسه فعرفت الطوائف المختلفة في عهده أقصى الحرية، وأحبه الأقباط محبة شديدة حتى أنهم وضعوا صورته في كنائسهم ويقول أحمد زكي باشا أن الشاعر عبد المنعم الأندلسي زار مصر في ذلك الحين فلهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين[1].

وثمة ظاهرة دينية بلغت غايتها في العصر الأيوبي، هي ظاهرة التصوف والإكثار من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخوانق.

ويقول المقريزي أن صلاح الدين أنشأ أول خانقاه بمصر، هي الخانقاه الصلاحية سنة 569هـ/ 1173م، وكانت في الأصل داراً تعرف في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، وولى عليها شيخاً عرف بشيخ الشيوخ، أوقف عليها الأوقاف من عدة جهات للإنفاق على من فيها من فقراء الصوفية القادمين من خارج مصر. كما خصص لهم في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماماً بجوارهم، وقد اشتهر سكان هذه الخانقاه بالعلم والصلاة، وجرت العادة يوم الجمعة أن يأتي الناس من مصر إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون من دارهم إلى جامع الحاكم في موكب جميل ليؤدوا فريضة الصلاة، كما تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم[2].

---

1 ـ مجلة رعمسيس الثاني: السنة الخامسة، العدد التاسع.

2 ـ المقريزي: المواعظ والاعتبار ج 4، ص 273.

وأعجب الرحالة ابن جبير إعجاباً شديداً بمكانة الصوفية في العصر الأيوبي فقال: «إن الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خاطرهم لعبادته من الفكر في أسباب المعايش وأسكنهم في قصور تذكرهم بقصور الجنان» ويسهب ابن جبير في ذكر حسنات العصر الأيوبي فيقول: «إن الغريب المحتاج إذا كان على طريقة الخير، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه»[3].

إن سياسة صلاح الدين وخلفائه مع المتصوفين ساهمت في تشجيع كثرة الزوايا والربط اللتين اجتذبتا حولها الأتباع والمريدين، اللذين امتازوا بحسن المعاملة، والمحافظة على الأوقاف، وتوقوا ما يفسد الأعمال، ويقول المقريزي: وكان من شرط سكان الربط «قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب اكتفاء بما يجري عليهم من الأرزاق، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة، ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً»[4]. والحق يقال أن كثرة الإقبال على التصوف في العصر الأيوبي بعد ازدياد عدد الوافدين على مصر من زعماء المتصوفة ومشايخهم ـ وبخاصة من المغرب العربي ـ الذين أشاعوا حياة الزهد والتقشف، ترك أثراً خطيراً في المجتمع المصري نتيجة زيادة العاطلين عن العمل والذي انعكس سلباً على الحياة الاقتصادية في الدولة الأيوبية.

---

3 ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 248.

4 ـ المصدر نفسه ص 278.

5 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 427.

ثانياً ـ الحياة العلمية والفكرية

على الرغم من أن السلاطين الأيوبيين كان همهم الجهاد والكفاح ضد الصليبيين إلا أنهم اشتهروا بحبهم للعلم والعلماء فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم، ليستمع إليهم ويسألهم في كل أمر، ثم يلتزم مشورتهم ويتقيد به[1]. وكان عدد العلماء والأدباء في مجلسه أكثر من عدد القواد ورؤساء الأجناد[2]. فلا غرو بعد ذلك إذا وصف أحد المؤرخين صلاح الدين بأنه كان نصيراً للعلم[3].

وكما يقال عن صلاح الدين يقال أيضاً عن أفراد أسرته، فابنه العزيز عثمان الذي خلفه في السلطنة قال عنه ابن خلكان أنه «سمع الحديث من الحافظ السلفي والفقيه أبي طاهر بن عوف الزهري في بلاد الشام، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم[4]. أما العادل أخو صلاح الدين فكان يميل إلى العلم والعلماء ونخص بالذكر منهم الفيلسوف فخر الدين الرازي الذي صنف له بعض كتبه وأرسلها له من خراسان. ويذكر المقريزي أن السلطان الكامل كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف بسماع الحديث النبوي، وكان يناظر العلماء في مسائل غريبة من فقه ونحو فمن أجاب نال خطوة ورفعة، وكان يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم، فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه[5].

---

1 ـ السبكي: طبقات الشافعية ج 4 ص 329.
2 ـ الدكتور جمال الدين الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص 93 ـ 94.
3 ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ج 5، ص 232.
4 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 1 ص 315.
5 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 258.

والسؤال الذي يطرح نفسه بما أن الأيوبيين كانوا أكراداً بأصلهم ونسبهم لماذا كان اهتمامهم بالتراث العربي، يقول الدكتور أحمد مختار العبادي: «الواقع أن الأيوبيين كانوا عرباً بثقافتهم وتربيتهم ونشأتهم، فقد نشأوا نشأة عربية إسلامية وامتزجوا بها ولهذا شغفوا حباً باللغة وشمولهم بعطفهم وكرمهم وخلعهم فاكتظت مجالسهم بأهل العلم والأدب»[1].

ولا غرابة بعد ذلك كله إذا نبغ من بني أيوب أعلام في مختلف ميادين المعرفة فكان الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق المتوفي سنة 624هـ/ 1227م راغباً في الأدب وأهله حتى شرط لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة[2]. وبهرام شاه فرخشاه صاحب بعلبك المتوفي سنة 628هـ/ 1231م كان شاعراً وأديباً، والمؤرخ الشهير أبو الفداء، وهو اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه، المتوفي سنة 732هـ/ 1231م[3].

وإلى جانب الملوك والأمراء هناك طبقة الوزراء والكتاب الذين ساهموا مساهمة فعالة في الحياة العلمية في ذلك العصر. نذكر منهم القاضي الفاضل أبو علي محي الدين اللخمي المتوفي سنة 596هـ/ 1200م وزير صلاح الدين وصاحب الطريقة الفاضلة في الإنشاء، وكتب عدداً ضخماً من الرسائل[4]. وعماد الدين الأصفهاني المتوفي سنة 597هـ/ 1200م كاتب ومؤرخ عينه صلاح الدين نائباً عن القاضي الفاضل، ولازم السلطان في سلمه وحربه وله مؤلفات أدبية اشتهر منها كتاب «خريدة القصر وخريدة العصر»، ومؤلفات تاريخية فيها كتاباً بعنوان «الفتح القسي في الفتح القدسي»[5]. والأمير أسامة بن منقذ أحد أمراء

---

1 ـ الدكتور أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 94.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 149.

3 ـ المصدر نفسه ج 6 ص 148.

4 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 242.

5 ـ المصدر نفسه ج 2، ص 242.

بني منقذ أصحاب حصن شيرز على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشمال من حماه على ضفة العاصي الغربية المتوفي سنة 583هـ 1187م وله كتاب الاعتبار ويتضمن صوراً مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة شاهدها وعاينها أسامة بنفسه، وبهاء الدين أبو المحاسن المعروف بابن شداد المتوفي سنة 632هـ/ 1234م صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية روى فيها سيرة صلاح الدين[1]. والأديب ضياء الدين بن الأثير المتوفي سنة 628هـ/ 1230م وزير الملك الأفضل بن صلاح الدين ألف كتباً عديدة في البلاغة والبيان[2]. والمؤرخ عز الدين بن الأثير المتوفي سنة 630هـ/ 1232م صاحب كتاب الكامل في التاريخ، وجمال الدين القفطي المتوفي سنة 646هـ/ 1238م صاحب كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء. والمؤرخ الدمشقي شهاب الدين أبو شامة المتوفي سنة 665هـ/ 1267م صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية وما وقع من الحروب الصليبية، ثم القاضي شمس الدين ابن خلكان المتوفي سنة 681هـ/ 1285م صاحب كتاب وفيات الأعيان والمؤرخ الحموي جمال الدين بن واصل المتوفي سنة 696هـ/ 1300م صاحب كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. وابن أبي أصيبعة المتوفي سنة 668هـ/ 1270م صاحب كتاب عيون الأبناء في طبقات الأطباء وأبي صالح الأرمني وابن عساكر الدمشقي وغيرهما[3].

وشهد العصر الأيوبي ازدهاراً في علم اللغة منهم محمد بن بري المتوفي سنة 581هـ/ 1185م، وأبو الفتح البلطي المتوفي سنة 596هـ/ 1200م وابن عبد المعطي الزواوي المتوفي سنة 628هـ/ 1231م وابن الحاجب المتوفي سنة

---

1 ـ عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ومنظر السلطان: العماد الأصفهاني «مقتطفات».

2 ـ دائرة المعارف الإسلامية ج 1 ص 210.

3 ـ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج 3، ص 55 ـ 56.

646هـ/ 1248م[1].

أما الشعر في العصر الأيوبي فقد طغى عليه طابع الجهاد والكفاح وأصبحت أغلب القصائد الشعرية في جميع أنحاء الشرق العربي تشيد بالانتصارات وأعمال البطولة. وكان صلاح الدين يتذوق الشعر ويردد بعضه في مجالسه ويميز الجيد من الرديء منه[2] ومن أشهر شعراء هذا العصر الشاعر المصري ابن سينا الملك المتوفي سنة 608هـ/ 1211م صاحب كتاب دار الطرز[3]. وابن شمس الخلافة المتوفي سنة 632هـ/ 1235م. وكمال الدين ابن النبيه المصري المتوفي سنة 619هـ/ 1221م[4]. والشاعر الصوفي عمر بن الفارض المصري المتوفي سنة 632هـ/ 1235م، والشاعر جمال الدين يحي ابن مطروح المتوفي سنة 649هـ/ 1251م وهو من صعيد مصر، وله قصيدة مشهورة يهاجم فيها الفرنسيين ولويس التاسع. والشاعر بهاء الدين زهير المتوفي سنة 656هـ/ 1258م الذي عاش في خدمة الملك الصالح أيوب[5].

ولما كان التعليم يرتبط بالمكتبات فقد أظهر سلاطين بني أيوب عناية كبيرة في اقتناء الكتب شملت المنطق والفلسفة والهندسة والفلك والموسيقى والطب بالإضافة إلى الكتب الدينية، فالملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين صاحب اليمن المتوفي سنة 721هـ/ 1321م الذي كان مغرماً باقتناء الكتب حتى اشتملت مكتبته على آلاف الكتب. والمكتبة التي عني بها السلطان الكامل بالقلعة، وكانت في الأصل تؤلف مكتبة القاضي الفاضل ثم عني بها ابنه الأشرف أحمد، حتى أمر

---

1 ـ ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج 2 ص 56.
2 ـ الدكتور أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 95.
3 ـ ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج 19، ص 256 والسيوطي: حسن المحاضرة ج 1 ص 337.
4 ـ ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج 19، ص 256. والسيوطي، حسن المحاضرة ج 1، ص 337.
5 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 1، ص 194.

السلطان الكامل بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة في سنة 626هـ/ 229م لتصبح نواة مكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد[1].

وإذا كان اهتمام سلاطين بني أيوب في العلم قد بلغ هذا الشأن، فلا نتعجب بعد ذلك لكثرة المدارس التي أسسوها، وأصبحت مراكز يشع منها نور العلم والمعرفة.

وقد ازداد عدد المدارس زمن الأيوبيين زيادة ملحوظة، حتى أصبح بالقاهرة حوالي ثلاث عشرة مدرسة سنة 600هـ/ 1203م[2]. والواقع أن الأيوبيين لم يبتكروا نظام المدارس، إنما يعود الفضل في ذلك إلى السلاجقة الذين استحدثوا هذا النظام لنشر المذهب السني ومكافحة المذهب الشيعي وتهيئة عقول المسلمين لفكرة الجهاد المقدس وكان نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه أول من أسس مدرسة في بغداد[3].

ويذهب المؤرخون إلى القول أن صلاح الدين إنما قصد بإنشاء المدارس محاربة المذهب الشيعي ونشر المذهب السني، ونحن لا ننكر أن في هذا القول كثيراً من الحق، ولكننا لا نرى فيه ما يقلل من اهمية هذا العمل العظيم الذي قام به، فصلاح الدين الذي سعى إلى توحيد بلاد العرب سياسياً استطاع بتوسعه في إنشاء المدارس التي ضمت طلاباً من كافة أرجاء العالم العربي توحيد هذه الأمة علمياً وفكرياً في وقت هي أحوج ما تكون إلى هذه الوحدة.

ولعل الصورة التي أعطاها ابن جبير عن مدينة دمشق وكثرة مرافق الغرباء فيها يؤكد رغبة صلاح الدين في جمع شمل أبناء هذه الأمة في ظل حياة

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 200.

2 ـ الدكتور السيد الباز العريني: الأيوبيون ج 1 ص 221.

3 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 1 ص 396. وانظر حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص 222.

فكرية راقية فيقول: «ومرافق الغرباء بهذه البلدة «دمشق» أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً... فالأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال على أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها... فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فأدخل أيها المجتهد بسلام...»[1]. أما عن مصر فقال ابن جبير عندما زارها في أواخر سنة 578هـ/ 1182م «ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد...»[2].

المدارس التي أنشأها الأيوبيون

أولاً ـ المدرسة الناصرية

في عهد الخليفة العاضد سنة 566هـ/ 1171م أمر صلاح الدين بهدم دار المعونة المجاورة لجامع عمرو بن العاص، والتي كان يحبس فيها من يراد حبسه وأنشأ مكانها أول مدرسة للشافعية بمصر عرفت بالمدرسة الناصرية، وقد وقف عليها صلاح الدين الصاغة وقرية، ومن أشهر المدرسين فيها ابن زين التجار والشريف قاضي العسكر.

ثانياً ـ المدرسة المالكية

بنى صلاح الدين هذه المدرسة أيضاً بجوار جامع عمرو بن العاص لتدريس الفقه المالكي، وأوقف عليها قيسارية الوارقين وما تحتويه من المباني بمصر، وضيعة بالفيوم، وكانت مرتبات الاساتذة وجرايات الطلبة فيها تدفع

---

1 ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 258.

2 ـ المصدر نفسه ص 11 ـ 12 ـ 15.

قمحاً، ولذا اشتهرت باسم القمحية.

ثالثاً ـ المدرسة الصلاحية

أنشأ صلاح الدين هذه المدرسة بجوار قبة الإمام الشافعي، لتدريس المذهب الشافعي، ويقوم مكانها اليوم جامع الإمام الشافعي.

رابعاً ـ المدرسة السيوفية

بناها صلاح الدين مكان دار الوزير الفاطمي عباس لكي يدرس فيها مذهب الإمام أبي حنيفة، وقد عرفت باسم المدرسة السيوفية نسبة إلى وجود سوق السيوفيين على بابها.

خامساً ـ المدرسة الحسينية

بنى صلاح الدين هذه المدرسة بجوار مشهد الحسين، وكانت على نظام الصلاحية[1].

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين وأمراؤهم صلاح الدين في بناء المدارس سواء في مصر أو الشام ومن أهم هذه المدارس:

ـ المدرسة الفاضلية: بناها القاضي الفاضل أبو علي محي الدين عبد الرحيم سنة 580هـ/ 1174م لتدريس مبادىء المذهبين الشافعي والمالكي[2].

ـ المدرسة التقوية: بناها الأمير تقي الدين عمر للشافعية بمصر وعرفت بمنازل العز.

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 364، والمواعظ، ج 4، ص 193.

2 ـ أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2، ص 642 ـ 643.

ـ المدرسة الكاملية: بناها السلطان الكامل بن محمد العادل في القاهرة بين القصرين لتكون خاصة بعلم الحديث، وبنى داراً عظيمة أوقفها على المشتغلين بالحديث النبوي ومن بعدهم على فقهاء الشافعية، من أساتذتها الشيخ العالم الأندلسي أبو الخطاب عمر بن دحية البلنسي المتوفي سنة 632هـ/ 1234م صاحب كتاب المطرب في أشعار المغرب[1].

ـ المدرسة الصالحية: بناها الملك الصالح أيوب سنة 641هـ/ 1243م بخط بين القصرين، وكانت على غرار نظام المستنصرية ببغداد تجمع بين مذاهب السنة الأربعة، ولم يبق من آثار هذه المدرسة سوى الوجهة الغربية، وهي حافلة بالنقوش والكتابات. وبجوار هذه المدرسة توجد تربة الملك الصالح أيوب التي بنتها له زوجته شجرة الدر[2].

ـ المدرسة العادلية: بناها الملك العادل، أخو صلاح الدين، بدمشق، ودفن فيها أيضاً وهي من أعظم مدارس الشافعية في دمشق، درس فيها مجموعة من العلماء نذكر منهم ابن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان وهي الآن مقر المجمع العلمي العربي بدمشق.

ـ المدرسة الشامية الجوانية: أنشأتها ست الشام بنت نجم الدين الأيوبي لتدريس المذهب الشافعي، مقابل المارستان النوري بدمشق، وأوقفت عليها بعض الضياع، وكان أصل المدرسة داراً للواقفة، واشترطت أن يصير بعد انقراض الأسرة وقف الدار لتكون مدرسة للفقهاء[3].

ـ المدرسة العادلية الصغرى بدمشق كانت في الأصل داراً لإحدى أميرات

---

1 ـ أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2 ص 655 وأحمد شبلي: تاريخ التربية الإسلامية ص 102.

2 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 2 ص 157 وانظر المقريزي: خطط ج 2 ص 375.

3 ـ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ص 302.

الأيوبيين، اشترطت صاحبتها أن تكون بعد وفاتها مدرسة وموضعاً للسكنى[1].

وهناك بدمشق أيضاً مدرسة المعظم عيسى بن العادل والمدرسة العزيزية التي بناها الملك العزيز محمد بجوار والده صلاح الدين بالكلاسة شمالي الجامع الأموي بدمشق.

ومن المظاهر الهامة ما نلاحظه بمصر من قلة المدارس الحنابلة وكثرة المدارس التي يجري بها تدريس المذاهب الأربعة على عكس ما كان جارياً بدمشق. والواقع أن المدارس في العصر الأيوبي كانت أشبه بجامعات، فبعد أن كانت تدرس فيها العلوم الدينية أصبحت مع الأيام تدرس العلوم اللغوية التي اشتملت على النحو واللغة والبيان والأدب بالاضافة إلى الفلسفة والعلوم الطبيعية التي تعتمد على الإدراك الحسي والاستنتاج[2].

ولم يكن يعين بالمدرسة أول الأمر إلا مدرس واحد يختار من مشايخ علماء عصره، ثم صار يعين أكثر من مدرس في المدراس الكبيرة، ففي المدرسة المالكية بالقاهرة والتي عرفت بالقمحية، عين صلاح الدين أربعة مدرسين وجعل كلاً منهم يقوم بالتدريس لعشرين طالباً[3].

ويساعد المدرس عادة معيد، وهو أقل مرتبة من المدرس، وأعظم درجة من عامة الطلبة، وظيفته إعادة الدرس الذي ألقاه عليهم المدرس وقل أن خلت مدرسة من معيد في جميع مدارس العصر الأيوبي، ففي المدرسة الناصرية عين صلاح الدين معيدين، كما عين الصالح أيوب معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الأربعة في المدرسة الصالحية[4]. وفي بعض الأحيان يقوم المعيدون بالتدريس دون وجود مدرس. ويذكر السيوطي أن المدرسة الصالحية خلت من

---

1 ـ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ص 368.

2 ـ المقريزي: خطط ج 2 ص 364.

3 ـ المقريزي: المواعظ ج 4 ص 193.

4 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 2 ص 157. وانظر المقريزي: المواعظ ص 374.

مدرس مدة ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين[1].

أما طريقة التدريس فاعتمدت عادة في ذلك العصر على الإلقاء والتلقين، وبالاضافة إلى المدارس ذات التعليم العالي، وجدت في العصر الأيوبي كتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم. ويقول ابن جبير: «من مآثر صلاح الدين ما أمر ببنائه من الكتاتيب لتعليم أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وأجرى عليهم الجراية الكافية لهم[2]». أما أجور المدرسين ومرتباتهم فكانت من حاصلات الأوقاف العينية التي أوقفها السلاطين الأيوبيين، والتي لم تقتصر على أراضي زراعية، بل تعدتها إلى مرافق عديدة.

ويقول المقريزي: «إن المدرس في المدرسة الصلاحية كان يتقاضى أربعين ديناراً في الشهر، ثم اضطربت الأمور فصار المدرس لا يتقاضى إلا ربع المعلوم»[3] ولعل السبب في ذلك يعود إلى انخفاض مقدار ما يغله الوقف المدرسة، لأن إنتاج الأرض يرتبط بحالة الفيضان والآفات التي تصيب النبات.

والواقع أن بعض أصحاب الوقف كان يرفق بحجة الوقف بياناً يحدد فيه بعض الشروط والتعيين والتوزيع، مثلما فعلت صاحبة المدرسة العادلية الصغرى بدمشق، حيث اشترطت أن يكون للمدرسة مدرس ومعيد وإمام ومؤذن وبواب، وقيم، وعشرون فقيهاً...[4]. كما اشترطت ست الشام بنت نجم الدين أيوب على المدرسة التي أنشأتها بدمشق أن يوزع إنتاج أوقافها، على «المدرس الشافعي» وعلى ولده ونسله، وما يبقى يصرف على مصالح المدرسة، وعلى الإمام، والمؤذن، والقيم المعد لكنسها ورشها وفرشها[5].

---

1 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 2 ص 194.

2 ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 219.

3 ـ المقريزي: المواعظ ج 2، ص 125.

4 ـ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ص 368.

5 ـ المصدر نفسه ص 302 و 442.

الفصل التاسع

الأحوال الاقتصادية

أولاً ـ الزراعة والإقطاع

اهتم الأيوبيون بالزراعة، باعتبارها القاعدة الأساسية في اقتصاد مصر ولما كان استخدام الري الدائم يعتمد فقط على الأراضي المحاذية لنهر النيل فقد اعتمد المزارعون في الدولة الأيوبية طريقة من سبقهم من الفاطميين والأخشيديين والطولونيين... وغيرهم على ري الحياض، لكن هذه الطريقة كانت مرهونة بمعدل منسوب مياه الفيضان، فإذا جاء ارتفاع المياه طبيعياً استبشر المصريون بوفرة المحصول، أما إذا إزداد ارتفاع المياه عن حده كان ذلك نذيراً بحلول كارثة، وفي حال انخفاض المياه، يعني ذلك ضعف المحصول وما يصحبه من أزمات اقتصادية، كما حدث في عهد السلطان العادل الأيوبي سنتي (597 ـ 598هـ) (1200 ـ 1201م) حيث حلت بالبلاد المصرية كارثة مخيفة من الأوبئة والمجاعات والسكان. افاض المؤرخون في وصف أهوالها[1].

يضاف إلى ذلك المشاكل التي كان يعاني منها الفلاح نتيجة النظام قطاعي الذي كان سائداً في مصر منذ الفتح الإسلامي[2]. فالحكومة لم تكن تتصل مباشرة

---

1 ـ المقريزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة ص 29 ـ 32، والنجوم الزاهرة ج 6 ص 173. وانظر عبد اللطيف البغدادي: كتاب الإفادة والاعتبار ص 62 ـ 79.

2 ـ المقريزي: خطط ج 2 ص 97.

بالفلاحين الذين يدفعون الضرائب، بل كانت توزع الأراضي على من يبدي الاستعداد لإستغلالها مقابل خراج مقرر لمدة أربع سنوات، وظلت الأمور جارية على هذا النحو طوال فترة العصور الوسطى، مع تعديل طفيف بين دولة وأخرى على حساب الفلاح ولصالح المقطع أو الملتزم الذي كان يعمل جاهداً على الاثراء وجمع الأموال الضخمة، ولا يتردد في الضغط على الأهالي وإرهاقهم بالضرائب والالتزامات والرسوم حتى يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحفظ ما زاد لنفسه[1].

ومن الضرائب التي فرضت على الفلاح في ذلك العصر إلى جانب ما هو مقرر على الأرض من القطائع، ضرائب للانفاق منها على الاقطاع أو بعض الوظائف، مثل رسم شد الأحباس، وشد المعين ما يؤدي إلى المشرف على جباية خراج العين، ورسم الجراريف، ما ينفق على اصلاح الجسور والقنوات فضلاً عن الزكاة.

ومن النظم الاقطاعية التي عرفها النظام الاقتصادي زمن الأيوبيين الاقطاع الحربي، والواقع أن الأيوبيين عندما طبقوا هذا النظام لم يكونوا مبتكرين وإنما كانوا محاكين لما شاهدوه أو سمعوا به في الدولة السلجوقية أو دول الغرب. والخلاصة أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم في حاجة إلى محاربين وفرسان مزودين بالسلاح والخيول، مما يتطلب أموالاً ونفقات لا تتحملها مواردهم. فيعمدون إلى توزيع الأراضي في صورة إقطاعات على الأمراء والأجناد مقابل ما يؤدونه من واجبات حربية[2]. وهكذا كان على المقطع أن يقتني العدد المقرر عليه من الجند ويخصص جزءاً من إقطاعه لكل منهم أو يعطي مرتباً معيناً بدلاً عن ذلك[3].

---

1 ـ أبو يوسف: كتاب الخراج ص 61 ـ 70 ـ 71.

2 ـ الدكتور سعيد عاشور: مصر ولشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص 138.

3 ـ حسن محمد ربيع: النظم المالية ص 34.

ولم يكن اهتمام صلاح الدين بتحسين أحوال البلاد الزراعية من حيث عمارة الأرض والعناية بها أقل من اهتمامه بالمرافق الأخرى، فلم يكد يوطد أقدامه في مصر حتى سعى إلى تطهير الترع وتقوية الجسور وإنشاء القناطر، لتنظيم الانتفاع بماء النيل، وتجنباً لغرق الأراضي الزراعية في وقت الفيضان[1].

ولم يقتصر الاهتمام على الزراعة في مصر دون سواها من الولايات ففي بلاد الشام ازدهرت الزراعة ونمت في هذا العصر نتيجة للقنوات التي حفرت فروت مساحات شاسعة من الأراضي التي لم تكن تصلها مياه من قبل، وازداد عدد النواعير زيادة كبيرة على عهد الأيوبيين[2]. وعمل صلاح الدين في المحافظة على النظام الإقطاعي، فاعاد النظر في توزيع الاقطاع، حيث قام في سنة 577هـ/ 1181م وفي سنة 581هـ/ 1185م «بإقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد»[3]. وعندما قسم صلاح الدين دولته بين ابنائه وأهل بيته: جعل التقسيم على أسس إقطاعية. وسار على خطاه أخيه السلطان العادل، كما أقطع الصالح ايوب أهل بيته ومماليكه الاقطاعات الوافرة[4].

وقد حرص الأيوبيون على حماية الفلاحين من ظلم الإقطاعيين وتعسفهم فلم يتركوا للمقطع تقدير الخراج، بل حددوا له مقداره، وأمروه باتباع العدل، والأمر بالمعروف، والمحافظة على الاقطاع وعمارته وحسن إدارته، والاهتمام بالقضاء، وعدم أخذ الرشوة، فساهمت هذه الاجراءات بحماية الفلاح من ناحية ووفرة الانتاج الزراعي للاقطاعيين، وزيادة خراج مصر.

---

3 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 101.

2 - الدكتور احمد العبادي: في تاريخ الايوبيين والمماليك ص 201.

3ـ ابو شامى: كتاب الروضتين ج 2، ص 62.

4 ـ المقريزي: المواعظ، ج1 ص 101 وأنظر القلقشندي: صبح الأعشى ج 11 ص 33 وما بعدها.

ثانياً ـ المحاصيل الزراعية

تنوعت المحاصيل الزراعية في مصر في العصر الأيوبي، حسب طبيعة الأراضي التي انقسمت، إلى فئات مختلفة.

أ ـ أراضي اشتهرت بجودة تربتها وسهولة ريها وتعتبر أغلى الأرض قيمة وأوفرها سعراً، وهذه تشمل أنحاء الدلتا والوجه القبلي وتصلح لزراعة القمح والكتان، وهما يؤلفان المحصول الرئيسي في البلاد.

ب ـ أراضي تحتاج إلى قدر من الإصلاح، وهي تعتمد على ري الحياض وتستغل مرة واحدة في السنة وتعرف زراعتها بالمحاصيل الشتوية وأهمها القمح والشعير والفول والحمص.

ج ـ أراضي تعتمد على الري الدائم وهي تنقسم إلى قسمين: قسم يسهل جر المياه إليه، وتزرع ثلاث محاصيل في السنة، ومن أشهر انتاجها قصب السكر والبطيخ والقطن واللوبيا... وقسم يصل إليه الماء بالسواقي وتعرف زراعتها بالمحاصيل الصيفية ولكنها لم تكن لتلبي حاجات السكان[1].

كذلك عرفت مصر في العصر الأيوبي زراعة الأرض على نطاق واسع في منطقة الفيوم حيث توافرت مياه الري، كما اشتهرت زراعة الذرة في الوجه القبلي.

أما زراعة قصب السكر فقد توسع الأيوبيون في زراعتها حتى شملت جميع الأراضي المصرية، وليس أدل على ذلك من انتشار معاصره بسائر الأقاليم[2].

كما اشتهرت مصر في العصر الأيوبي بانتاج أنواع مختلفة من الفواكه مثل الكرمة والتين والتفاح والتوت واللوز والمشمش. أما شجر النخيل فقد عمت زراعته معظم المناطق المصرية[3].

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 1 ص 101 ـ 102.

2 ـ المصدر نفسه ج 1 ص 116.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 74 ـ 75 وانظر ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 298 ـ 334.

ومن المعروف أن الوجه البحري أكثر خراجه غلال من مختلف أنواع الحبوب، أما الوجه البحري فغالب خراج بلاده دراهم[1].

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالزراعة، كانت البلاد تعيش حياة غير مستقرة بسبب حصول أزمات اقتصادية نتيجة انخفاض مياه النيل.

ثالثاً ـ الصناعة

اقتصرت الصناعة في العصر الأيوبي على إنتاج البلاد من المواد الخام، والتي كانت في أغلبها زراعية، أما ما عدا ذلك من المواد المستوردة فكانت قليلة كالمصنوعات الحديدية في تنيس، ودلاص، والمصنوعات الحريرية التي كانت تعتمد على الحرير الشامي الخام[2].

ويعتبر النسيج من أهم صناعات مصر في ذلك العصر، حتى أن أنواعاً معينة أحرزت شهرة عالمية مثل قماش الفستان، وقد احتلت المنسوجات الكتانية في تلك المرحلة مكانة مرموقة بسبب وفرة الكتان، وكانت تنيس تصدر من الأقمشة الكتانية إلى العراق سنوياً ما يتراوح قيمته ثلاثين مليون دينار[3]. يضاف إلى ذلك ازدهار المنسوجات الحريرية الموشاة بالذهب، كما اشتهرت صناعة الأقمشة الصوفية وبلغت درجة عالية من الرقي، حيث عرفت باسم المصري[4]. أما القطن كان معروفاً في العصر الأيوبي لكنه بقي أقل جودة من الصناعة الكتانية، وفي ذلك يقول الثعالبي: «إن القطن لخراسان والكتان لمصر»[5].

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 85 ـ 86.

2 ـ مرزوق: الزخرفة المنسوجية ص 21 ـ 32.

3 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 226 ـ 230.

4 ـ مرزوق: الزخرفة المنسوجية ص 33 ـ 34.

5 ـ متز: الحضارة الاسلامية ج 2 ص 300 ـ 301.

وكانت المصانع النسيجية تنقسم إلى قسمين: مصانع حكومية منتشرة ما بين الوجه البحري والوجه القبلي وفي مصر الوسطى. ومصانع خاصة تم توزيعها في الطوابق العليا من العمائر الضخمة التي شيدت على النيل خارج دمياط[1].

وبالإضافة إلى صناعة المنسوجات اشتهرت مصر باستخراج الزيوت من السمسم والكتان والقنب والخس، كما عرفت صناعة قصب السكر ازدهاراً خاصاً في ذلك العصر[2].

ومن الصناعات التي عرفتها مصر في العصر الأيوبي وتم احتكارها حكومياً، صناعة الزمرد والشب والقطرون[3].

ولا يفوتنا التحدث عن التقدم الذي أحرزته الصناعة الخشبية في العصر الأيوبي فبالإضافة إلى صناعة بناء السفن ـ سنتكلم عنه لاحقاً ـ ازدهرت صناعة الحفر على الخشب، وليس أدل على ذلك من رائعة قبة الإمام الشافعي حيث التابوت المصنوع من خشب الساج الهندي والمزخرف بنقوش هندسية في غاية الاتقان، ومحراب ضريح الملك نجم الدين أيوب الذي كسيت مسطحاته بلوحات من الرخام الفريدة في ألوانها وزخرفتها[4].

وبالاضافة إلى الأخشاب المحلية من الجميز والسرو والنبق استورد المصريون الأخشاب المتينة والصلبة من الخارج، فجلبوا خشب الأرز والصنوبر من بلاد الشام (لبنان) ومن بلاد الهند وشبه جزيرة الملايو[5]. ومن الصناعات التي راجت في العصر الأيوبي صناعة الورق وكانت أهم مراكزها طبرية ودمشق وطرابلس،

---

1 ـ المقدسي: أحسن التقاسيم ص 313، وانظر ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 330.

2 ـ المقريزي: خطط ج 1 ص 102 وانظر النويري: نهاية الأرب ج 8 ص 254، 271.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1 ص 100 والمقريزي: خطط ج 2 ص 194.

4 ـ زكي محمد حسن: الفنون الإسلام ص 70.

5 ـ المصدر نفسه ص 198. وانظر البراوي: حالة مصر الاقتصادية ص 171.

كما اشتهرت الفسطاط بانتاج أجود أنواع الورق المصنوع من الكتان الممزوج بالقطن[1]. كذلك ازدهرت صناعة الزجاج حتى بلغت الغاية في العصر الذهبي والفضل في ذلك إنما يرجع إلى الصناع السوريين وخاصة في حلب ودمشق، وكانت الفسطاط من أكبر مراكز صناعة الزجاج، وقد تم تصدير قسم كبير من هذه الصناعات إلى بلاد الشرق والغرب، أما الخزف فقد أخذت صناعته تضمحل شيئاً فشيئاً في هذا العصر[2].

وبرعت مصر في العصر الأيوبي في صناعة المعادن والفسيفساء. وإن كان معظم أرباب هذه الصناعة هاجروا من الموصل إلى مصر والشام في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، ويوجد في متحف اللوفر إناءان من النحاس المغلف بالفضة وزخرفتها رسوم آدمية وحيوانية ونباتية، وعليها كتابة تحمل اسم السلطان الملك الناصر يوسف[3]. واهتم السلاطين الأيوبيون بتوفير المناخ الملائم للصناع، فانتظم أرباب الحرف في نقابات، تولى كلاً منها شيخ. وفرضت على المحتسب، النظر في الأسواق والطراقات، فيراعي ما ينبغي أن تكون عليه الأسواق من الارتفاع والاتساع، وأن يكون بجانب السوق إفريزان يمشي عليها الناس في فصل الشتاء، وأن يكون لأهل كل صنعة سوق يختص بهم، فمن كانت صناعته تحتاج إلى استخدام النار كالنجار والطباخ والحداد، فيحسن أن تبعد حوانيتهم عن حوانيت العطارين وباعة الملابس ومحلات المواد الغذائية... كما يلزم المحتسب بمنع أساليب الغش، ومعاقبة من يرتكب هذه المخالفة كي تتعدل الأسعار وتتوافر المواد الغذائية في الأسواق، وتحد من جشع الطامعين

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 1 ص 367.

2 ـ سيماند: الفنون الإسلامية ص 238 .

3 ـ زكي محمد حسن الفنون الإسلامية ص 549 ـ 550.

والمستغلين[1].

رابعاً ـ التجارة

نشطت التجارة في العصر الأيوبي على الصعيدين الداخلي والخارجي، حقيقة أن سيطرة الصليبيين على بعض النقاط الاستراتيجية ، حصن الكرك والشوبك ـ أعاق التبادل التجاري بين مصر والشام والحجاز، وأصبحت دمشق في وضع خطير، مما اضطر إلى دفع الرسوم الجمركية على القوافل التجارية القادمة إليها والخارجة منها، ويتضح ذلك من المرسوم الذي ما زال منقوشاً على أحد أبواب دمشق. ولكن صلاح الدين لم يسكت عن ذلك التهديد فكانت حملاته المتكررة على حصن الكرك والشوبك لتأمين سلامة القوافل في تلك المنطقة[2]. بعد معركة حطين سنة 583هـ/ 1187م وسقوط إمارة الكرك في يد صلاح الدين استطاع التجار والحجاج أن يسيروا آمنين بطريق البر إلى الشام وبلاد العرب[3].

وحرص صلاح الدين على تخفيف أعباء الضرائب التي كانت ترهق كاهل التجار، فأصدر مرسوماً قرىء على المنابر جاء فيه: «... يرد التاجر ويسفر، ويغيب ويحضر... فلا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه ولا يؤخذ منه طعمة، ولا يستباح له حرمة...»[4]. ويقول ابن جبير في هذا الصدد: «ومن مفاخر هذا السلطان إزالة رسم المكس الذي كان مضروباً

---

1 ـ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص 12 ـ 13 ـ 73 ـ 74.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 50 وانظر Wiet. G. L'egypte Arabe. Op. cit., p. 319 – 320.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2 ص 75 وانظر Wiet. G. L'egypt Arabe. Op. cit. p. 38.

4 ـ المقريزي: خطط ج 1 ص 104 وانظر ابن شداد: النوادر السلطانية ص 30 ـ 33.

في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل ما يباع ويشترى.. حتى كاد يؤدى على شرب ماء النيل...»[4].

وعلى الرغم من الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين من الزمن، فإنه تخللها فترات من السلم حدثت خلالها اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب كبير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين ما أفاد الأحوال الاقتصادية عند المعسكرين.

ومن المدن المصرية التي اشتهرت في العصر الأيوبي وأصبحت مراكز تجارية مهمة يفد إليها التجار وتقصدها المراكب وتقام بها الأسواق لبيع السلع، مدينة الفسطاط لتوسطها بين الوجهين القبلي والبحري، واتصالتها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، ثم مدينة دمياط التي أصبحت الميناء المصري الوحيد في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، كذلك كانت مدينة عيذاب من أكثر الموانىء نشاطاً[2]. كما ازدهرت كل من مدن قوص وأسوان والقصير، أما مدن الطور والسويس فلم تكونا في أهمية المدن السابقة زمن الأيوبيين بسبب تعرضهما المستمر لأخطار الصليبيين[6].

أما على الصعيد الخارجي احتلت التجارية الأيوبية مكانة مرموقة فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسيوية والأوروبية، فقام تجار الجمهوريات الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية بدور الوسيط في نقل البضائع الشرقية في سفنهم إلى الموانىء الأوروبية، ولقد استفادت مصر والشام من هذه العمليات التجارية لوقوعهما في الطريق التجاري القادم من الهند وفارس والعراق وشبه جزيرة العرب، وقد

4 ـ ابن جبير: الرحلة ص 30 ـ 31.

5 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 468.

6 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 467.

عبر صلاح الدين في إحدى رسائله إلى الخليفة العباسي ببغداد سنة 560هـ/ 1175م فقال: «ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، وتطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائق أعماله، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة...»[1]. ولم تفلح الأوامر المتكررة التي أصدرتها البابوية لمنع التجار الأوروبيين من التعامل التجاري مع المسلمين في الشرق الأدنى، وقد ورد في بعض المراسيم البابوية ما يلي: كل من يجاسر على أن يبيع للمسلمين الحديد أو الأسلحة أو الأخشاب، التي يجري استخدامها في العمائر البحرية أو بناء السفن، وكل من يدخل منهم في خدمة المسلمين، قائداً لسفينة أو مرشداً له، سوف يتعرض للحرمان من الكنيسة، ولا يكون جزاؤه إلا مصادرة متاعه وضياع حريته الشخصية[2].

وعلى الرغم من معارضة البابوية الشديدة لمنع المتاجرة مع الشرق، فإن النشاط التجاري الأوروبي لم يتوقف ورفضت الجمهوريات الإيطالية أي قرار لا يتفق ومصلحتها الخاصة وأرسلت إلى مصر بعثات استطاعت أن تحصل على امتيازات مغرية، حيث استجاب صلاح الدين لرغبة هؤلاء السفراء وسمحوا للتجار في الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعاً لهم على الاتجار مع بلادهم[3]. ولم تؤد وفاة صلاح الدين سنة 589هـ/ 1193م إلى تغيير في العلاقات، بل أن كلاً من جمهوريتي بيزا والبندقية أرسلت سفراءها إلى القاهرة، لعقد ماهدات جديدة،

---

1 ـ أبو شامة: كتابة الروضتين ج 2، ص 243.

2 ـ Wiet. G. L'egypte Arabe, op. cit., p. 384.

3 ـ Heyd, Hist. du Commerce. Op. cit., T I. p. 399.

مع الملك العادل أخي صلاح الدين، وتضمنت هذه المعاهدات حماية الحجاج في أراضي السلطان، ورعاية تجار البنادقة، وعدم إجبارهم على دفع ضرائب جديدة فضلاً عن إقامة فندق جديد لهم[1].

ولم تقتصر المعاهدات التجارية الأوروبية مع مصر دون سواها، فقد جرى عقد العديد من المعاهدات مع أمراء بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين، ففي سنة 605هـ/ 1208م أرسلت البندقية سفيراً إلى حلب قام بعقد معاهدة تجارية مع أميرها غياث الدين غازي بن صلاح الدين حصلت بموجبها على تشييد فندق وحمام وكنيسة في مدينة حلب، بالإضافة إلى تحديد رسوم الدخول والخروج بنحو 12 بالمئة[2]. وهكذا لم تتوقف تجارة الأوروبيين مع الشرق بتاتاً.

والخلاصة أن السلاطين الأيوبيين حرصاً منهم على تشجيع التجارة سمحوا للتجار الأوروبيين بالإقامة في بعض المدن والثغور المصرية والشامية، فكانت هناك جالية عند قنطرة الموسكي بالقرب من القاهرة منذ أيام صلاح الدين، كما كانت هناك جاليات في الاسكندرية ودمشق وبيروت وحلب. وكانت لهذه الجاليات فنادق خاصة ينزلون فيها. إذ كان للفنادقة بالاسكندرية فندقان تتولى إدارة الجمارك المصرية صيانتهما والمحافظة عليهما، كما كان للبنادقة أيضاً فندق في كل من دمشق وبيروت وطرابلس وحلب، كذلك كان لجنوة فندق في دمشق وآخر في بيروت[3]. وكان يتبع كل فندق كنيسة صغيرة لإقامة الشعائر الدينية، بالإضافة إلى فرن وحمام ودار لصنع النبيذ، وتختار الجالية عادة أحد أفرادها للإشراف على تنظيم الإقامة في الفندق[4]. وكل جالية لها قنصل يدير شؤونها،

---

1 ـ سامي سعد: العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية ص 74.

2 ـ Heyd. Hist. du Commerce. Op. cit., T. I. p. 374 – 375.

3 ـ Ibid. T. I. p. 432.

4 ـ ابن حوقل: المسالك والممالك ص 90 ـ 91.

ويكون أمام الحكومة، وهؤلاء الموظفين جرى اعفاؤهم من ضريبة الجزية مهما طالت إقامتهم بمصر[1].

وحفظ التجار الأوروبيون معاملة أرباب البلاد الحسنة لهم فعاملوا التجار المسلمين بالمثل، إذ سمحوا لهم بدخول الموانىء الصليبية في الشام، كما ضربوا عملة خاصة مثل الدينار الصوري. الذي نقشوا عليه آية قرآنية باللغة العربية كي يقبل المسلمون على التعامل به[2].

أما الضرائب التي يدفعها التجار الأوروبيون في مصر والشام فكانت أنواعاً منها ضريبة الصادر والوارد، ويتولى الديوان تحصيل هاتين الضريبتين فتؤخذ ضريبة الوارد على البضائع التي تباع فعلاً مثل الخشب والمعادن والرقيق، أما البضائع التي لم تجد لها سوقاً في البلاد، فلا يدفع عنها أصحابها ضريبة وارد، ويجوز لهم أن يعيدوا تصديرها دون دفع رسوم، أما ضريبة الصادر فيجري تحصيلها من جميع السلع التي يشتريها التجار الأجانب من مصر مثل المنسوجات والتوابل وقصب السكر والزجاج الملون... وعن الأموال التي تخرج من البلاد بالاضافة إلى تحصيل رسوم إضافية كالسمسرة والترجمة[3].

والخلاصة أن الصليبيين أسهموا في تنمية العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، وانعكس ذلك في زيادة الموارد المالية للدولة الأيوبية دون أن تقف الحروب حائلاً بين الطرفين.

---

1 ـ Wiet. L'egypte Arabe. Op. cit. p. 326.

2 ـ د. أحمد مختار العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 103 ـ 104.

3 ـ سامي سعد: العلاقات الاقتصادية... ص 114 ـ 118.

وانظر ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 306.

الفصل العاشر

الحياة الاجتماعية

لم تعرف الحياة الاجتماعية بمصر في العصر الأيوبي حياة البذخ والترف على غرار ما كان في العصر الفاطمي، والسبب في ذلك أن الخلفاء الفاطميين توافر لهم من الثروة كما دونها بعض المؤرخين ما فاق حد الخيال، ساعدتهم في تحقيق ما كانوا يصبون إليه من حب المظاهر[1]. وليس أدل على ذلك من أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي عند وصوله إلى مصر فكر في تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها، ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة في إحيائها[2]. في حين كان أول ما فكر به صلاح الدين الأيوبي عند تسلمه السلطة هو إجلاء الصليبيين عن الشرق بعد أن هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية، ولم يكن ليحقق ذلك إلا بتثبيت قوة مصر وإحكام شؤونها العسكرية والاقتصادية، فكانت عنايته ببناء سور القاهرة وإنشاء قلعة الجبل وتحصين الثغور وتقوية الأسطول.

والسؤال ما دامت عقيدة الجهاد أحاطت بدولة الأيوبيين منذ نشأتها فهل يبقى مجال للتوسع في الإسراف وإقامة الاحتفالات؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكمن في أن صلاح الدين تميز عن ملوك عصره الذين انغمسوا في الترف والبذخ والإسراف، بالبساطة والبعد عن أبهة الملك، جاء إلى السلطة في وقت كان شعب

---

1 - Jane. Poole, A History of Egypte. Op. cit., p. 133.

2 - المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 168. وانظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 1 ص 146.

هذه الأمة «العربية ـ الإسلامية» قد أرهقته الشدائد البغيضة وأنهكت قواه الجيوش الغازية التي نزلت أرض الشرق الأدنى لتحرق الأخضر واليابس، وتلغي كل من يظهر استعداده لمقاومة هذا الخطر العظيم؟ كان أمراً حتمياً أن تتفق شخصية صلاح الدين مع طبيعة المرحلة التي جاء فيها وما تتطلبه من جهاد وتدعيم وحدة اسلامية حتى يتم طرد هذا العدوان الغاصب، فاعتبر نفسه وأسرته في خدمة المسلمين ومساعدتهم لا أسياداً عليهم، وحسبنا أنه عندما ولى ابنه الظاهر حلب، عمل وتلهى، وشغف بالملك وأحبه فخاف صلاح الدين أن يسد عليه حبه للمنصب والجاه حسن الخدمة، فعزله عن ولاية حلب وأرسل مكانه أخاه العادل[1].

وطلب منه الملك العادل أن يكتب له في اقطاع حلب كتاباً ككتاب البيع والشراء، فامتنع الملك الناصر وقال له: «أظننت أن البلاد تباع: أو علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة المسلمين ومراعاة للدين وحراس لأموالهم»[2]. ورفض إعفاء أخيه من مال يحمله إلى خزينة الدولة، وجند يرسله إلى ميدان القتال.

وقد أجمل بروكلمان عدداً من صفات صلاح الدين ومزاياه بقوله: «وليس من شك في أن قلة ضئيلة من أمراء الإسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن أيما نزعة إلى الكسب الشخصي، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها ليس غير...»[3].

وإذا كانت كتب التاريخ المعاصرة تذكر لنا أكوام الذهب والمال والتحف التي تركها خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك[4]. فإن هذه المصادر نفسها تؤكد

---

1 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ص 51.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 52.

3 ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ج 2، ص 232.

4 ـ المقريزي: خطط ج 1 ص 415، 384، 385، 386، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 1، ص 17.

أن صلاح الدين كان كريماً ينفق كل ما في يده في وجوه الخير والاحسان، وقد بلغ من فرط كرمه وزهده أنه لم يكن لديه مال يتزكى به، ولما توفي لم يترك وراءه لا داراً ولا مزرعة، ولم يخلف في خزانته سوى سبعة وأربعين درهماً وديناراً ذهبي واحد»[1]. ولا ريب في أن صلاح الدين كان قدوة حسنة سار عليها خلفاؤه من بعده، في صرف كل ما توافر لديهم من أجل تحصين بلادهم والدفاع عنها، وإنشاء المدارس وبناء المستشفيات، والاهتمام بالفقراء والغرباء، والإنفاق في سبيل كل خير معين.

وإذا كانت هذه الاهتمامات من أولى السلاطين الأيوبيين، فليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في مصر في ذلك العصر أصبحت مجدبة كل الجدب، خشنة كل الخشونة، بل على العكس من ذلك اهتم الأيوبيون في إحياء الأعياد الدينية، مثل عيد الفطر، عيد الأضحى، رأس السنة الهجرية، مولد النبي صلى الله عليه وسلم. ليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان ونصفه، ولكن في غير اسراف وبدون تهتك ومع مراعاة للاقتصاد.

ويحدثنا المقريزي أن بعض خلفاء صلاح الدين أسرفوا أحياناً في مد الأسمطة وإحياء بعض الحفلات، ومن ذلك ما اشتهر به العزيز عثمان من إقامة الأسمطة الكبرى لأعيان دولته بين حين وآخر[2]. كما أن السلطان الكامل أقام سماطاً سنة 624هـ/ 1227م بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير، واتفق في سبيل ذلك أموالاً باهظة[3].

كما أقام السلطان العادل الصغير سماطاً في الميدان الأسود، تحت القلعة،

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 113 ـ 114. وانظر ابن شداد: النوادر السلطانية ص 13.

2 ـ المصدر نفسه: ج 1، ص 47.

3 ـ النويري: نهاية الأرب ج 2 ص 29.

ذبح فيه ألف رأس من الغنم، فضلاً عن البقر والجاموس والإبل والخيل[1]. ولا يفوتنا أن نذكر ما كتبه المؤرخون من أن مصر في العصر الأيوبي أشرق عليها فصل جديد تمثل في الاهتمام العمراني البالغ الأهمية. فقد ملأ صلاح الدين مملكته بالكليات والمستشفيات والمدارس المجانية، ولم يؤثر فيها إقليماً على إقليم ولا يكاد يفتح مدينة حتى يؤسس فيها المعاهد والمرافق ويبني الجسور ويتعهد الترع، ويشجع أخته ست الشام بنت نجم الدين أيوب، على صنع الأدوية والأشربة والعقاقير ليفرقها على الجرحى والمرضى من المدنيين والعسكريين، وجعل نصب عينيه القضاء على المظالم، فرد الحقوق إلى ذويها، وأزال الضرائب الجائرة، ومنع الرشوة وتفقد أحوال الناس.. وجلس بنفسه للنظر في المظالم... ولا يستغيث به أحد إلا أغاثه ولا يحابي في الحق وإن كان على أهله أو على نفسه[2].

ويصف القلقشندي المجتمع المصري في ذلك العصر والذي بلغ درجة كبيرة من الرقي فيقول: «وزخرت القاهرة بالدور الضخمة، والمنازل الرهيبة والأسواق الممتدة والخوانق الفاخرة، وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت، مفروشة الأرض بالرخام... ولأهلها الميل إلى تعلية المساكن، فارتفعت بعض الدور طبقتين وأربع طبقات. وفي كل طبقة مساكن كاملة بمبانيها ومرافقها[3].

ويصف البغدادي القاهرة في العصر الأيوبي فيقول: «بلغ النشاط في البناء والعمارة درجة عالية... وقد بلغ الاهتمام ببناء المراحيض بالدور وإحكام قنواتها، حتى إذا تخربت الدار ظلت القناة قائمة وحرص أصحاب الدور على أن يمنعوا

---

1 ـ النويري: نهاية الأرب ج 27 ص 63.

2 ـ الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص 94.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 1 ص 353.

في حفر المرحاض حتى يصل إلى الماء الجوفي...»[1].

ويصف البغدادي حمامات القاهرة فيقول إنه لم يشاهد في البلاد التي زارها اتقن منها وصفاً، ولا أتم أحكاماً، ولا أحسن منظراً. وفي الحمام مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام... والحمام كثير الضياء، رائع الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان، لم يؤثر الخروج منه[2].

ولم يقتصر هذا الاهتمام العمراني على القاهرة دون سواها، فقد ذكر ابن جبير في وصفه بعض مدن الصعيد ـ مثل قنا وقفط ـ «أنها كانت ممتازة حسناً ونظافة وبنياناً وصفاً»[3].

---

1 ـ البغدادي: كتاب الإفادة والاعتبار ص 39.

2 ـ المصدر نفسه ص 40.

3 ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 16.

الفصل الحادي عشر

النظام السياسي الإداري

بعد زوال الخلافة الفاطمية أصدر الخليفة العباسي المستضيء بنور الله قراراً بتعيين صلاح الدين الأيوبي سلطاناً على مصر والشام وبعث إليه بالتقليد والتشريفات المعتادة والخلع والأعلام السود.

والواقع أن صلاح الدين غلب عليه اسم السلطان دون أن يتلقب به رسمياً في الوقت الذي كان يطلق على أمثاله في بلاد الشام[1]. وكان أفضل الألقاب المحببة إليه لقب الملك الناصر، والثابت تاريخياً أن هذا اللقب أطلق عليه بعد أن اختاره الخليفة العاضد الفاطمي وزيراً[2]. وكانت العادة قد جرت بأن يطلق على الوزير لقب كبير يعرف به، فسمي صلاح الدين بالملك الناصر.

وكما كان صلاح الدين مضطراً للتغيب عن مصر بأمر الجهاد في بلاد الشام فقد اختار شخصاً ينوب عنه في تصريف شؤون مصر أثناء غيابه أطلق عليه اسم نائب السلطنة. وهذه الوظيفة استحدثت لأول مرة في التاريخ الإسلامي واستمرت قائمة بعد ذلك حتى نهاية عصر المماليك.

وكان أول من عين نائباً للسلطنة بهاء الدين قراقوش[*]. الذي نسب إليه

---

1 ـ حبيب جاماتي: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص 60.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 1 ص 308.

(*) قراقوش: اسم تركي معناه العقاب الطائر

الناس أحكاماً عجيبة أثناء نيابته، والظاهر أنها موضوعة[1]. أما وظيفة الوزير فقد تضاءلت في العصر الأيوبي ـ عما كانت عليه في العصر الفاطمي الثاني (466 ـ 567هـ) (1076 ـ 1172م) عندما أصبحت وزارة تفويض نتيجة وجود نائب السلطنة، ولم تتعد اختصاصاته تنفيذ أوامر السلطان ونائب السلطنة الذين استأثروا بإدارة شؤون الدولة.

وكان عبد الرحيم بن علي البيساني اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل من أشهر وزراء صلاح الدين، وكان السلطان يستشيره وينصحه، ويأخذ برأيه، ويذكره دائماً بالخير ويقول لأعوانه: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل»[2].

وقد بلغ من استئثار بعض خلفاء صلاح الدين بالسلطنة أن استغنوا أحياناً عن وظيفة الوزير ـ من ذلك أن السلطان العادل الأول استوزر الصاحب صفي الدين بن شكر، ولكنه ما لبث أن تغير عليه فأقاله من الوزارة وترك المنصب خالياً دون أن يعين فيه وزيراً حتى مات[3].

وعندما تولى الكامل بن العادل السلطنة أعاد ابن شكر إلى الوزارة، فلما شعر الكامل بأن ابن شكر أساء الأمانة «وأحدث حوادث كثيرة وحصل مالاً جماً، عزله الكامل وأحاط بجميع موجوده... ولم يستوز بعده أحداً»[4].

وبالإضافة إلى وظيفة الوزير وجدت وظائف سامية في الدولة الأيوبية منها:

ـ وظيفة الحاجب ومهمته إدخال الناس على السلطان.

---

1 ـ محمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2 ص 645.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6 ص 156. وأبو شامة: كتاب الروضتين ج 2 ص 241.

3 ـ المقريزي: المواعظ ج 3، ص 363.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 22.

ـ وظيفة الاستادار ويفوض إليه النظر في إدارة البيوت السلطانية.
ـ وظيفة الداودار ويقوم بإبلاغ الرسائل إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية.
ـ الناظر الخاص وهو مكلف بالشؤون المالية للسلطان.

وقد اختلفت الدولة الأيوبية عن غيرها من الدول الإسلامية التي سبقتها أو التي جاءت بعدها من حيث تقسيم الأقاليم وتعيين الولاة، فبينما كانت ولايات الدولة الفاطمية تنقسم إلى قسمين: قسم يدين بالتبعية المطلقة مثل الشام وفلسطين، وقسم يتمتع بنصيب وافر من الاستقلال الذاتي مثل الحجاز واليمن.

اعتبرت الدولة الأيوبية أن جميع الأقاليم متساوية في التبعية، وانحصر تعيين ولاتها بين أفراد الأسرة الأيوبية، فأخذ أولاد صلاح الدين الأقاليم المهمة والحساسة مثل مصر ودمشق وحلب. والأقاليم الثانوية كانت من نصيب إخوة صلاح الدين وأولادهم.

وقد أطلق على جميع أصحاب الأقاليم لقب الملك أو السلطان دون تفريق بين إقليم وآخر.

أما الجهاز الإداري فقد اعتمد على مجموعة من الدواوين على رأس كل منها موظف كبير يسمى ناظراً أو رئيس نذكر منها: ديوان الجيش، ديوان الأسطول، ديوان المالية، ديوان الأحباس، ديوان الانشاء وهو من أهم دواوين الإدارة ويلي الوزارة في الأهمية، أطلق عليه ابن منجب الصيرفي «ديوان الرسائل» وكان صاحبه يتقاضى أعلى راتب بين رؤساء الدواوين[٣].

ويتبع ديوان الانشاء إدارة البريد التي احتل أصحابها مركزاً مرموقاً في

---

3 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين كتاب تكلم فيه المؤلف باسهاب عن الدواوين ووظائفها. وانظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٤٩...

هذا العصر، وقد اعتمد الأيوبيون على الحمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل مما عجل في سرعة وورود الأخبار[1].

وكان لكل ديوان عدد من الموظفين يتبعون الرئيس وينفذون أوامره[2] هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الوظائف الإدارية مثل والي القاهرة، والي الفسطاط، وتمتع كل منهم بمركز ممتاز تم صاحب الشرطة ومهمته حفظ النظام واستتاب الأمن، وتنفيذ أحكام القضاة، وقاضي القضاة وكان شافعياً ومركزه في القاهرة وهو الذي يستنيب القضاة الشافعيين في جميع البلاد. وقد احتل القاضي مركزاً مهماً في الدولة الأيوبية غير قابل للعزل كغيره من موظفي الدولة، وكان حكم القاضي مبرماً لا جدال فيه[3].

النظام المالي

بالرغم من سيطرة الاقتصاد الإقطاعي في مصر زمن الأيوبيين فإنه لم يطرأ تغيير كبير على النظام المالي الذي كان سائداً في مصر منذ العهد العباسي ـ فبقيت إيرادات الدولة الرئيسية تنقسم إلى قسمين:

أ ـ الخراجي: ما يدفعه المزارع من ضريبة سنوية مفروضة على الأرض التي يقوم بفلاحتها والتي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة، وقد أدخل صلاح الدين ما يسمى بالبدل في جميع الخراج، بمعنى أن يؤدي الخراج عيناً فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الحمص بدلاً من القمح ـ أردبين شعير بدلاً من أردب واحد من القمح[4].

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 1، ص 115.

2 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 298 ـ 306.

3 ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 270 ـ 271. «أعطانا ابن جبير قصة يؤكد فيها ذلك».

4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 455.

ب ـ الهلالي: ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصطاد من السمك وكان يعرف الهلالي بالمرافق والمعاون[1].

وقد توسعت الضرائب المستمدة من الخراجي والهلالي لتشمل أنواعاً عديدة من:

1 ـ الأحكار وهي عبارة عن الأجرة المتحصلة عن مساحات الأراضي، منها ما عمر مساكن ومنها ما أنشيء بساتين. واقتضت الأحوال أن تبقى بأيدي أصحابها حتى بعد انقضاء مدة اجازتها فتقرر عليهم دفع أجرة مقابل ذلك[2].

2 ـ ضريبة الغروس وهي الأماكن التي تقع بالاقطاعات ولا تصل إليها المياه واراد بعض الأفراد استئجارها لقاء مبلغ معلوم عن كل فدان[3].

3 ـ ضريبة على الجهات التي توافر فيها أشجار السنط الموجودة بكثرة في بعض أنحاء البلاد مثل البهنسا والأشمونين وآخميم وقوص، وكانت هذه الغابات تعتبر ملكاً للسلطان، فيدفع أهالي تلك المناطق مبلغاً من المال مقابل انتفاعهم بأخشابها[4].

4 ـ أما المعادن مثل الذهب والزمرد والشب والنطرون فقد تقررت مصادرتها ولا تباع إلا في المتجر السلطاني بالاسكندرية، ولا يجوز لأحد المتاجرة فيها[5].

ومن الموارد المالية ضرائب أخرى غذت إيرادات الدولة منها:

ـ الجوالي وهي الضريبة المفروضة على أهل الذمة[6].

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 107 وانظر ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 352.

2 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 313.

3 ـ المصدر نفسه ص 342.

4 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 345 ـ 346.

5 - ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 270 ـ 271.

6 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 455.

ـ أموال المواريث الحشرية وهم الذين يموتون وليس لهم وريث، فيحمل متحصلها إلى بيت المال ما يتحصل من دار الضرب من رسوم تجنيها الدولة ممن يرغبون في سك ما لديهم من ذهب وفضة[1].

ـ متحصلات ديوان الأوقاف، وهي تشمل الدور والحوانيت والطواحين والايجارات الشهرية

ـ الضريبة المفروضة على التجار الأجانب القادمين إلى مصر[2].

ـ ضريبة المكوس المفروضة على الحجاج، ولكن صلاح الدين رفعها أمام سخط الناس[3].

ـ ضريبة على ما تجري صنعته في دار الطراز[4].

وبالرغم من تعدد إيرادات الدولة وتنوع مواردها إلا أن أبواب المصروفات كانت عديدة مما أدى إلى وقوع البلاد في أزمة مالية. لكن صلاح الدين استطاع تدارك الموقف وأصدر عملة ذهبية كاملة العيار حازت ثقة المصريين فأقبلوا على التعامل بها[5]. ولكن هذا الاستقرار المالي لم يدم طويلاً بسبب أعباء الحروب المضنية بين الصليبيين والأيوبيين مما اضطر صلاح الدين إلى إصدار عملة نصفها من الفضة ونصفها الآخر من النحاس، مما دفع الناس إلى الاحتفاظ بما لديهم من الذهب/ فانحطت عملية البيع والشراء، مما اضطر السلطان الكامل إلى إصدار دراهم نحاسية ولكن ذلك لم يغير من واقع الحال شيئاً.

وخلاصة القول أن عدم الاستقرار النقدي في العصر الأيوبي، أوقع البلاد في مأزق اقتصادي أفاض الرحالة والمؤرخون في وصفه بأبشع الصور.

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 107 وانظر ابن مماتي قوانين الدواوين ص 352.

2 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 313.

3 ـ المصدر نفسه ص 342.

4 ـ المصدر نفسه ص 345 ـ 346.

5 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 45.

الفصل الثاني عشر

النظام الحربي

أولاً ـ الجيش

أدرك صلاح الدين الأيوبي أنه لا يمكنه محاربة الصليبيين على أوسع نطاق ما لم يكن له نظام حربي فائق الاعداد والتوجيه، فوجه عنايته إلى إعداد جيش قوي، فأزال جنود الفاطميين من العبيد السود والأرمن وغيرهم، وأخذ في تكوين جيش قوامه المماليك الأسدية القدماء، وسائره من الأحرار الأكراد الذين دخلوا إلى مصر في حملة شيركوه الثالثة سنة 564هـ/ 1169م[1]. فضلاً عن المماليك الأتراك الذين اشتراهم لنفسه وسماهم الصلاحية نسبة إلى اسمه وعهد بقيادتهم إلى الأمير أبي الهجاء[2]. وقد صار الصلاحية والأسدية الحرس الخاص لصلاح الدين كما صار العادلية الذين كونهم أخوه العادل فيما بعد بطانة خاصة لهذا الأمير الكبير.

وعلى الرغم مما أصاب جيش صلاح الدين من نقص في العدد بسبب انسحاب بعض الأمراء إلى الشام بمن معهم من الفرسان بعد سخطهم على تعيينه «صلاح الدين» وزيراً، وما حدث من القتال ضد السودانيين، فإن صلاح الدين شرع في إقصاء الأمراء المصريين وانتزاع اقطاعاتهم، فقطع منهم الدوائر من أجل من معه

---

1 ـ ابن الأثير الكامل ج 11، ص 222 ـ 223. وانظر أبو شامة: الروضتين ج 1، ص 173.

2 ـ المصدر نفسه ج 11، ص 229. Wiet. L'egypte Arabe. Op. cit., p. 305.

من العساكر فازدادو له حباً وطاعة[1]. وفي السنوات الخمس التالية، ازداد عدد جيشه بفضل ما اضاف إلى حلقته وإلى أجناد الأمراء من الجند.

وهكذا انقسم الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين إلى ثلاث فئات:

ـ الفئة الأولى وتتألف من الترك والأكراد والتركمان وكانوا يحصلون على رواتبهم كاملة.

ـ الفئة الثانية: وتألفت من الكنانية والعساقلة الذين هاجروا من جنوب فلسطين بعد سقوط عسقلان في يد الصليبيين سنة 548هـ/ 1153م وينضم إليهم من يماثلهم من الأجناد، الذين وردت أسماؤهم في السجلات المصرية، وهؤلاء إنما يحصلون على نصف الراتب.

ـ الفئة الثالثة: وتألفت من الجند الذين يخدمون بالأسطول، ولا يحصلون إلا على ربع الراتب.

يضاف إلى هذه الفئات الثلاث فرقة من المتطوعين التركمان والأكراد والعرب، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين، يعملون مقابل ما يتقاضونه من أجور[2].

وقد حرص صلاح الدين على إظهار قوته العسكرية منذ كان نائباً في مصر عن سيده نور الدين محمود زنكي، حيث أقام في الثامن من محرم سنة 567هـ/ 1171م عرضاً عسكرياً أمام رسل الروم والفرنج بلغ مجموع فرسانه نحو 14 ألف فارس، معظمهم من الطوشية مزودين بمتاعهم من الخيل ونحوها، ويتبع كل منهم غلام يحمل سلاح الحرب، هذا عدا الجنود المشاة والعربان الملحقين

---

1 ـ المصدر نفسه ج 11، ص 227. وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 178.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 442.

بالجيش وكان عددهم سبعة آلاف فارس[1]، ولما كان الفارس الطواشي يتقاضى مرتباً يتراوح بين 700 و 1200 دينار، بالإضافة إلى برك من عشرة رؤوس إلى ما دونها ما بين فرس وبغل وجمل، فقد أدى ذلك إلى استنزاف موارد مصر، ودعا إلى شكوى نور الدين بأنه لم يحصل على اية مساعدة مالية لسد نفقات الجهاد[2].

أمام هذا الوضع اتخذ صلاح الدين الخطوات اللازمة لإصلاح الحال:

أولاً ـ لجأ إلى تعميم نظام الاقطاع الحربي بمعنى أنه صار لكل من كبار الأمراء والقادة إقطاع، مقابل ما يقدمونه من العساكر زمن الرحب.

ثانياً ـ أرسل أخوه ثوران شاه سنة 569هـ/ 1174م إلى اليمن على رأس جيش كبير كي يقع عبئه على كاهل تلك الديار.

ثالثاً ـ تخلص صلاح الدين من جانب كبير ممن تبقى من جند الفاطميين الذين دخلوا في جيشه فبعث بهم إلى أقصى بلاد الصعيد[3].

وقد أعاد صلاح الدين تنظيم جيشه عدة مرات، كان آخرها في سنة 577هـ/ 1181م حيث بلغت عدة الجيش الأيوبي في مصر 824 فارساً منهم 111 أميراً 6976 فارساً طواشياً و 1153 قراغلامية ـ أي جندياً عادياً ـ ووصلت النفقة على هؤلاء 3،670،600 دينار[4]. على أن الجيش الأيوبي لم يبق على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الأيوبي، فبعد انتهاء مرحلة الجهاد ضد الصليبيين وعقد صلح الرملة سنة 587هـ/ 1191م سرح صلاح الدين أكثر من نصف العساكر المصرية، ثم ازداد الجيش وارتفعت نفقاته

---

1 ـ المقريزي: الخطط ج 1، ص 86.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 206.

3 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 178.

4 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1، ص 75.

أيام السلطان الكامل عندما هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة أو حملة حنا دي برين.

ومن المعروف أن صلاح الدين لم يستخدم كل الجيش في حملاته على الشام، لأنه كان مقتنعاً تماماً أن الصليبيين لم يتخلوا مطلقاً عن أملهم في الاستيلاء على مصر بشن هجوم مفاجيء عليها[1]. ولذا أصبح من الضروري الاستغناء عن نصف الجيش، وابقائه داخل البلاد.

والفرصة الوحيدة التي اضطر فيها صلاح الدين إلى إرسال قسم كبير من الجيش المصري إلى الشام، كانت اثناء حملته إلى الرملة سنة 573هـ/ 1177م وما أصابه من هزيمة قاسية جعله يصمم على ألا يجازف مرة أخرى بقواته[2]. ولهذه السياسة ميزة أخرى وهي أن صلاح الدين استطاع أن يرسل باستمرار إلى المعركة قوات جديدة وأن يعيد الذين أصابهم الضعف والتعب، كي يستريحوا بمصر، ثم يعودوا لمواصلة القتال[3].

ويضاف إلى ما أنشأه صلاح الدين من قوة حربية بمصر، العساكر السورية والجزرية (الموصل والجزيرة)، والبالغ عددها عشرة آلاف فارس يخضعون لأوامر السلطان عند الحاجة.

أما عن تنظيم الجيس فكان ينقسم إلى طلاب (فرقة عسكرية) وكل طلب يتراوح عدد أجناده بين 70 و 220 جندياً وعلى رأسه أمير (أي ضابط) وله علم معقود وبوق مضروب، وعند المسير إلى القتال توزع الأسلحة والزرد والنفقات على العساكر، وكل أمير وجندي يأخذ معه ما تقرر له من كميات المؤن والعلوفة

---

1 ـ Runciman, Hist, of the Crusades, op. cit., T. III. P. 150.

2 ـ Willium of Tyre, A History... op. cit. T. II. P. 431 – 433.

3 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 38.

من الحبوب أو ما يشتريه لحسابه الخاص إذ يجري شراء كميات إضافية من التجار الذين يتخذون لهم مكاناً في قاعدة العمليات الحربية ليبيعوا للجند ما يحتاجون إليه[1].

ثانياً ـ البحرية

عند قيام الدولة الأيوبية كان الأسطول المصري في حالة من الضعف والعجز يرثي لها نتيجة ما تعرض له من الهدم والضرب في أواخر العصر الفاطمي من جراء هجمات الأساطيل الصليبية المتكررة على سواحل بلاد الشام، وقد أدرك صلاح الدين الأيوبي تماماً هذا الانهيار السيء منذ بداية حملاته الأولى على مصر سنة 559هـ/ 1164م وحصار الصليبيين للاسكندرية سنة 562هـ/ 1167م، وما ترتب على ذلك من تحرج موقف قواته في داخل المدينة، فضلاً عن الاعتماد على سفن خصومه في نقل المصابين من المسلمين إلى الشام بعد وقوع الاتفاق. كل ذلك جعل صلاح الدين يدرك أهمية الدفاع البحري، وتبين له أن دواعي الحرب ضد الصليبيين تتطلب قوات بحرية فعالة.

لذلك اهتم صلاح الدين بالأسطول اهتماماً بالغاً، فأنشأ له ديواناً خاصاً للإنفاق عليه باسم ديوان الأسطول، وخصص لذلك الديوان موارد هامة منها، متحصلات إقليم الفيوم وإيراد ديوان الزكاة فضلاً عن حصيلة النطرون وحراج السنط[2]. وتولى ديوان الأسطول الانفاق على المشتغلين بالأسطول، فضلاً عن النفقة على دور الصناعات حيث كانت تصنع السفن، في مصر (العسكر والفسطاط) والاسكندرية ودمياط[3].

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1، ص 271.

2 ـ حسن محمد ربيع: النظم المالية ص 71.

3 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 340.

وفي سنة 567هـ/ 1172م عمل صلاح الدين على تحسين أحوال رجال الأسطول فرفع أجورهم لتشجيع الناس على الخدمة بالأسطول. ثم لجأ إلى جمع المواد اللازمة لبناء السفن، فاحتكر غابات أشجار السنط واعتبرها كأنها المعادن ليس لأحد فيها ملك ولا اختصاص فهي لبيت المال[1]. ولم يكتف صلاح الدين بالخشب المحلي في مصر، بل استعان بأخشاب الصنوبر التي استوردها من جبال الشام (لبنان) فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من بعض المناطق القريبة من مدينة بيروت، كما عقد صلاح الدين معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الايطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع[2]. وبفضل هذه الامكانيات غدا الأسطول الأيوبي منذ سنة 575هـ/ 1179م قوة ضاربة مزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحد منها 150 رجلاً وتصلح في حالات الهجوم والدفاع[3]. وعشرون طرادة وهي سفن الحركة لها ومنفعة المسلمين بها أشهر من أن تذكر»[4].

وقسم صلاح الدين الأسطول إلى قسمين، الأول يتألف من ثلاثين سفينة مهمتا حماية شواطىء مصر والدفاع عنها والثاني يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانيهم بالشام[5]. وأرفق صلاح الدين اهتمامه بالأسطول بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر المعتمدة على طول سواحل مصر والشام، وقد أصدر مرسوماً بهذا المعنى يقول فيه: إن مرسومنا الشريف اقتضى الاجتهاد في حفظ السواحل والموانىء والاهتمام

---

1 ـ المصدر نفسه ص 345 ت 346 ـ 348 ـ 349.

2 ـ Heyd: Histoire du commerce du levant T. I. p. 396 – 397.

3 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 339.

4 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 339.

5 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 72. وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2 ص 32.

بأمرها...»[1].

ثالثاً ـ النشاط الحربي للأسطول:

بعد هذه الاستعدادات الحربية الواسعة التي قام بها صلاح الدين، بدأ الأسطول عملياته البحرية على أتم وجه، ففي ربيع سنة 575هـ/ 1179م توغل المسلمون في البحر حتى وصلوا إلى أطراف بيزنطة، وإلى قبرص وكريت والسواحل الجنوبية لآسيا الصغرى، كما قام بعمليات ناجحة على مواقع العدو بساحل الشام امتدت حتى جزيرة أرواد وأنزل خسائر فادحة بالنشاط التجاري والحربي بهذه الجهات، واستولى في سنة 575هـ/ حزيران 1179م على سفينتي شحن تحملان قدراً كبيراً من الغنيمة وعدداً من الأسرى تجاوز أربعمائة أسير، فقابل المصريون هذا العمل بالتهليل واعتبروه انتصاراً كبيراً[2]. ألهبت هذه الانتصارات حماسة البحارة المصريين فقاموا في نفس السنة 575هـ/ 1179م بمهاجمة ميناء عكا واستولوا على عدد من السفن تحطيماً وتكسيراً وظل المصريون بالميناء يومين كاملين متحدين قوة الصليبيين البحرية، ووصف أحد المؤرخين هذا الحادث فقال: «أن ما قام به هذا الأسطول من العمل لم يقم به أسطول إسلامي في سالف الدهر، لا في حالة قوة الإسلام ولا ضعف كعز»[3].

وفي الوقت الذي تعرضت فيه سواحل الشام للضغط المتزايد من قبل البحرية المصرية، كان البحر الأحمر ميداناً لعملية بحرية قام بها الصليبيون في سنة 578هـ/ 1182م. عندما أقدم أرناط صاحب حصن الكرك الصليبي على إنزال

---

1 ـ د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص 48 ـ 49 وانظر د. نظير سعداوي: التاريخ الحربي ص 92.

2 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 32.

3 ـ المصدر نفسه ج 2، ص 32.

أسطول في البحر الأحمر - قرب آيلة - وشرع في مهاجمة الموانىء المصرية - عيذاب - في طريقه لغزو مكة قلب العالم الإسلامي"[1]. ما كادت تصل هذه الأخبار إلى صلاح الدين حتى أصدر أوامره إلى أخيه العادل بمصر فأعد أسطولاً قوياً شحنه بالرجال الأشداء بقيادة حسام الدين لؤلؤ متولي الأسطول بديار مصر عندئذٍ - «فظفر بمراكب الفرنج فحرقها وأسر من فيها»[2].

وهكذا أثبت الأسطول المصري وجوده في البحرين المتوسط والأحمر، وازداد دور هذا الأسطول بروزاً في الأحداث التي أعقبت موقعة حطين سنة 583هـ/ 1187م، إذ قام بدور فعال في مساعدة صلاح الدين في الإستيلاء على بعض الموانىء الهامة في بلاد الشام مثل عكا التي رابطت فيها منذ ذلك الحين قوة بحرية إسلامية مؤلفة من عشر سفن لمراقبة المسالك المؤدية إلى فلسطين[3].

يعتبر صلاح الدين من الحكام القلائل الذين أدركوا أهمية السلاح البحري في محاربة الصليبيين وتأمين سلامة بلاده، لكن موقف خلفائه جاء مناقضاً لذلك فضعف الأسطول وأهمل شأنه، وأصبحت مصر عاجزة عن مقاومة حملات الصليبيين المتكررة الحملة الصليبية الخامسة سنة 616هـ/ 1219م والحملة الصليبية السابعة سنة 646هـ/ 1249م - فأدرك سلاطين بني أيوب غلطتهم ولكن بعد فوات الأوان. وظهر ذلك واضحاً في وصية الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه والتي جاء فيها: «فالأسطول أحد جناحي الإسلام، فينبغي أن يكونوا شباعاً ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة

---

1 - Grousset. Hist de Croisades... op. cit., T. III. P. 734 – 77.

وانظر المقريزي: السلوك ج 1 ص 79. وابن الأثير: الكامل ج 11 ص 323.

2 - المصدر نفسه ج 1 ص 79. وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 35 - 37.

3 - المصدر نفسه ج 1 ص 79.

راتبه، جاؤوا من كل فج عميق...»[1].

ولعل ما ذكره المقريزي يعطينا أفضل صورة عما اصاب البحرية المصرية من الضعف بعد صلاح الدين حين قال: «فلما مات صلاح الدين يوسف بن أيوب استمر الحال في الأسطول قليلاً ثم قل الاهتمام به، وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيز طلب له الرجال، وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا بالسلاسل نهاراً، وسجنوا في الليل حتى لا يهربوا. ولا يصرف لهم إلا شيء قليل من الخبز نحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شيء، كما يفعل بالأسرى من العدو، فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل في مصر يا اسطولي غضب غضباً شديداً بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك الناس بدعائهم»[2].

---

1 ـ النويري: نهاية الأرب، ج 28، ص 92.

2 ـ المقريزي: المواعظ ج 2، ص 194.

الفصل الثالث عشر

منشآت الدولة الأيوبية

على الرغم مما أحاط الدولة الأيوبية من ظروف حربية صعبة جعلتها توجه طاقتها الكبرى لمواصلة النضال ضد الصليبيين بعد أن هدد خطرهم بابتلاع الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى، استغل صلاح الدين إستتاب بعض فترات الأمن لإنشاء بعض العمائر الضخمة مستفيداً في ذلك من تجاربه في عمليات الحصار التي قام بها في سورية لأهم قلاعها وحصونها، من هذه العمائر:

أولاً ـ سور القاهرة

ما كاد صلاح الدين يتولى حكم مصر، حتى فكر في بناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط)[1]. ولعل السلطان كان يسعى من وراء بناء السور إلى ضبط الأهالي وقطع من يخرج منهم عن طاعته في الوقت الذي ازداد فيه تآمر شيعة الفاطميين فضلاً عن مقاومة ما عساه يقع من محاولات خارجية من جانب الصليبيين للإستيلاء على القاهرة.

في سنة 566هـ/ 1171م عهد صلاح الدين إلى رجله الأكبر أبو سعيد قراقوش عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين ببناء السور فشرع هذا الأخير

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ج 2، ص 268.
وانظر ابن جبير: الرحلة ص 25.

بالعمل، لكن السلطان لم يدرك أهمية ما وضعه من خطة إحاطة سائر المباني والعمائر، إلا بعد عودته من الشام، وهو في أوج قوته وسلطانه سنة 572هـ/ 1176م فاستحث بهاء الدين على السرعة في إتمام هذا العمل ففرغ منه في السنة ذاتها. وكان هذا السور هو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عهد صلاح الدين، وقد بنى الأول جوهر الصقلي وبنى الثاني بدر الجمالي، وكان هذان السوران الأولان من اللبن، في حين كان السور الثالث الذي بناه صلاح الدين مبنياً من الحجارة[1]. يبدأ عند قلعة المقس المطلة على النيل شمالاً وينتهي عند النيل أيضاً جنوب الفسطاط، ويرجع الفضل في اكتشاف جزء من هذا السور إلى البحاثة علي بك بهجت، ثم واصل التنقيب بعده الأستاذ حسن الهواري، ويقول هؤلاء المؤرخون أن محيط السور 293 ذراعاً[2].

ثانياً ـ قلعة الجبل

أدرك صلاح الدين على ضوء تجاربه في الشام والموصل ما قامت به القلاع من دور فعال في المعارك الحربية فقد تسقط المدينة وتصمد قلعتها على المقاومة، حتى ييأس المحاصرون لها ويرفعون عنها الحصار فرأى صلاح الدين أن يزود القاهرة بقلعة حصينة تكون مقاماً له ولدواوينه ويمتنع بها إن عرض له خطر مداهم، وملجأ للشعب عند الضرورة، فأصدر أمره في إنشاء قلعة على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم.

إن اختيار موقع القلعة يدل على بعد نظر صلاح الدين، ففي الوقت الذي عزم فيه على تشييد سور القاهرة، اختار للقاهرة موضعاً يكون من القرب ما يسهل معه

---

1 ـ عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ص 97 ـ 98.

2 ـ عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ص 97.

الإشراف عليه وحراسته والدفاع عنه، ويكون من البعد ما يجعله ملاذاً يعصمه من ضربة مفاجئة. ويشير القلقشندي إلى أن القلعة تقع على نشر مرتفع من تقاطع المقطم، وترتفع في موضع، وتنخفض في آخر[1]. ولعل هذا الموقع المنيع ساعد أسوارها على الصمود أمام القذائف المعروفة في ذلك الوقت بحيث يتمكن الموجودون فيها على مقاومة الحصار.

ويشير ابن جبير الذي زار مصر في أواخر سنة 578هـ/ أوائل سنة 1182م إلى القلعة، بأنها حصن يتصل بالقاهرة، حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه»[2].

تعتبر القلعة من أهم منشآت صلاح الدين الحربية، أمر بتشييدها سنة 572هـ/ 1176م، إلى وزيره بهاء الدين قراقوش الذي سخر في بنائها ألوفاً من اسرى الفرنج، وانتهى العمل بها على ما هو وارد في النقش فوق باب المدرج سنة 789هـ/ 1183م، ولا تزال الكتابة موجودة حتى اليوم وهذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة المحروسة القاهرة التي جمعت نفعاً وتحسيناً مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، أبو المظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين. على يد أمين مملكته ومعين دولته، قراقوش بن عبد الله الملكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة»،[3] أهمية هذا النص تثبت أن القلعة أو على يالأقل الجزء الكبير منها لم يتم حتى سنة 579هـ/ 1183م، والمعروف تاريخياً أن صلاح الدين غادر قصره إلى الشام لمحاربة الصليبيين سنة

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3 ص 368.

2 ـ ابن جبير: الرحلة ص 25.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 1، ص 114 ـ 115.

578هـ/ 1182م. ولم يعد بعد هذا التاريخ إلى مصر مرة أخرى، ومات قبل أن يتم بناء القلعة، فقام أخوه العادل على إتمامها فعلاً سنة 579هـ/ 1183م[2].

ولم يبق من منشآت صلاح الدين بالقلعة سوى بعض أجزاء السور والأبواب ذلك لأنه أدخلت عليه كثير من التغييرات والإضافات في العصور التالية، فقد شيد الملك الكامل محمد قصور القلعة وأبراجها الرئيسية سنة 604هـ/ 1207م[3].

تتألف القلعة من مساحتين من الأرض مستقلتين، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج، والجزء الشمالي من القلعة كان الحصن نفسه، أما الجزء الجنوبي فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من اسطبلات وغيرها ويغلب على الظن أن الجزء الشمالي تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه، في حين أن الجزء الجنوبي الذي يشمل الملحقات تم على عهد السلطان الكامل الأيوبي[4].

وللقلعة ثلاث أبواب، تعتبر مداخل مائلة، الأول يقع جهة الشمال في الجانب المواجه للمدينة، ويقال له الباب المدرج، والثاني في جنوب القلعة، والثالث إلى الشرق منها.

أما أحجار البناء فقد جلبت من منطقة أهرام الجيزة.

ولما كان الماء هو أهم ما يحتاجه المحاصرون فقد نحت قراقوش في الجهة الجنوبية من القلعة بئراً في الصخر عمقه 89 متراً تقريباً أطلق عليه اسم بئر يوسف، نسبة إلى صلاح الدين يوسف وعرف هذا البئر باسم الحلزون، ويتألف

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 1، ص 113 ـ 114.

2 ـ نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري ص 101 ـ 102.

3 ـ المصدر نفسه: ص 102.

من طابقين عمق الأول نحو خمسين متراً والآخر أربعين متراً. ولكل طابق منهما ساقية ترفع الماء منها بواسطة الدولاب ويقال أن ماء البئر كان عذباً في أول الأمر حتى أراد قراقوش توسيعه فاتصل بعين مالحة أفسدت ماءه مما اضطر الأيوبيين إلى ربط البئر بالنيل بواسطة سرداب لتنفذ منه المياه إلى القلعة[1].

ومن المنشآت الحربية المهمة التي بناها صلاح الدين قلعة سيناء قرب عين صدر وقلعة فرعون على جزيرة فرعون على خليج العقبة والغرض منها منع الخطر الصليبي من الامتداد إلى البحر الأحمر، وخاصة بعد أن قام أرناط صاحب الكرك بحملته الشهيرة التي استهدفت الحجاز سنة 578هـ/ 1182م ـ تكلمنا عنها سابقاً ـ وقلعة دمشق التي أصابها الاهمال وخربت، ثم جاء الملك العادل فأعاد بناءها من جديد، وفرد أبراجها على أمراء بني أيوب فعمروها من أموالهم، وحددوا مواقع الدفاع فيها على أحدث الطرق الحربية في زمانهم، وما زالت هذه القلعة رابضة بأبراجها ومنشآتها العسكرية إلى الآن.

وقد جرت العادة أن ينقش على جدران المنشآت الأيوبية صورة نسر أحمر فيفرد الجناحان على رقعة من الحرير صفراء اللون مطرزة بالذهب وعليها ألقاب السلطان واسمه وهو شعار العلم الأيوبي[2].

لم تقتصر المنشآت الأيوبية على العمائر الحربية بل شملت العديد من العمائر المدنية، أهمها:

ثالثاً ـ المدارس: أنشأ الأيوبيون العديد من المدارس لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي ـ تكلمنا عنها سابقاً في الحياة العلمية ـ ومن هذه المدارس توجد المدرسة الصالحية التي أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سنة 640هـ/ 1242م

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى.. ج 3 ص 330 ـ 332.
2 ـ د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 101.

وقد تعرضت للخراب على مر العصور، فلم يبق منها اليوم إلا مدخلها وواجهة غنية بالنقوش والكتابات التاريخية[1].

رابعاً ـ قبة الإمام الشافعي

بنى صلاح الدين المدرسة الصلاحية بجوار مقام الإمام الشافعي سنة 572هـ/ 1176م، وفي سنة 574هـ/ 1178م أنشأ التابوت الخشبي الذي يعلو تربة الشافعي، ويعتبر أعظم المنتجات الخشبية في العصر الأيوبي[2]. وهو مصنوع من خشب التاج الهندي ويتألف غطاؤه وجوانبه من حشوات ذات زخارف نباتية عليها آيات قرآنية وترجمة حياة الشافعي والتاجر الذي صنعه وهو عبيد التجار المعروف بابن المعالي، وذلك بالخط النسخي الكوفي[3].

وبجوار قبر الشافعي دفنت زوجة صلاح الدين الأميرة شمس وابنه الملك العزيز عثمان، ووالدة الملك الكامل، فأنشأ الملك الكامل في جمادي الأولى سنة 608هـ/ تشرين أول سنة 1211م قبة الإمام الشافعي إكراماً لروح والدته، وترتفع القبة حوالي سبعة وعشرين متراً فوق أرضية الضريح، وتمتاز بنقوشها وزخارفها، وهي تتألف من طبقتين طبقة داخلية خشبية، وطبقة خارجية من الرصاص، ويوجد فوق القبة من الخارج في مكان الهلال مركب صغير من النحاس سعته نصف أردب من الحبوب لإطعام الطيور.

والجدير ذكره أن كثيراً من الأمراء قام بتجديد القبة في العصور التالية،

---

1 ـ زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص 70.

2 ـ السيوطي: حسن المحاضرة... ج 2 ص 141. وابن خلكان: وفيات الأعيان ج 2 ص 42.

3 ـ زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص 464.

ولا تزال قائمة حتى يومنا الحاضر بشارع الإمام الشافعي بالقرافة[1].

خامساً ـ ضريح الصالح نجم الدين أيوب

بنت شجرة الدر في سنة 648هـ/ 1250 ضريحاً لزوجها الملك الصالح أيوب بجوار مدرسة الصالحية بشارع ما بين القصرين، على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه الداخلية أحد عشر متراً، تعلوه قبة ترتفع 22 متراً، وله محراب كبير مجوف كسيت مسطحاته بلوحات من الرخام المختلف الألوان امتاز بدقة وجمال الصناعة الخشبية فيها[2].

سادساً ـ قبة شجرة الدر

إن تاريخ بناء هذه القبة غير معروف بالرغم من وجود نقش كتابي يذكر اسم شجرة الدر مصحوباً بألقابها «المس المستعصمية ، الصالحية، ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين... وعلى الأرجح أن بناء القبة قد تم في حياتها وهي تمتاز بنقوشها وزخارفها[3].

---

1 ـ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس نشر الحسيني ص 67.

2 ـ المصدر نفسه ص 68 وما بعدها.

3 ـ المصدر نفسه ص 70 وما بعدها.

الفصل الثاني

انتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالحية

أولاً ـ سلطنة شجرة الدر(*)

على أثر مقتل ثوران شاه اجتمع امراء المماليك البحرية بالدهليز السلطاني لإختبار أحدهم ليتولى منصب السلطنة، وكان من الطبيعي ان يطمع كل أمير منهم لهذا المركز، لكنهم أدركوا أن الأمور ليست مهيأة لهم بعد، لأن حكم ملوك الأيوبيين بالشام لا يزال موجوداً ولم يلبثوا أن قدموا إلى العرش أحد أبناء الأسرة الأيوبية وهو الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي وقد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة 634هـ/ 1237م، ومن المستحيل على أولئك الملوك أن يقبلوا استئثار مماليك آبائهم بمصر بعد قتل سلطانهم الشرعي(1).

إزاء ذلك أجمع المماليك على تولية شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب وأم ولده خليل سلطانة على مصر، وعهدوا إلى عز الدين أيبك التركماني أحد أمراء البحرية الصالحية ليكون مدبراً للملكة معها(2).

(*) هي جارية اشتراها الملك الصالح، ولم يعرف المؤرخون أصلها بالضبط، وكان الصالح أيوب يحبها حباً عظيماً وقد رأى من سطوع مواهبها وما اشتهرت به من عفة وفضيلة، فأعتقها وتزوجها فأنجبت ولداً اسمه خليل توفي وهو صغير، وكانت بديعة الجمال.

ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 71 ـ 73.

1 ـ د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 107.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 361.

والحقيقة أن شجرة الدر كانت من حيث الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك. فلا غرابة بعد ذلك إذا اعتبرها المقريزي «أول من ملك مصر من مملوك الترك المماليك»[3].

توجه الأمير عز الدين أيبك إلى القاهرة وأبلغ شجرة الدر ما تم من اتفاق اختيارها فأبدت موافقتها، وأصبحت تخرج التواقيع السلطانية باسمها، ونقش اسمها على السكة: «المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل أمير المؤمنين»[4].

استهلت شجرة الدر سلطانها بمكافأة أمراء المماليك البحرية فخلعت عليهم الخلع السنية ووزعت عليهم الأموال الوفيرة، فاستقر بها الحال وانصرفت إلى تصفية الموقف مع الفرنج وإجلائهم عن الأراضي المصرية.

ثانياً ـ جلاء المصريين عن دمياط

اعتلت شجرة الدر عرش السلطنة، والفرنج ما زالوا في البلاد، ومدينة دمياط في قبضتهم، وهذا يعني أن الخطر الصليبي لا يزال جاثماً على أرض مصر. لذلك كان اهتمام شجرة الدر بتحرير دمياط من الفرنج أولاً، وانهاء المفاوضات التي بدأت معهم على عهد ثوران شاه لترحيلهم عن البلاد المصرية، فندبت الأمير حسام الدين أبو علي الهذياني نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك لويس التاسع الذي كان أسيراً في المنصورة، على تسليم دمياط وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله إلى عكا، وترك معدات القتال والأسلحة والذخائر

3 ـ المصدر نفسه ص 108.

4 ـ أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج 6، ص 190.

والمؤن غنيمة للمصريين[1]. قبل لويس التاسع بشروط الاتفاق وأرسل إلى الصليبيين بدمياط بتسليم المدينة للمسلمين، ولكنهم تمنعوا، فكرر أوامره إليهم حتى وافقوا أخيراً على ذلك، ودخل المسلمون دمياط في الثاني من صفر سنة 648 الموافق السادس من أيار 1250، وفي الوقت نفسه قامت الملكة مرغريت دي بروفانس التي رافقت زوجها في تلك الحملة، وبقيت بدمياط مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية، بجمع المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية، فأفرج عن زوجها، أما بقية السرى وعددهم أكثر من اثني عشر الف أسير فقد ظلوا في الأسر لحين دفع باقي المبلغ المطلوب[2] وهكذا استعيدت دمياط بعد أن ظلت في أيدي الصليبيين أحد عشر شهراً وتسعة أيام.

وفي الثالث من صفر سنة 648هـ الموافق السابع من ايار أبحر لويس التاسع وأتباعه إلى عكا، وبذلك انتهت الحملة الصليبية السابعة.

ثالثاً ـ الموقف الأيوبي من السلطنة الأيوبية

كانت شجرة الدر أول إمرأة تتبوأ العرش في مملكة إسلامية فقد قوبل اعتلاؤها بكثير من الدهشة والاستنكار، وقامت المظاهرات والاضطرابات في القاهرة حتى اضطرت الحكومة إلى غلق أبواب المدينة منعاً لتسرب أنباء الفوضى إلى بقية البلاد، ويبدو أن رجال الدين كانوا من وراء هذه الحركة المعارضة ويحدثنا السيوطي من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وهو أكبر زعيم ديني في تلك الفترة كتبت كتاباً حول ما قد يبتلي به المسلمون بولاية امرأة، مستنداً إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا أفلح قوم ولو أمرهم امرأة»[1]. وأبى

1 ـ عبد الله عنان: تراجم إسلامية ص 81.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 363.

1 ـ السيوطي: حسن المحاضرة... ص 34. وانظر أبو الفداء. المختصر في تاريخ البشر ج 3، ص 190.

الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة في دمشق وكثير من الأمراء أن يقدموا الطاعة للملكة وأن يكونوا تحت سلطانها، وأرسلوا إلى الناصر صاحب حلب يطلبون إليه القدوم إلى دمشق لتسلم المدينة فجاء إليها وتسلمها[1].

خاف المماليك البحرية مغبة الأمور، وأدركوا أن موقف الأيوبيين في الشام يهدد بالقضاء على سلطانهم في مصر، فكتبوا إلى الخليفة العباسي المستعصم يطلبون منه تأييد سلطنة شجرة الدر. غير أن الخليفة عاب عليهم إقامة امراة في السلطنة، وكتب إليهم قائلاً: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً»[2]. ولما وصل خطاب المستعصم إلى القاهرة، اقتنع المماليك بخطأ تصرفهم وقالوا: «لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة، ولا بد من إقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه». فأشاروا على شجرة الدر بأن تتزوج الأتابك عز الدين أيبك، وتتنازل له عن السلطنة[3]. فقبلت شجرة الدر لأنها لا تريد أن تكون سبباً في تمزيق المملكة التي عملت كثيراً لدعم قوتها ووحدتها، واتخذت الأمير عز الدين أيبك زوجاً لها في 19 ربيع الثاني سنة 648هـ/ تموز سنة 1250. بعد أن ظلت في السلطنة ثمانين يوماً برهنت فيها على «حسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها»[4].

رابعاً ـ السلطان المعز أيبك

تولى عز الدين أيبك عرش مصر سنة 648هـ ـ 1250م ليجد نفسه أمام عدد من الأخطار، أولها خارجي تمثل في تهديدات الأيوبيين والصليبيين، وثانيها

---

1 ـ المقريزي: نهاية الأرب ج 27، ص 97.

2 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ص 39.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 368 ـ 369.

4 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 4، ص 373.

داخلي وهي الثورة الشعبية التي قام بها العريان في مصر، بالاضافة إلى خطر المماليك البحرية، ثم المشكلة الداخلية الكبرى التي أودت بحياته وكان سببها شجرة الدر.

1 ـ الخطر الأيوبي الصليبي

رفض الأمراء الأيوبيون الاعتراف بسلطنة عز الدين أيبك واستعدوا بزعامة الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق للزحف باتجاه مصر لإعادة الدولة الأيوبية. لكن أيبك أسرع في القضاء على هذه المعارضة بإقامة أمير من بني أيوب إلى جانبه، فأتى بطفل من بني أيوب يدعى الأشرف موسى لا يتجاوز عمره ست سنوات وأقامه سلطاناً ليكون شريكاً له في الحكم، وصار يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها، في الوقت الذي «كان الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير، وجميع الأمور بيد المعز أيبك»[1].

غير أن هذه الحيلة لم تنطل على الأيوبيين[2]. عندئذٍ أعلن أيبك أن مصر تحت سلطة الخلافة العباسية وهو يحكم بصفته نائب الخليفة المستعصم[3].

سعى الملك الناصر يوسف إلى إقامة تحالف أيوبي ـ صلب ضد المماليك في مصر، فعرض على الملك لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة المقيم في عكا، تسليمه بيت المقدس الذي كان تحت امرة الأيوبيين مقابل المساعدة العسكرية، لكن أيبك علم بأبناء هذه المفاوضات، فأرسل إلى لويس التاسع تهديداً بقتل أسرى الصليبيين المقيمين في مصر إذا قدم أية مساعدة للملك الأيوبي، وفي الوقت ذاته أبدى له استعداده لإعادة النظر في معاهدة دمياط، والتنازل له عن نصف

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 373.

2 ـ المصدر نفسه ج 7، ص 6، وانظر المقريزي السلوك ج 1، ص 369.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 370.

الفدية المقررة، إذا تحالف معه ضد الملك الناصر، غير أن الملك لويس رفض الانضمام إلى جبهة معينة حتى يرى ما تسفر عنه الأحداث.

ولما فشل الملك الناصر في استمالة لويس التاسع، زحف بجيشه على مصر لمحاربة المماليك والقضاء عليهم، حيث دارت معركة فاصلة بين الطرفين قرب العباسية بالشرقية سنة 648هـ/ الثالث من شهر شباط 1251م انهزم فيها الأيوبيون، وفر الناصر يوسف ورجاله عائدين إلى الشام، بعد أن فقدوا عدداً كبيراً من القتلى والأسرى[1]. بعد انتصار المماليك على الأيوبيين استجاب لويس التاسع لطلب أيبك ووقف إلى الجانب المصري واتفق الطرفان على القيام بحملة مشتركة لطرد الأيوبيين من بلاد الشام، على أن يستولي لويس التاسع على يافا بينما يحتل أيبك غزة، وبعد اتصال الجيشين يتم الزحف على الولايات الأيوبية[2].

علم الناصر يوسف بأخبار هذا التحالف، فأفسح المجال أمام لويس التاسع ليدخل يافا دون مقاومة، بينما سبق المماليك إلى احتلال غزة، وبذلك استطاع أن يمنع اتصال المماليك بحلفائهم الصليبيين، وأصبحت المواجهة بين المماليك في الصالحية والأيوبيين في غزة محتمة، إلى أن أنقذ الموقف الخليفة العباسي المستعصم الذي كان يعمل على توحيد الجهود الإسلامية لمواجهة خطر المغول الذي بدأ يهدد المشرق العربي الإسلامي. فأرسل رسول إلى الناصر يوسف الأيوبي «يأمره بمصالحة الملك المعز أيبك وأن يتفقا على حرب التتار»[3].

استجاب الناصر يوسف لطلب الخليفة. وتم الصلح بين الطرفين في سنة 651هـ/ نيسان 1253م على أن تكون مصر وجنوب فلسطين بما فيها غزة وبيت

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 373 ـ 375. وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج 7، ص 8. وانظر ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2 ص 382 ـ 383.

2 ـ Grousset: Hist. des croisades. T. III. P. 502.

3 ـ السبكي: طبقات الشافعية ج 2، ص 113.

المقدس للمماليك وللأيوبيين ما وراء ذلك من بلاد الشام[4].

وبذلك ارتاح السلطان أيبك من الموقف الأيوبي العدائي. وفشل لويس التاسع في امتلاك القدس، وعاد إلى بلاده في سنة 652هـ/ 1254م.

2 ـ ثورة العرب ضد المماليك

لم ترضى القبائل العربية التي استوطنت مصر منذ الفتح الإسلامي وأصبحت تشكل أساس الشعب المصري حكم المماليك الذين بالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب[1]. فتحرك بعض هؤلاء العرب يساندهم بعض الفئات الشعبية. بقيادة الشريف علوي حصن الدين بن ثعلب الذي اعتبر أن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للمماليك الأرقاء «أن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق»[2].واقام دولة عربية إسلامية مستقلة في مصر الوسطى وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري (بلبيس).

سعى الشريف حصن الدين إلى الاتصال بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيبك ولكن الملك الناصر لم يكن في استطاعته تقديم المساعدة بعد الصالحة التي فرضها الخليفة المستعصم بين الأيوبيين والمماليك ـ تكلمنا عنها سابقاً.

أرسل السلطان أيبك الفارس أقطاي على رأس حملة عسكرية قوامها خمسة آلاف فارس من خيرة المماليك استطاعوا التغلب على العرب رغم كثرة عددهم في بلبيس سنة 651هـ/ 1253م. لكن حصن الدين ظل طليقاً يحكم

---

4 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 385 ـ 386. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 10.

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 380. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 9.

2 ـ المقريزي: البيان والاعراب... ص 24 ـ 25.

وانظر القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 68.

مصر الوسطى، ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من السلاطين من القبض عليه حتى تمكن الظاهر بيبرس من اعتقاله وشنقه بالاسكندرية[1]. وبالرغم من ذلك فإن الثورات العربية لم تهدأ طوال فترة حكم المماليك الذين استخدموا أبشع الوسائل للقضاء عليها، مثل التسمير، والمعاصر وسلخ الجلود. مما أدى إلى هجرة عدد كبير من المزارعين العرب إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الاشتراك في المنازعات والاضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك[2].

3 ـ القضاء على خطر المماليك البحرية

ومن المشاكل التي واجهت السلطان أيبك كان خطر زملائه من المماليك البحرية الذين ازداد نفوذهم بعد انتصارهم على الملك لويس التاسع في المنصورة، ثم عقب انتصارهم على الناصر يوسف الأيوبي عند العباسية، مما جعلهم يتمادون في غيهم وافسادهم حتى بدأ أيبك يتوجس خيفة منهم. ولحماية نفسه من شرهم أنشأ فرقة المماليك المعزية نسبة إلى لقبه (الملك المعز) وعين مملوكه قطز نائباً للسلطنة بمصر. وليظهر حسن نيته تجاه المماليك البحرية أقطع زعيمهم الفارس أقطاي ثغر الاسكندرية، ولكن ذلك لم يفلح في الحد من شرهم كما يقول المقريزي «فكثر تمردهم وطغيانهم»[3]. وأخذ أقطاي يرنو علانية نحو السلطنة وتزوج من إحدى أميرات البيت الأيوبي وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين ملك حماة. وطلب من أيبك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل لكونها من بنات الملوك، فلم يبق بعد ذلك أدنى شك لدى أيبك من نوايا أقطاي، فصمم على التخلص منه

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 388. وانظر شهاب الدين العمري: التعريف بالمصالح الشريف ص 188.

2 ـ د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 117.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 384.

قبل أن يستولي على الحكم، فاستدرجه إلى قلعة الجبل حيث انقض عليه المماليك المعزيزية بقيادة قطز وقطعوا رأسه ورموا به فوق السور.

علم المماليك البحرية بقتل أقطاي فأسرعوا للنجدة بقيادة الأميرين بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي، فلما شاهدوا رأس أقطاي وهم خارج القلعة[1]. اعتراهم الخوف ولاذوا بالفرار إلى بلاد الشام، حيث دخل بعضهم في خدمة الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق، والمغيث عمر ملك الكرك، كما التجأ البعض الآخر إلى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباد صاحب قونية بآسيا الصغرى[2].

4 ـ مقتل السلطان أيبك وشجرة الدر

كانت شجرة الدر بطبعها تميل إلى السيطرة والتحكم وحب السلطان، مما جعل من الصعب عليها أن تقبل بالتنازل عن السلطة والانزواء محرومة من كل نفوذ، لذلك لم تكد تتنازل عن السلطان لزوجها أيبك، حتى شعرت بالندم، وأخذت تفكر في التخلص منه، رغم أنها سيطرت عليه سيطرة تامة بحيث صار في جميع أحواله «ليس له معها كلام»[3]. وأخذت تراسل المماليك البحرية بالكرك وتعقد معهم الاتفاقيات، ولكي تضمن نجاح خطتها اتصلت بالناصر يوسف الأيوبي في الشام «وأعلمته أنها قد عزمت على قتل أيبك والتزوج به وتمليكه مصر» ولكن الناصر يوسف خشي أن يكون هذا خديعة للتخلص منه هو فلم يجبها بشي[4]. ويظهر أن أيبك أخذ يشعر بما تدبره له شجرة الدر من مؤامرات، فعزم

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 390 وابن اياس: بدائع الزهور، ج 1 ص 90.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 393 وانظر أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج 3، ص 198.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 374.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 404.

على الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل؛ لكن شجرة الدر كانت له بالمرصاد، ويقول المقريزي: «فتخيلت منه أنه ربما عزم على إبعادها أو إعدامها لأنه سئم من حجرها واستطاعتها، فعاجلته وعزمت على الفتك به، وإقامة غيره في الملك»[1].

ورغم حذر أيبك منها، وإقامته بمناظر اللوق خارج القلعة، إلا أنه وقع في فخ شجرة الدر التي أرسلت إليه رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور إليها بالقعلة فاستجاب أيبك لدعوتها وصعد إلى القصر السلطاني حيث كمن له جماعة من المماليك الخصيان وقتلوه في الحمام في 23 ربيع الأول 655/ نيسان 1257م[2]. ولكن مماليك المعز أيبك لم يغفروا لشجرة الدر فعلتها الشنيعة فألقوا القبض عليها، وأمروا بعض الجواري بقتلها، فأماتوها ضرباً بالقباقيب وألقوها من سور القلعة إلى الخندق طارحين جثتها للكلاب[3].

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 375.

2 ـ المصدر نفسه ج 6، ص 376. والمقريزي: السلوك: ج 1، ص 403.

وانظر ابن اياس: بدائع الزهور، ج 1 ص 91 ـ 92.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 404. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 376 ـ 377.

الفصل الثالث

قطز والمغول

أولاً ـ سلطنة علي بن أيبك

بعد مقتل أيبك لم يستطع المماليك الاجماع على أحدهم ليتولى منصب السلطنة، فقر رأيهم على اختيار نور الدين علي بن أيبك سلطاناً على مصر في ربيع الأول سنة 655هـ/ 1257م، ولقبوه بالملك المنصور وكان في الخامسة عشر من عمره، واختير الأمير سيف الدين قطز أتابكاً له[1].

تمكن قطز من فرض نفوذه على الملك المنصور بحيث أصبحت السلطنة الفعلية بيده، معتمداً في قوته على المماليك المعزية مما دفع بعض المماليك الصالحية التي اعترضت على سلطنة المنصور اللجوء إلى الملوك الأيوبيين بالشام ولا سيما المغيث عمر صاحب الكرك حيث أخذوا يحرضونه على الاستيلاء على مصر ملك أبائه وأجداده حتى استجاب لدعوتهم وسعى بمعونتهم لاسترجاع ملكه المسلوب مرتين الأولى في ذي القعدة سنة 655هـ/ 1257م والثانية في ربيع الأول سنة 656هـ/ 1258م ولكنه فشل في كليتهما ورجع خائباً مهزوماً بعد أن استطاع قطز صدهم وانزال الهزيمة بهم عند الصالحية[2].

وفي خضم هذا الصراع بين الأمراء الأيوبيين والمماليك، إذا بالأخبار تصل

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 376.

2 ـ المقريزي: السلوك، ج 7، ص 402.

إلى مصر بأن المغول استولوا على بغداد في صفر سنة 656هـ/ شباط 1258م قلعة الإسلام وحاضرة العباسيين وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي، وحرقوا الجوامع والمساجد، وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات[1]. وتوجس الناصر يوسف الأيوبي خيفة من التقدم المغولي، وقدر أن هولاكو سوف يستولي على الشام بين فينة وأخرى، لذا أرسل ابنه الملك العزيز محمد إلى هولاكو يطلب مساعدته في الاستيلاء على مصر من المماليك، لكن هولاكو استخف بهذا الوفد الذي لم يناسب مقامه، وأرسل إلى الملك الناصر رسالة يأمره فيها بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط، وعندما رأى الملك الناصر حبوط مسعاه، وأن محاولته هذه جعلته مريباً عند المسلمين، رد على رسالة هولاكو برسالة كلها قذف وسباب، ودفع ثمن ذلك غالياً عند وقوعه في قبضة هولاكو فيما بعد.

وصلت أخبار تهديد المغول لبلاد الشام إلى مصر، فاستغل قطز هذه الظروف وعقد اجتماعاً في القلعة للتشاور في الأمر وقال: «لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة!». فاستجاب الأمراء الكبار لطلب قطز ورضوا به سلطاناً ولقبوه المظفر[2]. ولكي يطمئن قطز لتوليته قبض على المنصور علي وسجنه مع أخيه وأمه في برج القلعة وتولى سلطنة مصر في سنة 657هـ/ نيسان 1259م وبذلك انتهى حكم المنصور علي بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام.

ثامناً: سلطنة سيف الدين قطز

أحكم قطز سيطرته على زمام السلطنة، فاعتقل من توهم خطره من

---

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 50.

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 77 ـ 78. والعيني: عقد الجمان ج 55، ص 419.

الأمراء، وبدأ يعد العدة لمواجهة الخطر المغولي الذي هدد الشام ومصر. ذلك أن المغول لم يلبثوا أن زحفوا من بغداد إلى الجزيرة بسرعة مذهلة ونهبوا ديار بكر وميافارقين ورأس العين وسروج وخلاط وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا الصبيان واستحبوا النساء وساقوهم إلى معسكراتهم[2]. ثم تابعوا زحفهم باتجاه حلب، ولم يوفق المسلمون في الدفاع عنها، فدخلها المغول وقتلوا ونهبوا وسلبوا «وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم»[1]. أدرك الناصر يوسف استحالة الوقوف وحده في وجه التتار، فأرسل إلى المغيث عمر صاحب الكرك والمظفر قطز صاحب مصر يطلب منهم النجدة للوقوف بوجه سيل المغيرين، وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز والناصر، فإن خطورة الموقف جعلت السلطان المملوكي يتناس الأحقاد ويقبل طلبه الخاص بإرسال نجدات عسكرية إليه، على أنه يبدو أن بعض أمراء الأيوبيين في الشام رأوا أن يخضعوا للغزاة حرصاً على كيانهم. ومن هؤلاء الملك الأشرف موسى سليل أسد الدين شيركوه الذي لم يكن يملك في ذلك الوقت إلا قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها. وكافأه هولاكو على ذلك بأن رد إليه امارة حمص التي أخذها منه الناصر يوسف سنة 646هـ/ 1248م، وجعله قائده العام في الشام.

خرج الناصر يوسف بجيشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعزيزية وعدة من البحرية على رأسهم الأمير بيبرس البندقداري، وخيم على يرزه[*]. على مسافة يسيرة من دمشق شمالاً، لكن تعدد عناصر جيشه المتنافرة جعل الناصر ينسحب إلى غزة حيث يكون على مقربة من نجدة السلطان قطز، لكنه ما كاد يصل

1 ـ المصدر نفسه: ج 7، ص 25.

2 ـ المصدر نفسه ج 7، ص 76.

(*) يرزة هي قرية بالغوطة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 1، ص 563.

إلى غزة على رأس جيشه حتى أخذ قطز في اغراء وحدات ذلك الجيش واجتذابها إلى ناحيته[1]. وذلك لأن قطز لم يكن يخشى شيئاً مثل وصول أمير أيوبي على رأس قوة حربية إلى حدود مصر، ونجحت إغراءات قطز حتى ألقى الناصر نفسه وحيداً في غزة، فخرج منها مع بعض أقاربه وحاشيته، واتجه إلى قطيا في جنوب فلسطين[2]. عله يجد فيها مأوى أو نجاة من المغول من ناحية والمماليك من ناحية أخرى، لكن اثنان من رجاله أخبرا كتبغا ـ نائب هولاكو بدمشق أسباب ارتداد الناصر عن الحدود المصرية، فأرسل كتبغا بعض فرسانه ألقوا القبض على الملك الأيوبي عند بركة زيزاء[3] وحملوه إلى هولاكو. لكن هذا الأخير أحسن استقباله ووعده بإحياء الدولة الأيوبية مقابل اعترافه بسلطان المغول وسيادة الخان الأكبر. وهذه الحقيقة إن دلت على شيء فإنها تدل عن مدى التشرذم الحاصل وقتذاك في العالم الاسلامي، وبدلاً من توحيد كلمة الأيوبيين والمماليك ضد الخطر المغولي زاد انقسامهم وتآمرهم على بعضهم البعض.

موقعة عين جالوت

بعد استيلاء هولاكو على حلب ودمشق، أخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس والتقدم لغزو البلاد المصرية، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله تهديد ووعيد، ويطلب من قطز التسليم ويقول له: «المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه. وسلطنا على من حل به غضبه... فاتعظوا بغيركم، وأسلموا

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين... ص 205.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 77.

3 ـ المصدر نفسه ج 7، ص 78.

إلينا أمركم قبل أن... تندموا... فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرقى لمن شكى، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم... فما بقي لنا مقصد سواكم...»[1].

لم يكترث قطز لخطاب هولاكو، إذ قبض على رسل المغول وأعدمهم توسيطاً(*) وعلق رؤوسهم على باب زويلة، ونودي في القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج إلى الجهاد[2]. وأخذ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للانفاق بفرض ضرائب جديدة على سكان مصر والقاهرة قوبلت بالرفض من جانب القضاة ورجال الدين[3]. ولما وجد قطز أن بعض الأمراء مترددون في الخروج لملاقاة التتر. صاح فيهم لاستنهاض همتهم بقوله: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين»[4].

وفي تلك الأثناء كان هولاكو قد علم بموت أخيه الخان الأعظم منجوقان، فأسند قيادة جيوشه في الشام إلى أبغا ورحل مسرعاً إلى بلاده. حيث تجري الانتخابات لاختيار خاقان المغول الجديد معتقداً أنه سوف يتم تعيينه خاقاناً للمغول نتيجة فتوحاته واتساعها، لكن التعيين وقع على أخيه قوبيلاي بطريقة منافية لقواعد الحكم التي قررها جنكيزخان. ومع هذا قبل هولاكو النتيجة احتراماً لأخيه قوبيلاي[5].

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 427 ـ 429.

(*) التوسيط وهو أن يضرب الشخص بالسيف ضربة تقطعه نصفين.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 429.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 392.

4 ـ تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج 5 ص 83.

5 ـ د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 134 ـ 135.

انتهز قطز فرصة عودة هولاكو ومعه القسم الأكبر من جيشه إلى فارس ليواجه المغول بقيادة كتبغا، وفي رمضان سنة 658/ آب 1260م خرج قطز من مصر على رأس الجيش المصري ومن انضم إليه من الجند الشامي وغيرهم، وأمر الأمير بيبرس أن يتقدم بقطعة من العسكر ليتجسس أخبار المغول الذين كانوا قد وصلوا إلى غزة. وتمكن بيبرس من أن يلحق بطلائع المغول هزيمة كانت الأولى في تاريخ المغول غير أنها لم تكن حاسمة، وأخذ بيبرس يناوش العدو ويراوغه حتى يخفي عنه تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز، زحف قطز عن طريق الساحل باتجاه طبرية، ويبدو أن وصول الجيش المملوكي الكبير إلى الشام أزعج الصليبيين في عكا، فخرجوا إلى السلطان قطز وعرضوا عليه المساعدة، فشكرهم وطلب منهم الحياد التام وإلا قاتلهم قبل أن يقاتل المغول إذا هم اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين[1].

علم كتبغا بوصول قطز على رأس جيشه إلى الشام فقرر منازلته رافضاً الأخذ بنصيحة أمراء المسلمين الخاضعين له بالتريث ريثما يعود هولاكو وصار باتجاه عين جالوت قرب بيسان في فلسطين وفي صباح يوم 26 رمضان سنة 658هـ/ الموافق الجمعة الثالث من أيلول 1260م التقى الفريقان في معركة هامة انتهت بقتل كتبغا وكثير من رجاله وهروب من نجا من التتر إلى التلال المجاورة[2] ومن الواضح أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ الشرق الأدنى، فقد وضعت حداً لدولة مغول فارس عند حدود العراق ولا تتعداه. وفتحت الطريق أمام المماليك للقضاء على الصليبيين وتحقيق الوحدة بين مصر وبلاد الشام.

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 429.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 7، ص 360.

نهاية قطز

بعد موقعة عين جالوت استطاع قطز إعادة الأمن إلى نصابه في جميع المدن الشامية، بعد أن قام بحركة تطهير سريعة للبلاد. فاسترد دمشق من المغول، في حين قام بيبرس البندقداري بمطاردة المغول حتى حلب[1]. كما سمح قطز لبعض أمراء البيت الأيوبي بالعودة إلى ولاياتهم في حمص وحماة، بعد أن أخذ عليهم المواثيق بالولاء ويدفع الجزية، وأنعم على أعوانه أمراء المماليك، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية اقطاعات جليلة بالشام، ورتب الأمير شمس الدين أقوش أميراً بالساحل وغزة، وعين علم الدين سنجر نائباً عنه في دمشق، ومنح نيابة حلب إلى الملك السعيد علاء الدين لؤلؤ بعد أن كان قد وعد بيبرس بإعطائه إياه تقديراً لجهوده وبلائه في حرب المغول، لكن قطز تنكر لوعوده واراد ابعاد بيبرس عن أية نيابة حتى لا يقوى مركزه، ناسياً أن الأمير ركن الدين بيبرس صار بعد أحداث المغول ذا مكانة كبيرة من الأهمية والقوة. بحيث أصبح يشكل خطراً على السلطان قطز في مصر.

إزاء تنكر قطز لبيبرس، اتفق هذا الأخير مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه، وقد واتته الفرصة أثناء عودة السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية. فثارت أرنب وجمحت، فأخذ قطز يتعقبها حتى ابتعد عن رفاقه. أخذ المتآمرون يتبعون خطوات السلطان حتى لم يبق معه غيرهم، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان شفاعة أحد الرجال فأجابه قطز إلى طلبه[2]. فتظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلطان اعترافاً بفضله، ولكن

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 429.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 7، ص 360.

لم يكد قطز يمد يده حتى وثب عليه بيبرس مع بقية الأمراء وقتلوه بسيوفهم في 15 ذي القعدة سنة 658هـ/ 12 تشرين الأول سنة 1260م. قبل أن يقطف ثمرة انتصاره[3].

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 81 ـ 82.

الفصل الرابع

السلطان الظاهر بيبرس وتأسيس الدولة المملوكية

بعد مقتل الملك المظفر قطز بايع أمراء المماليك الأمير بيبرس البندقداري سلطاناً على مصر في 19 ذي القعدة سنة 658هـ/ 26 تشرين الأول 1260م[1]. لقب بيبرس نفسه أول الأمر بالقاهرة، لكن الوزير زين الدين بن يعقوب أشار عليه بأن يغير لقبه إلى القاهر، باعتبار أن اللقب القاهر «ما تلقب به أحد فأفلح» فوافق بيبرس، وغدا لقبه السلطان الظاهر بيبرس[2]. كان بيبرس قوي الشكيمة شديد العزم استطاع بناء الدعائم التي أقام عليها سلاطين المماليك بعده دولتهم، حتى اعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأولى.

أولاً ـ القضاء على الثورات الداخلية

أ ـ في بلاد الشام

ما إن تولى بيبرس حكم مصر حتى بادر الأمير علم الدين سنجر الذي استنابه قطز بدمشق إلى الاحتجاج وأعلن نفسه سلطاناً على دمشق، وتلقب بالملك المجاهد، وأرسل إلى أصحاب في حماه وحمص وحلب يطلب منهم الدخول في طاعته، لكنهم رفضوا، فأرسل بيبرس حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقداري،

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج 7، ص 83.

2 ـ المصدر نفسه ج 7، ص 84.

نجحت في القبض على الأمير علم الدين سنجر واحضاره إلى القاهرة مكبلاً بالأصفاد في 16 صفر سنة 659هـ/ كانون الثاني 1261[1]، وولى بيبرس علاء الدين البندقداري نيابة دمشق وكلفه بالقبض على بعض الأمراء الذين تخوف منهم بيبرس، وكان منهم الأمير شمس الدين آقوش البرلي الذي استولى على حلب وعزم السير على مصر لغزوها، فأرسل بيبرس حملة شتت شمل جيشه، وتعقبت البرلي الذي استطاع الفرار حتى تمكنت من القبض عليه وحمله إلى مصر. وبالرغم من القضاء على هذه الحركات الانفصالية بسرعة. إلا أن بيبرس ظل يخشى قيام ثورة في الشام بقيادة المغيث عمر صاحب الكرك الذي كان يسعى لإعادة الدولة الأيوبية تحت زعامته فتحايل بيبرس حتى استحضره لمقابلته في بيسان وأمر باعتقاله في جمادي الأولى سنة 661هـ/ آذار 1263. وللتخلص منه ألصق بيبرس بالمغيث عمر تهمة الاتصال بالمغول لمساعدته في إعادة الدولة الأيوبية إلى الشام ومصر[2]. وأمر بقتله في القاهرة في جمادي الثانية 661هـ/ نيسان 1263[3]. وعين بيبرس على الكرك والياً من قبله.

ب ـ في البلاد المصرية

عرفت مصر في مستهل حكم بيبرس ثورة شيعية قامت في القاهرة تستهدف إعادة الخلافة الفاطمية، تزعمها رجل يعرف بالكوراني[*] أظهر الزهد والورع، وسكن بجبل المقطم، وجمع حوله جماعة من الناقمين على الحكم

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 441 ـ 451.

2 ـ المقريزي السلوك ج 1، ص 482 ـ 491 ـ 492. وابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 414.

3 ـ أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ج 3، ص 226.

(*) نسبة إلى كوران وهي بلدة من نواحي نيسابور بالقرب من جرجان: ياقوت: معجم البلدان ج 1، ص 246 ـ 247.

المملوكي، وأقطعهم الاقطاعات وكتب لهم الرقاع، وفي أواخر سنة 658هـ/ 1260، شق الثوار شوارع القاهرة ليلاً وهم يصيحون «يا ابا علي» وفتحوا حوانيت السيوفيين، وأخذوا ما فيها من سلاح، واقتحموا اصطبلات الجنود، وأخذوا منها الخيول. ولكن جند بيبرس أحاطوا بهم وألقوا القبض على جميع زعمائهم، فهدأت الثورة، وأمر بيبرس بصلب الكوراني وبعض الزعماء على باب زويلة[1].

ثانياً ـ إحياء الخلافة العباسية

بعد أن تمكن الظاهر بيبرس من القضاء على الثورات التي اعترضت سبيله في بداية حكمه، شعر بأنه في حاجة ماسة لإحياء الخلافة العباسية ليقيلها من عثرتها الدامية التي لحقتها بعد سقوطها على أيدي المغول سنة 656هـ/ 1258 وليظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة بعد أن حاول بعض حكام الولايات الإسلامية إحياء الخلافة في بلدهم ـ ليكتسبوا تشريفاً عظيماً من ناحية ويجعلوا بلاطهم قبلة بقية حكام العالم الإسلامي من ناحية أخرى. ولكن الظاهر بيبرس كان أسرع هؤلاء جميعاً إلى اتخاذ تلك الخطوة، فلم يكد يسمع بوصول أحد أبناء البيت الأيوبي واسمه أبو القاسم أحمد إلى دمشق حتى طلب في استدعائه، وأخذ كافة الاحتياطات للحفاظ على سلامته وراحته[2].

ومع وصول الأمير العباسي إلى مصر في رجب سنة 659هـ/ حزيران 1261 استقبله السلطان بيبرس خارج القلعة ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا وقاضي القضاة تاج الدين العلامي، والعلماء والأعيان والشهود والمؤذنون حتى

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 440.

2 ـ النويري: نهاية الأرب، ج 28، ص 18.

اليهود والنصارى، وكان يوماً مشهوداً بالغ فيه السلطان باحترام الأمير وإكرامه، وأنزله بقلعة الجبل، وفي 13 رجب 659هـ/ حزيران 1261 عقد بيبرس مجلساً بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء، ثم استدعى جماعة من العربان والبغاددة الذين قدموا مع الأمير العباسي من بغداد، فشهدوا أمام هذا الجمع أن الأمير أبا القاسم أحمد، ابن الخليفة الظاهر أمير المؤمنين عند ذلك أعلن قاضي القضاة تاج الدين العلامي بثبوت النسبة الشريفة إلى العباس بن عبد المطلب، وقام فبايع أبا القاسم بالخلافة، ثم تبعه السلطان بيبرس فبايعه، كما بايعه جميع من حضر المجلس من الأمراء والقضاة والفقهاء ورجال الدولة، ولقب الخليفة بالمستنصر بالله، ولما تمت البيعة قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما يضاف إليه، وبذلك تم لبيبرس ما اراد وأصبح يستند في حكمه إلى تفويض من السلطة الشرعية الكبرى في العالم الإسلامي، وهي الخلافة[1].

وعلى الرغم من الاحتياطات التي حرص عليها السلطان بيبرس لإثبات نسب الخليفة الجديد إلى العباسيين إلا أن شيئاً من الشك حول صحة النسب قد ساور الكثيرين، فيقول أبو الفداء: «وفي رجب سنة 659هـ قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد، وزعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله، ابن الإمام الناصر، فيكون عم المستعصم...»[2]. أما مفضل بن أبي الفضلاء فيسمي هذا الخليفة الجديد باسم «المستنصر الأسود»[3]. بينما يروي أبو شامة وهو المؤرخ المعاصر الحدث في عبارة لا تخلو من الشك والسخرية وهي «وفي تاسع عشر رجب قرىء بدمشق بالمدرسة العادلية كتاب ورد من مصر من السلطان

1 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 1 ص 451. والمقريزي: السلوك ج 1، ص 451.
وأبو شامة: كتاب الروضين، ص 213، والنويري: نهاية الأرب ج 28، ص 18.
2 ـ أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، ج 3، ص 213 و ج 4 ص 8.
3 ـ مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد ص 105.

الملك الظاهر بيبرس يتضمن أنه قدم عليهم بمصر أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد... أمير المنافقين»[1].

لكن بيبرس الذي بذل كل ما بوسعه ليضفي على نفسه وعلى ملكه صفة شرعية، عاد وأحس بأنه أوجد لنفسه شريكاً في الملك، فالنقود صارت تضرب باسم السلطان والخليفة معاً كما صار يدعى للخليفة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان. كل هذه الأمور دفعت بيبرس ليغير موقفه من الخليفة، ويسعى للتخلص منه، فادعى أنه يرغب في إعادة الخليفة إلى قاعدة العباسيين في بغداد، واكتفى بأن جهزه بثلاثمائة فارس ـ كأنما أراد أن يلقي به إلى التهلكة ـ وخرج معه إلى دمشق، وهناك ترك بيبرس الخليفة يخترق الصحراء قاصداً العراق بهذا العدد الضئيل من الجند، وبالقرب من الأنبار التقت جيوش التتار بقيادة أبغا بجيوش الخليفة في 2 محرم سنة 660هـ/ 1262، ودارت بين القوتين معركة غير متكافئة انتهت بمقتل الخليفة ومعظم رجاله[2]. بعد مقتل الخليفة المستنصر عاد بيبرس وأحس أن إحياء الخلافة العباسية بمصر أمر ضروري تستفيد منه الدولة المملوكية، لذلك لم يجد بيبرس مفراً من استدعاء أمير جديد من بني العباس وهو الأمير أبو العباس أحمد، وبايعه بالخلافة، كما حصل على تقليد منه بالسلطنة في محرم سنة 662هـ/ 1263[3] وهكذا أحيت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة. لكن بيبرس حرص في تلك المرة على الحد من نفوذ الخليفة الجديد الذي لقب بالحاكم بأمر الله، فلم يأمر أن يقرن اسم الخليفة باسمه على السكة، وأسكنه أحد ابراج القلعة محترزاً عليه، ولم يترك له غير الدعاء في الخطبة فقط.

---

1 ـ أبو شامة: كتاب الروضتين ص 235.

2 ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 318. وابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ ج 20، ص 430.

3 ـ المصدر نفسه ص 318.

وعلى هذا الأساس لم تكسب الخلافة العباسية في أحيائها إلا كسباً زائفاً، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت في وضع مهان تقريباً يزينون مجالس السلطان للوفود والسفراء دون اي تدخل في شؤون الدولة المملوكية[1]. وفي هذا الصدد يقول المقريزي[2]: إن خلافة الخليفة العباسي «ليس فيها أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين»[2]. أما الذين استفادوا من ذلك الأحياء فسلاطين المماليك الذين أصبحوا يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامي امتد منذ ذلك الوقت إلى الفتح العثماني سنة 1517، وفي ذلك يقول ابن شاهين الظاهري: «لا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله. فإنه الآن أعلا الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين...»[3].

ثالثاً ـ تحصين الأطراف والثغور والعناية بالبريد

بعد أن استطاع بيبرس من اخضاع جميع المناوئين له من المماليك والأيوبيين، وإقامة الخلافة العباسية في القاهرة، أخذ يعمل على تحصين دولته وتأمين حدودها ضد أي غزو خارجي، فكان أول عمل قام به أنه أمر نوابه بحلب سنة 660هـ/ 1262 بإحراق المروج والأعشاب في الأطراف الشمالية من ممتلكاته حتى لا يجد أعداؤه المؤن والعلف أثناء هجومهم على الشام، وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده تهديدهم لهذه الجهات[4]. ثم أمر بيبرس سنة 662هـ/ 1263 بإعادة بناء القلاع التي خربها المغول من حمص إلى حوران وزودها بالمؤن والذخيرة، فأقام

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 34، ص 275.

2 ـ المقريزي: المواعظ ج 3، ص 394.

3 ـ ابن شاهين: زبدة كشف المماليك ص 92.

4 ـ Lane poole: Ahistory of Egypt... op. cit., p. 266. -

وانظر ابن واصل: مفرج الكروب ج 2 ص 405 ـ 406.

بذلك خطاً حصيناً من شرق الأردن إلى نهر العاصي، فضلاً عن أبراج المراقبة التي اقامها على طول الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج[1].

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أمر في سنة 663هـ/ 1264 بتجديد بناء القلاع التي على الحدود الفراتية ولا سيما قلعة البيرة التي ارسل إليها آلات القتال والأسلحة من مصر والشام، وعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنوات كل تظل شوكة في جنب المغول[2]. أما في مصر فإن السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخوراً كبيرة ليمنع مرور سفن الصليبيين وتتكرر مأساة دمياط من جديد، كما شيد برجاً للمراقبة في رشيد، وعمر أسوار الاسكندرية وجدد بناء المنار الذي بها[3].

ولضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة في تلقي الأخبار وإصدار الأوامر، وضع بيبرس للبريد نظاماً خاصاً لربط قلعة القاهرة بسائر أنحاء الدولة عن طريق البر بواسطة الخيل[4]. أو عن طريق الجو بواسطة الحمام الزاجل، بحيث أصبحت الرسائل تنقل من دمشق إلى القاهرة في مدة لا تزيد عن ثلاثة ايام[5].

رابعاً ـ الاهتمام بالأسطول والجيش

يعتبر بيبرس المؤسس الحقيقي لقوة المماليك البحرية، فقد بلغ من اهتمامه بدور صناعة السفن في الفسطاط وجزيرة الروضة، والاسكندرية ودمياط أنه كان

1 ـ Wiet, Hist, d'Egypte. T. II. P. 25. -
وانظر القلقشندي: صبح الأعشى ج 14، ص 339.
2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 525. وابن أياس: بدائع الزهور، ج 1 ص 111.
3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2 ص 402 ـ 403. والمقريزي: السلوك ج 1، ص 471.
4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 11 ص 372 ـ 382.
5 ـ المصدر نفسه ـ ج 14، ص 389 ـ 414.

يشرف بنفسه على بناء الشواني، وتجهيزها بالآلات[1]. ولتأمين الأخشاب التي تصلح لبناء السفن فرض بيبرس احتكاراً على أشجار السنط في الوجه القبلي وحول مدينة السويس في صحراء سيناء، ومنع الناس من بيعه أو شرائه[2]. كما استورد السلطان الخشب والحديد من آسيا الصغرى وايطاليا، وبذلك تمكن من اعداد أسطول من خمسين قطعة[3].

ولتدعيم قوته العسكرية، أكثر بيبرس من شراء المماليك من بني جنسه من بلاد القفجاق. ويقول القلقشندي: على عهد بيبرس تم الاستكثار من مماليك القفجاق «حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعالم، محمية الجوانب، منهم زعماء جيوشها وعظماء أرضها، وحمد الإسلام مواقفهم في حماية الدين حتى أنهم جاهدوا في الله أهليهم»[4]. وفي سنة 660هـ/ 1262 عقد بيبرس محالفة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل[5]. كما تحالف مع بركة خان زعيم مغول القفجاق[6]. وعز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى[7]. مما سهل في عملية جلب المماليك. فكان يرسل سفينتين مصريتين كل سنة فيسهل الامبراطور البيزنطي مرورهما عبر البوسفور إلى البحر الأسود، لنقل المماليك من بلاد القفجاق إلى الاسكندرية ودمياط[8]. ويحدثنا بعض المؤرخين أن جماعات من مغول القفجاق وفدت مستأمنة إلى مصر في عهد بيبرس وانضمت إلى جيشه،

---

1 ـ المقريزي: الخطط ج 1 ص 601.

2 ـ سعيد عاشور: مدينة السويس منذ الفتح العربي إلى بداية العصر الحديث ص 77.

3 ـ ابن أياس بدائع الزهور ج 2، ص 182. والمقريزي السلوك ج 1، ص 447.

4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 458.

5 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 402 ـ 403.

6 ـ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 140. وانظر المقريزي السلوك ج 1، ص 465.

7 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 469. وابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 401.

8 ـ المقريزي: الخطط ج 2، ص 180 ـ 297. إلى الوراء.

وسميت بالوافدية أو التتر المستأمنة، وقد أنزلهم السلطان في دور بناها لهم قرب اللوق بظاهر القاهرة[1].

وفي هذا الصدد يقول المقريزي: «ثم كثرت الوافدية أيام الملك الظاهر بيبرس، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم وطرائقهم»[2]. وهكذا استطاع بيبرس بفضل هذه العناصر المجلوبة أن يملأ صفوف جيشه حتى بلغت عدته أربعين ألف فارس[3].

خامساً ـ بيبرس والصليبيون

مهد بيبرس لحربه الشاملة ضد الصليبيين بتحالفه مع بعض القوى الخارجية لكل من الصليبيين والمغول، فخالف الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس وعقد معه حلفاً دفاعياً سنة 660هـ/ 1262 لعلمه أن الامبراطورية البيزنطية كانت دائماً العدو اللدود للبيزنطيين بالشام[4] كذلك حالف السلطان بيبرس ملك صقلية ونابولي منتفرد بن فردريك الثاني هوهنشتاوفن، فضلاً عن تحالفه مع ملك قشتالة الفونسو العاشر سنة 659هـ/ 1261. كذلك حالف بيبرس مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين بقيادة بركة خان وهو أول من اعتنق الإسلام من أولاد جنكيزخان واشتدت العداوة بينه وبين مغول فارس الوثنيين[5].

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 500 ـ 501.

2 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 221.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 197.

4 ـ بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، ج 9، ص 262. وابن واصل: مفرج الكروب ج 2 ص 402 ـ 403.

5 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 465. وابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 139 ـ 140.

ومن الواضح أن هذه التحالفات التي أبرمها السلطان بيبرس مع ملوك الدول المحيطة به شرقاً وغرباً شدت أزره، وجعلت دولة المماليك ـ على الأقل ـ في مأمن من جانبها لتحول جهودها بإتجاه المغول والصليبيين.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن ما هي الأسباب التي دفعت بيبرس وخلفائه إلى تغيير سياسة المسالمة التي كانت بين الصليبيين والمسلمين سنة 1254هـ/ 1260 إلى سياسة عدائية؟

لا شك أن السبب في ذلك يرجع إلى الصليبيين الذين نقضوا الهدنة مع المسلمين ـ التي وقعت مع لويس التاسع ملك فرنسا بعد معركة المنصورة ـ بتعاونهم مع مغول فارس ضد دولة المماليك، وأخذوا يعملون كأدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الأراضي الشامية. وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي أتاح لهم تحركات الجيوش المصرية والشامية وإحاطة المغول علماً بها، مما سهل عليهم إحباط خطط المسلمين في كثير من الأحيان، ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو، بل نجد أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري أو الدفاع المشترك ضد المسلمين ومهما يكن من شيء فإن هذه الخيانة من جانب الصليبيين في الشام كانت السبب الحقيقي لسياسة العنف والقسوة التي اتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين.

بدأت الحرب الشاملة بين بيبرس والصليبيين في أوائل سنة 663هـ/ 1265م عندما دخل بيبرس في عمليات واسعة النطاق في ساحل الشام، واستولى على مدينة قيسارية في جمادي الأولى سنة 663هـ/ 1265م. وذلك بعد حصار استمر ستة أيام، ثم استولى على أرسوف في جمادي الثانية من السنة نفسها. وفي العام التالي هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية صليبية خطيرة في الشام هي قلعة صفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية وبعد قتال عنيف تمكن بيبرس

من الاستيلاء عليها[1].

ومهما يقال بأن بيبرس استولى على صفد بعد أن أعطى الأمان لحاميتها ثم نكث بوعده وأمر بقتل حاميتها. فاتهمته المصادر الصليبية بالخيانة والغدر، أليست صفة الغدر من صفات الصليبيين، ولعل مذبحة أرسوف والتنكيل بالشيوخ والأطفال والنساء خير دليل على ذلك كان سقوط قلعة صفد في يد المسلمين، ضربة قاسية أصابت الصليبيين وحطمت معنوياتهم، مما دفع البعض منهم إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس يتنازل بموجبها عن نصف أو جزء من غلات البلاد ومنتجاتها[2]. وكانت أشهرها، الهدنة التي أبرمها بيبرس مع ايزابيلا ملكة بيروت في 6 رمضان 667هـ/ 1269[3]. وايزابيلا هي ابنة الملك جان الثاني دو ايلان التي خلفته في حكم بيروت والمناطق المحيطة بها سنة 662هـ/ 1264م، وكانت تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة، وهو تعريب لاسم عائلتها الحاكمة في بيروت دو ايلان.

وفي سنة 666هـ/ 1268 استولى بيبرس على مدينة يافا، ثم وجه ضربة إلى امارة أنطاكيا في الشمال فسقطت في 4 رمضان 666هـ/ أيار 1268، بعد أن قتل فيها أكثر من أربعين ألفاً، وكانت الغنائم كثيرة من الأسرى والمال[4].

كانت خسارة الصليبيين بسقوط أنطاكية ضخمة لأنها كانت كبرى اماراتهم بالشام، وتاني إمارة أسسوها بعد الرها، ثم أنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سنداً قوياً للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية وبسقوطها لم يبق

---

1 - Stevenson: the Crusades...p. 339.

2 - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 7، ص 150.

والقلقشندي: صبح الأعشى، ج 14 ص 42 - 51.

3 - القلقشندي: صبح الأعشى، ج 14، ص 39 - 42.

4 - المقريزي: السلوك ج 1، ص 567 - 568. وأبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 7 ص 143.

للصليبيين بعد ذلك من المدن الكبرى سوى عكا وطرابلس.

وفي سنة 669هـ/ 1270 بدأ بيبرس في مهاجمة طرابلس فاستولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة ومن أهمها حصن الأكراد وحصن عكار، وأصبح في استطاعته حصار طرابلس نفسها ولكن الأنباء الواردة بوصول الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع، أنقذت طرابلس من هذا المصير، لأن السلطان بيبرس عاد مسرعاً إلى مصر إذ كان يخشى أن يعيد ملك فرنسا قصة المنصورة مرة أخرى انتقاماً لهزيمته أثناء الحملة السابعة، لكن أخاه شارل دو أنجو ملك جزيرة صقلية أقنعه بوجوب توجه الحملة نحو تونس نظراً لأهمية موقعها بالنسبة إلى صقلية.

لم تكد المراكب الفرنسية تصل إلى الشواطىء التونسية حتى أصيب الملك لويس التاسع بحمى شديدة مات على أثرها ومات معه ابنه تريستان، وتولى أخوه قيادة الحملة، فأخذ يسيرها وفق أغراضه حتى أزال عنها صفتها الصليبية، وأجرى مفاوضات مع باي تونس الخليفة المستنصر الحفصي في ربيع الأول 669هـ/ 1270 تعهد بموجبها الحفصي بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين، وانسحبت الحملة عن تونس بعد أن سخط الصليبيون الذين اشتركوا في الحملة على دو أنجو الذي سخر الحملة لمصالحه الشخصية[1].

بعد أن اطمأن بيبرس على مصير الحملة الصليبية الثامنة غادر مصر إلى بلاد الشام حيث قام بمحاولة جريئة فأرسل في سنة 669هـ/ 1270 حملة بحرية لغزو جزيرة قبرص التي كان يحكمها آنذاك الملك هيو الثالث لوزجنان الذي اشتهر بعداواته الشديدة لدولة المماليك وبتهديده المستمر لسفن المسلمين في شرق

---

1 ـ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص 60.

حوض البحر المتوسط، أو مساعدته للصليبيين ضد المسلمين بالشام[1]. ولكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بعد تحطم السفن الإسلامية عند شاطىء الجزيرة على أثر عاصفة شديدة هبت عليها[2]. لكن هذه الهزيمة لم تؤثر في قوة بيبرس تجاه الصليبيين كما أنها لم ترفع من المعنوية الصليبية في بلاد الشام، بدليل سعي معظم الإمارات الصليبية إلى مفاوضة بيبرس ومصالحته. وأخيراً توقف القتال بين المماليك والصليبيين سنة 670هـ/ 1271، وكان من شروط الصلح أن موت أحد الطرفين المتعاقدين ينقضي ما أبرم من صلح بينهما، واستمر الوضع على هذا الحال حوالي أربع عشرة سنة، حتى كان عهد السلطان المنصور قلاون.

سادساً ـ بيبرس وأرمينية الصغرى

لعبت مملكة أرمينيا الصغرى الواقعة في جنوب الأناضول وقيليقية دوراً خطيراً ضد دولة المماليك في مصر والشام، إذ أنها لم تكتف بمساعدة الصليبيين في الشام، بل تحالفت مع مغول فارس وأخذت تحرض هولاكو وابنه أيغا على غزو الشام ومصر، هذا إلى جانب الحصار الاقتصادي الذي فرضته على دولة المماليك بمنع تصدير الخشب والحديد من آسيا الصغرى إلى مصر[3].

لم يغفر بيبرس لأرمينيا الصغرى هذا الموقف المعادي. فأرسل إليها في صيف سنة 665هـ/ 1266 حملة كبرى بقيادة الأمير قلاوون أثناء غياب ملكها هيثوم الأول في زيارة لمغول فارس، وأنزلت هزيمة كبرى بالأرمن قرب درسباك في 24 آب من العام نفسه، ودمرت مدن أرمينية الصغرى وبخاصة أذنة

---

1 ـ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص 47 ـ 48.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7 ص 150 ـ 152. وابن عبد الظاهر الروض الزاهرة 375 ـ 380.

3 ـ د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ المماليك والأيوبيين ص 197.

وطرسوس والمصيصة وعاثت فساداً وتخريباً مدة عشرين يوماً، كما أشعلت النار في عاصمتها سيس، ثم عادت بغنائم كثيرة، وعدد من الأسرى من بينهم ابن هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى[1].

اضطر الملك هيثوم لكي يطلق سراح ولده التنازل للماليك عن بعض المواقع الاستراتيجية التي تربط أرمينية بحلفائها المغول في شمال العراق من ناحية، وبالصليبيين في أنطاكية من ناحية أخرى. كما تعهد الملك الأرمني بدفع جزية سنوية لسلطان المماليك. وباءت حركة العصيان التي قامت بها أرمينية الصغرى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون للتخلص من شروط المماليك القاسية بالفشل، وانتهت بالخضوع مجدداً والاعتراف بسيادة سلطان مصر والشام[2].

وفي الوقت الذي سعى فيه بيبرس إلى تأديب مملكة أرمينة وتضييق الخناق على الصليبيين بالشام، قام بمحاصرة الطائفة الباطنية الحشيشية التي كان لها دور خطير في تاريخ الحروب الصليبية. وامتهان السرقة والنهب في بلاد الشام، واغتيال كثير من زعماء حركة الجهاد من المسلمين ـ تكلمنا عنهم سابقاً عندما قاموا في محاولات عديدة لقتل صلاح الدين الأيوبي ـ وتحالفهم مع الصليبيين ضد المسلمين ودفعهم الضريبة للاسبتارية في حصن الأكراد رمزاً للتبعية، إزاء هذه التصرفات السيئة سعى بيبرس للقضاء على نفوذهم في بلاد الشام، فعزل مقدمهم نجم الدين حسون بن الشعراني، واستولى على حصونهم واحداً بعد آخر حتى استولى عليها جميعاً، وأرح البلاد من شرهم[3].

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 7، ص 140، المقريزي: السلوك ج 1، ص 552.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 552. وسعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينيا الصغرى ج 2، ص 1148.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 557.

سابعاً ـ حروب بيبرس ضد المغول

من المشكلات الضعيفة التي واجهت السلطان بيبرس منذ بداية حكمه، العداء بين المماليك والمغول الذي لم يتوقف منذ موقعة عين جالوت إذ ظل مغول فارس يتحينون الفرصة للأخذ بالثأر، ويغيرون بين فترة وأخرى على أطراف دولة المماليك الشمالية بالعراق والشام، وزاد من خطورة العداء بين الطرفين عندما ارتبط الخطر المغولي بخطر الصليبيين الذين حاولوا محالفة المغول للاستعانة بهم في غزو مصر والشام.

توفي هولاكو خان في سنة 663هـ/ 1265م غير أن وفاته لم يؤثر في حدة المغول وغلوائهم. إذ واصل ابنه ابغا «خليفته» سياسته العدائية تجاه المسلمين. وزاد عليها محالفته مع الصليبيين، مما زاد من خطورة الموقف العدائي بين المماليك والمغول، لكن بيبرس وقف دائماً بالمرصاد لأي تحرك. فلم يكد يسمع بإغارة المغول على قلعة البيرة على نهر الفرات حتى أرسل حملة سريعة لردهم، ففر المغول هاربين تاركين وراءهم أموالهم وأعتدتهم[1].

ولتضييق الخناق على مغول فارس تحالف بيبرس مع مغول القفجاق فتزوج ابنة زعيمهم بركة خان الذي اعتنق الإسلام وأعلن حرباً على بني جنسه مغول فارس[2].

في الوقت الذي أصبح فيه بيبرس من القوة والمتعة بسبب تحالفه مع القفجاق وسياسته الحكيمة كان مغول فارس يعانون من مشاكل داخلية تمنعهم من القيام بأية محاولة لغزو بلاد الشام في النصف الأخير من القرن الثالث عشر. لذلك لم ير أبغاخان غضاضة من أن يجري الصلح مع بيبرس. فأرسل إلى السلطان

---

1 ـ بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، ج 9، ص 90.

2 ـ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ص 494.

المملوكي رسالة سنة 666هـ/ 1268م يعرض عليه الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ، إذ قال: «فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً»[1].

خنق بيبرس من طلب آبغا ولهجته الآمرة، ورد على الرسول المغولي بقوله: «اعلم أنني وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض»[2].

استشاط آبغا من جواب بيبرس فأمر رجاله للإغارة على بلاد الشام سنة 668هـ/ 1269م فهاجموا الساجور، ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام الجيوش التي أرسلها بيبرس لمنازلتهم فارتدوا خائبين. وفي سنة 669هـ/ 1271م هاجم المغول عين تاب وعمق الحازم، إلا أن إغارتهم كانت محدودة الأهمية.

وإذا كانت هجرات المغول على بلاد الشام باءت بالفشل إلا أنها أقنعت السلطان بيبرس بضرورة ملاقاة التتر في عقر دارهم. توجه بيبرس سنة 670هـ/ 1272م على رأس جيش كبير، حاملاً عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال، وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه، واستطاع السلطان المملوكي الانتصار على الجيوش المغولة ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة 671هـ/ 1273م[3].

وهكذا استطاع بيبرس أن ينتصر على أعدائه في هذه الجبهة، وأن يؤمن بذلك حدوده الشرقية من الخطر المغولي.

وإذا كان الصراع بين المماليك والمغول قد انتهى على الحدود الشرقية إلا أنه

---

1 ـ المقريزي: ج 1/ ص 574.

2 ـ العيني: عقد الجمان ج 20، ص 549.

3 ـ فؤاد عبد المعطي الصياد: مؤرخ المغول رشيد الدين، ص 58 ـ 59.

ما لبث أن اشتعل على الحدود الشمالية لآسيا الصغرى والسبب في ذلك أن المغول تحالفوا مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ضد المماليك مما اضطر بيبرس إلى اعداد حملة كبيرة سنة 675هـ/ 1277م لغزو سلاجقة الروم. وفي موقعة ابلستين حلت الهزيمة ساحقة بالمغول إذ فقد منهم في تلك المعركة ما يقرب من 7000 نفس، وفر معين الدين سليمان البرواناه زعيم السلاجقة[1]. ثم دخل بيبرس قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم ودعي له على المنابر وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة، ثم عاد إلى بلاد الشام[2].

وصلت أبناء هزيمة المغول في ابلستين إلى آبغاخان فأسرع إلى هناك. ويقال أنه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده، ومما زاد في حنقه وجود آلاف من رجال المغول صرعى في حين لم ير أحداً من السلاجقة فصب جام غضبه على السلاجقة وأمر بقتل مائتي ألف نفس منهم، كما أمر بقتل البرواناه نفسه[3].

بعد معركة ابلستين مرض بيبرس ومات في نفس تلك السنة ودفن بدمشق سنة 676هـ/ 1277م.

ابنا الظاهر بيبرس

يعتبر السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك فقد استطاع بأعماله وإصلاحاته الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك من دولة ناشئة إلى دولة قوية مدعمة الأركان، وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده لمتابعة مسيرته

---

1 ـ بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، ج 9، ص 118.

2 ـ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ج 7، ص 84. والقلقشندي: صبح الأعشى ج 14، ص 139 ـ 165.

3 ـ رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج 2، ص 63.

والوصول إلى الهدف المنشود وهو القضاء على المغول والصليبيين.

كان بيبرس لا يحترم مبدأ الوراثة في الحكم، ومع ذلك غلبت عليه غريزة الأبوة وعهد لابنه البكر سعيد بركة خان بولاية العرش من بعده وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لذلك الابن، ظناً منه أن هذا القسم كفيلاً أن يجعل الأمور تستتب على الوجه الذي يريده بعد وفاته. وفي سنة 662هـ/ 1264م أقام السلطان بيبرس احتفالاً كبيراً قرىء فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء والأمراء[1]. ومع ذلك لم يطمئن بيبرس إلى ما سيفعله الأمراء بابنه فحرص أن يوصي الملك السعيد بأن يأخذ حذره من كبار الأمراء «فهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي. فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله، ولا تستشر أحداً في هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعتك مصلحتك»[2].

توفي الظاهر بيبرس فتظاهر أكابر الأمراء باحترامهم للعهد رغم رفضهم المطلق لمبدأ الوراثة في الحكم. واختاروا الملك السعيد بركة سلطاناً وأخذوا يخلقون له المؤامرات والدسائس، مما اضطر الملك السعيد إلى أن يحيط نفسه بحرس خاص من مماليكه أغدق عليهم الأموال وأطلق أيديهم في إدارة الدولة ليكونوا له عوناً على أخصامه. وقد أثار هذا العمل استياء كبار المماليك ولا سيما الأمراء الصالحية الذين كانوا يرون أنهم أحق بالملك منه. وكتبوا إليه: «إنك أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء فإما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن آخر»[3].

---

1 ـ المقريزي: السلوك، ج 1، ص 68 ـ 515. والنويري: نهاية الأرب، ج 28، ص 160.
2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 240.
3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 645.

وليحظى الأمراء الصالحية على تأييد المماليك اتهموا السلطان السعيد بركة بدس السم للأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة. «اضطربت أمور السلطان سعيد، وتعاقب بعض الأمراء في نيابة السلطنة، وكلما تولى واحد منهم ذلك المنصب لجأت بطانة السلطان إلى تخويفه منه فيبعده»[1].

وفي سنة 677هـ/ 1278م توجه السلطان السعيد بركة إلى دمشق، لكن امراء دمشق مالوا عنه رافضين استقباله، مصممين على السير إلى مصر لخلعه، مما اضطر السلطان إلى العودة، لكنه لم يستطع دخول القلعة إلا في صعوبة بالغة. وحاصر الأمراء القلعة وشددوا الحصار عليه، فطلب المساعدة من قلاوون والد زوجته غازية خاتون لكن قلاوون الذي كان يسعى من وراء الستار لإستلامه السلطنة طلب من صهره السعيد خلع نفسه، وأمام هذا الموقف اضطر السلطان إلى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والأمراء سنة 678هـ/ 1279م بعد حكم دام سنتين وتوجه إلى الكرك[2].

عرض بعض أمراء المماليك على الأمير سيف الدين قلاوون. أقوى شخصية مملوكية في ذلك الوقت أن يتولى السلطنة، لكن قلاوون كان يدرك أن الأمور لم تنضح بعد، رفض هذا العرض وقال: «أنا لم أخلع الملك السعيد طمعاً في السلطة، ولكن حفظاً للنظام وأنفة الجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر بيبرس»[3]. وهكذا بويع الابن الثاني لبيبرس الأمير العادل بدر الدين سلامش بالسلطنة وعمره سبع سنين، وعين الأمير قلاوون وصياً عليه، فاستغل هذا الأخير وصايته وأخذ يمهد للسلطنة.

---

1 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 643 ـ 644.

2 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 655. وابن أياس: بدائع الزهور، ج 1، ص 114.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 657.

فشرع في القبض على الأمراء الظاهرية، واستمال مماليكهم بتفريق الأموال عليهم، وقرب الأمراء الصالحية القدماء، وأعطاهم الاقطاعات، كما استناب بعضهم في القلاع بالبلاد الشامية، وأعطى ذراريهم الرواتب[1]. وعندما اطمأن قلاون أن الأمور أصبحت مهيأة لتوليته منصب السلطنة أعلن أنه «لا فائدة من بقاء ذلك الصبي الصغير، لانتشار السمعة في البلاد، وامتهان الحرمة في أنفس الحواضر والبوادا»، ثم عزل العادل بدر الدين سلاقس بعد ثلاثة أشهر من توليه السلطنة ونفاه إلى الكرك[2].

1 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 656. وبيبرس الداودار: زبدة الفكرة ج 9، ص 139.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 7، ص 287 ـ 289. وابن أياس: بدائع الزهور، ج 1، ص 114.

الفصل الخامس

أسرة قلاوون

السلطان المنصور سيف الدين قلاوون

(678هـ - 1279م) (689هـ - 1290م)

يعتبر المنصور سيف الدين قلاوون من أعظم سلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس، ويشابهه من حيث الأصل. فهو أحد المماليك البحرية. جيء به من بلاد القفجاق، فاشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر - أحد مماليك العادل أبي بكر الأيوبي - بألف دينار فسمي بالألفي[1]. ولما مات الأمير علاء الدين انتقل قلاوون للملك الصالح أيوب فأصبح لقبه الألفي الصالحي.

تدرج قلاوون في الرقي حتى أصبح أحد زعماء البحرية البارزين، هرب إلى بلاد الشام عقب مقتل زعيمهم فارس الدين إقطاي، ثم عاد إليها بعد ظهور المغول على مسرح السياسة وتوحيد المماليك لمواجهتهم. في عهد سلطنة الظاهر بيبرس قويت مكانة قلاوون وأسندت إليه بعض الأعمال الحربية المهمة حتى أصبح أقوى أمراء المماليك البحرية[2].

كان السلطان بيبرس يخاف من نفوذ قلاوون ومكانته لذلك زوج ابنه الملك السعيد بركة من غازية خاتون ابنة قلاوون حتى يأمن من سلطة قلاوون

---

1 - أبو المحاسن: المنهل الصافي ج 3، ص 37.

2 - المقريزي: المواعظ ج 2، ص 238.

ويحفظ منصب السلطنة من بعده لابنه الملك السعيد. وفات بيبرس أن أطماع الملك أقوى بكثير من روابط المصاهرة، وهذا ما ظهر جلياً عندما اشتد حصار الأمراء على السعيد بركه في القلعة وطلب هذا الأخير المساعدة من حميه قلاوون الذي نصحه بترك السلطنة[1] لتسنح له الفرصة باعتلائها.

وهكذا استطاع قلاوون بسياسته الحكيمة أن يعزل بركة خان ويتولى رتبة الأتابك للسلطان الجديد بدر الدين سلامش، وبحنكة بالغة ودون أن يستثير حقد زملائه الأمراء البحرية عزل سلامش ونقل السلطنة المملوكية من البيت الظاهري إلى البيت القلاووني الذي استقر في الحكم أكثر من قرن لينتهي مع دولة المماليك الأولى سنة 784هـ/ 1382م.

أولاً ـ السلطان المنصور قلاوون والثورات الداخلية

تعرض قلاوون في بداية حكمه لبعض الثورات الداخلية كالتي تحدث دائماً في أوائل عهود معظم سلاطين المماليك. فقد رفض الأمير شمس الدين سنقر نائب السلطنة في دمشق الاعتراف بسلطنة قلاوون، وأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالكامل، ودعا أهل الشام إلى الإنضمام إليه، والخروج عن طاعة قلاوون، فلبى دعوته بعض الدمشقيين من بينهم قاضي المدينة شمس الدين بن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان الذي افتى بصحة سلطنة سنقر[2]. كما استجاب إليه صاحب حماة الأيوبي، وعدد من شيوخ القبائل العربية المقيمة على حدود الشام والعراق.

جهز السلطان قلاوون جيشاً قوياً بقيادة علم الدين سنجر أرسله إلى بلاد الشام استطاع القضاء على حلف سنقر في واقعة الجسورة بالقرب من دمشق في

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 279.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 687.

19 صفر سنة 679هـ/ 1280م وفر سنقر شرقاً إلى قلعة صهيون، وحاول أن يتصل بالمغول ويزين لهم غزو بلاد الشام[1]. بينما استولى على دمشق وعفا عن أهلها الذين كانوا قد انضموا إلى سنقر[2].

وفي سنة 680هـ/ 1281م تآمر عدد كبير من المماليك الظاهرية على السلطان قلاوون، واتصلوا بالصليبيين سراً. فعلم قلاوون بأسرار المؤامرة وعاقب المتآمرين بالإعدام والسجن[3].

ثانياً ـ السلطان قلاوون وتأسيس جيش من المماليك الجراكسة

شعر قلاوون بسؤ نية المماليك الظاهرية الذين بدأوا ينصبونه العداء، فعزم على إنشاء عصبة من المماليك يكون إخلاصها وولاؤها له، يعتمد عليها في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية وتكون مميزة عن سائر الفرق المملوكية[4]. فأكثر من شراء المماليك الجراكسة من اهالي البلاد الشمالية مثل أرمينيا والقوقاز، وشبه جزيرة القرم والقفجاق وقد تميز هؤلاء الجراكسة بانخفاض ثمنهم دون غيرهم من المماليك الأتراك، حتى أصبح عددهم اثنا عشر ألفاً في أواخر عهد قلاوون، وكان قد خصص لهم أبراج القلعة، ولذلك عرفوا بالمماليك البرجية[5]. واعتنى منصور بتربيتهم وأعدادهم أعداداً عسكرياً اسلامياً كما اعتنى بملابسهم بحيث صار مختلفاً عن شكل ملابس المماليك البحرية.

ومن شدة اهتمام قلاوون بولائهم له كان يخرج دائماً قبل موعد الطعام

---

1 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 676.

2 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 676.

3 ـ النويري: نهاية الأرب ج 19، ص 278. ومفضل بن أبي الفضائل المنهج السديد ج 2، ص 322.

4 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 213.

5 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 115.

ليختبر نوع الأكل بنفسه، فإذا وجد فيه عيباً اشتد على المشرف ـ الاستادار ـ وأنزل به العقاب الرادع. ويقول: «كل الملوك عملوا أشياء يذكرون بها ما بين مال وعقار وأنا عمرت أسواراً وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك»[1].

ويدل على مدى اعتقاده في هذه الخطة أنه حين أشرف على الموت استحضر ابنه خليل وأوصاه بأن يحفظ مماليكه ويبالغ في الاحسان إليهم، ويستمر بهم على اقطاعاتهم ووظائفهم بمصر والشام ويهتم بمصالحهم. فلما تولى خليل السلطنة لم يكن في مناصب الدولة إلا من هو في طائفة أبيه قلاوون[2]. ولهذا بقيت هذه الفئة المملوكية وحدة متماسكة وكان لها أثر كبير في توجيه سياسة الدولة حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى حينما استطاع أولئك البرجية انتزاع السلطنة من أسرة قلاوون وتأسيس الدولة المملوكية الثانية سنة 784هـ/ 1382م.

ثالثاً ـ قلاوون وحروبه مع مغول فارس

استغل القائد المغولي ابغا بن هولاكو الأحداث الداخلية التي عصفت بدولة المماليك بسبب ثورة سنقر الأشقر واستنجاد هذا الأخير بالمغول والصليبيين جميعاً، ضد السلطان قلاوون[3]. فأرسل قوة في سنة 679هـ/ أيلول 1280م لغزو الأراضي الشامية بقيادة أخيه منكوتمر، احتلت بعض القلاع في شمال الشام، ثم توجهت إلى حلب فدخلتها وأحرقت جوامعها ومدارسها، وقتلت كثيراً من اهلها، لكنهم ما أن علموا أن السلطان قلاوون وصل إلى غزة في طريقه إليهم

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 213.

2 ـ بيبرس الداودار: زبدة الفكر، ج 9، ص 276.

3 ـ النويري: نهاية الأرب ج 19، ص 278.

حتى عادوا مسرعين إلى العراق[1].

تنبه قلاوون بعد حملة المغول على بلاد الشام إلى الخطر الكبير الذي يحيق به نتيجة لتحالف أعدائه الثلاثة، المغول والصليبيين وسنقر الأشقر، فأخذ بعقد المعاهدات والتحالفات حتى يتمكن من القضاء على المغول والصليبيين كل على حدة. فعقد معاهدة تجارية مع الجنوبيين منحهم بموجبها امتيازات تجارية مقابل التزامهم الحياد. كما عقد صلح في 22 محرم 680هـ/ 3 أيار 1281م لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية الرئيسية في بلاد الشام، وهم الداوية والاسبتارية[2].

ومع الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن في رمضان سنة 680هـ/ 1281م[3]. ومع بوهيمند السابع أمير طرابلس في 27 ربيع الأول 680هـ/ 15 تموز 1281م[4].

بعد أن اطمأن قلاوون لهذه المعاهدات تقدم بجيوشه في بلاد الشام حتى التقى بالمغول بالقرب من مدينة حمص عند قبر خالد بن الوليد حيث دارت موقعة كبيرة سنة 680هـ/ أيلول سنة 1281م انتهت بهزيمة التتار وانسحابهم إلى نواحي الفرات، وأراد قلاوون أن يقضي عليهم قضاءً مبرماً فأرسل بطريق الحمام الزاجل إلى عماله عند الحدود الفراتية للوقوف في وجه المغول الهاربين، كما أمر بأن تضرم النار بالأجمة والحشائش التي على الفرات «فهلك منهم خلق كثير»[5]. وولى من بقي منهم هرباً إلى العراق[6]. كان لواقعة حمص أثر كبير في تاريخ العلاقات

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 299.

2 ـ ابن الفرات: معرفة تراجم الخلفاء والملوك ج 7، ص 229 ـ 233.

3 ـ المصدر نفسه ص 233.

4 ـ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص 210 ـ 211.

5 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 690.

6 ـ رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ ج 2، ص 83.

بين المماليك والمغول إذ أيقن بعدها المغول أنه لا قبل لهم بالمماليك.

رابعاً - قلاوون وحروبه مع الصليبيين

بعد أن أحرز قلاوون النصر على المغول، بدأ يعد العدة لمنازلة الصليبيين غير مكترث للمعاهدات والمصالحات التي أبرمها معهم. فشن في سنة 684هـ/ 1285م هجوماً فجائياً على حصن المرقب جنوب اللاذقية معقل فرسان الاسبتارية - وهو من الحصون الصليبية المهمة في بلاد الشام - ولم يستطع أهله مقاومة هذا الهجوم فطلبوا الأمان من قلاوون وسلموا حصنهم صلحاً في ذو ربيع الأول 684هـ/ 1285 بعد حصار دام شهراً، وانتقلت فلولهم إلى عكا وطرابلس مما سبب خسارة كبرى للصليبيين[1].

أحدث سقوط حصن المرقب هلعاً في الامارات الصليبية الأخرى فأسرع بوهيمند السابع صاحب طرابلس إلى مهادنة قلاوون مقدماً له بعض الحصون والأموال، وفعلت مثله مرغريت أميرة صور في 14 جمادي الأولى 684هـ/ تموز 1285م فعقدت هدنة مع السلطان قلاوون مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام، تعهدت الأميرة بموجبها بعدم بناء تحصينات جديدة في إماراتها، والوقوف على الحياد في الخلاف القائم بين قلاوون والصليبيين، مقابل حماية صور[2].

وفي سنة 686هـ/ نيسان 1287م أرسل قلاوون حملة استولت على اللاذقية آخر معقل للصليبيين في إمارة أنطاكية[3].

وفي رمضان سنة 686هـ/ تشرين الأول 1287م توفي بوهيمند السابع

---

1 - المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1، ص 728.

2 - ابن عبد الظاهر: تشريف اليام ص 103 - 110.

3 - أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج 4، ص 21 - 22.

أمير طرابلس دون وريث فقام صراع داخلي حول وراثة الحكم بين أخته لوسي وأمه سبيل، فاستدعت الأخت الجنويين لحمايتها، بينما استنجدت الأم بالسلطان قلاوون[1]. فأسرع قلاوون إلى اقتناص الفرصة، وتوجه إلى طرابلس على رأس جيش كبير يتألف من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، وحاصر طرابلس في ربيع الأول 688هـ/ 17 آذار 1289. ولم تستطع المدينة مقاومة الحصار الذي استمر أربعة وثلاثين يوماً فسقطت في قبضة قلاوون في 4 ربيع الثاني 688هـ/ نيسان 1289 وهرب الصليبيون إلى القديس نيقولا القريبة من الساحل، فلحق بهم المماليك وقتلوهم عن آخرهم[2]. وأمر قلاوون بهدم مدينة طرابلس وأقام مكانها عدداً من الأبراج على طول الساحل، ونقل المدينة إلى الداخل بعيداً عن الشاطىء لتكون في منأى عن تهديد الأساطيل الصليبية[3]. وبعد سقوط طرابلس استولى المماليك على المراكز التي أخلاها الصليبيون في أنفه والبترون دون أية مقاوم. ولم يبق للصليبيين من ملكهم في بلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعتليت[4]. ويبدو أن إمارة عكا خافت أن يكون مصيرها مماثلاً لطرابلس فلجأت إلى خطة دفاعية يائسة وبدأت بالاعتداء على قوافل المسلمين التجارية، فرأى قلاوون أن هذه الحركة مبرراً كافياً لإعلان الحرب على عكا وشرع في تجهيز حملة للزحف عليها، لكنه توفي في 6 ذي القعدة 689هـ/ 10 تشرين 1290م قبل أن يحقق مشروعه[5].

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 3، ص 320 ـ 321.

2 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1، ص 746 ـ 747.

وأبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج 3 ص 30.

3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 70 ـ 71.

4 ـ Grousset. Hist des Croisades... T. III. P. 145.

5 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 754.

السلطان الأشرف خليل قلاوون وإجلاء الصليبيين

خرق قلاوون شريعة المماليك في الحكم وعهد بالسلطة لابنه الأكبر علاء الدين ولقبه بالملك الصالح وأنابه عنه في حكم مصر أثناء غيابه في بلاد الشام[1].

وشاءت الأقدار أن يموت الملك الصالح في حياة أبيه سنة 687هـ/ 1288م بعد أن قضى في السلطة ثمان سنوات. ويقال إن أخاه الأشرف خليل - الابن الثاني للسلطان قلاوون هو الذي دس السم له لكي تؤول إليه ولاية العهد من بعده[2]. وبالفعل كتبت ولاية العهد للأمير خليل في حياة أبيه وأن السلطان قلاوون لم يوقعها لأنه كان يشك في كفاية ابنه خليل وأهليته للحكم، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمسك بقواعد الدين، ويروي المقريزي عن قلاوون أنه قال: «أنا ما أولي خليلاً على المسلمين»[3].

ومهما يكن الأمر من صحة قبول المنصور قلاوون بولاية العهد لابنه خليل أو رفضه، فقد تولى صلاح الدين خليل السلطنة بعد وفاة أبيه وتلقب بالأشرف في 7 ذي القعدة 689هـ/ أواخر سنة 1290م دون أن يصادف أية صعوبة في الحصول على قسم الأمراء له، وكان أول عمل قام به هو التخلص من الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة الذي كان يطمح بالوصول إلى العرش بعد وفاة قلاوون ودبر مؤامرة للقضاء على الأشرف خليل، لكن السلطان خليل اكتشف المؤامرة في سرعة فقبض على طرنطاي وقتله بعد أن صادر أملاكه وأعطاها للأمير بدر الدين بيدرا الذي اصبح نائب السلطنة[4]. ثم بدأ يتأهب لقيادة الحملة التي كان أبوه قد أعدها للثأر من الصليبيين في عكا تمهيداً لإخراجهم من بلاد الشام.

---

1 - بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ج 9، ص 82 - 85.

2 - المقريزي: السلوك ج 1، ص 792 - 793.

3 - المصدر نفسه ج 1، ص 750.

4 - بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ج 9، ص 107.

جهز الأشرف خليل حملة كبيرة من عشرين ألفاً تدعمها آلات الحصار التي بلغت 92 منجنيقاً، وسارت إلى عكا فوصلتها في 3 ربيع الثاني 690هـ/ 5 نيسان 1291م، وبدأ حصار المدينة ورميها بالمنجانيق رمياً متواصلاً والصليبيون يبذلون جهداً مستميتاً في الدفاع عن عكا، لكنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام الحصار الذي استمر مدة ثلاثة وأربعين يوماً، فاقتحم المسلمون المدينة عنوة يوم الجمعة في 17 جمادي الثانية 690هـ/ 18 أيار 1291م، بعد قتل وأسر الكثير من الصليبيين، وفر من استطاع من الصليبيين في السفن إلى عرض البحر بغية الهروب إلى قبرص أو أي مكان آخر وقد تسبب عن ذلك الزحام الشديد غرق بعض المراكب، وكان من بين الهاربين هنري لوزجنان ملك قبرص وصاحب جبيل[1].

ورغم ذلك بقي بقلاع المدينة عدد كبير من فرسان الداوية يقاومون الهجوم المصري حتى هلكوا عن آخرهم بعد أن أحرقت المدينة ودمرت تماماً سنة 690هـ/ 1291م[2].

وبسقوط عكا، لم يعد للصليبيين بعد ذلك مقام في تلك البلاد، فاستولى المسلمون على المرافىء القليلة الباقية مثل صور وصيدا وبيروت وحيفا وعتليت دون مقاومة، وأمر الأشرف خليل بتدمير أسوار وتحصينات هذه المدن جميعاً حتى لا يعاود الصليبيون الاستيلاء عليها والتحصن فيها بعد أن فروا إلى جزيرتي قبرص ورودس[3]. وبذلك كان السلطان الأشرف خليل قلاوون قد طوى بشجاعته النادرة آخر صفحة من تاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام.

وعلى الرغم من النجاح الباهر الذي سجله السلطان الأشرف خليل بعد

---

1 ـ أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، ج 4، ص 24 ـ 25. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 8، ص 6 ـ 7.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 8، ص 6 ت 7.

3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 24 ـ 25.

طرده آخر صليبي عن أرض المشرق العربي الإسلامي، إلا أن نهايته كانت مؤلمة فقد مات قتيلاً على يد نائب السلطنة الأمير بدر الدين بيدرا أثناء خروجه للصيد سنة 692هـ/ 1293[1].

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

كان من مفخرة التاريخ المملوكي أن يحل القاتل محل القتيل في دست السلطنة، فتكررت مأساة الأمير قطز ـ بطل عين جالوت ـ مع الأشرف خليل، إذ اجتمع المتآمرون وقرروا أن يعتلي بطل المؤامرة الأمير بيدر العرش ولقبوه بالملك الأوحد[2]. ولكن مماليك الأشرف خليل بقيادة زين الدين كتبغا لم تهدأ تأثراتهم ضد بيدرا إلا بعد أن قبضوا عليه وقتلوه[3]. ونادوا الأمير كتبغا سلطاناً، لكن الأميرعلم الدين سنجر نائب القلعة حال بين كتبغا وبين دخول القاهرة، وانتهى الأمر بين الطرفين بتولية الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنة، وكان لا يزال طفلاً في التاسعة من عمره ولقبوه بالسلطان[4].

ولم يكن هذا الاختيار ناجماً عن احترام المماليك لمبدأ الوراثة، وهم الرافضون لهذا المبدأ طوال تاريخهم، وإنما جاء وفقاً لسياستهم المعتادة ريثما يجدوا من بينهم أميراً قوياً يفرض شخصيته عليهم ويتولى الحكم، وهكذا قضى الناصر محمد سنة في الحكم كان شبه محجوز عليه بالقلعة، في حين كانت أمور الدولة بيد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، ثم انتقلت إلى الأمير كتبغا المنصوري الذي

---

1 ـ مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد ج 3، ص 403 ـ 404.

2 ـ أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج 1، ص 30 وابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 27.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 778.

4 ـ المصدر نفسه، ج 1، ص 797 ـ 801.

طمع بالسلطنة وتخلص من الشجاعي بالقتل[1].

وليأمن كتبغا شر المماليك أصدر عفواً عن بعض الأمراء الذين اشتركوا في اغتيال الأشرف خليل مثل الأمير حسام الدين لاجين والأمير قراسنقر، مما أثار حفيظة المماليك الأشرفية بزعامة سيف الدين بهادر، فاتخذ كتبغا بالاتفاق مع حسام الدين لاجين تلك الثورة ذريعة للتخلص من الناصر محمد وإعلان نفسه سلطاناً مكانه جمع الأمير كتبغا الأمراء وقال لهم «لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك في حق الرعية، ومن الرأي أن نولي سلطاناً كبيراً يقمع المماليك عن هذه الأفعال!»[2]. وهكذا عزل الناصر محمد من السلطنة ونفي إلى حصن الكرك جنوب الأردن سنة 694هـ/ 1294م.

السلطان العادل كتبغا

تولى كتبغا السلطنة مباشرة بعد عزل الناصر محمد، وهو من أصل مغولي. فجاءت توليته مصحوبة بإنخفاض مياه النيل واشتداد المجاعة وغلاء الأسعار وانتشار الوباء[3]. فعم التشاؤم جميع الناس وترددت على ألسنتهم عبارة واحدة يوم اعتلاء كتبغا العرش هي «يانهار الشؤم! أن هذا النهار نحس»[4]. وزاد الطين بلة أن هجرة الوافدية التترية على مصر والتي أخذت تضعف منذ أيام بيبرس ازدادت هجرتها في هذه الفترة، فوصل عددها نحو عشرة آلاف بيت صحبة طرغاي بن هولاكو[5]. عرفوا بالأويراتية، فبالغ كتبغا في اكرامهم ـ جماعة من

---

1 ـ المصدر نفسه، ج 1 ص 801.

2 ـ ابن أياس: بدائع الزهور، ج 1، ص 132.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 813 ـ 814.

4 ـ المصدر نفسه، ج 1، ص 816. وبيبرس الداودار: زبدة الفكرة ص 327.

5 ـ المقريزي: خطط ج 3 ص 35، والمقريزي: السلوك ج 1، ص 813.

بني جنسه ـ وأنزلهم بالحسينية وأنعم على طرغاي مقدمهم بإمرة طبلخانة، وعلى المساعدين بإمرة عشرة، وأعطى البقية تقادماً في الحلقة واقطاعات أخرى، فعظم على الناس اكرامهم، وأخذوا بذم كتبغا[1].

يضاف إلى ذلك أن أمراء الشام غضبوا على كتبغا لأنه عزل الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة بالشام وعين أحد مماليكه مكانه، فضلاً عن أن كتبغا لم يوزع على أمراء الشام المنح والاقطاعات عندما زار دمشق لأول مرة كما كان يفعل عامة السلاطين[2].

استغل الأمير حسام الدين لاجين نقمة الناس على كتبغا فدبر مؤامرة لإغتياله أثناء عودته من الشام إلى مصر، واختار موقع بالقرب من طبرية لتنفيذ المؤامرة، لكن كتبغا عرف ما يحاك له، فعاد أدراجه إلى دمشق، فأمر لاجين بعزله وأعلن نفسه سلطاناً وبايعه الأمراء، وتلقب بالسلطان المنصور نسبة 696هـ/1296م[3].

السلطان المنصور لاجين

تولى لاجين السلطنة فأمر بالقبض على كبراء الأويراتية وسجنهم بالاسكندرية ومنهم طرغاي، كما أمر بتفريق صغارهم على الأمراء فاستخدموهم في خدمة البيوت[4]. عندئذ وجد كتبغا نفسه مغلوباً على أمره فقبل عرض لاجين بالتنازل عن الحكم والإقامة في مدينة صرخد من أعمال دمشق[5].

---

5 ـ بيبرس الداودار، زبدة الفكرة ص 327 ـ 328.

6 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 318. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج 8، ص 207.

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 822 ـ 823.

2 ـ المقريزي: خطط ج 3، ص 35.

3 ـ أبو الفدا: المختصر، ج 4، ص 34، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 8، ص 67.

وإذا كان لاجين قد تخلص من كتبغا بسهولة، إلا أنه لم يفلت من قبضة الأمراء الذين بايعوه السلطنة مشترطين عليه عدم محاباته لمماليكه، وانفراده بالرأي «ألا تخول ملوكك منكوتمر في التحكم والتدبير فتضل» فقبل لاجين وقال لهم «أنا واحد منكم ولا أخير نفسي عنكم، ولست مولياً عليكم من مماليكي أحداً»[1].

لكن لاجين ما لبث أن تناس وعوده فعزل الأمير شمس الدين قراسنقر نائب السلطنة وعين مكانه مملوكه منكوتمر الذي استبد بالأمراء، وتسلط على السلطان، واستحوذ على عقله وحجبه عن العامة والخاصة، يضاف إلى ذلك أن لاجين عندما أعاد مسح وتوزيع الإقطاعات والأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها وهو ما يعرف بالروك الحسامي استأثر منكوتمر بالأمر وبدأ بتضييق الخناق على الأمراء ومنع عنهم اقطاعتهم وإحلال غيرهم من مماليك لاجين محلهم مما أثار حقد الأمراء وجعلهم يفكرون في التخلص من لاجين ومنكوتمر جميعاً، فقتلوهم واستدعوا الناصر محمد ثانية سنة 698هـ/ 698م[2].

عودة السلطان الناصر إلى العرش!

بعد مقتل لاجين ومنكوتمر استدعى الأمراء الناصر محمد إلى مصر ليتولى السلطنة للمرة الثانية وهو صاحب الحق الشرعي فيها.

لبى السلطان الناصر دعوة أمراء المماليك، وحضر إلى مصر في سنة 698هـ/ 1298م فاستقبل استقبالاً رائعاً من قبل المماليك وعامة الناس، ودقت الطبول وأقيمت الزينات في طريقه حتى وصل إلى القلعة حيث جددت له البيعة، وأخذ يباشر عمله في السلطنة، فعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة

1 ـ بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، ج 1، ص 172.

2 ـ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج 3، ص 67. ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، 137 ـ 138.

والأمير بيبرس الجاشنكير استاداراً، وفرق الخلع على أعيان الدولة وأمرائها، كما وزع العطايا والهدايا على مماليك أبيه[1]. وبالرغم من هذه التقديمات إلا أن السلطان الشاب لم يستطع أن يرضي رغبات كبار أمراء المماليك الذين اشتدت عدوانهم ومرنوا التلاعب بكبار السلاطين، فوقف حائراً أمام المنافسة الشديدة التي قامت بين الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير، وقد لقي السلطان منهما الكثير من أنواع الإساءة والتضييق المالي[2]. يروي أبو المحاسن أن السلطان الناصر محمد طلب من الأمير بيبرس الجاشنكير خروفاً مشوياً وحلوى باللوز، فرفض الأمير بيبرس أن يجيبه إلى طلبه قائلاً «هو الأكل عشرون مرة بالنهار»[3]. وأمام هذا التضييق والخناق استدعى السلطان الناصر الأمير بكتمر الجوكندار لمساعدته في التخلص من الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير، ولكن أنباء الاتفاق وصل إلى الأميرين فأسرعا إلى محاصرة القلعة للقبض على السلطان الناصر ومنعه من الهرب مما أثار اشتباكاً بين مماليك السلطان وأتباع الأميرين.

ولما كان عطف المصريين على الناصر محمد وتفاؤلهم به قد بلغ حداً لا يوصف، فما أن بلغهم محاصرته حتى تجمعوا وهم يهتفون: «يا ناصر يا منصور... الله يخون من يخون ابن قلاوون»[4]. فوجد سلار وبيبرس الجاشنكير حالهما في مأزق حرج واضطرا إلى تجديد الولاء للناصر محمد بعد «أن نفى لهما أية نية سيئة تجاههما وأن أحداً من الأمراء لم يحرضه ضدهما»[5].

بعد هذه الحادثة خشي الناصر محمد على نفسه من غدر سلار والجاشنكير،

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 8، ص 115 ـ 116.

2 ـ أبو الفدا: المختصر ص 54.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 8، ص 175 وما بعدها.

4 ـ المصدر نفسه ج 8، ص 173.

5 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 149.

وأدرك أنه من الصعب عليه التخلص منهما بعد أن «تجاوزا الحد في الانفراد بالأموال والأمر والنهي»[1]. لذلك كان لا بد له أن يعتزل العرش وأن يغادر البلاد إلى حصن الكرك بعيداً عن السياسة ومؤامرات المماليك، فتظاهر برغبته في إداء فريضة الحج وخرج من مصر قاصداً الحجاز عن طريق الكرك. وتروي المصادر أن عدداً كبيراً من الأهالي خرجوا لوداعه وهم يبكون على فراقه وكأنهم شعروا باحساس ما. فلم يكد يصل إلى الكرك حتى دعا من معه من الأمراء والمماليك وأخبرهم أنه اختار البقاء في الكرك، ثم أرسل كتاباً إلى الأمراء في مصر يخبرهم فيه بذلك[2].

اضطربت الأحوال في مصر عندما وصلت رسالة السلطان الناصر محمد، فتنادى الأمراء إلى عقد اجتماع للتداول في أمر السلطنة، فوقع اختيارهم على الأمير سلار، لكن هذا الأخير اعتذر عن قبول المنصب، واعلن تأييده لبيبرس الجاشنكير وقال: «والله يا أمراء أنا ما اصلح للملك، ولا يصلح له إلا الأمير بيبرس الجاشنكير». فبايع الأمراء الجاشنكير بالسلطنة[3].

السلطان بيبرس الجاشنكير

تولى الجاشنكير السلطنة سنة 708هـ/ 1308م ولقب نفسه بالسلطان المظفر ركن الدين بيبرس، وعين الأمير سلار نائباً له، وأرسل تقليداً إلى الناصر محمد يمنحه ولاية الكرك، لكن شعبية الناصر محمد في مصر والشام كانت تزداد يوماً بعد يوم، ولم يستطع الناس أن ينسوه بالسهولة التي توهمها الجاشنكير وشاءت

1 ـ أبو الفدا: المختصر، ج 4، ص 54.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 8، ص 178 ـ 179.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 46.

الظروف أن تأتي سلطنة المظفر بيبرس مقرونة بانخفاض النيل وارتفاع الأسعار مما فسره الناس بسؤ طالع السلطان الجديد وأخذوا يتجمعون في شوارع القاهرة وهم يصيحون «سلطاننا ركين ونائبنا ذقين يجينا الماء منين؟ جيبوا لنا الأعرج (الناصر محمد) يجي الماء بحدرج»[1]. بالاضافة أن أمراء حلب وحماه وحمص رفضوا الاعتراف بالسلطان بيبرس الجاشنكير الذي اغتصب الحكم من السلطان الناصر محمد وأعلنوا تمسكهم بطاعة الناصر ابن استاذهم قلاوون[2]. حتى إنهم أرسلوا إلى الناصر محمد بالكرك يستأذنونه في القدوم عليه لمناصرته «فإما أن نأخذ له الملك وإما أن نموت على خيولنا»[3]. ولما تعنت السلطان بيبرس الجاشنكير مع الناصر بعد نفيه إلى الكرك، طالبه برد ما عنده من المماليك والخيول والأموال، وأغلظ له في المخاطبة، كتب الناصر إلى أمراء الشام يذكرهم بها لوالده عليهم من حق التربية والعتق والاحسان، ويستحثهم للنهوض إلى اعادته إلى السلطنة، وينذرهم بعزمه على المضي إلى بلاد التتار إذا تخلوا عن مساعدته، فاستجاب الأمراء لدعوته وأرسلوا يؤكدون له أنهم طوع يده، ورهن اشارته لاسترجاع سلطانه[4]. ما أن علم الأمراء في مصر بأن الناصر محمد بدأ يستعد لاسترجاع سلطته حتى تركوا بيبرس الجاشنكير وهربوا إليه. واتجهوا برفقة الناصر إلى دمشق، حيث استقبله أهلها بحفاوة بالغة، وأقيمت الخطبة باسمه يوم الجمعة» شعبان سنة 709هـ/ 1309م.

إزاء هذا التأييد للناصر محمد ساء موقف الجاشنكير فحاول تقوية مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسي في القاهرة أبو ربيعة سليمان الذي

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 8، ص 238.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 8، ص 236.

3 ـ المصدر نفسه، ج 8، ص 238.

4 ـ بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، ج 6، ص 484 ـ 485.

والمقريزي: السلوك ج 2 ص 56.

كان مغلوباً على أمره، ولكن كل ذلك لم يجد منفعة أمام التفاف الناس حول الناصر محمد وحبهم له.

ويروي أبو المحاسن أن أحد أمراء المماليك عندما قرأ العهد الذي منحه الخليفة سليمان للسلطان الجاشنكير ووجد أوله «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» فرد قائلاً «ولسليمان الريح»[4]. عزم الناصر محمد التوجه إلى مصر فوجد بيبرس الجاشنكير نفسه وحيداً، فاستدعى إليه الامراء لمشاورانهم في الأمر فأشار عليه بعضهم بالنزول عن العرش، فاستجاب الجاشنكير لهذا الرأي وغادر القلعة ليلاً إلى أطفيح، والعامة يطاردونه حتى أوشكوا على الفتك به «لولا أن شغلهم بما رماه إليهم من مال»[1].

سلطنة الناصر محمد الثالث (709هـ ـ 741هـ) (1309ن ـ 1340م)

بعد سقوط سلطنة الجاشنكير، غادر السلطان الناصر محمد برفقة رجاله وأنصاره الكرك إلى القاهرة فوصلها في مساء يوم الأربعاء أول أيام عيد الفطر سنة 709هـ/ 1309م فاستبشر الناس خيراً بقدومه وخرجوا لاستقباله وتقديم فروض الولاء والطاعة له[2]. وفي اليوم التالي ـ الخميس ـ «جلس على سرير الملك، وحضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للتهنئة»[3].

ولم يتردد الناصر محمد في هذه المرة من الانتقام لنفسه من الأمراء الذين سبق أن استخفوا به وآذوه. فقبض على بيبرس الجاشنكير عند غزه وهو يحاول

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 8، ص 262.

2 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 153.

3 ـ أبو الفدا: المختصر ج 4، ص 56 ـ 58.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 73.

الفرار وأعدمه شنقاً بعد أن عنفه وذكره بمواقفه منه[1]. أما سلار فقد ألقى به في السجن فمات جوعاً حتى أنه أكل أحد أصابعه[2].

وتعتبر هذه الفترة من حكم الناصر محمد بحق سلطته الحقيقية وقد استمرت إحدى وثلاثين سنة وهي مدة طويلة لم يدانيه فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك.

ولا شك أن السلطان الناصر محمد قد استفاد من الحوادث السابقة بتجارب متنوعة عرفته بأخلاق المماليك ومؤامراتهم وكيفية معاملتهم، وسار على سياسة أسلافه في محاربة الصليبيين والمغول رغم أن هذه المرحلة كانت في ذلك الوقت قد تطورت تطوراً كبيراً في صالح المسلمين نظراً لجلاء الصليبيين عن الشام نهائياً وضعف الحماس الصليبي في أوروبا، كما أن دول مغول فارس قد أخذت في الضعف والتدهور نتيجة الحروب التي خاضتها مع المماليك ومع مغول القفجاق.

سياسة الناصر محمد مع المغول

لم تتوقف هجمات المغول على بلاد الشام خلال فترة حكم السلطان الناصر محمد. ذلك أن خان المغول غازان محمد بن أرغون رغم أنه اعتنق الإسلام وجعله الدين الرسمي للبلاد رغب أن يقوم بالدور الذي قام به. أجداده من قبل وأن يحقق المشروع الذي فشلوا في تحقيقه وهو القضاء على دولة المماليك والإستيلاء على مصر والشام، فأوغلت جيوشه في بلاد الشام في سنة 698هـ/

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 1، ص 274 ـ 275.

والمقريزي: السلوك ج 2، ص 80 ـ 81.

2 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 156.

1298م وأنزلت الهزيمة بالمماليك عند وادي الخازندار بين حمص وحماة ودخل المغول دمشق وعاثوا فيها فساداً[1].

لم يستسلم المماليك لهذه الهزيمة بل عادوا إلى التكتل ثانية وخرجوا من القاهرة بجيش كبير على رأسه السلطان الناصر محمد قاصدين الشام، وتمكنوا من دخول دمشق غير عابئين بطلب غازان مهادنتهم[2]. الأمر الذي استثار غازان فخرج من بلاده سنة 703هـ/ 1303م قاصداً غزو الشام من جديد، وفي موقعه مرج الصفر قرب دمشق حلت هزيمة قاسية بالمغول، وعاد السلطان الناصر محمد إلى القاهرة يجر وراءه ألف وستمائة أسير من المغول وهم مقيدي الأيدي، ورؤوس قتلى المغول معلقة في رقابهم، فضلاً عن ألف رأس معلقة على ألف رمح الأمر الذي جعل الناس يفرحون بالناصر محمد ويستقبلونه استقبالاً حافلاً في دمشق والقاهرة[3].

تعتبر معركة مرج الصفر الحلقة الأخيرة في سلسلة الوقائع الكبرى التي دارت بين المماليك والمغول اذ بعد ذلك تراجع المغول إلى بلادهم وعادت الوحدة من جديد بين مصر والشام تحت سلطنة الناصر محمد.

سياسة الناصر محمد مع الصليبيين

إن الصراع بين الصليبيين والمماليك كان قد انتهى منذ عهد السلطان الأشرف خليل، وجلّ ما قام به السلطان الناصر محمد من أعمال حربية ضد

---

1 ـ مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد ص 635 ـ 634.

2 ـ النويري: نهاية الأرب ج 29 ص 331.

3 ـ أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ج 4 ص 49.

والمقريزي: السلوك ج 1 ص 938.

الصليبيين كانت لإنهاء بقايا المشكلة الصليبية كمسألة عصيان أرمينيا المسيحية التي رفضت دفع الجزية التي كانت تقدمها لمصر منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس وتحريضها لمغول فارس وملوك أوروبا على غزو مصر والشام، مما اضطر الناصر محمد أن يرسل إليها عدة حملات تأديبية انتهت بخضوع هذه الدولة واعترافها بسيادة سلطان المماليك.

كذلك كانت مسألة فرسان الداوية الذين اتخذوا من جزيرة رودوس بعد سقوط عكا قاعدة يشنون منها الغارات على المدن الساحلية لبلاد الشام ولا سيما مدينة طرابلس، فصمم الناصر احتلال تلك الجزيرة. وأعد أسطولاً شحنه بالمقاتلة والسلاح والنفط. بقيادة أمير البحر سيف الدين المنصوري أرسله سنة 702هـ/ 1302م إلى طرابلس حيث انضم إليه الأمير استدمر الكرجي ببعض القطع البحرية، وتمكنت الحملة من تضييق الخناق على الجزيرة والاستلاء عليها عنوة بعد أن حطمت أسوارها وقتلت ألفاً من أهلها وأسرت نحواً من خمسمائة، وبهذا خلت السواحل من الصليبيين ولم يبق منهم أحد ببلاد الشام[1].

أعمال الناصر محمد الداخلية

أقام الناصر محمد العديد من المنشآت التي لا تزال بقاياها موجودة إلى اليوم مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها[2]. ومن منشآته الشهيرة المدرسة الناصرية في سوق النحاسين بالقاهرة. والمسجد الذي بناه بالقلعة سنة 718هـ/ 1318م وزينه بمواد نقلها من كاتدرائية عكا، والخانقاه التي أقامها في سرياقوس. هذا إلى جانب الحمامات والزوايا والروابط والترع والقنوات بجميع أنحاء البلاد

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 8، ص 156.

2 ـ المصدر نفسه ج 9، ص 178.

وأهمها تعمير المجرى الذي ينقل المياه عليه من النيل إلى القلعة على السور. فضلاً عن المنشآت التي جددها مثل المارستان المنصوري الذي كان والده قد شيده سنة 688هـ/ 1289م وكان من شدة ولع الناصر بالعمارة أنه بلغ مصروفها في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة[1].

ومن الأعمال التي قام بها الناصر محمد مسح الأراضي المصرية وتقسيمها تقسيماً جديداً ـ عرف باسم الروك الناصري ـ لتقدير الضرائب أو الخراج المستحق عليها.

كذلك اهتم الناصر بالعلم والعلماء، وكانت تربطه بالمؤرخ الملك المؤيد أبي الفداء صاحب كتاب المختصر في أخبار النشر صداقة متينة.

ورغم أن الناصر محمد كان رجلاً شجاعاً حازماً إلا أنه كان كثير الشك والظن ولعل هذا الأمر مرجعه إلى ما لقيه من التعسف والظلم فترة توليه الحكم وهو صغير السن، حتى أنه كان يغار على ملكه من أبنائه، فلم يعين ولياً لعهده إلا بعد أن اشتد عليه المرض قبل وفاته بيومين، فاضطر إلى تولية ابنه الثالث سيف الدين أبو بكر في السلطة[2]. وتوفي السلطان الناصر محمد سنة 741هـ/ 1340 عن ثمان وخمسين سنة وسط مظاهر الأسى والحزن.

وقد أشاد المؤرخون بعهد الناصر محمد وفضله وازدهار حكمه[3].

أولاد الناصر محمد وأحفاده

جاءت وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 741هـ/ 1340م

---

1 ـ المقريزي: المواعظ ج 2، ص 306.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 1، ص 164.

3 ـ أبو المحاسن: المنهل الصافي ج 3، ص 250، وابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ج 1 ص 23.

ايذاناً بانتهاء فترة الرخاء والاستقرار اللذين عرفتهما مصر في عهد ذلك السلطان.

وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمكنوا من البقاء في الحكم حوالي اثنتين وأربعين سنة. فالأمر مرجعه إلى أن البيت القلاووني كان قد تأصل في قلوب الناس نتيجة السمعة الطيبة والمكانة الراسخة والشهرة الواسعة التي تركها الناصر محمد في قلوب معاصريه[1].

تولى منصب السلطنة المملوكية بعد وفاة الناصر ثمانية من أولاده، واثنان من أحفاده واثنان من أبناء هؤلاء الأحفاد. لكن جميع هؤلاء لم يحكموا إلا بالإسم فقط. فالسلطة الفعلية كانت بيد كبار الأمراء. وحسبنا أن نعرف أن بعض هؤلاء السلاطين تولوا منصب السلطنة وعمرهم لم يتجاوز العام الواحد مثل الكامل سيف شعبان بن الناصر محمد كما أن بعضهم لم يدم حكمه أكثر من شهرين وبضعة أيام، مثل الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد. ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى اثنين من هؤلاء السلاطين، السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد، الذي تسلطن مرتين: الأولى دامت أربع سنوات من سنة 747هـ/ ـ 751م) (1347 ـ 1351م) والثانية سبع سنوات (754هـ ـ 761هـ) (1354 ـ 1361) وقد سار هذا السلطان على غرار والده في حبه للعمارة وقد بنى المسجد الذي يحمل اسمه «جامع السلطان حسن» الذي اتصف بضخامته بنائه وهندسته الجميلة ولا يزال هذا المسجد راسخاً منيحاً كالقلعة في شارع محمد علي وفي عهد السلطان الناصر حسن انتشر وباء الطاعون أو ما عرف بالموت الأسود سنة 749هـ/ 1349م في كافة أرجاء السلطنة المملوكية، هلكت فيه الكثير من البشر إلى جانب ما صاحبه من طواعين الأبقار والآفات الزراعية، فتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ أثر حتى كادت تتوقف تماماً، وما رافق ذلك من أزمات واضطرابات سياسية سادت

1 ـ سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص 235.

مناطق عديدة من العالم ومن بينها القاهرة ومصر[1].

ويقدم لنا الرحالة ابن بطوطة الذي كان موجوداً في القاهرة في ذلك الوقت وصفاً دقيقاً لهذا الوباء والآثار السيئة التي ترتبت عليه[2].

وأعطانا المؤرخ ابن خلدون في مقدمته صورة فلسفية عن هذا الوباء قال فيها: «... وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة، والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره فكأنه خلق جديد»[3].

وقد قتل السلطان الناصر حسن على يد نائب سلطنته يلبغا الخاطكي أما السلطان الثاني الذي نعول على الاهتمام به في هذه الفترة هو الأشرف شعبان من أحفاد الناصر محمد وقد استمرت فترة حكمه ثلاث عشرة سنة (764هـ ـ ت 777هـ) (363 ـ 1376م) وفي عهده حدث الهجوم الصليبي المشؤوم على الاسكندرية.

الحملة الصليبية على الاسكندرية سنة 767هـ/ 1365م.

إن اضطراب أحوال مصر الداخلية في عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده كان لها أسوأ الأثر على مكانة الدولة المملوكية وهيبتها وقد تجرأ الصليبيين في قبرص برئاسة الملك بطرس الأول لوزجنان على غزو مدينة الاسكندرية سنة 767هـ/

---

1 ـ المقريزي: السلوك، ج 2، ص 770 وما بعدها...

2 ـ إن والدة الرحالة ابن بطوطة ماتت في مدينة طنجة بهذا الوباء ودفنت هناك: الرحلة، ص 317 ـ 385.

3 ـ ابن خلدون المقدمة ص 23. ويذكر ابن خلدون أنه فقد والديه في هذا الوباء.

1365م يساعدهم فرسان الاسبتارية في جزيرة رودس والجنوبيين والبنادقة[1].

لم يكن اختبار الغزاة الصليبيين للاسكندرية عن طريق الصدفة بل كان هناك عدة عوامل تساعدهم في تحقيق هدفهم لتوجيه طعنة قوية للمسلمين. ذلك أن الوقت كان موسم فيضان النيل، والطريق بين الاسكندرية والقاهرة مملؤ بالطين ولا يساعد بوصول نجدة عسكرية سريعة لإنقاذ المدينة، ثم الاستفادة من مركز الاسكندرية وموقعها التجاري وسهولة وصول امدادات البابوية وملوك الغرب التي وعدت لوزجنان بارسالها في حال حصول الهجوم[2].

يضاف إلى ذلك أن سلطان مصر وقتذاك كان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد في الثانية عشرة من عمره بينما كانت السلطة الحقيقية في يد نائب سلطته الأمير يلبغا الخاصكي الذي اشتهر بعسفه وجوره وكبريائه، حتى أنه عندما سمع بنية ملك قبرص في مهاجمة الاسكندرية ـ عن طريق التجار ـ لم يبد اهتماماً بتحصين المدينة[3]. وقال: «أن القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الاسكندرية»[4]. وربما أن يكون الصليبيون قد سمعوا بأن الموانىء والمدن المصرية خالية تماماً من وسائل الدفاع[5].

وفي سنة 767هـ/ العاشر من تشرين الأول 1365م فاجأ الصليبيون أهالي الاسكندرية بهجومهم الفوري، ولم تنجح الاستعدادات السريعة التي اتخذت لإغلاق أبواب المدينة وشحن القلاع بالمقاتلة واستدعاء عرب البحيرة للدفاع[6]. فقد تمكن الصليبيون من دخول المدينة ونهبها وحرقها وقتل وأسر عدد

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 105 ـ 106.

2 ـ Mechaut: la prise de L'alexandrie, p.p. 21 – 42.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 46.

4 ـ النويري: الإلمام، ج 1، ص 515.

5 ـ النويري: الإلمام ص 287 ـ 294.

6 ـ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص 63 ـ 64.

كبير من رجالها ونسائها، دون اية تفرقة بين المسلمين والنصارى واليهود المقيمين في المدينة[1]. وبعد ستة أيام من السلب والنهب والدمار، اضطر الصليبيون إلى الجلاء عن المدينة في السادس عشر من سنة 1365م بعد أن حملوا في سفنهم آلاف الأسرى وشحنوها بالمقاتلات قبل أن تلحق بهم النجدة المصرية.

وأخيراً وصل يلبغا الخاصكي بعد فوات الأوان على رأس جيش كبير ليشهد ما حل بالإسكندرية من دمار وخراب على أيدي الغزاة الصليبيين فأمر بدفن جثث القتلى وترميم المدينة[2].

كان الهجوم الصليبي على الاسكندرية ضربة لنشاطها التجاري ولمكانتها الاقتصادية وقد علق المقريزي على ذلك بقوله: «كانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث. ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالهم وزالت نعمهم»[3]. وعلى الرغم من ألم الكارثة التي أحدثتها غارة الاسكندرية. لم تتمكن الدولة المملوكية الأولى الانتقام من جزيرة قبرص وملوكها وتأديب فرسان رودس نتيجة الفوضى والانحلال التي كانت تعاني منهم البلاد المصرية في هذه الحقبة السيئة من تاريخها حتى استطاع الأمير المملوكي برقوق من ان يسدل الستار على هذه الفترة المضطربة وعلى أسرة قلاوون بأسرها ويؤسس دولة المماليك البرجية التي استطاعت الانتقام من جزيرة قبرص وملوكها كما سنرى فيما بعد.

1 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 47.

2 ـ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص 68 ـ 69.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 4 ـ 49 ـ 50.

الفصل السادس

دولة المماليك الجراكسة

نشأة فرقة المماليك الجراكسة وازدياد نفوذها

إن تآمر الأمراء الظاهرية ـ مماليك الظاهر بيبرس ـ على السلطان قلاوون، دفعت هذا الأخير إلى التفكير في تأسيس فرقة مملوكية خاصة به، يعتمد عليها في مواجهة منافسيه من كبار الأمراء ويكون جميع أعضائها من جنس مغاير لمماليك عصره، فأكثر من شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد جورجيا ـ البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود ـ وساعده على تحقيق ذلك كثرة الجركس في أسواق الرقيق في ذلك العصر، وقد بلغ عدد أفراد هذه الفرقة حوالي ثلاث آلاف وسبعمائة مملوك في حياته[1]. أسكنهم في أبراج القلعة فعرفوا بالبرجية في التاريخ.

وكان من وصايا قلاوون لابنه خليل ـ تكلمنا عنها سابقاً ـ أن يحفظ مماليكه ويبالغ في الاحسان إليهم ويهتم بمصالحهم حتى يساندوه في حصر السلطنة في البيت القلاووني.

تولى الأشرف خليل السلطنة سنة 689هـ/ 1290م لينفذ وصية والده بحيث لم يكن في مناصب الدولة إلا من هو في طائفة الجراكس، واشترى خلال الفترة القصيرة التي قضاها في السلطنة حوالي ألفي مملوك منهم، كانوا بمثابة دعامة كبرى دافعت عن مصالح أبناء المنصور قلاوون، وأظهروا ولاءهم واخلاصهم

1 ـ العيني: عقد الجمان مجلد 56 ص 724 والمقريزي: السلوك ج 1 ص 671 ـ 673.

ضد قتله الأشرف خليل والانتقام منهم[1].

وبفضل تأييد البرجية اختير الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً رغم صغر سنه. وهكذا وقف البرجية بالمرصاد لجميع المحاولات التي استهدفت عزل الناصر محمد، وفي كل مرة كان يعود الناصر محمد إلى الحكم كانت أيادي البرجية وراء ذلك[2].

وهكذا ساعدت الأحداث الداخلية التي عرفتها السلطنة المملوكية زمن أحفاد الناصر محمد على ازدياد نفوذ البرجية وأثرهم في توجيهها[3]. وهم أصحاب الوظائف الكبرى في الدولة مثل السلاحدارية والجمدارية وجاشنكيرية واوشاقية[4] ولهم العطاء المميز من جوامك ورواتب مما أحدث صراعاً عنيفاً بينهم وبين المماليك الأتراك الذين وجدوا فيهم منافساً خطيراً، وهذا ما ظهر واضحاً وجلياً في الفترة التي امتدت من سنة (763هـ - 784هـ) (1361م - 1382م) أي عهد السلطان المنصور محمد والأشرف شعبان والمنصور علي والصالح حاجي[5]. وقد ساهم هذا الصراع التركي - الجركسي إلى بروز اسم أحد أمراء البرجية - الأمير برقوق - الذي استطاع بفضل طموحه أن يصل إلى منصب أتابك العسكر في عهد السلطان المنصور علاء الدين علي الذي لم يتجاوز عمره الست سنوات[6].

---

1 - بيبرس الداوادار: زبدة الفكرة ج 9 ص 276. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 8. ص 160 - 161 و 348 - 350.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص 111...

3 - المقريزي: السلوك ج 3، ص 12 - 13.

4 - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 8، ص 41.

5 - المقريزي: السلوك ج 3، ص 275، 276، 243.

6 - Wiet. L'Egypte Arabe. P. 510.

سلطنة الظاهر برقوق

توفي السلطان علاء الدين علي سنة 783هـ/ 1381م، وهو في الثانية عشرة من عمره، ولم يجرؤ برقوق على الاستيلاء على عرش السلطنة عقب وفاة السلطان مباشرة خوفاً من نقمة بعض كبار الأمراء المعارضين له، الذين رددوا جهاراً «لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك كتبغا»[1].

إزاء هذا الموقف المعارض أعلن برقوق عدم رغبته في السلطنة وجمع الأمراء والخليفة والقضاة بقلعة الجبل، وأعلن أمامهم أن المصلحة تقتضي بإقامة أحد أولاد الأشرف شعبان سلطاناً، فرحبوا بالفكرة. ولم يكن واحد منهم ينتظر ذلك الموقف. واستدعى أمير حاجي بن شعبان حفيد الناصر محمد وعمره إحدى عشرة سنة، وأعلنه سلطاناً سنة 783هـ/ 1381م[2].

بعد اعتلاء السلطان حاجي، أخذ برقوق يخطط لإعتلاء السلطنة بكل روية ودهاء، ولم يكن باستطاعة السلطان حاجي أن يقف في وجهه، فتخلص من المنافسين بعد أن عمل على اكتساب محبة الشعب الذي يئن تحت وطأة الضرائب والمكوس، وسك نقوداً جديدة جيدة لتحل مكان العملة الزائفة التي كان الأمير جركس قد سكها من قبل[3]. ثم عمد إلى اضعاف نفوذ المماليك الأتراك البحرية وتدعيم أنصاره المماليك الجراكسة الذين آلت إليهم المناصب الكبرى في بلاد الشام سنة 782هـ/ 1380م[4].

وعلى الرغم من قوة برقوق وصلابته لم يسلم في تلك الأثناء من بعض

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 11، ص 207. كان برقوق من مماليك الأمير كتبغا المصري.

2 ـ المصدر نفسه ج 11، ص 207. والمقريزي السلوك، ج 3 ص 375.

3 ـ العيني: عقد الجمان ج 23، قسم 2 ص 26.

4 ـ ابن اياس: بدائع الزهور ج 1، ص 198 ـ 220 ـ 229.

المؤامرات التي حيكها ضده الأتراك اليلبغاوية والأشرفية الشعبانية للحفاظ على مكاسبهم ومراكزهم، لكن برقوق بفضل العيون التي بثها في جميع الاتجاهات تمكن من اكتشاف الخطر قبل وقوعه، وتخلص من زعماء المؤامرة بالسجن أو النفي[3].

ولما شعر برقوق أنه أصبح صاحب الكلمة العليا ودون أي منازع دعا إلى عقد اجتماع بالقلعة سنة 784هـ/ 1382م ضم الأمراء والخليفة والقضاة ولما تكامل الجمع قام كاتب السر القاضي بدر الدين وقال: «إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان في البلاد، وخامر غالب نواب بلاد الشام، وخرجوا عن الطاعة، والأحوال غير مستقيمة، وأن الوقت قد ضاق، ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب»[4].

وبما أن أحداً لم يكن يجرؤ على منافسة برقوق، قام هذا الأخير وخلع السلطان أمير حاجي آخر سلالة الناصر محمد بن قلاوون، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر والشام باسم الملك الظاهر سيف الدين برقوق[5].

وبذلك نجح السلطان الظاهر برقوق في القضاء نهائياً على البيت القلاووني، كما انتهى حكم المماليك البحرية، لتبدأ معه دولة المماليك الثانية المعروفة بالبرجية أو الجراكسة من باب التسمية العنصرية[6].

العقبات التي واجهت السلطان الظاهر برقوق

إن وصول السلطان برقوق إلى الحكم لم يؤد فقط إلى التغيير العرقي في الدولة

---

1 ـ ابن أياس ج 1 ص 257.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 405.

3 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 405.

4 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 384 وانظر ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 248.

المملوكية، بل إلى تبديلات جذرية في صلب النظامين الاقطاعي والعسكري المملوكيين، بتفضيل العنصر الجركسي في جميع الميادين والمناصب الهامة في الدولة، دون مراعاة الأصول القديمة التي اتبعت في الدولة المملوكية الأولى في عناد واصرار للحفاظ على بقائهم واستمرارهم.

إن رغبة برقوق في جركسة الدولة واستقدامه اعداداً كبيرة من المماليك الجراكسة أوقعته في مشاكل جسيمة تمثلت في خصمين أساسيين هما الأمراء الأتراك ومماليكهم من اليلبغاوية، والأمراء الأتراك الأشرفية ومماليكهم السلطانية. فقضى برقوق على الأشرفية باشراكه اليلبغاوية في الحكم وحرمان الأشرفية من اقطاعاتهم، وتشريدهم بحجة أنهم خانوا استاذهم وأحل مكانهم مماليكه السلطانية[1].

ثم سعى إلى القضاء على خشداشيته من اليلبغاوية، مما أدى إلى ثوراتهم، وكان أولها ثورة ابلستين الذي فشل في تأليب نواب بلاد الشام على برقوق، ففر إلى بلاد التتار بعد أن أعلن صراحة أنه لن يعيش في دولة سلطانها جركسي[2].

وفي سنة 785هـ/ 1383م قامت ثورة ذات طابع ديني كان رائدها الخليفة العباسي المتوكل يؤازره الأتراك هدفها عزل السلطان برقوق وإحلال الخليفة مكانه. لكن برقوق اكتشف المؤامرة وأحبطها، فعزل المتوكل وأحل محله خليفة آخر لقب بالواثق بالله[3]. وبدأ في اضطهاد من يشك فيهم من مماليك الأتراك، فطرد عدداً كبيراً منهم من وظائفهم، ونفى بعضهم إلى بلاد الشام[4].

---

1 ـ حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، دار الكتاب العربي سنة 1967، ص 63.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 1 ص 229.

3 ـ ابن حجر: أبناء الغمر، ج 1 ص 200 ـ 201.

4 ـ العيني: عقد الجمان ج 24، ص 289.

فارتكب برقوق بذلك خطأ فادحاً، إذ ما لبث أولئك المنفيين أن تكتلوا بعيداً عن السلطة المركزية بانتظار الفرصة المناسبة.

وفي سنة 788هـ/ 1386م واجهت برقوق ثورة بالغة الأهمية في أسبابها، وإن لم تشكل خطراً داهماً على السلطنة، إذ اتفق أربعة فقهاء من دمشق مع عدد من الأتراك والتركمان على الإطاحة بالدولة المملوكية. وعندما قبض عليهم، قام أحد القضاة وواجه برقوق بجرأة منكراً عليه حكم البلاد وفرض المكوس والضرائب التي لا تتفق وتعاليم الإسلام[1].

وفي سنة 790هـ/ 1388م قامت ثورة سياسية كبرى في شمال الشام تزعمها منطاش زعيم المماليك الأتراك الأشرفية ـ نائب ملطية ـ ويلبغا الناصري نائب حلب. وقد زحف الثوار تؤيدهم جموع غفيرة من التركمان والمغول، نحو دمشق فاستولوا عليها ثم زحفوا على القاهرة حيث ساء موقف برقوق، فهرب من القلعة حتى قبض عليه ونفي إلى الكرك[2].

كان باستطاعة يلبغا اعتلاء العرش بعد ذلك لكن خوفه من الأتراك الأشرفية، ومن كثرة عدد الجراكسة، وأحوال البلاد المتردية بسبب الطاعون، وانتشار التركمان وتعميمهم الفساد في بلاد الشام كل ذلك دفع يلبغا إلى إعادة أمير حاجي ابن الأشرف شعبان إلى العرش للمرة الثانية سنة 790هـ/ 1388م[3].

أدار يلبغا شؤون البلاد وفق مصالحه الشخصية. فحجر على السلطان الصغير، ومنع التركمان من الدخول عليه، وأفرد من يثق بهم من الأمراء لخدمته[4]. ثم استصدر مرسوماً على لسان السلطان والخليفة معاً يقضي بالافراج عن جميع

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 465 ـ 467.

2 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 632. وابن أياس: بدائع الزهور، ج 1، ص 277.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 11، ص 329.

4 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 1، ص 275.

المساجين من الأمراء الأتراك، ثم عين نواباً جدداً لبلاد الشام وأمرهم بالتوجه إلى مراكزهم[1]. فاستعدى بعمله هذا الجراكسة. زد على ذلك جشعه الاقتصادي، بسؤ توزيعه الاقطاعات مما أحدث ثغرة واسعة بينه وبين الأتراك الأشرفية، حتى قال منطاش للخليفة: «تفرد الناصري بالحكم، وقرب إليه خشداشيته اليلبغاوية، وأبعدني وخشداشيتي من الأشرفية، وأعطى أفضل الاقطاعات لخشداشيته وأسوأها لي ولأصحابي»[2].

كل ذلك كان ايذاناً بتمرد منطاش حليف الأمس واشتداد النزاع بين الأمرين الثائرين ـ يلبغا ومنطاش ـ مما أعطى برقوق فرصة لاسترداد مكانته، فتمكن من الفرار من حصن الكرك، وجمع جيشاً بالشام، وأنزل هزيمة بإعدائه عند صرخد سنة 792هـ/ 1390م ثم دخل القاهرة ظافراً حيث رحب به الأهالي واستقبلوه استقبالاً حافلاً لكثرة ما لحق بهم من أذية في عهدي يلبغا ومنطاش[3].

سلطنة الظاهر برقوق الثانية

عاد الظاهر برقوق إلى السلطنة في تلك المرة قوياً صلباً بعد التفاف الناس حوله، معتمداً سياسة جديدة في فرض مماليكه الجراكسة مستفيداً من الصراع بين الأشرفية واليلبغا لتقضي على أكبر عدد ممكن من الأمراء الأتراك الذين كانوا يتربصون به الدوائر. فأصدر تشكيلات تقوم على الجمع بين الأمراء الأتراك بالحكم إلى جانب الجراكسة حتى يتسنى له القضاء على المناوئين له من الأتراك دون أن يثير حفيظة الجميع ويتهم بالعنصرية، فعين يلبغا الناصري أمير سلاح، والظاهري دوادار وكمشيغا الظاهري رأس نوبة[4].

---

1 ـ ابن أياس: بدائع الزهور، ج 1، ص 275.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 624 ـ 625. وأبو المحاسن: النجوم ج 11، ص 336.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم ج 11، ص 378 ـ 379، وابن حجر الدر الكامنة ج 4، ص 365.

4 ـ المصدر نفسه ج 12، ص 6. وابن أياس: بدائع ج 1، ص 292.

ثم جهز جيشاً معظم أفراده من الأتراك اليلبغاوية بقيادة يلبغا الناصري لإخضاع منطاش الذي أقام دولة في الشام[1]؛ قائلاً له: «هو غريمك أعرف كيف تقاتله»[2].

وكي يحقق برقوق نجاح حملته المبنية على المكر والخداع أنعم على أكثر الأمراء اليلبغاوية باقطاعات بلاد الشام. وقد استطاع هذا الجيش الانتصار على منطاش في عدة مواقع، إلا أن يلبغا لم يحسم الموقف معه، كي يبقى الوضع غير مستقر ويستنزف قوة برقوق بكثرة الامدادات التي كانت ترسل بصورة متتالية إلى بلاد الشام على أمل أن يتمكن من تحقيق حلمه الذي نازعه عليه منطاش[3]. لكن خطة يلبغا لم تنطل على برقوق، فتوجه في سنة 794هـ/ 1292م على رأس حملة كبيرة إلى بلاد الشام، وألقى القبض على يلبغا وأمرائه وعلى نواب حماه وبعلبك وأمر بإعدامهم[4]، وطلب من نائب حلب الذي خلف يلبغا مهاجمة نعير أمير العرب لتحالفه مع صهره منطاش. فلبى نائب حلب الدعوة ونهب وأحرق مضارب نعير وأسر نساءه، فحاول نعير الافراج عن أسراه بشتى السبل، لكن نائب حلب اشترط عليه مقابل ذلك تسليم منطاش، فقبض نعير على صهره وسلمه لنائب حلب الذي أمر بقطع رأسه وأرسله إلى مصر ليعلق على باب زويلة ويكون عبرة لغيره بعد أن دامت ثورته أربع سنوات عانت فيها بلاد الشام أسوء الويلات بسبب سوء تعسفه وكثرة مصادراته[5]. بعد قتل يلبغا ومنطاش وانكسار

---

1 ـ Wiet. L'Egypte Arabe... p. 517 – 518 – 519.

2 ـ أبو المحاسن: النجوم ج 12، ص 6.

3 ـ المصدر نفسه ج 12، ص 32 ـ 33.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 752 ـ 753.

5 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 786. وابن أياس: بدائع الزهور ج 1 ص 283.
وانظر: Wiet: L'egypte, Arabe... p 518.

شوكة اليلبغاوية والأشرفية الشعبانية صمم برقوق على جركسة الدولة فأنعم على أمرائه الاقطاعات والمراكز الرئيسية كي يتمكن من تخفيف حدة الصراع الداخلي، والقضاء على الفتن الداخلية، ورفع مستوى الاقتصاد والمملوكي، لكن هذه السياسة ما لبثت أن تعثرت بعد أن دهم البلاد الشامية الخطر المغولي على يد تيمورلنك.

السلطان الظاهر برقوق والمغول

إذا كانت الهجمات التترية على بلاد المشرق العربي الإسلامي قد توقفت فترة من الزمن نتيجة الضربات القاسية التي تعرضوا لها على يد سلاطين دولة المماليك الأولى إلا أن هذه الحملات ما لبثت أن تجددت في عهد السلطان الظاهر برقوق بعد أن تولى تيمورلنك زعامة التتار وبدأ يؤسس امبراطورية في وسط وغرب آسيا عاصمتها سمرقند. فأرسل كتاباً إلى برقوق يطلب فيه إقامة علاقة صداقة بين البلدين: وتسهيل الحركة التجارية، فكان جواب برقوق رفض شروط القائد المغولي واعدام رسله.

استشاط تيمورلنك غضباً من تصرف السلطان برقوق، وزحف على رأس جيش كبير استولى على بغداد والرها وسبى أهلها سنة 795هـ/ 1393م[1] وهدد الأطراف الشمالية لسلطنة المماليك، وأرسل كتاباً ثانياً إلى برقوق يطلب منه التسليم السريع «فالويل كل الويل لمن لم يمتثل أمورنا، فإن قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد وأظهرنا في الأرض الفساد...»[2]. فرد عليه السلطان برقوق بكتاب مماثل،

1 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 752 ـ 753.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 803 ـ 806. وابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور ص 70.

وطرد رسوله من القاهرة وأخذ يستعد لمواجهة الخطر المغولي بتأمين المال اللازم للجيش[1]. وتكوين حلفاً سريعاً بين القوى التي أحست بخطر تيمورلنك في الشرق الأدنى. مثل المماليك في مصر وأمير سيواس ومغول القفجاق وسلطنة العثمانيين[2].

وفي سنة 797هـ/ 1395م خرج برقوق على رأس جيش أحرز انتصاراً في معركة غير فاصلة عند البيرة مع طلائع تيمورلنك[3]، الذي اضطر للرجوع إلى بلاده بعد أن تعرضت لغزو طقتمش زعيم بلاد القفجاق[4].

أما السلطان الظاهر برقوق فعاد هو الآخر إلى القاهرة حيث توفي سنة 801هـ/ 1399م[5].

الدولة المملوكية بعد برقوق

أولاً ـ السلطان الناصر فرج والقضاء على ثورة أمراء الشام:

عندما شعر برقوق بدنو أجله عقد مجلساً من الأمراء والخليفة والقضاة، وانتزع عهداً منهم بالعرش لأولاده من بعده: فرج وعبد العزيز ثم ابراهيم، على أن يكون ايتمش البجاسي وصياً عليهم، وحلف الحضور على تحقيق وصيته[6].

ويبدو أن برقوق كان يعتقد أن الأمراء الجراكسة سيعترفون بفضله عليهم، وسيحترمون رغبته بمساعدة أولاده في إدارة الحكم. لكن الذي حدث

---

1 ـ ابن اياس: بدائع الزهور، ج 1، ص 302.

2 ـ Wiet: L'egypte, Arabe... p 519.

3 ـ Ibid. p. 520.

4 ـ عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية ص 127.

5 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 903 ـ 907.

6 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 936 ـ 937.

بعد موت برقوق أن الأمراء سارعوا إلى تنفيذ تعهدهم في الوصية، فولوا فرج العرش ولقبوه بالناصر، دون أن يظهروا أية رغبة في مساعدته. على استقرار الأمن في الدولة[1] طمعاً بإستلام دفة الحكم، ففي اليوم التالي لموت برقوق أخذ الأمراء الصغار من الخاصكية بزعامة يشبك الخازندار يناصبون الأمراء الكبار بزعامة الأتابك ايتمش العداء، وتلا انقسام الأمراء انقسام في الجيش، فانضم القرانيص إلى الأتابك، والأجلاب والمماليك السلطانية إلى يشبك الخازندار، وأسفرت المعارك عن فوز يشبك وفرار ايتمش وباقي الأمراء الكبار من عصبته إلى بلاد الشام[2]. رفض الأمراء الشاميون الاعتراف بسيطرة يشيك على الحكم، وأعلنوا الثورة تحت راية تنمشى نائب دمشق ومعه الأمير ايتمشى البجاسي[3].

وإزاء اشتداد الثورة في بلاد الشام لم يجد فرج بداً من التوجه على رأس جيش كبير لملاقاة الثوار ووضع حد لتمردهم، حيث تمكن من القضاء على الثورة حتى قيل إنه ذبح في ليلة واحدة أربعة وعشرين أميراً وخنق أربعة أمراء منه بما فيهم تنمشى وايتمشى ونائب طرابلس[4]. كانوا من أفضل مماليك الظاهر برقوق وبهم استقامت الدولة الجركسية ـ ثم عاد فرج إلى القاهرة.

ثانياً ـ السلطان فرج والمغول بقيادة تيمورلنك

ما كاد الناصر فرج ينتهي من القضاء على المؤامرات والفتن في بلاد الشام، ويعود إلى القاهرة، حتى تحرك الخطر المغولي من جديد، فاحتل تيمورلنك مدينة

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 12، ص 171 ـ 172.

2 ـ ابن أياس: بدائع الزهنور ج 1، ص 319.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 989 ـ 991.

4 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 12، ص 211.

بغداد[1]. وزحف نحو بلاد الشام، فاحتل عينتاب، وعندما وصل إلى مشارف حلب أرسل كتاباً للناصر فرج يطلب منه الافراج عن أطلامش أحد القادة المغول وإلا سيجتاح الدولة المملوكية وينزل بها مصائب رهيبة[2]. فرد السلطان الناصر بقتل الرسل.

زحف تيمورلنك نحو حلب فدخلها واستباحها أربعة أيام قتلاً واغتصاباً ونهباً وتدميراً. مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرين ألف شخص[3]. وتعرضت حماة للمصير نفسه[4]. فما كان من السلطان الناصر فرج إلا أن أسرع في التوجه إلى الشام سنة 803هـ/ 1400 م على رأس جيش كبير، وبوصوله إلى دمشق، أرسل إليه تيمورلنك يطلب الصلح مقابل تبادل اطلامش مع الأمراء المماليك الأسرى لديه، فرفض السلطان المملوكي الطلب بناءً على رأى الأمراء، الذين شغلوا أنفسهم بأمور السلطنة غير عابئين بالخطر المغولي، وانسحب خلسة من الجيش حوالي ألف مملوك إلى مصر ليقيموا سلطاناً جديداً هو الشيخ لاجين[5]. فأدرك الناصر فرج حرج موقفه في الشام وخشي على حياته، فغادر إلى القاهرة تاركاً جيشه يلقي أسوأ مصير على يد تيمورلنك[6].

اغتنم القائد المغولي عودة السلطان المملوكي إلى مصر فتابع زحفه نحو بعلبك سنة 804هـ/ 1400م وخرب قلعتها، فهرب سكان البقاع والشهابيين في وادي التيم، وتوجهت فصائل مغولية نحو الساحل ولم تعمد إلى تخريب مدنه،

1 ـ ابن اياس: بدائع الزهور ج 1 ص 325.

2 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 325.

3 ـ ابن اياس: بدائع ج 1 ص 326 ـ 238. وأبو المحاسن: النجوم ج 12، ص 224 ـ 226.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 1036 وأبو المحاسن: النجوم ج 12، ص 229 ـ 230.

5 ـ أبو المحاسن: النجوم ج 12، ص 235. وابن أياس: بدائع ج 1، ص 330.

6 ـ أبو المحاسن: النجوم ج 12، ص 239.

واكتفت بالحصول على المال من بيروت وطرابلس وصيدا.

كما تابع تيمورلنك زحفه نحو دمشق وكان يتولى الدفاع عنها جيش مملوكي قليل العدد ودون قائد، معتمداً على مساندة الأهالي ومنتظراً وصول الامدادات من القاهرة، فاستغل تيمورلنك هذا الوضع وهاجم دمشق، لكنه مني بالهزيمة أمام صمود الجيش والأهالي. فلجأ إلى الحيلة وأظهر رغبته في عقد الصلح، فقبل الأهالي الطلب وأذعنوا إلى الاستسلام لشروط التتري مقابل الصلح، لكن المغول بعد دخولهم المدينة لم يراعوا شروط الأمان الذي منحوه لأهل دمشق فنهبوا المدينة ودمروها وأشعلوا فيها النيران[1]. وبذلك تعرضت دمشق لأبشع كارثة في تاريخها لا تزال حتى وقتنا الحاضر مضرب الأمثال. كما ترتب عن تلك الهجمة التترية لبلاد الشام نتائج رهيبة تمثلت في التدهور الاقتصادي الهائل بعد افراغ القرى من سكانها، وانقراض شبه كلي للماشية. وتقهقر الزراعة وزوال الصناعة[2]. وتوقف التجارة مع العراق وآسيا الصغرى التي تعرضت بدورها لاجتياح تيمورلنك بعد أن أنزل هزيمة ساحقة بالدولة العثمانية، وأسر السلطان بايزيد الأول في موقعة أنقرة سنة 805هـ/ 1402م.

وعندما سمع السلطان المملوكي الناصر فرج بأخبار الهزائم التي حلت بالعثمانيين رضخ للشروط التي تقدم بها تيمورلنك فأطلق سراح أسرى المغول، وسك عملة تحمل اسم تيمورلنك وكان تيمورلنك يسعى لاجتياح مصر[3]. ولكنه مالبث أن توفي في سنة 808هـ/ 1405م دون أن يحقق حلمه، وبموته أنقذت مصر من اجتياح مغولي كما أنقذ المشرق العربي الإسلامي من خطره الهمجي.

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 12، ص 241 ـ 246. وابن أياس: بدائع ج 1، ص 332 ـ 350.

2 ـ عبد السيد: دولة المماليك الثانية، ص 140.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 3 ص 47. وانظر ابن عربشاه في عجائب المقدور ص 107.

أما السلطان الناصر فرج فقد اهتزت مكانته في نفوس المصريين نتيجة التخاذل والضعف أمام المغول وسرعان ما نشب النزاع بين أمراء المماليك في مصر غير آبهين للفراغ الاقتصادي في جميع المرافق الانتاجية المملوكية، فعمت الفوضى في القاهرة وكافة أنحاء البلاد. إزاء ذلك لم يجد السلطان فرج بداً من التخلي عن السلطنة عملاً بنصيحة ابن غراب الاستدار[1]. الذي بذكائه عرف أبعاد الحالة السياسية، فباختفاء فرج تزول الفتنة، وتستقام الأمور دون السلطان، من غير أن يجرؤ أحداً على اعتلاء العرش لشدة الصراع بينهم، فيتولى العرش أخوه عبد العزيز، وتزول الخلافات القديمة بين فرج والأمراء، عند ذلك يعود فرج للظهور مجدداً.

اضطر فرج إلى الاختفاء مدة شهرين وعشرة أيام، فحل محله في الحكم أخوه المنصور عبد العزيز سنة 808 هـ/ 1405م. حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشبك الدودار من إعادة الناصر فرج إلى السلطنة في العام نفسه، فخلع أخاه واستقر على العرش مكانه وأصدر تشكيلات تخدم مصالح مؤيديه[2]. واتخذ سياسة جديدة تجاه الأمراء من مماليك أبيه، واعمل الذبح فيهم دون أن يجرؤ على قتل الأمراء الكبار المناوئين له، فكان يسجن الأمير وبعد مدة وجيزة يطلق سراحه ويرسله نائباً إلى بلاد الشام، حتى غدت تلك النيابات معقلاً لكل خارج على السلطة. فقد أفرج الناصر عن حكم العوضي وأنعم عليه بنيابة حلب، وعن توروز الحافظي وجعله نائباً لدمشق، وما ان استلما مركزيهما حتى أعلنا العصيان[3].

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 48.

2 ـ ابن أياس: بدائع ج 1، ص 348 ـ 349.

3 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 351.

وزاد من خطورة الموقف عندما أعلن حكم العوضي نفسه سلطاناً في بلاد الشام سنة 810هـ/ 1407م، وغدا يحكم من دمشق إلى الفرات، مستبداً بالبلاد الشامية[1]. ولم يخلص السلطنة المملوكية من شره إلا موته في حروبه ضد التركمان[2].

بعد موت العوضي تآزر الأمير شيخ المحمودي ونوروز ضد السلطان فرج وساروا على رأس الجيوش الشامية إلى القاهرة سنة 811هـ/ 1408م، ريثما يتمكنوا من ترشيح أحدهم لتبوء منصب الأتابكية في القاهرة، لكنهما منيا بهزيمة منكرة، وعادا إلى قواعدهما في الشام[3].

ولم يستطع الناصر فرج التفرقة بين الأمير شيخ المحمودي ونوروز اللذان صمما على التحالف والثورة، مما اضطر السلطان فرج مرغماً للخروج مجدداً لقتال الثائرين. فتقدم وحاصر المحمودي في قلعة صرخد وطال الحصار والجيش السلطاني يمعن نهباً بالقرى المحيطة بصرخد دون أن يرغب أحداً من الجند بانتصار فرج على حد تعبير المقريزي، مخافة أن يعود فيقتص منه[4]. حتى الأمراء الكبار الذين كانوا يساعدون فرج بالحصار لم يخلصوا له، مما اضطر السلطان المملوكي أن يفك الحصار، ويصدر عفواً عن شيخ المحمودي خوفاً من مؤامرة يحيكها الأمراء ضده[5].

ورغم ذلك لم تنته ثورة شيخ ونوروز التي استمرت إلى سنة 815هـ/ 1412م حتى استطاعا هذان الثائران من انزال هزيمة منكرة بفرج الذي اضطر

---

1 ـ ابن أياس: بدائع، ج 1، ص 351.
2 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 42.
3 ـ ابن أياس: بدائع ج 1، ص 349.
4 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 103 ـ 105.
5 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 105.

إلى التسليم لهما بشرط التأمين على حياته، ولكن على الرغم من ذلك أهرق الخليفة والقضاة دمه لسوء خلقه وإدمانه على شرب الخمر وتحوله عن الجراكسة إلى أخواله الروم وزواجه من ابنة تغري بردي الرومي، وقتله أمراء ومماليك أبيه وتلذذه بطعم الدماء. حتى وصفه بعض المؤرخين «بكثرة الجهل وقلة الدين»[1]. فاغتيل في سجنه في قلعة دمشق على يد بعض مماليك أبيه، الذين قتلوه بالخناجر، ثم ألقوا به على المزابل لمدة ثلاثة أيام ثم صلى عليه ودفن[2].

السلطنة المملوكية بعد الناصر فرج

بعد مقتل الناصر فرج تم الاتفاق بين أمراء المماليك على اسناد السلطنة إلى الخليفة العباسي المستعين على أن يساعده في الحكم شيخ المحمودي في القاهرة، ونوروز في بلاد الشام[3].

ولما كان الأمير شيخ يطمع بالعرش، فقد اغتنم وجود خصمه نوروز في بلاد الشام ولقب نفسه بنظام الملك ومنع الخليفة من كتابة أي منشور اقطاعي إلا بمراجعته شخصياً، ولما حاول الخليفة ممارسة دوره الحقيقي عزله شيخ بعد أن استمرت فترة حكمه خمسة أشهر تقريباً وتولى السلطنة مكانه وتلقب بالمؤيد[4].

رفض نوروز الاعتراف بالسلطان المؤيد شيخ وأعلن الثورة في بلاد الشام، فجهز السلطان حملة عسكرية كبيرة وزحف إلى الشام حيث كانت استعدادات نوروز على قدم وساق، فحاصره المؤيد شيخ في دمشق وضيق عليه الخناق حتى اضطر

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 1، ص 354 ـ 355.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 223 ـ 224. وابن أياس: بدائع ج 1، ص 356.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 229. وابن أياس: بدائع ج 1، ص 358.

4 ـ العيني: تاريخ الملك المؤيد ص 259.

إلى طلب الصلح، فأجابه إليه، لكنه ما أن قبض عليه قتله فوراً[1].

بعد التخلص من نوروز اعتمد المؤيد شيخ سياسة جديدة في بلاد الشام تقوم على الإرهاب والعنف فأمر بقتل الأمراء والمماليك الناصرية ـ أتباع النصر فرج ـ حتى تمكن من تثبيت أقدامه في السلطنة دون منازع، ومن ثم قام بحملة على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لتأديب الدويلات التركمانية ـ قرمان وذي القادر ورمضان ـ وإرغامها على العودة إلى تبعية الدولى المملوكية، فما أن وصل إلى طرطوس حتى قدم له أمراء التركمان فروض الطاعة، وقبل أمير قرمان أن يسك نقوده باسم السلطان المؤيد. ولكن السلطان المملوكي ما لبث أن اضطر للعودة إلى القاهرة لسببين: البرد القارس الذي اصاب جنوده[2]، والحالة الاقتصادية المتردية بسبب انتشار الطاعون[3]. ما إن عاد المؤيد شيخ إلى مصر، حتى نقض التركمان الشروط التي تعهدوا بها وأعلنوا العصيان مشجعين كل من تسول له نفسه الثورة على الدولة المملوكية، واستمرت حروب شيخ ضد الإمارات التركمانية من سنة 818هـ/ 1415م بشكل شبه مستديم حتى سنة 822هـ/ 1419 حين استطاع ابراهيم ابن السلطان المؤيد الإستيلاء على قيصرية وقونية، وضم إلى دولة المماليك بعض المدن مثل أذنه وطرسوس، وعين حاكماً على تلك الجهات من المؤيدين له، وبذلك تمكن من إرساء الاستقرار والولاء للسلطنة المملوكية في تلك الديار. وعاد إلى القاهرة حيث استقبل استقبال الفاتحين لكنه ما لبث أن توفي في العام التالي، ويقا أن أباه دس له السم غيرة منه لما ناله من تقدير[4].

---

1 ـ ابن اياس: بدائع ج 2، ص 3 ـ 4.
Wiet: la Nation Egypte. Pp 542 – 543.ـ

2 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 257 وما بعدها.

3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 258. وابن أياس: بدائع ج 2، ص 5.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 405 وما بعدها.

وفي سنة 824هـ/ 1421م مات الشيخ مؤيد فعهد الأمراء والخليفة بالعرش لابنه أحمد. تحت وصاية الأتابك ططر الذي ما لبث أن خلعه واعتلى العرش مكانه لفترة قصيرة، فخلفه ابنه محمد تحت وصاية الأمير برسباي الذي انتزع الحكم من السلطان الصغير بعد فترة قصيرة من توليته ولقب نفسه بالسلطان الأشرف[1].

الأشرف برسباي وتحرير جزيرة قبرص

ضاق المماليك ذرعاً من ملوك قبرص من آل لوزجنان وتواطئهم مع القراصنة الصليبيين وهجماتهم المتكررة على السواحل الشامية والمصرية بلغت ذروتها سنة 767هـ/ 1365م عندما هاجم بطرس لوزجنان ملك قبرص مدينة الاسكندرية، وأمعن في السلب والنهب والقتل[2]. فكانت الغارة بمثابة كارثة أصابت العمود الفقري للاقتصاد المصري، دون أن يتمكن سلاطين المماليك في تلك الفترة من الأخذ بالثأر نظراً لكثرة المنازعات بين أمراء المماليك حتى ظن ملوك قبرص أن سكوت سلاطين المماليك عنهم معناه خوفهم وعجزهم عن مدافعتهم فاستمروا في إغاراتهم على الاسكندرية سنة 805هـ/ 1403 وعلى طرابلس الشام سنة 806هـ/ 1404م. وهذا ما تكلمنا عنه سابقاً.

إزاء هذه الهجمات البربرية التي مارسها قراصنة ملوك قبرص بشكل ساخر وعلني سعى الأشرف برسباي منذ توليه السلطنة المملوكية إلى الانتقام والانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ضد الجزيرة وملوكها، لا سيما بعد أن تكرر العدوان في أوائل حكمه من جانب قراصنتها على الإسكندرية والتجار

1 ـ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص 163.

2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 72.

المسلمين[1]. فحول مدينة بيروت إلى قاعدة لغزو جزيرة قبرص، فتجمعت بها السفن الآتية من دمياط وطرابلس سنة 827هـ/ 1424م، وتمكنت من دخول ليماسول وإشعال النار في بعض أحيائها وأسر خمسة وعشرين رجلاً وامرأة وطفلاً والعودة سالمين إلى مصر[2].

بعد نجاح تلك الحملة أمر السلطان برسباي بتجهيز حملة جديدة، وفي صيف سنة 828هـ/ 1452م انطلق الأسطول المملوكي من بيروت وهو يضم أربعين من مختلف القطع البحرية واتجه نحو جزيرة قبرص، ونزل في ميناء قرباص على الشاطىء الشمالي الشرقي للجزيرة ومنه تحرك جنوباً باتجاه مدينة فاماجوستا[3]. وكان الأمير صالح بن يحي صاحب كتاب «تاريخ بيروت» ضمن هذه الحملة التي تمكنت من انزال الهزيمة بالجيش القبرصي في منطقة الملاحة والذي يضم سبعمائة فارس وثمانية آلاف من المشاة بقيادة الأمير كنداسطبل شقيق ملك قبرص. وعاد الأسطول المملوكي إلى دمياط[4]، ومعه سبعمائة أسير دخل بهم القاهرة في احتفال شعبي كبير، وقد أنعم برسباي على الأمير صالح بن علي بمائتي دينار ذهب وفضة[5].

لكن السلطان المملوكي برساي لم يقنع بالنتائج التي حققتها الحملتان السابقتان لأن الهدف الأساسي ليس السلب والنهب وإنما اخضاع قبرص وملوكها للتبعية المملوكية، ولتحقيق هذه الرغبة أرسل في سنة 829هـ/ 1426م حملة

1 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 352. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 561.

2 ـ العيني: العقد الجمان ج 25، ص 572.

3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 245.

4 ـ المصدر نفسه ص 247.

5 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 246.

كاملة التجهيزات وصلت إلى ميناء ليماسول حيث تمكنت من مهاجمته والاستيلاء عليه[1]. ثم اتجهت إلى داخل الجزيرة للإستيلاء على عاصمتها نيقوسيا.

لم يقف ملك قبرص جانوس مكتوف الأيدي، فقد جهز جيشه ونصب كميناً استعداداً لمحاربة المسلمين. وفي المعركة التي دارت بين الطرفين عند خير وكيتا حلت هزيمة ساحقة بالقبارصة ووقع ملكهم جانوس أسيراً في قبضة المماليك، ثم زحف المسلمون على العاصمة نيقوسيا، وصلوا الجمعة في كنيستها، ثم اشعلوا النار في أرجاء المدينة وغادروها[2].

وبعد أن تم تحرير الجزيرة عادت الحملة ومعها الملك جانوس وألوف الأسرى لتدخل القاهرة في احتفال كبير. ولم يفرج السلطان المملوكي برسباي عن ملك قبرص إلا بعد أن دفع فدية كبيرة واعترف بالسيادة لسلطنة المماليك[3].

السلطان جقمق وغزو جزيرة رودوس

توفي السلطان برسباي سنة 841هـ/ 1438م فخلفه ابنه العزيز يوسف وكان في الرابعة عشرة من عمره، فلم يستطيع الاحتفاظ بالعرش بسبب نقمة الناس على والده لما قاسوه في عهده من سوء تدبير في الأمور الاقتصادية وفي سياسة الاحتكار، فامتنع قسم كبير من المماليك عن تأييده والتمسك به ووجدوا غايتهم في التغيير، ولم يحركوا ساكناً عندما سعى الأمير جقمق إلى إزاحته وتولى السلطنة مكانه.

لم يكد السلطان جقمق يتولى الحكم في سنة 842هـ/ 1438م حتى

---

1 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 247.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 4، ص 374. والعيني: عقد الجمان ج 25، ص 583.

3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 247.

قامت في وجهه عدة ثورات تمكن من القضاء عليها، مثل ثورة الأمير قرقماس الشعباني أتابك العسكر في مصر، وثورة نائب الشام في دمشق، ثم ثورة العبيد في الجيزة سنة 846هـ/ 1442م[1]. بعد أن اطمأن جقمق إلى أن الأمور استقرت له وثبت أقدامه في السلطنة سعى إلى تحرير جزيرة رودس التي أصبحت قاعدة لفرسان الاسبتارية وبقايا الفلول الصليبية. ومنها بدأوا يواصلون غاراتهم ضد المسلمين في بلاد الشام ومصر.

ومن المحتمل أن يكون السلطان العثماني مراد الثاني هو من حرض السلطان المملوكي جقمق على غزو رودس بهدف إبعاد فرسان الاسبتارية عن الإنضمام إلى الحلف المسيحي الذي بدأ يتألف من القوى المسيحية الأوروبية لشن حملة صليبية ضد العثمانيين في البلقان[2].

أرسل جقمق ضد رودوس ثلاث حملات كانت الأولى سنة 843هـ/ 1440م والثانية سنة 846هـ/ 1443، ولما فشلت هاتان الحملتان. اهتم جقمق باعداد الحملة الثالثة، وحشد لها عدداً كبيراً من الرجال والعتاد والسفن أقلعت سنة 148هـ/ 1444م من دمياط بمصر واتجهت نحو بيروت وطرابلس لتنضم إليها القوات الشامية، وحاصرت عاصمة الجزيرة رودوس طوال أربعين يوماً. ولكن المدينة صمدت للحصار دون أن يتمكن الجيش الإسلامي من اقتحامها بسبب وصول النجدات الأوروبية إليها مما اضطر عودة الحملة إلى مصر دون تحقيق هدفها في فتح رودوس، كما حصل في قبرص عهد السلطان برسباي[3].

---

1 ـ إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص 35.

2 ـ محمد مصطفى زيادة: المحاولات الحربية للإستيلاء على جزيرة رودس ص 297.

3 ـ Wiet: L'egypte Arabe... op. cit., p. 582.

السلطان الأشرف قايتباي والتركمان

توفي السلطان جقمق سنة 857هـ/ 1453م فتولى ابنه المنصور عثمان العرش بعده بناءً على وصيته. لكن عثمان لم يستطع البقاء في السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يوماً، فعزله الأمير اينال وحل محله بعد أن لقب نفسه بالأشرف.

حكم اينال ثمان سنوات من سنة (857هـ/1453م) (865هـ ـ 1461م) كانت القاهرة مسرحاً للفتن والصراعات التي أثارها المماليك الجلبان بعد موت الأشرف اينال تعاقب على عرش السلطنة عدد من السلاطين في سرعة متناهية من أمثال أحمد بن اينال والظاهر خشقدم والظاهر يلباي الملقب بالمجنون والظاهر تمريغا الرومي، حتى أن السلطان خير بك اعتلى العرش بعد عزل تمريغا ـ في المساء وعزل في الصباح وإن دل هذا الأمر على شيء فهو يدل على عدم الاستقرار والتدهر الذي أصاب سلطنة المماليك في تلك الفترة ولم تستقر الأوضاع إلا بعد تولية السلطان الأشرف فايتباي عرش السلطنة سنة 872هـ/ 1468م. حكم الأشرف فايتباي مدة تسعة وعشرين سنة أثبت خلالها «أنه من أقدر السلاطين المماليك في ميدان الحرب وأكثرهم خبرة في شؤون العالم الخارجي وأكثرهم شجاعة وحكمة»[1].

واجهت السلطان قايتباي مشاكل داخلية عديدة تمثلت بالفتن الداخلية غير المتهية التي كانت تثيرها طوائف المماليك الجلبان بهدف الحصول على الأموال غير عابئين بالأخطار الخارجية التي كانت تهدد ديمومة السلطنة المملوكية. لكن قايتباي استطاع أن يواجه ثوراتهم بجرأة وعزيمة حتى استطاع القضاء عليها أو على الأقل الحد منها حتى ينصرف إلى مواجهة الأخطار الخارجية من جانب الدول التركمانية التي كانت تثير القلاقل بين فينة وأخرى في الأطراف الشمالية

---

1 ـ Lane – poole: A History of Egypte... p. 343 – 344.

لدولة المماليك. تكلمنا عنها سابقاً ـ من هذه الدول دولة ذي الغادر ودولة قرمان ودولة رمضان، ثم دولتي الشاه البيضاء والسوداء[1].

وعلى الرغم من أن هذه الدول خضعت للسلطنة المملوكية في عهد المؤيد شيخ وابنه ابراهيم. إلا أن خضوعها كان بالضغط والاكراه بدليل أن الدولة العثمانية التي تحولت بعد وفاة السلطان محمد الثاني الفاتح، من دورها الجهادي في آسيا الصغرى وشرق أوروبا إلى دور توسعي وسلطوي زمن السلطان العثماني بايزيد الثاني على حساب الدول الإسلامية ـ ستتكلم عنه لاحقاً ـ كان بداية تدخلهم في شؤون تلك الإمارات التركمانية، مما جعل السلطان الأشرف قايتباي يشعر بالخطر المحدق بدولته من الجانب العثماني ويسعى لوضع حد للتركمان حتى لا يكونوا أداة لتغلغل ذلك الخطر في أطراف دولة المماليك الشمالية.

«أرسل قايتباي عدة حملات ضد أمير ذي الغادر ـ شاه سوار ـ الذي مال إلى العثمانيين انتقاماً من المماليك، وكان آخر هذه الحملات بقيادة الأمير يشبك سنة 876هـ/ 1471م الذي أنزل هزيمة ساحقة بشاه سوار وأرسله مكبلاً إلى القاهرة حيث أمر قايتباي بشنقه على باب زويلة[2].

لم يكن خضوع دولة ذي الغادر للسلطنة المملوكية نهاية الاضطرابات والفتن التي كان يثيرها التركمان، بل ان دولة الشاه البيضاء بزعامة أميرها حسن الطويل ازدادت غاراتها على مناطق حلب، مما جعل السلطان قايتباي يرسل حملة جديدة ضد حسن الطويل بقيادة يشبك سنة 877هـ/ 1472م أحرزت انتصاراً على دولة الشاه البيضاء وعادت إلى القاهرة[3].

---

1 ـ Lane – poole: A History of Egypte... p. 590.

2 ـ Wiet: L'egypte Arabe... op. cit. p. 590.

3 ـ ابن اياس: بدائع الزهور ج 3، ص 86.

وفي سنة 884هـ/ 1478م توفي حسن الطويل فعمت الفوضى دولة الشاه البيضاء، فاغتنم الفرصة القائد يشبك وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة 885هـ/ 1481م ولكن أحد نواب حسن الطويل في مدينة الرها استطاع الانتصار على يشبك وقتله مع عدد كبير من أمراء المماليك[1]. ولم يستطع قايتباي الانتقام لأن العلاقات الطيبة بينه وبين السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي تولى العرش بعد وفاة محمد الفاتح ـ صاحب اتفاقية الود بين الدولتين ـ بدأت تضطرب فآثر قايتباي عدم الاصطدام مع العثمانيين مناصري حاكم الرها وقنع بعقد الصلح مع دولة الشاه البيضاء، يضاف إلى ذلك سؤ أحوال مصر في هذه الفترة بسبب كثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتق الناس من شدة الضرائب الباهظة المفروضة عليهم وتطبيق سياسة الاحتكار وانتشار مرض الطاعون الذي «فتك بالناس فتكاً ذريعاً»[2]. حتى أنه كان يموت بالقاهرة أكثر من عشرة آلاف نفس في اليوم الواحد ولم ينج المماليك أنفسهم من ذلك المرض فكانت زوجة السلطان الأشرف وابنته من جملة الموتى. وزاد الطين بلة انعدام الأقوات وانخفاض النيل وانتشار طاعون المواشي[3]. وفي وسط تلك الظروف السيئة توفي السلطان قايتباي [4] وهو في الثمانين من عمره سنة 901هـ/ 1496م بعد أن حكم مصر قرابة تسعة وعشرين سنة[5].

---

1 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 3، ص 171.

2 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 287.

3 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 3، ص 287.

4 ـ Wiet: L'egypte Arabe... op. cit., p. 604.

5 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 3، ص 335.

الفصل السابع

السلطان قانصوه الغوري

أولاً الحالة السياسية العامة في مصر

بعد موت السلطان الأشرف قايتباي تولى الحكم بعد السلطان الأشرف قايتباي ابنه الناصر محمد الصغير بناءً على وصية والده وهو في السن الرابعة من عمره وسط أعاصير هوجاء، ومناورات الأمراء ودسائسهم ومطامعهم الخفية[1]. وتتصف تلك المدة بعدم الاستقرار في الحكم والاضطرابات الداخلية وفتن الجند والأمراء على السواء، كالذي حدث بين قانصوه خمسمائة واقبردي والمحاولات التي قام بها كل منهما للتخلص من السلطان الصغير والفوز بمنصب السلطنة.

وإذا كان الأمير قانصوه خمسمائة استطاع عزل محمد بن قايتباي وأعلن نفسه سلطاناً مكانه سنة 902هـ/ 1497م، فإن خصومه لم يلبثوا أن قتلوه وأعادوا الناصر محمد بن قايتباي إلى العرش مرة أخرى[2].

أصيبت السلطنة في عهد السلطان محمد بن قايتباي بإنحطاط لم يسبق له مثيل[3]. وقاست البلاد من الفتنة العمياء بسبب استبداد المماليك الجلبان بالأمور وإعاثتهم الفساد في البلاد والعباد قحطاً وغلاء. حتى قضي على السلطان الصغير

---

1 ـ ابن اياس: بدائع الزهور ج 3، ص 335.

2 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 354.

3 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 347، 375، 377. وانظر القرماني: أخبار الدول ص 212.

مقتولاً بالجيزة بيد الأمير طومان باي ـ السلطان العادل فيما بعد ـ يوم الأربعاء الخامس عشر من ربيع الأول سنة 904هـ/ 1498م بجهة الطالبية[1]. واختاروا خاله الظاهر قانصوه أبو سعيد الأشرفي ليتولى السلطنة، لكن مدة إقامته بطباق المماليك السلطانية بقلعة الجبل لم تطل، فقد دبر له طومان باي الذي كان يمهد لنفسه بالخفاء مكيدة، وحاصر القلعة فهرب السلطان رعديداً في زي النساء[2]. وتولى من بعده الأشرف جانبلاط سنة 905هـ/ حزيران 1500م الذي دفعه طومان باي إلى كرسي السلطنة والفتن تزداد في مصر وبلاد الشام حيث أعلن «قصرو» نائب الشام ودولات باي نائب حلب العصيان والتمرد عليه، فأرسل جانبلاط الأمير طومان باي إلى الشام ليخمد الفتن المفتعلة ولكنه تسلطن هناك[3]. وتلقب بالعادل ثم عاد إلى القاهرة، ومعه كثير من الأمراء وعلى رأسهم قانصوه الغوري وقاني باي قرا الرماح. فدافع جانبلاط عن نفسه وسلطته، حتى تمكنوا من القبض عليه وخنقه بالاسكندرية في جمادي الآخرة سنة 906هـ/ 1500م[4]. ليحل محله طومان باي سنة 906هـ/ كانون الثاني 1501م الذي لم تدم سلطنته سوى بضعة أشهر حتى تم عزله واختاروا مكانه الأشرف قانصوه الغوري في سنة 906هـ/ نيسان 1501م[5].

ثانياً ـ اختيار الغوري للسلطنة

أدت الأعمال الغادرة التي قام بها طومان باي من سفك الدماء والغدر

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 3، ص 392. وانظر موير: تاريخ دولة المماليك ص 164.

2 ـ المصدر نفسه ج 3، ص 426 ـ 427. والبقاعي: كنافي التاريخ ص 218.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 3، ص 427 ـ 444.

4 ـ ابن أياس: بدائع، ج 3، ص 446 ـ 467.

5 ـ الاسحاقي: أخبار الدول ص 144. وابن اياس: بدائع ج 4، ص 403.

بالأمراء(*) وإن لم تكن جديدة على نظام الحكم المملوكي. وما صاحب ذلك من غلاء وفناء وخراب عام يسبب فساد العربان وتمرد المماليك الذين كانوا يهاجمون الأسواق وينهبون المتاجر والذين تزايد شرهم واستخفافهم بالسلاطين والأمراء وغير ذلك من عوامل الجور وكثرة المصادرات للأعيان والعديد من الرجال والنساء[1]. إلى تألب الأمراء عليه، بالاضافة إلى العديد من الجنود السلطانية، فلم أحس طومان باي بذلك فر ناجياً بنفسه واختفى عن الأنظار في ليلة عيد الفطر بعد العشاء[2].

اجتمع الأمراء المناهضون للعادل وعلى رأسهم الأمير قيت الرجي وقانصوه الغوري وطرا باي ومصرا باي وقاني باي الرماح واصطمر وانصباي وطقطباي وخايربك المعروف بأخي قانصوه البرجي وغيرهم وهم أصحاب السلطة والنفوذ، ليتشاوروا في الأمر، فرأوا من الحق أن يبدؤا بالنداء على الأميرين المختفيين «قانصوه خمسمائة» و«تاني بيك الجمالي» ليظهرا[3] عليّ الرأي يقع على أحدهما لولاية السلطنة، فلم يظهر قانصوه خمسمائة وظهر الأمير «تاني بيك الجمالي» فقويت الرغبة في سلطنته، وذلك لسنه وتجاربه، ولكن البعض تذكر أن تاني بيك كان من عصابة الملك العادل طومان باي، وذا خفة وطش، وهو أميل إلى الحزبية فلا يؤمن جانبه. وخشيه كثير من الجنود...»[4].

(*) لم يمضي بضعة أيام على تولي طومان باي السلطنة حتى قتل صديقه وحليفه قصرو والسلطان المخلوع جانبلاط، وأخذ يسط في سفك الدماء، ويسيء الظن بالأمراء ويغضبهم ويسجن بعضهم ويدبر الغدر بهم...

ـ ابن اياس: بدائع ج 3، ص 466 ـ 467.

وانظر: Lane – poole: A History of Egypte... p. 349.

1 ـ ابن اياس: بدائع ج 3، ص 379 ـ 386... وموير: تاريخ دولة المماليك ص 189.

2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 2.

3 ـ ابن اياس: بدائع... ج 4، ص 1 ـ 2 وانظر المقدسي: نزهة الناظرين ص 56 ـ 75.

4 ـ المقدسي: نزهة الناظرين ص 57.

وهكذا قوي تيار المعارضة ضده، فانصرفت عنه الرغبة[1]. وتحمس بعض الأمراء آنذاك ونادوا للغوري يريدون توليته ـ مرشح حل وسط ـ وهو «يمتنع من ذلك ويبكي» ولكنه قبل أخيراً السلطنة بعد أن أقسم له الأمراء على المصحف العثماني بالطاعة والولاء[2]. وهكذا كان الغوري بعيد النظر عارفاً بمتاعب السلطنة ومسؤوليات الحكم الجسام فلم يكن وراء ذلك كما شاهد بنفسه في السنوات الأولى من القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي إلا الخلع والنفي أن افلت السلطان من السجن أو الاعدام بعد ثورات جامحة وفتن عنيفة[3]. وحضر الخليفة المستمسك بالله العباسي والقضاة الأربعة (المالكي ـ الحنبلي ـ الشافعي ـ الحنفي) إلى القلعة بعد أن تم الأمر بين الأمراء، وكتب القاضي الحنبلي محضراً بخلع العادل طومان باي ثم عقدت البيعة للغوري يوم الاثنين عيد الفطر مستهل شوال سنة 906هـ/ 1501م ولقبوه بالأشرف وكنوه بأبي النصر ونودي بذلك في القاهرة[4].

وهكذا وصل قانصوه الغوري الشيخ العاقل المدبر إلى السلطنة بعد أن شاخت الدولة فكان عصره بمثابة صحوة الموت لدولة الجراكسة في مصر والشام.

ثالثاً ـ الخطوات الأولى التي قام بها الغوري لتثبيت السلطنة

أ ـ الغوري وتنظيم الإدارة

لم يكد السلطان قانصوه الغوري يلي السلطنة حتى أخذ يدبر أمور دولته،

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 4.
وانظر الغزي: الكواكب. ج 1، ص 295.
2 ـ المقدسي: نزهة الناظرين ص 57. وابن أياس: بدائع ج 4، ص 4.
3 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 4. وموير: تاريخ دولة المماليك ص 166.
4 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 5 ـ 6.

ويرسم سياسته في الداخل، ويعمل جاهداً للقضاء على كل ما يعترض سبيله من العقبات. وقد تبدى في كثير من تصرفاته، بعد نظر، وسعة حيله ورغبة في تأليف الأتباع. رغم أنه كان قد تجاوز الستين من عمره.

جعل الغوري من نفسه ـ كما كان أسلافه ـ ولي الأمر الشرعي ومصدر السلطات ومحور الدولة ـ يعين الأمراء وبعزلهم، يمنح الأقطاع ويسترده، يشتري المللوك الجدد وينفق على الجنود السلطانية(*). يقوم بالاصلاحات وإنشاء المرافق، ويجلس أحياناً للمحاكمات[1]. حتى استطاع في مدة قصيرة إعادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة. واختار أعوانه في وظائف الدولة من كبار الأمراء، ويوظف أصاغرهم في الوظائف المناسبة لهم، ويرقي إلى الرتب الأكبر، من يشاء[2]. فأسند منصب الأتابكية إلى الأمير قيت الرجبي. ومنصب الدوادارية والوزارة إلى الأمير مصر باي وولى ابن أخيه طومان باي ولاية القاهرة[3].

كما اختار بعض الأمراء الذين كانوا مسجونين وأقرهم في المناصب العليا الشاغرة. ومنهم الأمير قرقماس ابن ولي الدين الذي رقاه إلى مقدم ألف، وعينه أمير سلاح، واصطبر بن ولي الدين ولاه أمره المجلس. وغيرهما[4]، واختار لكل اقليم داخلي في مصر ـ كالشرقية والغربية والجيزة حاكم من غير الأمراء

(*) كانت الطبقة الحاكمة تتألف من السلطان وأمراء دولته وجنوده السلطانية وجميع هذه الطبقة من الجنس الجركسي. وقد استبدت بكل اسباب القوة، والتعليم العسكري، والفروسية، فكانت طائفة من الجنود والفرسان تحكم البلاد بقوي السلاح.

1 ـ زكي، أحمد، تاريخ مصر الاجتماعي ص 204. وطرخان، إبراهيم: مصر في عصر المماليك الجراكسة ص 249.

ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 18، 322. والمقريزي: السلوك ج 1، ص 736 حاشية 6.

2 ـ ابن أياس، بدائع ج 4، ص 18 ـ 322. والمقريزي: السلوك، ج 1، ص 736 حاشية 6.

3 ـ رشدي، راسم: مصر والجراكسة ص 120.

4 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 9 ـ 10 ـ 67 ـ 71 ـ 74.

المقدمين[1].

أما البلاد البعيدة عن السلطنة، في مصر وخارجها، اختار الغوري نوابها من الأمراء والمقدمين باستثناء نيابة دمشق التي كان يحكمها أكبر نواب السلطنة، ويضارع في منزلته «أتابك العسكر» بالقاهرة[2].

وقد ساعدت طريقة اختيار الغوري لحكام الأقاليم في المحافظة على سعة السلطنة حتى آخر عصره[3].

واستعان لسلطان قانصوه في بعض وظائف الدولة العليا بطائفة من أبناء الشعب، ممن تخرجوا في المساجد وفقهوا الدين أو اللغة[4]. من طرائف المؤرخ ابن اياس أنه يسجل عن حوادث سنة 922هـ/ 1516م احصائية للهيئة الحاكمة والجهاز الإداري لدولة الغوري فذكر الرتب والمناصب الرئيسية واسماء شاغليها من الأمراء وغيرهم فقال «وقد كثر العسكر وقل الرزق»[5].

أما الجند وهم دعامة الجيش وحفظة الأمن، فكانوا من المماليك الأرقاء المشترين بمال الدولة ويطلق عليهم المماليك السلطانية. ومنهم الجلبان والقرانصة. وقد بلغت المنافسة بينهم على حب الاستئثار بالمنفعة حد النزاع والكراهية فكان لذلك أسوأ الآثار فيما بعد[6]. وليؤمن الغوري ظهره من المؤثرات استجد طبقة من المماليك الجلبان عرفت بالطبقة الخامسة، أرهقته بنفقاتها فأثارت بذلك ثائرة الطوائف الأخرى[7].

---

1 ـ وثيقة وقف الغوري أوقاف رقم 883 ص 61.

2 ـ عبد الظاهر: تشريف الأيام ص 41. وثيقة طومان باي أوقاف رقم 882 ص 524 و 538.

3 ـ ابن اياس: بدائع ج 4، ص 406.

4 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 236 ـ 399.

5 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 62.

6 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 180 ـ 322. والمقريزي: السلوك ج 1، ص 336 حاشية 6.

7 ـ المقريزي: السلوك، ج 1، ص 736 حاشية

ويبلغ عدد جنود الدولة في عصر الغوري ما يزيد على مائتي ألف[1] هذا وقد سعى الغوري إلى تغيير بعض شعارات الدولة وتقاليدها، فبعد أن كانت رتب الإمارة مقصورة على البارزين من الجند، والوظائف العسكرية الكبرى خاصة بالأمراء دون سواهم، خالف السلطان هذا العرف فأنعم على ولده الناصري محمد بإمارة طبلخانة وعينه في الخازندارية الكبرى في شوال سنة 920هـ/ 1514م، ثم رقاه إلى أمير آخورية مع أنه كان في الثالثة عشرة من عمره، وأصدر أمره بألا يخاطب بلفظ «سيدي» بل بالأمير آخور الكبير»، ومنحه اقطاعه ومماليكه وبيوته[2]. ولعل الغوري أراد بهذا العمل أن يهيء ابنه لولاية السلطنة من بعده[3]. وفي سنة 916هـ/ 1510م أمر السلطان برفع الدكة السلطانية وبناء مصطبة مكانها، واتخذ شعاراً جديداً لدولته الهلال الذهبي المحترم بدلاً من الطير[4].

ب ـ الغوري والفتن الداخلية

وصل الغوري إلى السلطنة بعد أن شاخت الدولة، وضاعت هيبتها في الداخل والخارج، فكان أمراً حتمياً والحالة هكذا أن تعترضه ثورات جامحة وفتن عنيفة استطاع بحنكته السياسية وتفكيره العميق أن يعيد الاستقرار ـ نسبياً ـ إلى السلطنة.

1 ـ فتنة المماليك الجلبان

واجه الغوري منذ تقلده السلطنة مشكلة المماليك الجلبان وميلهم المستمر

---

1 ـ حجة الغوري: أوقاف رقم 883 سطر 389.

2 ـ المصدر نفسه سطر 1611.

3 ـ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص 42.

4 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 312. والغزي: الكواكب ج 1، ص 295.

للفتنة، خاصة بعد عجزه عن دفع ما اعتادوا أن يتقاضوه لدى ولاية أي سلطان جديد ـ وهذا ما كان يطلق عليه اسم نفقة البيعة[1]. فقد اعتذر لهم السلطان قانصوه في الأيام الأولى بخلو الخزانة من الأموال[2]. واستمهلهم بعض الوقت، فلم مضت الشهور دون أن يحصلوا عليها، نزلوا إلى الشوارع وهاجموا البيوت والمتاجر ونهبوا ما فيها[3]. ولم تتوقف الفتنة إلا بعد أن أعطاهم السلطان من جديد وعداً محدداً أن يفي لهم بالنفقة في وقت قريب[4].

وبالرغم من أن الغوري أخذ ينفق عليهم بسخاء، إلا أنهم عادوا إلى تمردهم وزادت ثورتهم ونزلوا من الطباق في القلعة إلى الشوارع ونهبوا الدكاكين في سوق جامع ابن طولون، ودكاكين الصليبية حتى كادت مصر أن تخرب[5]. واستمر الحال على هذه الصفة من السلب والنهب مدة يومين، وفي اليوم الثالث قصد المماليك إلى دولات أمير السلاح وأرادوا أن يسلطنوه بدلاً من الغوري، لكنه فر منهم ولجأ إلى السلطان في القلعة[6]. وبلغ المماليك أن الأمراء قد تجمعوا للهجوم عليهم، فدب الذعر في صفوفهم، وعادوا إلى القلعة[7]. ولم تجد ما أخذه السلطان من ايمان ومواثيق عليهم، فرغم أنه حلفهم على الولاء له وعدم الخروج عليه[8]. فإن وعدهم لم يكن قاطعاً، فإشعال الفتنة والوثوب على السلطان من

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 2 ص 22. والقلقشندي: صبح الأعشى ج 1، ص 462.

2 ـ حسين، أحمد: موسوعة تاريخ مصر ص 793.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 16 ـ 17.

4 ـ حجة الغوري أوقاف رقم 883 سطر 67.

5 ـ ابن اياس: بدائع ج 4، ص 177. وحسين، أحمد: موسوعة تاريخ مصر 793.

6 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 178.

7 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 178.

8 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 180.

الأمور التي اعتادوا عليها. وزيادة النفقة وحسن المعاملة لم يغير من سلوكهم، وإذا كانت الفتنة اختفت في الظاهر نتيجة عطاءات السلطان السخية، إلا أنها عادت لتظهر بعد ذلك في أدق الأوقات وأصعبها ـ معركة مرج دابق ـ حيث تخاذلوا عن سلطانهم في أحرج اللحظات المصيرية[1].

2 ـ فتن العربان

إن فتن العربان، يمكن وصفها بأنها كانت مزمنة وعنيفة، رغم تمتع زعمائهم بالاقطاعات الوفيرة والاستقلال المحلي المحدود، بل ووراثة المشيخات في قبائلهم ونواحيهم، ومع ذلك قاموا بثورات وفتن عديدة ضد السلطنة المملوكية[2].

حقيقة أن العرب ساعدوا المماليك، إلا أنهم لم يترددوا في الخروج عليهم والثورة ضدهم. إذا لاحت لهم الفرصة[3]. والعامل الأساسي في ثورات العربان هو الكراهة العنصرية للمماليك الذين مسهم الرق، بل إن كراهيتهم ترجع إلى عهد الأيوبيين، وربما إلى العهد الذي طرد فيه الخليفة المعتصم بالله العباسي الجند العرب من ديوان الجيش في القرن الثالث الهجري لا التاسع الميلادي. وأحل محلهم الترك، ويعتقد العرب أنهم أرفع مكانة من هؤلاء الأتراك جميعاً، وأنهم الأولى بالحكم والولاية، فعملوا منذ البداية على رفض قيام الدولة المملوكية الأولى وهدمها في مهدها، فأعلنوا الثورة وقالوا «نحن أصحاب البلاد»[4].

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 9، ص 73.

2 ـ سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك، ج 2 ص 338.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 12، ص 232 ـ 233.

4 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 386.

استمرت مشكلة العرب قائمة. ولم تهدأ ثائرتهم في وقت من الأوقات وازدادت ثوراتهم وفتنهم على عهد الجراكسة، رغم ما كانوا يلقونه من أشد أنواع التنكيل[1]. حتى كان عصر الغوري فتربص العرب الدوائر بالمماليك، ولكن السلطان لم يقصر في مكافحتهم والقضاء عليهم. وبذل في سبيل ذلك الرجال والمال[2]. ورغم ذلك لم يهدأ عربان الشرقية فثاروا في سنة 98هـ/ 152م وانضم إليهم عربان الغربية والصعيد، وكادوا يملكون البلاد من ايدي مقطعيها، فجرد عليهم الغوري حملات عدة بقيادة صناديد الأمراء، فكان منها تجريده إلى الشرقية بقيادة قاني باي قرا وواحدة إلى الغربية بقيادة طراباي وأخرى إلى الصعيد ورابعة إلى البحيرة. فكافحتهم كفاحاً دموياً رهيباً، حتى قتلوا منهم نحو ألفين وطهروا البلاد من أشرارهم، وأعادوا إليها الأمن والسكينة. وقيل أن الأمير طراباي كان ينشر بعضهم بالمنشار من الرأس إلى القدم[3].

وبعد مدة قبض على ابن بيسار وابن بهيج، وكانا من أكبر الثوار المفسدين من عربان الشرقية. فأمر السلطان بشنق الأول على باب زويلة، وشنق الثاني على باب النصر[4].

وفي ذي الحجة سنة 991هـ/ 1505م وقعت فتنة هائلة بين شيخ العرب بيبرس بن بقر وبين نجم شيخ العابد. وانتشرت في ربوع الشرقية بسبب ذلك أهوال شديدة. وقطعوا جسور النيل وهو مشرف على الوفاء، فأغرقوا الحقول وأفسدوا الزرع[4]. أرسل إليهم الغوري التجريدة تلو الأخرى للقضاء على

---

1 ـ سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك ج 1، ص 343.

2 ـ حجة الغوري أوقاف رقم 883 سطر 69 وما بعدها.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 25.

4 ـ طرخان، إبراهيم: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص 690.

5 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 96 ـ 79.

نزاعهم وكبح جماحهم، ولكن الثوار المتنازعين، أحسوا بقدوم هذه الحملات، فلاذوا بالفرار، دون أن تستطيع أية تجريدة أن تلحق بهم[1].

وما فتيء عربان الشرقية خلال عصر الغوري، يثورون ويعبثون ويسرفون ويقتلون، حتى علموا بمصرع الغوري في مرج دابق فزادت جرأتهم، ونشروا الفزع والإرهاب في كثير من البلاد. وكان أنشطهم في ذلك، أبناء شيخ العرب أحمد بن بقر وأتباعهم، الذين تصدوا لفلول الجيش العائد من المعركة، بين قطيا والصالحية، فقاتلوهم ونهبوا ما معهم[2].

ولم يقل عربان الغربية والبحيرة، وعربان غزالة بالجيزة، عن عربان الشرقية ثورة وافساداً، واجترأ على الجراكسة وعلى أهل البلاد. ففي المحرم سنة 918هـ/ 1512 تحالفت بعض طوائف عربان البحيرة وأعلنت العصيان فأرسل السلطان الغوري إليهم تجريدة كبيرة بقيادة طومان باي الدوادار، فطاردوا الثوار مطاردة عنيفة حتى شتتوا شملهم[3].

وفي ربيع الأول سنة 920هـ/ 1514م نزل عرب غزالة بالقرب من البدرشين وقاموا بفتنة عمياء طاغية، فسار إليهم الأمير طومان باي الداودار وفاجأهم وقبض على عدد منهم سيقوا إلى القاهرة حيث سجنوا في المقشرة، لكنه خاف أن يحكم عليهم بالشنق لئلا يهب أقرباؤهم في اقليم الجيزة انتقاماً لهم[4].

ولم ينس عرب غزالة هذه الواقعة لطومان باي، فلما ولي السلطنة بعد مصرع الغوري، ناصبوه العداء وشغلوه عن التفرغ لمعركته مع العثمانيين، فكان

---

1 ـ ابن أياس: بدائع، ج 4 ص 116 ـ 117.

2 ـ المصدر نفسه ج 5 ص 79.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 256 ـ 258. وموير: تاريخ دولة المماليك ص 168.

4 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 372 ـ 373.

ذلك في جملة أسباب هزيمته[1].

3 ـ مؤامرات الأمراء

طبع العصر المملوكي بهيكلية خاصة لجهة إدارة شؤون الحكم، فبالرغم من أن صلاحيات السلطان كانت مطلقة، لكنه لم يستطع التمتع بها كاملة، فقد كان يحيط به جهاز عسكري من الأمراء الكبار تفاوتت أهمية مناصبهم[2].

من هنا نشأت علاقات سياسية وعسكرية بين السلطان والأمراء اتخذت طابع الصراع والحق للأقوى، وجاءت دموية مبنية على الخديعة والغدر والدهاء وأحياناً قليلة ارتكزت على الاخلاص والتضحية والوفاء[3] ومن الأمراء الذين ائتمروا بالغوري: مصرباي الدوادار، وقيت الرجبي الأتابكي، وثاني بيك الجمالي، وأزيك المكحل. ثم خايربك المعروف بأخي قانصوه البرجي، وجان بردي الغزالي.

كان مصر باي من المناوئين للملك العادل طومان باي وسياسته. وقد رأينا كيف تعصب للغوري حتى بلغ السلطنة[4]. ثم عين في الداودارية الكبرى والاستادارية والوزارة[5]. غير أنه سرعان ما راودته الأطماع، فأخذ يأتمر بالسلطنة مع جماعة من أنصاره، شاور الغوري فيه بعض الأمراء فأشاروا بإعتقاله فسجن بالاسكندرية في المحرم سنة 907هـ/ 1501م[6]. لكنه استطاع بمساعدة بعض

---

1 ـ ابن زنبل: تاريخ واقعة السلطان سليم ج 2، ص 66 ـ 95 ـ 127.

2 ـ طرخان: مصر في عصر المماليك الجراكسة ص 229.

3 ـ ابن زنبل: واقعة السلطان سليم ج 2، ص 312.

4 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 3 ـ 4.

5 ـ ابن اياس: بدائع ج 4، ص 9 ـ 10 ـ 67 ـ 71 ـ 74.

6 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 17 ـ 18 ـ 28 ـ 35.

أعوانه أن يفر من السجن، ويعود إلى القاهرة مختفياً. فأسرع السلطان بالقبض على طائفة من أتباعه، ومنهم الأمراء: قانصوه الفاجر وتاني بيك الأبح واستباي وغيرهم[1]. وأوعز إلى طائفة من الجند بالقيام بثورة مفتعلة ضد السلطان، لعل ذلك يغريه بالظهور. ولكن دون جدوى[2].

وفي الثاني عشر من رمضان سنة 907هـ/ 1501 جمع مصر باي عدداً من أنصاره، ونصبوا للأمراء وقت نزولهم من القلعة عقب افطارهم مع السلطان، فتراموا بالنشاب. وفي الصباح كان السلطان قد حشد لهم كتيبة ضخمة بقيادة الأمير علان والي القاهرة، فوقعت بين الطرفين معركة طاحنة، قتل فيها مصرباي شر قتلة[3].

أما قيت الرجبي الأتابكي الذي كان يطمع بالسلطنة، انتهز فرصة تعيينه في سنة 910هـ/ 1504م على رأس حملة تأديبية إلى طرابلس لإخضاع نائبها الأمير دولات باي الذي شق عصا الطاعة على الغوري. فجمع أعوانه، وكاتب أمراء الشام، ومنهم سيباي للإنضمام إليه. ووضع خطته بحيث أنه حينما يصل إلى الشام يعلن نفسه سلطاناً، ثم يزحف بجموعه على مصر فيملكها، تماماً كما فعل العادل طومان باي من قبل[4]. لكن المؤامرة كشفت قبل خروج التجريدة. فألقى السلطان القبض على قيت، وصادر أملاكه من ذهب وأسلحة وخيول ومنسوجات كثيرة وأرسل إلى سجن الاسكندرية مع كاتب السر بدر الدين بن مزهر الذي مات تحت العذاب[5]. أما دولات باي والأمير سيباي فقد رضي عنهما

---

1 ـ حجة الغوري (سبيل المؤمنين) أوقاف 884 سطر 94 ـ 96 (ملحق)

2 ـ المصدر نفسه، سطر 97 (ملحق)

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 26 ـ 27 ـ 28.

والغزي: الكواكب ج 1، ص 295.

4 ـ ابن أياس: بدائع ج 3، ص 450 ـ 454. والاسحاقي: أخبار الدول ص 151.

5 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 74.

السلطان بعد مدة وجيزة[1].

استاء الغوري من تصرف الأمراء فأخذ يلقي الفتنة بينهم، ويأخذ هذا بذاك حتى تخلص من الشخصيات الخطيرة، التي يمكن أن تكون مصدر قلق له، وخوف على سلطنته[2].

وكانت آخر المؤامرات خيانة خايربك ـ نائب حلب ـ وجان بردي الغزالي من نواب السلطنة، الذين اتصلوا سراً بالسلطان سليم العثماني، ودبرا معه الخطة التي تم بها هزيمة الغوري[3]. وقد تمت المؤامرة إلى أقصى غاياتها في مرج دابق سنة 1922هـ/ 1516م ـ كما سنفصله فيما بعد ـ فخذل الأميران سلطانهما ليقوما بالدور المشين الذي أودى بالدولة المملوكية[4].

وإذا كان الغوري قد سلك في علاج هذه الفتن والثورات سياسة التريث والتردد، فهذا مرجعه إلى الأخطار الخارجية التي بدأت تهدد الدولة المملوكية.

---

1 ـ حجة الغوري أوقاف 883 سطر 97 وما بعده.

2 ـ حجة الغوري: أوقاف 883 سطر 52 ـ 61.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 5، ص 45.

4 ـ الغزي: نهر الذهب ج 3، ص 248.

وانظر زنبل: واقعة السلطان سليم ج 2، ص 25.

الفصل الثامن

المماليك والدول الغربية

أولاً ـ المماليك والبرتغاليون

1 ـ تسلط المماليك على التجارة المشرقية

تغيرت سياسة المماليك في أواخر القرن الرابع عشر تجاه التجارة العالمية بين الشرق والغرب[1]. إذ عمد السلاطين والأمراء الكبار إلى احتكار سلع الشرق الأقصى، وبخاصة التوابل والبهارات منها، لحسابهم الخاص، وحولوا التجارة عن ميناء عدن في اليمن إلى ميناء جدة الخاضع لنفوذهم المباشر[2]. فألحقوا الضرر البالغ بالتجار الأجانب[3]. يضاف إلى ذلك فداحة الضرائب والمكوس على البضائع الأوروبية، واهانتهم للتجار ومصادرتهم أموالهم بدون أسباب تدعو لذلك، ونجد ذلك واضحاً في تقارير قناصل فرنسا في مصر وخاصة تقرير ماجلون ـ Magallon ـ الذي اتخذته الحكومة الفرنسية ذريعة لحملتها على مصر، وهو يشكو معاملة المماليك للتجار الفرنسيين سواء في الاسكندرية ورشيد ودمياط وفي القاهرة[4].

---

1 ـ Heyd (w): Histoire du Commerce. T. II. P 430 – 493.

2 ـ حجة وقف السلطان قايتباي رقم 812.

3 ـ المصدر نفسه.

4 ـ زقلمة: المماليك في مصر ص 127.

إن تصرف السلاطين على ذلك النحو نبع من العجز في ميزان المدفوعات فاقتصادهم لم يكن متوازناً، ونظامهم الاقطاعي يعمه الفساد، وبالتالي فإن انتاجية الأرض كانت بانخفاض مستمر والصناعة في طريق الانحطاط[1]. إذ ذاك لم يبق أمامهم إلا التجارة يطرقون بابها ويستنزفونها بأسوأ استغلال، دون أن يستجيبوا إلى احتجاجات التجار[2]. وهكذا وجد الغرب الأوروبي باباً للصراع مع العالم الإسلامي[3]. في الوريد الحيوي لتجارة المماليك بين الشرق والغرب.

2 ـ تحول طرق التجارة

رافق استغلال الغرب الأوروبي لمظالم المماليك على التجار الأجانب كشوفهم الجغرافية، فاتخذ التفكير في الصراع مع الشرق شكلاً جديداً. إذ تطلع البرتغاليون لتنفيذ الأهداف الصليبية عن طريق توجيه الضربة المباشرة إلى العالم الإسلامي من الخلف، اي عن طريق الالتفاف حول افريقية، وكان اصرارهم شديداً للعمل على كشف طريق جديد، واستغرقت جهودهم نحواً من ثمانين عاماً، حتى أسفرت في النهاية من الوصول إلى الهند وقد قضى ذلك الوقت في محاولات مستميتة، بدأها الأمير هنري الملاح. واستمرت إلى أن تمكن الملاح البرتغالي بارتلميو دياز من اكتشاف رأس الرجاء الصالح[4]. مما سهل مهمة فاسكو دي جاما في الوصول إلى ميناء قاليقوط ـ كلكوتا ـ الهندي[5].

وهكذا استهدفت الجهود البرتغالية تحقيق أهداف سياسية وأخرى

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 104 ـ 262 ـ 428.

2 ـ المصدر نفسه: ج 4، ص 19 ـ 20 ـ 41 ـ 282، وج 5 ـ ص 426.

3 ـ يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر... مقدمة، ص، ز.

4 ـ موير: تاريخ دولة المماليك ص 168. بانيكار، ك.م: آسيا والبصرة الغربية ص 19 ـ 26 ـ 29.

5 ـ كرد علي، محمد: الإسلام والحضارة العربية ج 1، ص 340.

اقتصادية، تدفعهما عوامل دينية صليبية، ويحمس البرتغاليون تأييد البابوية الكامل ومباركتها لجهودهم[1]. ووسيلتهم في تحقيق ذلك: اتباع أقصى أنواع القرصنة العسكرية. فقد كانت الحركة البرتغالية في حقيقتها استمراراً وتجسيداً للحركة الصليبية في جميع أفكارها، ذلك أنها ركزت على تحقيق الحصار الاقتصادي على مصر ومن ناحية الجنوب، والسيطرة على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها، وتحويلها إلى أسواق لشبونة مباشرة، لتصبح المركز الرئيسي لتوزيعها في أوروبا بدلاً من البندقية. مما يؤدي إلى حرمان مصر من أهم مواردهما، ويؤثر أساساً على قدرتها الحربية، بحيث تصبح عاجزة عن التصدي لأي عمل برتغالي صليبي ضدها، فقد كانت مصر دائماً حاملة لواء الجهاد الصليبي وغيرهم من الغزاة. وكان التركيز لتوجيه الضربة الاقتصادية إليها من ناحية الجنوب، كبداية من أجل اضعافها عسكرياً، مما يجعل من السهل نجاح العمل الحربي ضدها[2]

وإذا كانت الروح الصليبية قد تجسدت في البرتغاليين إلى هذه الدرجة البغيضة من التعصب، وإذا كانت جهودهم قد أدت إلى الوصول إلى الهند، فقد كان ذلك بمثابة البداية لتحقيق كافة الأهداف الأخرى. وإذا كانت مخاطرهم قد بلغت هذا الحد، فلماذا لم يبادر المسلمون عامة، والمصريون بصفة خاصة إلى تعبئة الجهود واعلان الجهاد، لحماية المسلمين ومقدساتهم ومقوماتهم الاقتصادية.

هذا التساؤل يقودنا إلى سؤال هام حول أسباب تأخر المواجهة المملوكية للبرتغاليين ومبرراتها إلى سنة 914هـ/ 1508م حيث موقعة شول البحرية؟ أي بعد عشر سنوات من وصول البرتغاليين إلى الهند. ذلك أنه لو تمت المواجهة منذ

---

1 ـ بانيكار، ك.م: آسيا والسيطرة الغربية ص 27 ـ 28.

2 ـ دراج، أحمد: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، 1961، ص 7.

ـ هار، سونيا: في طلب التوابل... ص 100.

ـ بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية... ص 26.

اللحظة الأولى، وقبل أن يستكمل البرتغاليين استعداداتهم الحربية ويستفحل أمرهم، لتغير الموقف ولأمكن وضع حد لمخاطرهم.

3 ـ تأخر المماليك لمواجهة البرتغاليين

إن الفاحص للمصادر العربية يكاد يجزم للوهلة الأولى بعدم اهتمامهم بأمر البرتغاليين، لأنها بدأت الإشارة إليهم في حوليات متأخرة، أي بعد أن استفحل أمرهم، وأصبحوا يشكلون خطراً مباشراً على البحر الأحمر وحركة التجارة العالمية فيه، ويتضح ذلك مما أورده المؤرخ المملوكي ابن اياس متناثراً في هذا الشأن. وكانت أولى اشاراته اليهم في ثنايا حوادث شهر ربيع الآخر سنة 911هـ/ أيلول 1505م، وهي تتعلق باستعراض العسكر وتعيين «تجريدة واحدة إلى الهند بسبب عبث الفرنج»[1]. لا بد وأن تكون هذه التجريدة نتيجة علم سابق بأمر البرتغاليين في المياه الهندية.

أما النصوص اليمنية المعاصرة، فعلى الرغم من قرب اليمن من مسرح الأحداث فإنها لم تشر إلى الوجود البرتغالي إلا ابتداءً من حوادث سنة 908هـ/ 1502 ـ 1503م[2].

أما البنادقة فكانوا على علم ـ منذ البداية بالجهود التي كانت تبذلها البرتغال من أجل الكشف عن طريق جديد حول أفريقية للوصول إلى الهند. ولكن طول أمد تلك الجهود، أدى إلى اطمئنانهم إلى عدم فعاليتها، وأنها لا بد أن تضع سدى، وعملوا على ادخال الخوف والرعب في قلوب البرتغاليين[3]. وذلك بنشر

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 437، ج 5، ص 271 ـ 480.

2 ـ باخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، مخطوط مصور رقم 167 تاريخ دار الكتب القاهرة، ج 3 لوحة 1190.

وانظر ابن الربيع: الفصل المزيد... مخطوط رقم 11 تاريخ بدار الكتب القاهرة، لوحة 38 ب

3 ـ Heyd: Hist. du Commerce... T. II. Pp. 517 – 518.

الشائعات عن كثرة العواصف الشديدة التي كانت كافية لتحطيم الكثير من سفنهم واغراقها. بالإضافة إلى قوة الجيش المملوكي الذي لن يتهاون في التصدي لهم.

أما بالنسبة للبرتغاليين فقد تخوفوا من الشائعات وأدركوا خطورة الموقف، ولهذا تجنبوا الاقتراب من السواحل العربية أو مداخل البحر الأحمر والخليج، واقتصرت رحلاتهم على المنطقة الواقعة فيما بين جنوب القرن الأفريقي والساحل الغربي للهند، كما كان حرصهم شديداً على مغادرة السواحل الهندية قبل وصول سفن المسلمين التجارية إليها[1]. كما أنهم لم يستخدموا العنف مع حاكم كالكوتا، أو يعارضوه وقبلوا بشراء أنواع رديئة من التوابل، وبالأسعار العالية التي حددها لهم[2].

أما مصر المملوكية، فقد كانت تمر منذ نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجري/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. بحالة من التفكك والضعف، أثرت على قوة مصر وقدرتها، منها انتشار الأوبئة والقحط، وما ترتب عليهما من غلاء فاحش مع المبالغة في فرض الضرائب[3]. فضلاً عن عدم الاستقرار الناتج عن الخلافات والمنازعات الدائمة بين طوائف المماليك[4]. مما جعل السلطنة المملوكية متخمة بالمشكلات والمخاطر الداخلية والخارجية على حدٍ سواء.

وهكذا يمكن القول أن السلطات المملوكية لم تكن على علم بالوجود البرتغالي في الهند إلى أن تولى قانصوه الغوري. كما أن البنادقة عندما فوجئوا بنجاح الجهود البرتغالية وعودة فاسكو دي جاما إلى لشبونة محملاً بالتوابل الهندية،

1 ـ هاو، سونيا: في طلب التوابل ص 202 ـ 203.

2 ـ بانيكار، ك.م: آسيا والسيطرة الغربية ص 27.

3 ـ ابن اياس: بدائع... ج 3 ص 287.

4 ـ عاشور، سعيد: العصر المماليكي... ص 175 ـ 176.

واستمرار الرحلات البرتغالية بنجاح تام، كان صدمة كبيرة للتجار البنادقة وفي سنة 907هـ 1501م نصح الملك الاسباني السفير البندقي في بلاطه بأن تتحول بلادة إلى أسواق لشبونة بدلاً من التعامل مع السلطان المملوكي الذي كان يتحكم في الأسعار ويسيء معاملتهم[1]. وإذا كان البنادقة قد أمسكوا - إلى ذلك الوقت تقريباً - عن ابلاغ السلطان المملوكي بأمر البرتغاليين، فإنه من المؤكد أن تحرك البندقية كان سنة 908هـ/ 1502م، عندما أوفدت مبعوثها بنديتو سانوتو Benedetto Sanuto إلى البلاط المملوكي، لعرض تطورات الموقف في المياه الشرقية على السلطان الغوري، وامداده بما لديها من معلومات خطيرة، وتقديم النصح للسلطان لمراسلة سلاطين الهند ومطالبتهم بعدم التعامل مع البرتغاليين ومقاومتهم إلى أن يتم تجهيز الأسطول اللازم للقضاء على البرتغاليين في المياه الهندية. وطالب السفير بتخفيض أسعار التوابل التي تشتريها البندقية، وتحديد الرسوم الجمركية المفروضة عليها بما يمكن أسواق البندقية من الصمود أمام منافسة البرتغال لها[2].

وهكذا، بات من المؤكد أن بداية علم السلطان الغوري بخطر البرتغاليين كان سنة 908هـ/ 1502م أي بعد خمس سنوات من نجاحهم في الدوران حول افريقية والوصول إلى مواطن التوابل في الهند أما عن أسباب تأخر المواجهة المملوكية البرتغالية في المياه الهندية لعدة سنوات أخرى، فإنه بالاضافة إلى ما سبق الاشارة إليه من سوء الأحوال الداخلية والخارجية، فإن الأمر كان يستلزم توفر أسطول قوي، لا يقل من حيث الأعداد والتجهيز عن الأسطول البرتغالي وهو ما لم تكن الدولة المملوكية تملكه وقتئذ[3].

---

1 - Heyd: Histoire du Commerce... T. II. P. 516.

2 - زكي نعيم: طرق التجارة الدولية ص 76 - 77. ودراج أحمد: المماليك والفرنج ص 1.

3 - Kammerer: La Mer Rouge... T. II. Pp. 94 - 98.

وانظر: Wiet: Histoire de la nation Egyptienne... T. IV. Pp. 616 - 617.

ب ـ موقف المماليك من البرتغاليين

كان نتيجة الأعمال الاجرامية التي قام بها الأسطول البرتغالي بالاعتداء على السفن المموكية في عرض البحر، وتهديد التجار الذين يسلكون البحر الأحمر أن خسرت مصر أكبر ثروتها[1]. فاضطربت الدواوين وتعطلت الحياة التجارية في الاسكندرية ولم تدخل البضائع بندر جدة أو دمياط[2]. ويكفي للدلالة على ذلك أن سفن البندقية لم تستطع أن تحمل في عام 1502 م من موانىء مصر والشام سوى نصف الكمية التي تعودت أن تحملها من قبل[3].

وعلى الرغم من عدم استعداد السلطان المملوكي بحرياً للقيام بعمل فوري ضد البرتغاليين فإنه كان مقتنعاً بأن الحرب هي الوسيلة الناجحة للقضاء على وجودهم في المياه الشرقية، ولهذا طلب من السفير البندقي بندتو سانوتو ـ Benedetto sanuto ـ ابلاغ حكومته للاسراع في امداده بالأخشاب والمعدات والأسلحة اللازمة لإنشاء واعداد القطع البحرية المطلوبة[4]. وكان السلطان المملوكي يأمل في استجابة البندقية لمطلبه، ذلك أنه كان يدرك مدى اهتمام البنادقة بأمر التخلص من المخاطر البرتغالية على تجارة الشرق والتي هددت البندقية بكارثة اقتصادية محققة لم يكن في الامكان تحملها، وبالرغم من ذلك اعتذرت البندقية عن امكان الاستجابة للسلطان المملوكي، تفادياً لإتهام البابوية لها بالتعاون مع الدولة المملوكية المسلمة، ومساعدتها حربياً ضد البرتغال المسيحية. وركزت على اقناع السلطان بالعمل على زيادة استيراد التوابل وتخفيض

---

1 ـ كرد علي، محمد الإسلام والحضارة العربية... ج 1، ص 319.

2 ـ ابن أياس: بدائع... ج 4، ص 359. واليمني: السناء الباهر... ص 67.

3 ـ زقلمة: المماليك في مصر... ص 95 ـ 96. ودراج، أحمد: المماليك والفرنج ص 128 ـ 138.

4 ـ زكي، نعيم: طرق التجارة الدولية... ص 78 ـ 85. وانظر Kammerer: Ibid: T. II. P. 145.

أسعارها وتحقيق الرسوم الجمركية عليها، حتى يتم اغراق الأسواق الأوروبية بها، وبيعها بأثمان لا تسمح للبرتغال بالاستمرار في المنافسة[1].

إزاء موقف البندقية عمل السلطان المملوكي على الدخول في محاولات سلمية، وذلك بالاتصال بالبابا للضغط على البرتغال بإيقاف الرحلات البحرية إلى الهند وعدم التعرض للتجارة المملوكية والكف عن الاعتداء على سفن المسلمين، حتى لا يضطر إلى اتخاذ اجراءات انتقامية، باعتقال الرعايا الأوروبيين الموجودين في بلاده، واغلاق كنيسة القيامة، ومنع الحجاج المسيحيين من دخول بيت المقدس[2].

لكن تلك الجهود والتهديدات لم تأت بالنتيجة المرجوة إذ إن سياسة السلام التي سلكها الغوري أقنعت البرتغاليين بقلة امكانيات المماليك فازدادوا اسراراً على التمسك بمواصلة جهودهم لتحقيق كافة أهدافهم[3].

إزاء هذا الموقف البرتغالي لم يبق أمام السلطان المملوكي إلا الحل العسكري، خاصة وقد عاود سلاطين الهند واليمن الاستنجاد به، بسرعة تقديم المساعدات العسكرية العاجلة[4]. وكنتيجة لتخرج البندقية وعدم موافقتها على امداد السلطنة بالخامات اللازمة لإنشاء وتجهيز الأسطول، بادر الغوري بتوجيه طلبه إلى السلطان العثماني بابزيد الثاني، الذي استجاب على الفور، وسارع بإرسال الخامات والمعدات والتجهيزات اللازمة دون مقابل على سبيل الهدية[5]. فكان لذلك أثره في المساعدة على الانتهاء من بناء عدد من القطع البحرية، أقلعت

---

1 - Kammerer: La Mer Rouge T. pp. 145.

2 - زكي، نعيم: طرق التجارة الدولية ص 76 - 79 - 381 - 387 وانظر Ibid. T. II. P. 144.

3 - Herand (J): Le voyage doutre Mer.. p. 49.

4 - Kammerer: La Mer Rouge... T. III. P. 230.

5 - Heyd: Hist. du Commerre. T. III. P. 525.

من ميناء السويس بقيادة الأمير حسين الكردي يرافقه الخواجا «نور الدين على المسلاتي المغربي». في السادس من جمادي الآخرة سنة 911هـ/ الرابع من تشرين 1505م، وبصحبتها عدد كبير من البنائيين والصناع[1]. واتخذت التجريدة مدينة جدة قاعدة لها، ومنها أبحرت جنوباً إلى سواحل اليمن، وأخذت في تعقيب الأسطول البرتغالي ومطاردته حتى شواطىء الهند حيث تمكنت من الحاق الهزيمة به في أول معركة بحرية بينهما في شول Choul سنة 914هـ/ 1508م على الشاطىء الغربي للهند[2]. غير أنه ما كادت النجدة تصل للبرتغاليين في العام التالي، حتى تقدموا لمهاجمة الأسطول المصري وألحقوا به هزيمة ساحقة في سنة 915هـ/ شباط 1509م، انتهت بإغراق جميع وحداته في خليج ديو بالقرب من بمباي[3].

اتبع البرتغاليون انتصارهم الساحق هذا بفرض الحصار الشديد على جميع السفن الهندية المتجهة نحو البحر الأحمر، حتى استطاعوا من قطع الاتصال البحري بين الموانىء الهندية وجده[4]. وفي نفس الوقت تمكنوا من الاستيلاء على القواعد التجارية الأخرى التي تتحكم في تجارة الشرق الأقصى[5].

وعلى الرغم من الانتصارات البرتغالية، إلا أن السلطان الغوري لم ييأس، فأرسل حملة بحرية بقيادة الأمير حسين الكردي نائب جدة لمطاردة الغزاة[6]. غير أنه لم يستطع انزال الهزيمة بهم، وبعث يطلب المدد من السلطان فقامت حملة بحرية

---

1 ـ ابن أياس: بدائع... ج 4، ص 85.

2 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 142 و Kammerer: La Mer Rouge... T. II. P. 155

3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 142 أ وموير: تاريخ دولة المماليك في مصر ص 169.

4 ـ الملباري: تحفة المجاهدين ص 43.

5 ـ هاو، سونيا: في طلب التوابل ص 215.

6 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 310 ـ 311 ـ 320 ـ 323 ـ 331 ـ 337 ـ 355.

ثانية من السويس في رجب سنة 1515هـ/ 921م بقيادة الريس سلمان العثماني لمعاونته[6]. وعلى الرغم من ذلك، لم توفق هذه القوة البحرية الضخمة في الحصول على انتصار حاسم على البرتغاليين واكتفى الأسطول المملوكي بالمرابطة في البحر الأحمر لتأمينه من الخطر البرتغالي، الذي اصبح يهدد المقدسات الإسلامية في الحجاز.

ومن سؤ الطالع أن ثارت الأحقاد الشخصية بين الأمير حسين الكردي والريس سلمان العثماني وصادف ذلك مصرع الغوري في مرج دابق، فاشتد النزاع بين الرجلين، وقتل الريس عثمان الأمير «حسيناً» وغرقت سفنهم في نهاية الأمر[7].

وفي شعبان سنة 923هـ/ 1517م عاد الريس سلمان ببقايا رجاله ومعه بعض الأسرى من الفرنجة. فكانت عودته خاتمة لصراع المماليك مع البرتغاليين في سواحل البحر الأحمر وبلاد الهند[2].

ثانياً ـ المماليك والقراصنة

تنطوي علاقات المماليك مع البرتغاليين، على كثير من جهودهم ووسائل مكافحتهم لقراصنة الفرنجة الذين كانوا يهاجمون مصر والشام في السواحل الشمالية، والمعروفون في التاريخ ببقايا الصليبيين، الذين أسسوا بعد طردهم من الشرق في عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون معسكرات في جزر البحر المتوسط مثل جزيرة رودس التي اتخذها الاسبتارية معسكرة لهم. وجزيرة قبرص مركز ال لوزجنان وعلى الرغم من الهزيمة الساحقة التي أنزلها الملك الأشرف برسباي

1 ـ المصدر نفسه: بدائع ج 4، ص 458. و Kammerer: La Mer Rouge. T. II. P 231 – 232.

2 ـ يا مخرمة: تاريخ ثغر عدن ج 1، ص 21 ـ 22.

3 ـ دراج: المماليك والفرنج... ص 155.

بالقبارصة وأسر ملكهم واستيلائه على الجزيرة، إلا أن جزيرة رودس لم تتعظ من ذلك. ولم تثمر حملات جقمق المتكررة على الجزيرة في تحقيق السيطرة عليها، وبقي الاسبتاريون على موقفهم المعادي للسلطنة المملوكية. دون أن يرعوا أو يكفوا عن عبثهم وتلصصهم، وامتد هذا إلى نهاية عصر المماليك الجراكسة. فكانوا يغيرون من آن إلى آخر ويباغتون السواحل المصرية، في تعاون تام مع البرتغاليين، وحسب خطة موضوعة منظمة. ففي الوقت الذي يقوم فيه الأسطول البرتغالي بمهاجمة السفن الهندية المتجهة نحو جدة، والتجرم في البحر الأحمر. كان فرسان الاسبتارية يقومون بنفس هذه المهمة في البحر الأبيض المتوسط. وذلك بقصد شل الحركة التجارية مع الموانىء المصرية والشامية واعاقة المماليك عن بناء القوة البحرية اللازمة لمحاربة البرتغاليين[1]. ففي سنة 911هـ/ 1505م هاجم هؤلاء القراصنة احدى السفن التابعة للسلطنة الممولكية في ميناء قبرص واستولوا عليها واقتادوها إلى جزيرة رودس[2].

أوفد السلطان الغوري في سنة 912هـ/ نيسان 1516 الأمير تغري بردي كبير التراجمة إلى رودس للتفاوض في أمر استعادة السفينة المصرية وما كان عليها من متاجر. غير أنه لم ينجح في هذه المهمة، وإنما تمكن من شراء عدد كبير من أسرى المسلمين بالجزيرة وبلغ مجموع ما دفعه ثمناً لخلاصهم نحواً من خمسين ألف دينار[3]. وتتابعت حوادث القرصنة وتلاحقت. وفي ذي القعدة سنة 914هـ/ 1508م استطاع الأمير «تمرباي الهندي» انزال هزيمة منكرة بالقراصنة بجهة الطينة على ساحل المتوسط، وغنم سفينتهم، وأرسل نحو سبعة وعشرين

---

1 ـ المصدر نفسه ص 128 ـ 139.

2 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 129.

3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 164.

من رجالها أرسلهم إلى القاهرة[1].

وفي رجب سنة 915هـ/ 1509م استطاع أحد أقرباء السلطان قانصوه الغوري ـ محمد بيك ـ أن يقتل عدداً وفيراً من القراصنة الاسبتارية الذين اعترضوا سبيله في جهة «الجوان»، ويأسر الباقين، ويغنم سفينتهم وما فيها[2].

وفي سنة 916هـ/ أواخر آب سنة 1510م هاجمت سفن الفرسان الاسبتارية بقيادة أمير البحر البرتغالي اندريه دامارال André damaral ثمانية عشر سفينة مصرية في خليج اياس، وكانت هذه السفن على وشك الابحار إلى مصر محملة بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول الثاني الذي يعتزم الغوري بناءه بعد فقد الأسطول المصري في معركة ديو البحرية[3]. وكانت الخسارة فادحة، فلم تنج من هذه السفن سفينة واحدة، فقد شبت النيران في بعضها، وغرق البعض الآخر، ثم سحبت البقية الباقية منها بما عليها من أخشاب وعتاد إلى رودس. بل أن الفرسان استولوا أيضاً على الأخشاب التي كانت معدة على الشاطىء للنقل[4].

وقابل السلطان الغوري هذا الخطب الفادح بأن أصدر أمره في 13 جمادي الآخرة سنة 916هـ/ أيلول 1510م بإلقاء القبض على جميع تجار الفرنج المقيمين بالاسكندرية ودمياط مع مصادرة أموالهم والتحفظ على متاجرهم، وكذلك على جميع الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبكنيسة القيامة، وطلب منهم مكاتبة ملوك الفرنج لإعادة السفن التي استولى عليها الفرسان بما كان عليها من رجال، مهدداً أياهم وامم الفرنج قاطبة بغلق كنيسة القيامة وبشنقهم، واتبع

---

1 ـ ابن اياس: بدائع... ج 4، ص 129 ـ 146.

2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 163.

3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 286 وموير: تاريخ دولة المماليك في مصر ص 169.

4 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 185 ـ 191.

ذلك التهديد بأن أمر بإغلاقها ومنع زوارها، والاحتياط على ما بها من أموال[1]. وتضيف المراجع الأوروبية أن السلطات المحلية بالقدس أجبرت رئيس الرهبان على تسليم الأموال المخبأة بدير صهيون، فسلم لها أربعة آلاف دينار. هذا فضلاً عن الاستيلاء على ما كان يوجد بالدير والكنيسة القائمة بداخله من تحف وذخائر بلغت قيمتها خمسة آلاف كيس[2].

وعلى الرغم من عنف الاجراءات الانتقامية التي اتخذها السلطان الغوري ضد القراصنة، والتهديد الموجه إلى الغرب المسيحي قاطبة لم يتوقف تجرم القراصنة وتعبثهم، ففي سنة شهر جمادي الأولى سنة 916هـ/ أيلول 1510م جاءت الأخبار من نائب البيرة بأنه قبض على جماعة منهم ومعهم كتاب من الشاه الصفوي إلى عدة قناصل في بلاد السلطنة المصرية، ليكاتبوا ملوكهم بأن يكونوا معه على سلطان مصر، وأن يزحفوا بسفنهم من ناحية البحر في الوقت الذي يتقدم فيه بجيوشه من ناحية البر[3].

أثارت هذه المكاتبات مخاوف السلطان المملوكي فاستقدم تواً هؤلاء القناصل، في ذي القعدة سنة 916هـ/ 1510م، ووجه إليهم اللوم على هذه المؤامرات، وهددهم بالشنق، فتقدم قنصل فرنسا «فيليب دي بيرتز» إلى السلطان باقتراح يسترضيه به وهو أن يسعى لدى الاسبتارية ليردوا السفن المصرية، ويقنع دولته لتعاون مصر ضد البرتغاليين، غير أن الاسبتارية لم توافق على هذا الاقتراح، فلم ينفذ منه شيء[4].

---

1 - Wiet (G): Histoire de la Nation Egyptienne.. T. IV. P. 622.

2 - ابن اياس: بدائع... ج 4، ص 185 - 191.

3 - المصدر نفسه ج 4، ص 191.

4 - The rond (J): Le vogage d'outre – Mer. Pp. 153 – 160.

وفي 27 ربيع الأول سنة 917هـ/ 24 حزيران 1511م دخل القاهرة زهاء مائتين من أسرى القراصنة كان الريس «حامد المغربي قد ألقى القبض عليهم وهم يغيرون على سواحل بحيرة البرلس[1]. وبقي هؤلاء على نشاطهم الإجرامي ضد السلطنة المملوكية حتى سنة 918هـ/ حزيران سنة 1512م حيث تم عقد معاهدة تجارية بين السلطان الغوري والبندقية تعهدت هذه الأخيرة بمقتضاها بتخصيص عدد من سفنها لمطاردة القراصنة في المياه الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وتطهيرها من تعبثهم وتجرمهم[2].

وهكذا قضت السنوات الأخيرة من عهد دولة المماليك دون أن يحدث أي نزاع جديد بينهم وبين الفرنج. إذ توقفت أعمال القرصنة ضد السواحل والثغور المصرية والشامية بالبحر المتوسط.

---

1 ـ ابن أياس: بدائع... ج 4، ص 220.

2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 259.

الفصل التاسع

المماليك والدول الاسلامية (الدولة الصفوية ـ الدولة العثمانية)

أولاً ـ المماليك والدولة الصفورية(*)

تتمثل علاقة المماليك بالدولة الصفوية فيما جرى من النزاع بينهما وبين الشاه اسماعيل الصفوي ملك فارس والعراق.

ما إن سيطر اسماعيل الصفوي على فارس حتى تتطلع إلى العراق، نتيجة لمجموعة من الدوافع المذهبية والسياسية والاقتصادية[1].

فمن حيث الدوافع المذهبية كانت حركة الشاه اسماعيل تعتمد على الدعاية الشيعية الاثني عشرية[2]. ومن ثم كانت سيطرته على كربلاء والنجف

(*) ترجع اسرة الصفو بين الحاكمة في فارس إلى جدها الأكبر موسى الكاظم. واشتهر صفي الدين أحد سلالة هذه الأسرة وابنه صدر الدين الذي أنجب حفيده حيدر ثلاثة أبناء هم السلطان علي وإبراهيم ميرزا والشاه اسماعيل الذي أسس الدولة الصفوية. نمت قوة اسماعيل وهزم دولة الشاه البيضاء وأعلن نفسه شاهاً في تبريز، وساعد الفرس لتحمسهم للشيعة، وقد تحقق حلمهم في وجود سلطان شيعي، ومن ثم امتزجت عقيدتهم الدينية المذهبية بالروح القومية، وظل الشاه اسماعيل ينمو وتزداد أملاكه حتى انضمت إليه مجموعة من القبائل التركية يطلق عليها اسم «قزل باش» منها أو ستاجلو، شاملو، تاكالوا ـ دلغادر، فجار، افشار... وهؤلاء جميعاً من الشيعة ينظرون إلى زعيمهم باعتباره قديساً وسلطاناً، ثم استولى اسماعيل على بغداد والموصل وديار بكر وفي سنوات قليلة ضم كل امبراطورية الشاه البيضاء.

ـ القرماني: أخبار الدول ص 338 ـ 339.

1 ـ الحنبلي: نزهة الناظرين ص 137.

2 ـ القرماني: أخبار الدول 356.

تعطي حركته دفعة قوية من النشاط، فضلاً عن أن السيطرة على العتبات المقدسة في العراق تحقق أملاً مذهبياً كبيراً يخفي وراءه أهدافاً اقتصادية أكبر فالعراق الخصب الزراعي يمكن أن يسد الكثير من حاجات سكان الهضبة الايرانية الفقيرة وفوق هذا وذاك فإن الاستحواذ على بغداد ـ قلب العالم الاسلامي ـ يعطيه مكانة رفيعة لدى المسلمين[1].

وذهب الشاه اسماعيل بنفسه إلى العراق متفقداً حاجاً إلى الأماكن المقدسة الدينية الشيعية، فشق قناة للمياه إلى النجف، وعمر مراقد الأئمة الشيعية وانقلب على علماء المذهب السني هادماً مقابرهم سافكاً دماءهم، عاملاً على أن يصبغ العراق بالصبغة الشيعية بكل ما أوتي من أساليب وامكانيات[2]. وانتفخت أوداج الشاه بعد أن وجد نفسه سيد بغداد والعراق دون أن تتحرك ضده أي من الدولتين اللتين أصبحتا تطلان على دولته من الشمال الغرب: الدولة العثمانية في الأناضول والبلقان والدولة المملوكية في الشام والحجاز[3].

ولذلك مد اسماعيل الصفوي أبصاره إلى ما وراء العراق لعله يستطيع أن يحقق آمال الشيعة البعيدة في إقامة دولة شيعية كبرى في المنطقة. فبنى سياسته التوسعية على أساسين:

ـ التحالف مع القوى المعادية للدولة العثمانية وللسلطنة المملوكية[4].

ـ نشر المذهب الشيعي الاثني عشر[5].

أ ـ اسماعيل الصفوي يهدد السلطنة المصرية:

---

1 ـ القرماني: أخبار الدول، ص 341، واوغلو عبد اللطيف: التركمان في عراق الثورة ص 15.

2 ـ كويلر نيج، ت: الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته ص 318 ـ 327.

3 ـ حسين، أحمد: موسوعة تاريخ مصر... ص 796.

4 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 118 ـ 121 ـ 191 ـ 205ز

5 ـ القرماني: أخبار الدول ص 356.

بدأت أطماع الصفوي في منطقة المشرق العربي تظهر منذ عام 908هـ/ 1502م قبل أن تأخذ عساكره بالزحف على أطراف السلطنة المصرية، فكانت حملة استكشافية، ثم عادت أدراجها إلى بلادها[1].

وفي ربيع الثاني سنة 913هـ/ 1507م زحفت جيوش الشاه اسماعيل على مدينة ملطية احدى النيابات المصرية، واقترفت من الجرائم والأثام ما تقشعر منه الابدان، فأخذ السلطان المملوكي قانصوه الغوري في اعداد تجريدة قوامها 1500 جندي بقيادة الأمير «قاني باي قرا» لردعهم، إلا أن «علي دولات» أمير التركمان التابع لمصر سبقه وتصدى للجيش الصفوي وهزمه هزيمة منكرة... وأرسل بعض رؤوس القتلى إلى القاهرة مع أنباء النصر فسر الغوري بذلك. وألغى أعداد التجريدة[2].

ولم يلبث اسماعيل الصفوي بعد قليل أن بعث إلى مصر بقاض من لدنه يعتذر عما وقع من جنوده ويؤكد للغوري أن ما حدث كان بغير علمه، فقبل السلطان المملوكي الاعتذار واكرم وفادة السفير الايراني وأعاده إلى بلاده معززاً مكرماً[3].

لكن اسماعيل الصفوي كان لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال عن التحرش بالسلطنة المملوكية. ففي سنة 914هـ/ 1508م زحف جيشه على العراق وامتلك بغداد من ملكها «مراد خان» بن يعقوب بن حسن الطويل الذي شق عليه جنوده عصا الطاعة وانضموا إلى الصفوي، ففر مرادخان لاجئاً إلى مصر وأرسل إلى الغوري يستنجد به على عدوه. إلا أن هذا الأخير تمهل في النجدة وآثر

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 135 ـ 136.

2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 118 ـ 119 ـ 121 ـ 122.

3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 123.

الانتظار والتريث، على أن يدخل في نزاع سافر بينه وبين الشاه اسماعيل[1].

ب ـ اسماعيل الصفوي يتآمر مع الفرنج ضد مصر

كان أخطر ما توافد على الغوري من أخبار، ما ذكره نائب البيرة على الفرات من أنه قبض على جماعة من طرف اسماعيل الصفوي، ومعهم كتب إلى بعض ملوك الفرنج يطلب منهم فيها أن يتحالفوا معه على سلطان مصر، فيتجهون لغزوه بحراً في الوقت الذي يشن عليه هجوماً من البر، في حركة كماشة تؤدي إلى سقوط الدولة المملوكية ليقتسمها معهم، فتكون مصر من نصيبهم بينما يستحوذ هو على بلاد الشام مطلاً بذلك على البحر المتوسط[2].

ما إن وصل إلى الغوري أخبار هذه المؤامرة حتى غضب أشد الغضب[3]. وأصدر أمراً بالقبض على قناصل الافرنج بالاسكندرية وطرابلس، وهددهم بالشنق وأسلمهم للتحقيق والاعتقال[4]. إلا أن هذا التصرف من جانب سلطان مصر مع الأجانب لم يزد اسماعيل الصفوي إلا امعاناً في التحرش والتحدي فأرسل في أواخر سنة 916هـ/ 1510م إلى مصر وفداً يحمل رأس «أزبك خان» أحد ملوك التتار المسلمين، ورأس ابنه ووزيره في علبة، اشعاراً بما وصل من القوة وتهديد من طرف خفي أن يكون ذلك مصير الغوري[5]. وكان ذلك ايذاناً بوقوع الوحشة بينهما والنزاع السافر.

---

1 ـ نوار، عبد العزيز: الشعوب الاسلامية ص 7.

2 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 191.

وحسين، أحمد: موسوعة تاريخ مصر ص 799.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 191 وما بعدها ووثيقة الغوري أوقاف 883 سطر 463.

4 ـ المصدر نفسه بدائع ج 4، ص 191 ـ 192.

5 ـ وثيقة الغوري أوقاف سطر 465.

وفي سنة 918هـ/ 1512م ساق الشاه اسماعيل عساكره على بلاد السلطنة المصرية. فبلغت طلائعها مدينة البيرة، وسيس عاصمة قيليقيا، فتصدى لها بعض نواب السلطنة المملوكية وقبضوا على عدد من رجالها وجزوا رؤوسهم، وبعثوها إلى السلطان فأشهرها في القاهرة، ثم أمر بتعليقها على باب النصر والفتوح[1].

وهكذا أخذ الغوري يتوقع قرب نشوب القتال بينه وبين الصفوي.

ج ـ الصراع العثماني ـ الصفوي

بذل اسماعيل الصفوي مجهودات كبيرة لنشر المذهب الشيعي الاثني عشر في الأناضول التركي ليجتث بذلك الدولة العثمانية السنية من أصولها[2]. ولا شك أن وجود السلطان بايزيد الثاني اللين العريكة على العرش العثماني أطمع الشاه اسماعيل في مضاعفة جهوده في تحويل الأناضول إلى المذهب الشيعي. وبينما لم يقدر بايزيد الثاني خطورة هذا التحول الديني كان ابنه سليم ـ حاكم طرابزون ـ شديد الحساسية لهذا الاتجاه حتى أنه لم يتوان عن شن الهجمات على الفرس ليدحض شوكتهم. فكان أن تهيأت بذلك فرصة القيام بانقلاب عسكري وتم بنجاح في سنة 918هـ/ 1512م وتسلم سليم الأول العرش من أبيه ليبدأ سياسة عثمانية جديدة ازاء المشرق العربي[3].

والحق أن قوى المشرق العربي بدت لسليم الأول وكأنها قوى عدوانية تدبر للدولة العثمانية حتفها حيث لم يكن سلوك الشاه فقط هو المعادي وإنما سلوك السلطان المملوكي قانصوه الغوري نحوه معادياً أيضاً[4]. فبينما كان الأول ينشر

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 266 ـ 269 ـ 271.

2 ـ نوار، عبد العزيز: الشعوب الاسلامية ص 71.

3 ـ القرماني: أخبار الدول... ص 312 وما بعدها.

4 ـ طراخان، إبراهيم: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص 175.

المذهب الشيعي في الأناضول كان الغوري يستقبل في بلاطه الثائرين والفارين من وجه سليم وخاصة اخوته المطالبين بالعرش العثماني[1]. ومن ثم كان لا بد وأن يقع الصدام بين سليم الأول من جهة والشاه اسماعيل أو الغوري من جهة أخرى.

ولما كان الأتراك ـ بصفة عامة ـ يفتخرون بأنهم حماة المذهب السني من الشيعة، كان من الطبيعي أن يبدأ السلطان العثماني بالشاه اسماعيل حيث أنه كان يمثل الخطر المباشر عليه، ويعمل على تطهير الأناضول من المتحولين إلى المذهب الشيعي، حيث دبر لهم مذبحة مروعة رداً على مذبحة الصفوي للسنة في بغداد[2]. ثم استعد سليم لمواجهة الشاه اسماعيل وفي وادي جالديران سنة 920هـ/ 23 آب 1514م حلت الهزيمة بالصفويين الذين فقدوا حوالي 50 ألف رجل[3]، ودخل السلطان العثماني إلى عاصمتهم، ثم انسحب منها إذعاناً لإرادة الجيش العثماني وعاد إلى بلاده بعد أن أصبحت مفاتيح العراق الشمالية في يده، بل لقد أصبح سليم الأول سلطان العراقيين ـ عندما أعلن صاحب بغداد الولاء له ـ وصار من أصحاب الكلمة في مصير بلدان المشرق العربي[4].

د ـ الموقف المملوكي من الصراع العثماني الصفوي

كانت النتيجة التي خرج بها سليم الأول من معركة جالديران على غير هوى السلطان قانصوه الغوري، الذي كان يود أن يكون له دور الوسيط بينهما ليوقف الحرب ويوجه السياسات العامة في المنطقة لمصلحة الحكم المملوكي في

1 ـ نوار، عبد العزيز: الشعوب الإسلامية ص 72.
2 ـ المصدر نفسه ص 73 وكويلر نيج، ت: الشرق الأدنى ص 285.
3 ـ الفرماني: أخبار الدول... ص 314. وابن أياس: بدائع... ج 4، ص 269، 398.
4 ـ المصدر نفسه ص 315 وما بعدها.

مصر والشام والحجاز واليمن[1].

لقد كان قانصوه يدرك تماماً أن المنتصر من الجانبين في جالديران سيعمل على تصفية الموقف في المشرق العربي بالاصطدام العنيف مع المماليك، بل كان يعتقد أن المنتصر «منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا»[2]. لذلك كان عليه أن يتخذ سياسة ما إزاء هذه التطورات السريعة، فيتبع واحدة من ثلاث اتجاهات كانت أمامه:

1 ـ أن يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين.

2 ـ أن يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين.

3 ـ أن يقف على الحياد بين الطرفين.

أخذ الغوري يقلب هذه الاتجاهات أمامه. فوجد أنه إذا وقف إلى جانب سليم الأول ضد الشاه فإنه بذلك يعطي العثمانيين قوة ويجعل جهودهم في القضاء على الصفويين غير شاقة. وبالتالي إذا ما توترت الأمور بين المماليك والعثمانيين يكون هؤلاء مستعدين دون ارهاق لخوض المعارك والسيطرة على المشرق العربي.

أما إذا أخذ السلطان قانصوه جانب الصفوي، فإن هذا الأمر من المستبعد أن ينجح لعدة أسباب:

أولاً ـ لقد كانت العلاقات الصفوية المملوكية غير طيبة، ولا تشجع على قيام تحالف بينهما[3].

ثانياً ـ كان المماليك متحمسين لمذهبهم السني لا يقبلون التعاون مع الشاه الصفوي الشيعي ضد السلطنة العثمانية السنية المجاهدة ضد الفرنجة منذ أكثر من

---

1 ـ وثيقة أوقاف الغوري 883 سطر 512.

2 ـ المصدر نفسه سطر 467.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 118 ـ 121 ـ 191 ـ 205 ـ 219. ص 327.

قرنين[4].

ثالثاً ـ لقد أثبت العثمانيون من أنهم أكثر غيرة على الإسلام من الصفويين، حيث لبى السلطان بايزيد الثاني طلبات السلطان الغوري بشأن امداده بالاخشاب والفنيين لإعداد أسطول كبير يدحض شوكة الأسطول البرتغالي المرابط في المياه الإسلامية الجنوبية[5].

ولهذا فضل السلطان المملوكي. أن يقف على الحياد، واكتفى بإرسال قوة من المماليك الجلبان إلى حلب لمراقبة تطورات الأمور وحماية الأراضي والامارات الواقعة تحت نفوذ السلطنة من الجيش العثماني الزاحف من الأناضول إلى أذربيجان الفارسية[1]. فأدى ذلك إلى تدهور العلاقات بين سليم والغوري بعد أن خرج الأول منتصراً في موقعة جالدبران[2]. وبد واضحاً أن السلطان العثماني يضمر شن حرب على المماليك لأنه كان يخشى من وجود دولتين كبيرتين معاديتين له تشرفان على حدوده الجنوبية، فأسرع إلى الانفراد بالنفوذ في إمارة ذي الغادر الفاصلة بينه وبين المماليك، فقتل أميرها الحاكم علاء الدولة ووضع مكانه علي ابن شاه سوار[3].

لقد كان ذلك الاجراء لطمة شبه مباشرة للسلطان الغوري الذي عزم على أن يستعيد هيبته في المنطقة بأن أمر بالاستعداد للحرب إذا لزم الأمر ولم يرفع

---

1 ـ رفعت، محمد: تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية القاهرة دار المعارف 1959.

2 ـ زكي، أحمد: صفحة من تاريخ التجارة المصرية ص 548.

وانظر ابن اياس: بدائع ج 4، ص 46 ـ 47 ـ 55 ـ 107 ـ 119 ـ 196.

3 ـ نوار، عبد العزيز: الشعوب الإسلامية ص 75.

وانظر ابن أياس: بدائع ج 4، ص 269 ـ 398 ـ 402. واليمني: السناء الباهر ص 41.

4 ـ القرماني: أخبار الدول ص 314. وموير: تاريخ دولة المماليك ص 171.

5 ـ الطباخ، محمد الحلبي: إعلام النبلاء بتاريخ حلب ج 3، ص 116.

سليم الأول يده عن امارة ذي الغادر[1].

ثانياً ـ العثمانيون ونهاية دولة المماليك

لم يستطع السلطان الغوري أن يظل ساكناً ازاء أجواء الاستفزاز العثماني. ففي سنة 921هـ/ الخامس عشر من شباط 1515م حضر رسول من قبل العثمانيين حاملاً رسالة يخبر فيها الغوري انحياز السلطان سليم لابن سوار في الصراع الدائر بينه وبين الأمير علاء الدولة في إمارة ذي الغادر ويطلب فيها موافقته على هذا الموقف[2].

وبطبيعة الحال كان سليم يعلم سلفاً بعدم الموافقة التي لم يكن بحاجة إليها، ولكنه يقصد التشفي واظهار العظمة فقال فيها: «إن مقامنا الشريف وقال في حق الغوري! مقامكم العالي: وهذا نوع من الاستخفاف بالسلطان[3].

وفي 22 شباط حضر رسول من قبل علاء الدولة ومعه رسالة للسلطان ونظراً لخطورة الموقف جمع الغوري الأمراء المقدمين والطبلخانات وأمراء العشرات وقرأ عليهم فحوى كتاب علاء حيث ورد فيها غير عادي بالنسبة لسليم. فهو لا يتورع عن طعن الدولة العثمانية من خلف. بل لقد كان يفاوض دالبوكرك ـ الأدميرال البرتغالي في المياه الهندية ـ على عقد تحالف ضد السلطان العثماني[4].

وساعد على توتر الموقف وازدياد نار العداوة أن آوى الغوري الأمير قاسم العثماني أحد أبناء الأمير أحمد الذي قتله سليم واتخذ منه أداة للتهديد، كما

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 438.

2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 438 وما بعدها.

3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 436.

4 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 191.

اتخذ قايتباي من قبل عمه الأمير جم[1]. حينذاك استشاط السلطان العثماني غضباً من الغوري فوضع مخططاً محكماً لإستفزازه والكيد له.

وإن من يرغب في الفتنة لا تعنيه أسبابها ولا تعوزه مثيراتها، فقد استطاع سليم أن يصطنع الأمير «خشقدم» شاد الشون ويتخذه عيناً له على سلطان مصر. ليبصره بمواقع الضعف فيها. فشحن خشقدم سليم ورجاله بالصحيح والمختلق من الأقاويل والأخبار عن حالة الجند بمصر واسرار البلاد عامة وقوتها الحربية خاصة[2].

وظل السلطان سليمان يعمل على زيادة التوتر في العلاقات بينه وبين المماليك فمنع وصول امدادات المماليك إلى مصر وهم القوة الحربية Man power وعماد فرق الجيش المملوكي[3]. وأمعن في اسراع الخطى نحو الحرب التي أصبحت أمراً وشيك الوقوع.

تأكد للسلطان الغوري نيات العثمانيين الهجومية عن طريق التقارير التي وردت إليه من نوابه ومبعوثيه لبلاد الشام[4]. وأيقن من خلال مجريات الحوادث التي أخذت تتطور بسرعة أن احتمالات الحرب أكثر من احتمالات السلام.

بدأ تنفيذ الخطة العثمانية بنشر الأخبار عن عزم السلطان سليم الأول بمهاجمة الدولة الصفوية براً وبحراً، وصدق الناس تلك الأنباء على علاتها ما عدا الغوري الذي أدرك بفطنته وقرائن الأحوال أن هذه الاستعدادت الضخمة لا يعقل أن تكون من أجل الصفويين، بل هي في الواقع لمواجهة السلطنة المملوكية.

---

1 ـ ابن أياس: بدائع، ج ٤، ص 445. وطرافان: مصر في عصر المماليك ص 175.

2 ـ المصدر نفسه ج ٤، ص 449، 453، 471، 472، وج 5، ص 144 و 22.

3 ـ المصدر نفسه ج ٤، ص 12 ـ 92 ـ 93، ص 282 ـ 355. ولبيب صبحي التجارة الكارمية ص 45 ـ 52.

4 ـ المصدر نفسه ج ٤، ص 438.

لم يضع الغوري وقتاً بل سرعان ما بدأ في اتخاذ الاجراءات الضرورية اللازمة لحماية البلاد. فأسرع بالسفر إلى الاسكندرية ثم دمياط لتفقد المقدرة الدفاعية للقلاع الساحلية وأبدى ملاحظاته بشأن تقويتها ثم عاد مسرعاً إلى القاهرة ليجابه مشاكله الداخلية التي نشأت عن ثورة مماليكه السلطانية، من الجلبان الأحداث والقرانيص القدماء بسبب تأخر نفقتهم[1]. وهال الغوري أن ينغمس مماليكه في الفتنة في أحرج الأوقات. ولم يكن أمامه إلا أن يلجأ إلى فرض ضرائب باهظة على فئات الشعب وخاصة التجار والفلاحين. كما طلب من المباشرين جمع الضرائب المتأخرة المقررة على موظفي الدولة...[2]. ورغم ذلك بقيت فتنة المماليك مستقرة... فدعا إليه أغوات الطباق ووبخهم بقوله: «... لا تشمتوا العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب...»[3].

وبينما مصر تموج بحركة الاستعداد التي جعلت أحوال القاهرة تبدو في نظر ابن أياس «مثل يوم القيامة» وصلت رسالة من خايربك نائب حلب إلى السلطان قانصوه الغوري يذكر فيها أن السلطان سليم العثماني ينوي مهاجمة الصفوي، ولكن الغوري لم ينخدع بهذه الرسالة رغم أنه لم يشكك في ولاء نائبه[4].

وبعد ذلك بأيام وردت رسالة أخرى من سيباي نائب الشام لتدعيم خيانة خايربك الذي اتصل بسيباي وأقنعه بأن العثمانيين لن يفكروا في حرب المماليك، وطلب إليه أن يكتب إلى الغوري بذلك من جهته. فكتب هذا الأخير إلى السلطان حرصاً على المصلحة العامة «... إن العدو لم يتحرك بعد ولا داعي للسفر

1 ـ ابن اياس: بدائع ج 4، ص 438. وج 5، ص 27 ـ 30.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 682 ـ 683.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 443.

4 ـ زيادة: نهاية سلاطين المماليك ج 5، ص 15. وظهر حجة الغوري أوقاف 883 ص 3.

وان كان عدو متحرك فنحن له كفاية...»[1].

ومهما يكن من أمر هذه الرسائل فقد أكدت للسلطان شكوكه في نوايا العثمانيين. ولم ينتصف شهر ايار من سنة 922هـ/ 1516م حتى أمر الغوري، عساكره بالخروج قبله إلى الريدانية بظاهر القاهرة[2]. وفي الخامس عشر من ربيع الثاني سنة 922هـ/ 1516 خرج الغوري في موكب حافل إلى الريدانية، مصطحباً معه كبار رجال الدولة ورجال الدين والقضاة الأربعة ونوابهم، بالاضافة إلى عدد من كتاب الخزانة وكتاب الزردخانة والأطباء والجراحين والحرفيين اللازمين لإصلاح الأسلحة وبناء التحصينات[3].

مكث الغوري في الريدانية سبعة أيام أصدر خلالها عدة مراسيم عين بمقتضاها نواباً عنه وعن الأمراء الذين يسافرون مع الحملة، فتقرر تعيين «طومان باي» الداودار نائب غيبة، والزيني «بركان بن موسى» المحتسب متحدثاً في شؤون المملكة ومساعداً لنائب الغيبة. والأمير «الماس» والياً على القاهرة، إلى غير ذلك... لملء مناصب الإدارة العليا الشاغرة في البلاد[4].

وفي الريدانية وصلت إلى الغوري رسالة من خايربك ادعى فيها أن سليماً أرسلها مع أحد سفرائه للتفاوض في أمر الصلح تحوي كثيراً من عبارات الود والمحبة والرغبة في التعايش السلمي مع سلطنة المماليك. وفي هذه الرسالة يخاطب السلطان سليم الغوري قائلاً: «انت والدي وأسألك الدعاء وأنا ما زحفت على بلاد علاء الدولة إلا بإذنك... وأما التجار يجلبون المماليك الجراكسة فإني ما منعتهم، إنما هم تضرروا من معاملتكم في الذهب والفضة... وأن البلاد التي

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 5، ص 17 ـ 18.

2 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 32 ـ 35.

3 ـ ابن أياس: بدائع الزهور ج 5، ص 43 ـ 46.

4 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 46.

أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم وجميع ما يرومه السلطان فعلناه»[3].

واضح أن رائحة الخيانة تفوح من الملابسات التي أحاطت بإرسال الخطاب ومن تكذيب واقع الأحداث لكل عبارة وردت فيه.

الخروج إلى حلب ومعركة مرج دابق

لم تنطل الخديعة على الغوري، فخرج على رأس جيشه إلى الشام حيث مكث في دمشق سبعة أيام ثم تركها متوجهاً إلى حمص ومنها واصل سيره إلى حماه، وفي العاشر من جمادي الثانية 922هـ/ 1516 دخل مدينة حلب. واستقر بها ركبه، فأودع ذخائره وتحفه وأمواله وأسلحته أمانة بين يدي نائب القلعة، الأمير «قانصوه الأشرفي»[4].

سعى السلطان سليم العثماني جاهداً لتثبيط عزائم المماليك عن الاستعداد للقاء القوات العثمانية ليأخذهم على غرة، فأرسل إلى الغوري بحلب رسولين ليعرضوا عليه وده وطاعته ويفاوضوه في الصلح، ولكن لم يخف عليه ذلك ـ سياسة السلطان سليم المخادعة ـ غير انه رأى أن يظهر شيئاً من الرغبة في السلم، وشرع يعاتبهم في أفعال ابن عثمان. وأخذه بلاد علاء الدولة.

وبالرغم من أن الغوري يعرف ما في قرارة حديث المفاوضة من غش وخديعة، فإنه رد على رسالة سليم بالحسنى، وأرسل كاتم سره «الداودار» الأمير مغلباي ليؤكد للسلطان العثماني رغبته في الصلح وتجنب الحرب، ثم ثنى الغوري ذلك بإرسال الأمير كرتباي الأشرفي ومعه هدايا ثمينة ـ قدرت بنحو عشرة آلاف دينار ـ للسلطان سليم[1]. ومع ذلك لم يغفل الغوري عن أخذ الحيطة التي

1 ـ ابن أياس: بدائع، ج 5، ص 45.

2 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 51 ـ 53.

3 ـ ابن اياس: بدائع ج 5، ص 64 والغزي: الكواكب السائرة ج 1، ص 296.

يقتضيها الوضع القائم، فاستدعى أمراءه جميعاً وحلفهم على القرآن ـ في حضرة الخليفة العباسي ـ بأنهم لن يخونونه في ساعة الشدة. ثم أمر باستعراض الجند بكامل عدتهم الحربية[1]. وخلع الغوري بعد ذلك على قاسم بك ابن الأمير أحمد، وأعلن حمايته له تحدياً لسليم[2].

ولكن السلطان العثماني لم يكن في تلك المرحلة بحاجة إلى التحدي، كيما يكشف عن موقفه، فألقى القبض على مغلباي ومن معه وأمر باطاحة رؤوسهم جميعاً دون أن يسألهم عن سبب مجيئهم أو يكلف نفسه عناء الاطلاع على اقتراحات الغوري ـ ونفذ حكم الاعدام أمامه في مرافقيه الفرسان المماليك العشرة. ولم ينقذ حياة مغلباي سوى شفاعة يونس باشا[3]. وعلم الأمير كرتباي بذلك كله عند وصوله إلى عينتاب، فعاد مسرعاً إلى الغوري وأعلمه بما حدث، كما أنهى إليه أن طلائع الجيش العثماني وصلت إلى عينتاب بعد أن استولت على ملطية والبهنسا وكركر وغيرها من القلاع[4].

وفي أثناء ذلك وصل مغلباي في حال نحس، كما يقول ابن اياس وأخبر السلطان بما حدث معه، وبمقالة السلطان سليم له: «قل لإستاذك يلاقينا على مرج دابق»[5]. فاستشاط الغوري غضباً بعد سماعه للأخبار الردية. وتأكد عند ذلك أنه لم يعد هناك مفر من القتال، وأمر قواته أن يستعدوا للخروج من حلب والنزول على «حيلان» فخرجوا[6]. ولم يعرف بالضبط كم كان عدد الجنود الذين

---

1 ـ زيادة: نهاية سلاطين المماليك ص 217.

2 ـ المرجع نفسه ص 217.

3 ـ ابن أياس: بدائع ج 5، ص 64.

4 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 64.

5 ـ ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 1، ص 24.

6 ـ ابن اياس: بدائع... ج 5، ص 64.

شهدوا معه معركة مرج دابق. وقدرهم نجم الدين الغزي المؤرخ بنحو ثلاثين ألف جندي وقدرهم ابن زنبل بمائة وثلاثين ألف جندي[1].

ويوم الثلاثاء العشرين من رجب سنة 922هـ/ 1516م خرج الغوري من حلب على رأس الحلقة السلطانية إلى حيلان فبات فيها، ثم برحها إلى «مرج دابق» فأقام به إلى يوم الأحد الخامس والعشرين وهو اليوم الفاصل الذي دارت فيه احدى المعارك الحاسمة في تاريخ المشرق العربي الإسلامي[2].

في فجر يوم الأحد الخامس والعشرين من رجب سنة 922هـ/ 1516م بدأت الجيوش العثمانية تتقدم باتجاه دابق استعداداً للهجوم لأخذ الجيش المملوكي على غرة، لكن فرسان المماليك من أمثال أصلان بن بداق نائب حمص وسيباي نائب الشام وسودون الأتابكي ومماليكه، قاموا بهجوم خاطف عنيف زلزل أقدام العثمانيين وقتلوا منهم حوالي عشرة آلاف رجل، واستولوا على سبعة اعلام وعدد من المكاحل النارية، حتى أن السلطان سليم فكر في التقهقر لتنظيم قواته من جديد[3]. وفي هذه الساعة الحرجة أشاع خيربك بين المماليك القرانيص - وهم الذين ثبتوا للمكاحل العثمانية حتى استولوا على عدد منها - أن السلطان الغوري أمر جلبانه بعدم القتال حتى يصدر أوامره إليهم، وفسر القرانيص ذلك بأنه خطة دنيئة من الغوري، ليجزيهم وحدهم لما ارتكبوه في حقه سابقاً. حتى أن بعضهم خاطب الغوري قائلاً! نحن نقاتل بأنفسنا مع النار وأنت واقف تنظر إلينا بالعين الشامتة ما تأمر أحداً من مماليكك يخرج إلى الميدان[4].

---

1 - الغزي: الكواكب السائرة ج 1، ص 695 - 696. وابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 1، ص 25.

2 - ابن أياس: بدائع ج 5، ص 67 - 68.

3 - ابن أياس: بدائع ج 5، ص 69 - 70. والبابع: أعلام النبلاء ج 3، ص 157.

4 - ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 1، ص 29.

وبينما تعمل هذه المظنة عملها المشؤوم قتل سيباي وسودون، فولى جنود الميمنة والقلب الأدبار. وتبع ذلك فرار خايربك من الميدان ـ عملاً باتفاقه السيء مع السلطان سليم ـ بعد أن أطلق اشاعة ثانية، فقال: إن السلطان سليماً أحاط بكم وقتل الغوري والكرة علينا»[1] فانهارت قوى المماليك، مع أن الغوري كان ثابتاً في مكانه تحت السنجق السلطاني، وحوله نفر قليل من مماليكه الخاصة، ينادي لوقف تيار الفرار: «يا أغوات هذا وقت المرؤة، هذا وقت النجدة، يا أغوات الشجاعة، صبر الشجاعة»، ولكن لم يستمع إليه أحد، وصاروا ينسحبون من حوله، «وانطلقت في قلبه جمراً لا تطفأ». حينئذ خشي الأمير تمر الرزدكاش على السلطان، فشق طريقه إليه وأخذ العلم السلطاني وأخفاه خشية أن يستولي عليه العثمانيون أو يعلموا مكان السلطان، وقال للغوري: «يا مولانا السلطان، إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل إلى حلب» «فوقعت هذه العبارة وقع الصاعقة، وأصيب في الحال بفالج» أبطل شقه وأرخى حكنه ـ على قول ابن أياس ـ وطلب شربة ماء، فأتوه بكأس ذهبية شرب منها ولوى عنان فرسه ليهرب، ولكنه سقط عن فرسه بعد خطوات جثة هامدة من هول الهزيمة[2].

وسرت أبناء الفاجعة سريان البرق بين العثمانيين، فتقدموا في سرعة قبل أن يستطيع أحد نقل جثة السلطان إلى مكان أمين، وقضوا على الجنود الذين ظلوا إلى جانب الغوري، حتى اللحظة الأخيرة[3].

---

1 ـ ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم... ج 1، ص 29.

2 ـ ابن أياس: بدائع، ج 5، ص 8. والبكري: الروضة الزهية ص 47.

وانظر الحنبلي: نزهة الناظرين... ص 119. والغزي: الكواكب السائرة ج 1، ص 297.

3 ـ نور، رضا: تورك تاريخي ج 9، ص 322.

وانظر زيادة: نهاية سلاطين المماليك... ص 221.

وهكذا كانت نهاية الغوري، وخاتمة ملكه وحكمه، في موقعة لم تدم نهاراً كاملاً ـ إذ بدأت من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر ـ بعد أن تصرف في ملك مصر والشام وحلب والحجاز وسائر البلاد التابعة، مدة امتدت خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، من مستهل شوال سنة 906هـ/ 1500م إلى الخامس والعشرين من رجب سنة 922هـ/ 1500م. ويكفي الغوري فخراً أن استشهد في المعركة تحت أعلام بلاده.

نتائج معركة مرج دابق في تاريخ دولة المماليك

كانت نتائج واقعة «مرج دابق» مأساة مروعة هزت كيان الشرق الأدنى هزاً عنيفاً فانهارت الدولة المملوكية وسقطت صرعى الغزو العثماني بعد سحق جيشها في لمحة صاعقة[1]. واستولى سليم على المعسكر المملوكي بكل ما فيه[2]. وفرت فلول المماليك إلى حلب التي أغلقت أبوابها في وجههم، فتحولوا إلى دمشق حفاة عراة في حالة يرثى لها وتتابعت جموعهم على القاهرة في رمضان 922هـ/ أوائل تشرين الأول 1516م وكانت أخبار الهزيمة قد سبقتهم إليها[3]. واستقر رأي المماليك على اختيار نائب السلطنة طومان باي سلطاناً على مصر، لكن هذا الأخير تمنع عن السلطنة في تلك الظروف الرهيبة. ثم وافق أخيراً بعد أن اقسم له الأمراء ونودي به سلطاناً على البلاد في الرابع عشر من رمضان 922هـ/ الحادي عشر من تشرين الأول سنة 1516م[4]. ولما وصل جان بردي الغزالي إلى القاهرة استاء لقيام طومان باي في السلطنة وأكل الحقد قلبه. وعزم على اتمام دور الخيانة

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 5، ص 27 ـ 28.
2 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 72.
3 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 83 ـ 84 ـ 102 وابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 1، ص 81 و 84.
4 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 104. والفقي: تاريخ واقعة السلطان الغوري ص 40.

الذي بدأه مع شريكه خايربك.

وهكذا لعبت الخيانة المملوكية والجاسوسية العثمانية دوراً عميق الغور في نهاية دولة المماليك في مصر والشام عن طريق الإشاعات الكاذبة والمراسلات السرية[1].

زحف العثمانيون جنوباً فاستولوا على حلب وقلعتها العامرة دون مقاومة[2]. ثم حمص وحماة ودمشق، وانهالت أخبار الزحف العثماني على القاهرة كالصواعق، ورأى طومان باي أن يستعد لصد الهجوم قبل أن تصل قوات العدو إلى حدود مصر. لكنه لم يجد من الروح المعنوية بين الأمراء والجند ما يستعين به على تنفيذ هذه الخطة الرشيدة، وعندما وصل سنان باشا إلى مقربة من غزة خرج الغزالي من مصر في قوة من الجند المملوكي وتقابل معه قرب بيسان فحدث بين الفريقين شبه قتال انتهى بهزيمة المماليك[3]. مما شجع الجيش العثماني على ارتكاب مذابح دموية في غزة كانت كافية لتحطيم قوة العزيمة وانهيارها ضد القوات المصرية وخاصة بعد أن سرت اشاعات الخوف والفزع من قوة العسكر العثماني[4]. وبينما تكتمل جهود طومان باي استعداداً للمواجهة وصلت إلى القاهرة في ذي القعدة سنة 922هـ/ كانون الثاني 1517م سفارة من قبل السلطان سليم تخبر برحيله عن دمشق إلى غزة، ويعرض الصلح على طومان باي بشرط أن يعترف بالتبعية للعثمانيين، ومما جاء في كتاب سليم: «من مقامه السعيد إلى الأمير طومان باي... أما بعد ـ فإن الله أوحى لي أن أملك البلاد شرقاً وغرباً، كما ملكها الاسكندر ذو القرنين... وأنك مملوك تباع وتشتري ولا تصح لك ولاية ملك، وأنا ملك ابن

---

1 ـ ابن أياس: بدائع، ج 5، ص 114... وابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 1، ص 162.

2 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 73. والغزي نهر الذهب ج 2، ص 250 ـ 251.

3 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 126 ـ 128.

4 ـ ابن أياس: بدائع ج 5، ص 126 ـ 128. وابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 1 ص 125.

ملك... وإني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغوري... وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة في مصر باسمنا وكذلك الخطبة وتكون نائباً عنا بمصر ولك من غزة إلى مصر، ولنا من الشام إلى الفرات. وإن لم تدخل تحت طاعتنا، ادخل مصر واقتل جميع من بها من الجراكسة حتى أشق بطون الحوامل واقتل الأجنة التي في بطونها...»[1].

استشاط طومان باي من كتاب سليم فأمر بقتل أفراد البعثة وأخذ يستعد للمواجهة، ثم تقدم بقواته يريد الصالحية ولكن الأمراء أشاروا عليه التحصن بالريدانية وغلبوه على أمره وفوتوا عليه خطته السليمة للدفاع عن البلاد بعيداً عن القاهرة لقصر نظرهم وجهلهم باستراتيجية الحرب، والقوات العثمانية مستمرة في زحفها بلا توقف[2]. وفي الريدانية حفرت الخنادق ونصبت المدافع. لكن هذه الاستعدادات الضخمة لم تجد أمام جبن المماليك، وتقدم قوات آل عثمان التي احتلت الصالحية ثم بلبيس ووصلت طلائعها إلى الخانقاه[3]. وفي 29 ذي الحجة سنة 922هـ/ كانون الثاني 1517م كانت واقعة الريدانية المهولة التي قتل فيها ـ سنان باشا الصدر الأعظم بيد السلطان طومان باي ـ[4]. وانتهت المعركة باندحار المماليك. وفرار طومان باي بسبب خيانة الغزالي وافشائه أسرار الخطة المملوكية لخايربك، حتى أضحت القاهرة تحت رحمة العثمانيين فدخلوها دون مقاومة تذكر وشاع فيها النهب والسلب والقتل في مذبحة رهيبة، قتل فيها خمسين ألفاً من أهلها، وألقي القبض على ثمانمائة فارس

---

1 ـ ابن أياس: بدائع، ج 5، ص 122 ـ 125. ونور رضا: تورك تاريخي ج 9، ص 223.
2 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 118 ـ 119 و 123 ـ 124 ـ 127.
3 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 188.
4 ـ ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 1، ص 174.

مملوكي ليتم إعدامهم بصورة علنية[1].

وبعد أن اطمأن السلطان سليم إلى أن قواته احتلت مدينة القاهرة، دخلها في الثالث من محرم سنة 923هـ/ الخامس والعشرون من كانون الثاني 1517م من باب النصر، وتوجه بموكبه إلى معسكره الجديد في بولاق، ولكن طومان باي ما لبث أن باغت المعسكر العثماني ودخل القاهرة، حيث ظل القتال محتدماً فيها ثلاثة ايام سوياً[2]. وخطب لطومان باي في يوم الجمعة في جامع شيخو بخط الصليبية[3]. ولكن العثمانيون تمكنوا من اخراجه منها، فتوجه طومان باي بعد ذلك إلى البهنسا في صعيد مصر وكان يائساً فطلب الصلح من سليم بشروط عينها فأرسل إليه وفداً وكتاباً[4]. ولكن الأمراء حالوا بين المفاوضين القادمين وبين سلطانهم الشاب وقتلوا العثمانيين ممن حضروا صحبة الوفد[5]. ورد سليم على ذلك بعنف وقسوة فقتل عدداً كبيراً من الأمراء الجراكسة المعتقلين بالقلعة ووكالة السلطان الغوري بشارع التبليطة قرب الجامع الأزهر[6].

وهكذا اتجهت إرادة الطرفين إلى مواصلة القتال فتقدم طومان باي نحو الجيزة، وكان العثمانيون يعسكرون عند بركة الجيش وبدأت المناوشات بين الفريقين، واستمر الجانبان في تراشق بالنبال والبارود حتى هجم البدو من عرب غزالة على مؤخرة القوات المملوكية فتقهقر طومان باي إلى الأهرام فعبر إليه العثمانيون والتقوا به عند منطقة وردان في العاشر من ربيع الأول سنة 923هـ/

---

1 ـ ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 5، ص 122 ـ 125. ونور رضا: تورك تاريخي ج 9، ص 223.

2 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 118 ـ 119 و 123 ـ 124 ـ 127.

3 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 11 ـ ابن اياس: بدائع ج 5، ص 157.

4 ـ البكري: الروضة الزاهية ص 52.

5 ـ ابن اياس: بدائع ج 9، ص 153 ـ 154.

6 ـ ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 1، ص 522.

أول نيسان 1517م وكانت معركة عنيفة انتهت بهزيمة المماليك أيضاً[1]. وهرب طومان باي يلتمس الحماية عند شيخ العرب حسن بن مرعي بالبحيرة وقد كانت له أفضال في عهد عمه السلطان الغوري فتنكر له وسلمه للعثمانيين، ولما وقع طومان باي في قبضة السلطان سليم، فرح السلطان العثماني وصاح «الآن ملكنا مصر»[2].

جرى حديث طويل بين السلطان العثماني وطومان باي في شؤون الحرب والسياسة وأظهر طومان باي شجاعة أعجب بها سليم. ولكن الخيانة لم ترحمه في موقفه هذا، وأفهم خايربك والغزالي السلطان العثماني وجوب التخلص منه حتى لا يكون شوكة في جنبه فأمر بإعدامه، فشنق على باب زويلة في يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة 923هـ/ الثالث عشر من نيسان 1517م حيث ظلت جثته معلقة ثلاثة أيام تم دفن بالحوش خلف الخانقاه الغورية[3].

وهكذا أسدل الستار على الامبراطورية المملوكية، وفقدت مصر استقلالها وسيادتها وأصبحت ولاية عثمانية. ومما لا شك فيه أن انتهاء السلطنة المملوكية على أيدي العثمانيين يعتبر حدثاً جيوبوليتكياً ذات أهميات بالغة في السياسة الجغرافية، كان أبرزها نقل محور الارتكاز وزعامة الدولة الإسلامية من القاهرة إلى القسطنطينية بعد أن زالت دولة المماليك من خريطة العالم[4].

ولما كان لسقوط الدولة المملوكية هذه الأهمية البالغة لا بد لنا أن نتكلم

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 5، ص 168 ـ 170.
وانظر ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم ج 2 ص 126 ـ 127.
2 ـ زيادة: نهاية السلاطين المماليك ص 226.
3 ـ ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم... ج 4، ص 141 ـ 142. والقرماني: أخبار الدول ص 220.
4 ـ ابن اياس: بدائع ج 5، ص 238 ـ 240.
وانظر زيادة: نهاية سلاطين المماليك الجراكسة ص 197.

ولو بشيء مقتضب عن عوامل انهيارها.

عوامل انهيار الدولة المملوكية

إن عوامل سقوط الدولة المملوكية في مطلع القرن السادس عشر، يمكن التماسها من جوانب عدة، فهناك النزاع الأبدي بين الجديد والقديم، فبينما قطعت الدولة العثمانية شوطاً كبيراً في استخدامها للأسلحة النارية وبصفة خاصة سلاح المدفعية الذي أولاه السلطان سليم أعظم الاهتمام وكون له فرقة خاصة بالجيش العثماني[٢]. نجد أن الجيش المملوكي ظل مرتكزاً على نظام الفروسية الذي ساد في العصور الوسطى، ولم يحاول المماليك تطوير نظم التدريب أو التسليح بل ظلت الأسلحة التقليدية ـ السيف والرمح ـ وسيلتهم في الحرب وظل تكتيكهم الحربي مبنياً على الهجمات الخاطفة لسلاح الفراسان[2] ومن الواضح أن مثل هذا التكتيك لم يكن لينجح في مواجهة جيش حديث تتقدمه المدفعية الثقيلة، ومقسم إلى تشكيلات مقاتلة تتبع في تدريبها وتسليحها أحدث ما وصل إليه الفن الحربي في العالم آنذاك.

وكثير ما عبر المماليك عن مدى تأثرهم بالسلاح العثماني، واعترفوا بنكايته بهم اعترافاً صريحاً[3].

ومن ناحية أخرى، هناك استقرار النظم الداخلية عند العثمانيين من حيث وراثة العرش والمحافظة على أتباع نظام الوراثة، وذلك على عكس ما سارت عليه الأمور في دولة المماليك ولا سيما في عصرها الأخير، حيث كانت

---

4 ـ بروكلمان، كارل: الأتراك العثمانيون وحضارتهم ص 86.

1 ـ طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة... ص 200.

2 ـ ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم... ج 1، ص 170 ـ 174.

الفتن والاضطرابات حول العرش هي السائدة؟ مما جعل الحكم غير مستقر حتى في أحرج الأوقات يضاف إلى ذلك كراهة الرعايا لسلاطينهم من المماليك، فقد ظل المماليك أرستقراطية حربية منعزلة عن رعاياهم، كما ظلت ثروات البلاد موزعة بينهم[1]. ثم تدهور نظام الفروسية الذي ارتكز عليه الجيش المملوكي، وهذا راجع إلى الانقسام الخطير الذي استشرى بين فئات الجند نتيجة للسياسة التي اتبعها سلاطين الدولة المملوكية، فقد اعتمد كل سلطان على مشترياته من المماليك. وكانت فئة الجلبان سند السلطان القائم على العرش ودعامته التي اعتمد عليها في مقاومة العناصر المعادية، ولذلك كثيراً ما أجرى السلطان الجديد حركات تطيرية شاملة هدفها التخلص من مماليك السالف[2].

تلك هي الأسباب البعيدة، أما الأسباب المباشرة، فتتلخص في سؤ الحالة الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد عامة منذ تحول طريق التجارة من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي عقب الكشف الجغرافي[3]. وقد انعكس ذلك بصورة مباشرة على الاعداد لحملة مرج دابق، فلم تكن الأموال التي تحت تصرفه كافية لدفع نفقة الحرب الكاملة لجميع افراد الجيش المملوكي مما أدى إلى تذمر بعض فئات الجند وبالتالي كان لهذا الوضع أخطر الأثر على تماسك القوات المملوكية في أحرج اللحظات[4].

ثم إن الخيانات التي وقعت بين صفوف المماليك، كان لها أثر كبير في الاسراع بسقوطها، لأنها حدثت ممن كان منوطاً بهم قيادة الجيش، فقد تخلى هؤلاء

1 ـ طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص 202.
2 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 443 ـ 444. وج 5، ص 27 و 28 و 30.
3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 443 ـ 444.
4 ـ المصدر نفسه ج 5، ص 27 ـ 28 ـ 30.

الخونة عن واجبهم في أصعب الأوقات[1].

يضاف إلى ما ذكرنا أن العثمانيين كانوا متفوقين من الناحية العددية تفوقاً ساحقاً، فبينما تراوحت الأرقام التي أوردها المؤرخون عن عدد القوات المملوكية في مرج دابق بين أربعين وستين الف مقاتل، قدروا تعداد القوات العثمانية بحوالي مائة وستين ألف جندي[2]. إن جميع هذه العوامل التي ذكرناها أدت إلى انهيار المماليك وحضاراتهم التي تألفت ثلاثة قرون تقريباً. وجاء الفتح العثماني ليطفىء هذا النور مدى ثلاثة قرون أخرى أو تزيد؟

---

1 ـ Lammens: La Syrie... T. II. P. 43.

2 ـ ابن أياس: بدائع ج 5، ص 7.

وانظر Von Hammer: Histoire de L'Empire T. 4 p. 267.

الفصل العاشر

أحوال مصر في عصر سلاطين المماليك

أولاً ـ الحياة الاقتصادية

أ ـ لمحة موجزة عن الاقطاع في العصر المملوكي

يصف المقريزي أحوال مصر الاقطاعية في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي فيقول: «... منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن ايوب وأراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده»[1].

خضعت جميع أراضي مصر لهذا النظام فيما عدا القليل منها الذي ارصد للأوقاف المختلفة[2]. غير أن الاقطاع لم يقتصر على مختلف أنواع الأراضي بل تعداها إلى انتاجية موارد الدولة الأخرى التي تجري عليها المكوس[3]. وبذلك يكون المماليك قد خالفوا المفهوم الحقيقي للاقطاع في الإسلام[4]. مما كان دليلاً على فساد الحال في نظر المعاصرين[5].

ومن الواضح أن المماليك أستمدوا محور وجودهم ومكانتهم العسكرية من فكرة الحرب التي أضحت المحور الرئيسي لتحركهم السياسي والاقتصادي

---

1 ـ المقريزي: خطط... ج 1، ص 97.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 3، ص 455 ـ 458.

3 ـ كويلاند، ج، و: الاقطاع والعصور الوسطى... تر. زيادة القاهرة 1946 مقدمت هـ ـ ز.

4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 13، ص 110. والمقريزي: خطط ج 1، ص 106 ـ 107.

5 ـ المصدر نفسه ج 13، ص 177.

والديني. من هنا كانت سيطرتهم على مقدرات البلاد واقتسامها فيما بينهم.

وكانت وحدة التوزيع الاقطاعي هي القيراط وبموجبه قسمت الأراضي المصرية إلى أربعة وعشرين قيراطاً، وزعت على النحو التالي: أربعة قراريط للسلطان، وعشرة للأمراء، والعشرة الباقية للأجناد[1].

ولما كانت ألأراضي المصرية متفاوتة من حيث النوعية، ومراتب الأمراء مختلفة المستويات، كان السلطان يوزع الاقطاعات مراعياً الأمور المذكورة، فيفرد لنفسه وكبار أمرائه أجود الأراضي، ولمن يليهم في الدرجات الأراضي المتوسطة الجودة، وأما ألراضي المتبقية فكانت من نصيب أجناد الحلقة وغيرهم ممن شملهم الاقطاع[2].

وهكذا أقسم رجال السيف ـ السلطان والأمراء والأجناد ـ مقدرات البلاد الاقطاعية لقاء واجبات معينة[3]. لكن غالباً لم يف الأمراء بالتزاماتهم خاصة في الظروف المادية الصعبة التي كانت تمر بها البلاد ابان غلاء أو وباء أو فتنة[4]. ولا أدل على ذلك من حصولهم على النفقة من السلطان وانصرافهم عنه إلى عدوه الطامح بمركزه[5]. فضلاً عن رفضهم في أكثر الأحيان اعطاء مماليكهم نصيبهم من الاقطاعات والنفقة[6]. كل هذا دفع السلطان إلى تقرير سياسة الأمر الواقع، فاستحدث إدارات تخدم مآربه[7]. من هنا كانت الإدارة

---

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 8، ص 92. وطراخان: التنظيم الاقطاعية ص 64.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 8، ص 358.

3 ـ المصدر نفسه، صبح الأعشى، ج 3 ص 348، ج 4، ص 50 ـ 51، ج 6، ص 185 و ج 12، ص 319.

4 ـ طرخان: مصر في عصر الجراكسة... ص 198 ـ 199 ـ 220.

5 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 12، ص 309.

6 ـ بولياك: الاقطاعية ص 28. Ayalon: Mamluk Aring... v. 15. part 2 p. 460.

7 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 13، ص 153 وما بعدها.

الاقطاعية متحركة[1]. فتطرف إليها الفساد بحيث لم تعد تخدم مصالح السلطان فقط، إنما مصالح كبار الأمراء أيضاً، سيما وأن العصر المملوكي عرف عدد من السلاطين انشغلوا عن أمور الحكم باشباع نزواتهم ورغباتهم.

ب ـ أثر النظام الاقطاعي على الاقتصاد

إن النظام الاقطاعي المملوكي بني أساساً ليكون مكسباً للمقطعين، والإدارات التي نظمته كانت من حيث التكوين والمبدأ فعالة وصارمة، ولكن الخلل التدريجي الذي كان يلحق بأجهزة الدولة والقيمين عليها، لم يوفر تلك الإدارات فتعاونت مع المقطع لاستنزاف الفلاح الذي عاش في حالة لا يحسد عليها[2]. وفرض عليه التزامات عديدة أدت به أحياناً إلى الفرار من القرية[3]. كما أن عدم استقرار الاقطاع بيد صاحبه ـ ظاهرة انفرد بها النظام الاقطاعي المملوكي عن غيره من النظم المشابهة وهي تقنيته[4]. دفع الاقطاعيين إلى عدم السكن في اقطاعاتهم وإرسال مندوبين عنهم لرعاية شؤون أملاكهم المؤقتة. وكان المندوب يمارس شتى أنواع الظلم على الفلاح لأخذ حصة المقطع مع عائدات اختص هو بها عرفت بضريبة الحماية[5].

وبما أن الاقطاع الحربي المملوكي لم يكن وراثياً فإن المقطعين لم يهتموا باستصلاح الأراضي التي كانت تبور إنما انحصر همهم بزيادة الضرائب والمغارم،

---

1 ـ طرخان: النظم الاقطاعية ص 234.

2 ـ ابن أياس: بدائع ج ٤، ص 104.

3 ـ وثيقة طومان باي أوقاف 883، ص 563. وثيقة برسباي أوقاف 880 ص 104.

4 ـ بولياك: الاقطاعية ص 77 ـ 78. وابن اياس: بدائع ج ٤، ص 104 ـ 428 ـ 327.

5 ـ Asytor. Eliahu: Hist. des pris et des salaires.. pp 167 – 168.

الأمر الذي دفع الفلاح إلى هجرة الزراعة وتفضيل تربية الماشية عليها[1]، ثم إن أجناد الحلقة بعد أن كانوا قلب الجيش المملوكي والدعامة الأولى له، أصبحوا منذ منتصف القرن الرابع عشر في أدنى مراتب الجيش، وأهملوا اقتصادياً ورعائياً، فعمدوا إلى بيع اقطاعاتهم والنزوح إلى القاهرة، ليحصلوا على نصيب من نتائج الفتن شبه المستديمة[2].

يضاف إلى ذلك اهمال السلاطين لروك الأراضي[3]. الأمر الذي أدى إلى بوارها وتزايد عدم المساواة في الملكية الاقطاعية[4].

هذا عدا عن كثرة الأوبئة التي كانت تحصد الناس من وقت لآخر، ولا من يهتم ويخفف من وطأة تلك الكوارث إلا نادراً[5]. ناهيك عن دور الحكم في تفويض أسس النظام الاقطاعي والاجتماعي المملوكي، إذ كان كل سلطان يفضل مماليكه على غيرهم في الحصول على الاقطاعات والمناصب، وهؤلاء استغلوها بشكل سيء[6].

ولكن الانحطاط الذي شمل النظام الاقطاعي المملوكي لم يقتصر على الزراعة بل تعداه إلى جميع المرافق المنتجة. فالمجتمعات الاقتصادية تبنى بإقامة توازن في جميع القطاعات وتعمل على استمرارية هذا التوازن. فعندما كانت الدولة تتعرض إلى عجز مالي عن تأخر الزراعة، كانت تبحث عن موارد أخرى، فلم يكن أمامها إلا السيولة المتوفرة بأيدي التجار، ففرضت عليهم ضرائب فوق

---

1 ـ عاشور: دراسات وبحوث... ص 151.

2 ـ Gaude frog demonbyne. La syrie... p. 35.

3 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 219.

4 ـ المقريزي: خطط ج 1، ص 142.

5 ـ Ashtor: pris et Salaires.. pp. 267 – 268.

6 ـ وثيقة السيفي قرقماس محكمة ص 104. وثيقة طرابلس محكمة 271.

العادة، وهذه الضرائب كانت ترتفع وتزداد كلما زاد الاقطاع ضعفاً[1]. ولم تسلم الصناعة وأربابها من زيادة الضرائب التي فرضها الجهاز العسكري الحاكم أحياناً برضى السلاطين، وأحياناً أخرى دون رقابة[2].

وقد شجعت الطبقة العسكرية الحاكمة الصناعيين في انتاج بعض السلع الهامة الشديدة الطلب في السواق المحلية والأجنبية. فانعكس ذلك آثاراً سلبية على الاقتصاد المملوكي[3].

وعلى الرغم ما كان للنظام الاقطاعي من أثر سلبي على الاقتصاد المملوكي فإن محصول الأراضي الزراعية في مصر... رغم استخدام الوسائل والأدوات العتيقة ـ كان يزداد في عصر بعض سلاطين المماليك نتيجة اهتمامهم بمرافق الزراعة من جسور وترع ومقاييس النيل...[4].

كما ارتقت الصناعة في هذا العصر رقياً كبيراً حيث ازدانت الأسواق المصرية والشامية والقسطنطينية وغيرها بالمنسوجات المصرية من الحرير والصوف والكتان والقطن، فضلاً عن المصنوعات المعدنية النحاسية الدقيقة الصنع والمزينة بكتابات ونقوش جميلة بالإضافة إلى تكفيت البرونز والنحاس والفضة والذهب، وصناعة الزجاج البلوري والملون. كذلك صناعة الخزف الذي فاقت صناعته ما كان يصنع منه في العصور السابقة بسبب دقة اتقانه وأشكاله الجميلة[5]، كما ازدهرت في العصر المملوكي الصناعات الخشبية التي عرفت برقي فنها وحسن اتقانها[6].

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 94 ـ 105، ابن أياس: بدائع ج 5، ص 89 ـ 90.

2 ـ Ashtor: Ibid. p. 271.

3 ـ ابن أياس: بدائع... ج 2، ص 243.

4 ـ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص 275.

5 ـ المقريزي: المواعظ ج 2 ص 105.

6 ـ ريماند: الفنون الاسلامية ص 122.

أما التجارة فكان لها المقام الأول في ذلك العصر حيث كانت مصدر ثروة المماليك ـ وهذا ما تكلمنا عنه سابقاً ـ ويرجع السبب في ذلك إلى انسداد معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر بسبب حملات المغول التوسعية، ولم يبق آمناً إلا طريق البحر الأحمر ومصر مما أعطى فرصة للمماليك ليقوموا بدور الوسيط بين الشرق والغرب، فاهتموا بتنشيط التجارة وتحسين معاملتهم للتجار الوافدين من الشرق والغرب ـ الأوروبيين ـ وتأمين وسائل الراحة لهم بإنشاء الخانات والفنادق والوكالات والقياسر والأسواق وغيرها[1].

وليس أدل على اهتمام المماليك بهذا المورد الاقتصادي المهم من المنشور الذي أرسله السلطان قلاوون إلى التجار الذين يفدون إلى مصر من الشرق والغرب يصف فيه محاسن مصر ويغريهم على القدوم إليها ويعدهم بحسن المعاملة والاحسان إليهم[2].

وقد سار المماليك على غرار الفاطميين في معاملتهم للتجار الأوروبيين بحيث سمحوا للتجار الايطاليين وغيرهم من الأوروبيين بإقامة الفنادق الخاصة بهم في الموانىء الهامة. ويضم الفندق مخازن للبضائع، وكنيسة صغيرة لإقامة الشعائر الدينية، بالإضافة إلى فرن وحمام ودار لصنع النبيذ بحيث يتمتع جميع الجاليات النازلين فيها بأكبر قسط من الحرية والتسهيلات[3]. وقد ساعد النشاط التجاري في عصر المماليك على انتعاش ثغور مصر وموانيها فاحتلت أسوان مكانة بارزة بسبب ورود تجارة النوبة والسودان إليها، كما اصبحت عيذاب مركزاً مهماً لتجارة الصين والهند واليمن، وأصبحت الإسكندرية ودمياط من المحطات

1 ـ تاريخ ابن الفرات ج 7، ص 198.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 13، ص 340 ـ 341.

3 ـ Kammerer: Le Regim et le Statusdes Etrangers en Egypte pp. 17 – 20.

الرئيسية للتجار الأوروبيين. وخاصة الايطاليين منهم[1].

وكما ازدهرت التجارة في العصر المملوكي على الصعيد الخارجي يمكن تطبيقه على الصعيد الداخلي، وأصبحت بعض المدن المصرية الداخلة الكبرى مراكز تجارية مهمة. تقام بها الأسواق لبيع كافة السلع ويفد إليها التجار من كل حدب وصوب. مثل مدينتة الفرما ومدينة بلبيس والمحلة الكبرى والقاهرة... وقد استطاعت الدولة المملوكية من فرض الرقابة المحكمة على العمليات التجارية فيها لمنع التلاعب في الأسعار وتراقب الموازين والمكاييل وأصناف البضاعة[2].

غير أن تسلط المماليك الجراكسة على التجارة المشرقية في أواخر القرن الرابع عشر، واحتكارهم تجارة التوابل والبخور، لحسابهم الخاص ـ تكلمنا عن ذلك بالتفصيل في علاقة المماليك مع البرتغاليين ـ والتلاعب في العملة في عهد السلطان الأشرف برسباي الذي ابطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي وسك الدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوروبيين[3] فضلاً عن الفتن والمنازعات الداخلية التي كانت تحدث بين فينة وأخرى بين طوائف المماليك وتثير القلاقل والاضطرابات وفقدان الأمن[4]. كل ذلك حمل الأوروبيون للتفتيش عن طريق جديد ينقذهم من استغلال المماليك للتجار ومصادرتهم أموالهم التي لم يعد بامكانهم تحملها فكان اكتشاف طريق رأس الرجا الصالح والوصول إلى ميناء كالكوتا الهندي وسيطرتهم على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها، وتحويلها إلى أسواق لشبونة مباشرة[5]. فكان ذلك ايذاناً بتوجيه ضربة إلى الوريد الحيوي

---

1 ـ Heyd; Hist... du Commerce... T. II. P. 214.

2 ـ المقريزي: المواعظ ج 2، ص 92.

3 ـ Ahmed Darrag: L'egypte sous le Regne de BarsbaY. P. 50 – 100.

4 ـ كرد علي، محمد: الإسلام والحضارة العربية ج 1، ص 340. هاو، سونيا: في طلب التوابل ص 100.

5 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 177 ـ 178 ـ 369.

لتجارة المماليك بين الشرق والغرب.

ثانياً ـ الحياة الاجتماعية

عرفت مصر في العصر المملوكي حياة اجتماعية صاخبة نتيجة التفاوت الحاصل بين طبقات المجتمع، من حيث الداخل، والطمأنينة والاستقرار والمراكز الإدارية والسياسية.

يمكن تقسيم المجتمع المملوكي إلى عدة طبقات، كل طبقة تنقسم بدورها إلى أكثر من مستوى واحد.

أ ـ السلطة العسكرية الحاكمة (السلطان وأمراؤه وأجناده) وكانت تشكل طبقة بيروقراطية حاكمة تمتعت بالجزء الأكبر من ثروات البلاد وخيراتها لا تربطها بالأهالي أية صلة، عاشت بعيدة عن مآسي الشعب وآلامه، وكان العامل المالي المحرر الرئيسي لها، فأكثر المصادر المملوكية تحدثنا عن ثراء السلاطين والأمراء وبذخهم الذي بلغ ذروته في المآكل واقتناء الجواري والأواني والقصور والمنازل[1].

فعندما توفي الأمير سلار وجدت لديه كنوز كثيرة من الأحجار الكريمة، زمرد وياقوت ولؤلؤ وذهب وفضة عدا الخيل والماشية، ويقال أن دخله اليومي من اقطاعاته وحماياته بلغ مائة ألف دينار[2]. وبالرغم من أن هذا الغنى مبالغ فيه، إنما يدل على الثراء الفاحش عند بعض من كان يقوم على رعاية شؤون الناس.

وإذا كان المماليك قد حازوا الاقطاعات الكبيرة فإنهم لم يسكنوا فيها، إنما سكنوا في القاهرة حيث أماكن اللهو والبذخ، وكونوا لأنفسهم مجتمعات خاصة بهم كي لا يختلطوا بالسكان الأصليين[3].

---

1 ـ القلقشندي: ج 4 ص 457 ـ 458.

2 ـ ابن أياس: بدائع ج 1 ص 155 ـ 156.

3 ـ الباز العريني: المماليك ص 223 ـ 250.

ب ـ المصريون وهم سكان البلاد من غير المماليك انقسموا بدورهم إلى فئتين:
ـ الفئة الأولى وتضم رجال الدين والتجار: احتفظوا بمكانة مرموقة في المجتمع، وتمتعوا بقسط وافر من البحبوحة والعيش الرغيد.
ـ الفئة الثانية وهم غالبية أهل البلاد من الصناع والحرفيون والفلاحون وذوو الحاجة معظمهم مغلوب على أمره ويعيش حياة بؤس وحرمان[1].

وانطلاقاً من هذا التقسيم نجد أن الطبقة الحاكمة كانت كالأخطبوط تسعى دائماً إلى امتصاص خيرات البلاد وقدراتها، فعندما تنتهي من قطاع تبدأ بابتلاع مقدرات قطاع آخر، مما أدى ذلك إلى افلاس الدولة وتحول الكثير من الناس إلى أجناد في الحلقة. ومنهم من ترك تجارته وتحول إلى عميل في المتجر السلطاني الشريف. والتحول في أفراد الطبقات كان يتجه بوجه عام نحو القاعدة، وانطلاقاً من هذه البنية الاجتماعية، تركز الصراع في المجتمع المملوكي على العامل الاقتصادي ليس بين اهل البلاد فيما بينهم، إنما بينهم وبين القيمين على السلطة، الذين طمعوا بكل شيء وتوصلوا أحياناً إلى استرقاق الأحرار من أهالي البلاد[2].

وقد اهتم سلاطين المماليك بتجميل المدن الكبرى ونظافة أسواقها مثل القاهرة والاسكندرية ودمياط وغيرها وأكثروا من إقامة الفنادق والوكالات والخانات والقياسر والأسبلة والحمامات والبيمارستانات لأنها أماكن سكنهم، وتحسينها يشكل امتيازات مغرية للعيش فيها من قبل القناصل والتجار الأجانب[3].

كما عرفت مصر في العصر المملوكي كثرة الأعياد الدينية والقومية

1 ـ سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص 37 ـ 48.
2 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 94 ـ 117.
3 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 541 ـ 560.

والاحتفال بها في شيء مبالغ فيه من الأبهة والعظمة. وفي الأعياد الدينية مثل عيد الفطر، عيد الأضحى، مولد النبي (ص)... كان الناس يتبادلون التهنئة ويقيمون الولائم، ويتصدقون على الفقراء ويبالغون في اظهار السرور كثيراً ما تكون هذه الاحتفالات مصحوبة ببعض المواكب التي كانت تخترق شوارع القاهرة ومصر والناس يخرجون من كل مكان للاستمتاع بالمشاهدة، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بالحرير والحلى[1].

وفي الأعياد القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل أو تولية سلطان جديد، كان السلطان يخرج عادة في موكب حافل يخترق شوارع القاهرة التي فرشت بشقف الحرير، واقام الأمراء أقواس النصر في طريق السلطان. وتتضاعف مظاهر الفرح والبهجة إذا كان السلطان عائداً منتصراً من ميدان الحرب، إذ يبالغ الأمراء والناس في الزينة، ويقوم نائب السلطنة «باحضار مغاني العرب من أعمال مصر كلها»[2]. وهكذا كانت جميع مظاهر الحياة في بلاط السلاطين المماليك تنم عن الولوع بالجمال، والاستمتاع بالعيش. وليس أدل على ذلك من استعمال السلطان الغوري للأشياء المفرحة. فكان يشرب الماء في طاسات من الذهب[3]. ويتسلى مع ندماء يضحكونه في بعض مجالسه بألعابهم وحركاتهم ونكاتهم. ومنهم «علي باي» و «النقيحي العجمي» الذي تبين فيما بعد أنه من جواسيس السلطان سليم[4]. وعلى الرغم مما كان يتعرض له أهالي القاهرة من الأمراض والنكبات ـ مثل الطاعون والغلاء، والحرائق. وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي ـ[5].

1 ـ السخاوي: التبر المسبوك ص 13 ـ 14.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 138.

3 ـ مورخ مجهول: نزهة الناظرين ص 118.

4 ـ الحنبلي: نزهة الناظرين ص 118.

5 ـ ابن أياس: بدائع ج 3، ص 379 ـ 386 ـ 390 ـ 398 ـ وج 3 ص 63 ـ 76 ـ 94 ـ 103.

حرصوا على الاقبال على وسائل التسلية، مثل الخروج في المواكب، وإلى الحدائق العامة، والرغبة في سماع الموسيقى والغناء، وحضور حفلات نطاح الكباش ومناقرة الديوك[٦].

أما عن دور المرأة في العصر المملوكي، فلم نعثر في بطون المصادر التي تناولت هذه الحقبة الزمنية الطويلة ـ عدا شجرة الدر التي اعتبرها البعض من الملوك الأيوبيين والبعض الآخر أقرب إلى المماليك ـ عن أي دور سياسي أو اجتماعي لاحدى النساء من الطبقة الحاكمة المملوكية، وجلّ ما عرفناه عن زوجات السلاطين أنهن تمتعن باسراف ملفت للنظر في اقتناء الأواني والأثاث، فأسرة إحداهن كانت من الفضة الخالصة المرصعة بالذهب، وزادت ثروتها عن ستمائة ألف دينار[2].

أما بشكل عام فقد تمتعت المرأة في هذا العصر بقدر كاف من الاحترام مكنها من الخروج إلى الأسواق والتردد على الحمامات أو طلب العلم في المساجد[3].

ثالثاً ـ الحياة الدينية

إن عصر المماليك هو عصر وسيط، تميز بطابع مستقل، سيطر فيه الدين على عقول الناس وقلوبهم حاكمين ومحكومين فرغم كون المماليك رجال حرب ودماء، فإن نزعتهم الدينية لا يمكن إنكارها[٤]. فمعظم الوثائق التاريخية لتلك الحقبة تذكر في مقدمتها عبارات تدل على هذا الاحساس وعلى أن العامل الديني

---

5 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 574. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 9، ص 136.

6 ـ ابن شاهين: زبدة كشف المماليك ص 121.

1 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 9، ص 136. والمقريزي: السلوك ج 1 ص 574.

2 ـ أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام مدخل ص 5.

وانظر: Haute Cœur and wiet: Les Mosquées du Caire p. 153.

شهد نشاطاً يسترعي الانتباه.

مع قيام دولة المماليك الأولى سنة 648هـ/ 1250م كان أثر التشيع في مصر لا يزال واضحاً على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين وخلفاؤه لتدعيم مذهب السنة بعد زوال الخلافة الفاطمية، ولكن سلاطين المماليك اضطروا للتهديد باستعمال القوة العسكرية للقضاء على رواسب المذهب الاسماعيلي الفاطمي في مصر، حتى خفت آثار التشيع بالبلاد في صورة واضحة في أواخر العصر المملوكي[1]. من ذلك التطور الذي أحدثه السلطان الظاهر بيبرس في النظام القضائي عندما أصدر في يوم الاثنين 22 ذي الحجة سنة 663هـ/ 1265م قراراً حرم بموجبه أي مذهب عدا المذاهب الأربعة عند أهل السنة (الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنبلية)، وأصبحت لا تقبل شهادة أحد، ولا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الامارة أو التدريس إلا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب، وفي سنة 664هـ/ 1266م، حذت دمشق حذو القاهرة وأصبح في كل نيابة من نيابات الشام، أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة[2]. وخير دليل على النشاط الديني في عصر المماليك كثرة العمائر الدينية التي أقيمت في تلك الحقبة من مدارس وجوامع وخوانق وسبل ومكاتب للأيتام في القاهرة وظاهرها أو بالشام وغيرها من أنحاء الدولة المملوكية. وقد ذكر ابن ظهيرة أن «مدارس القاهرة وجوامعها صب الأموال فيها من غير تقدير»[3].

لا شك أن العاطفة الدينية والرغبة في التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة من الأسباب القوية التي دفعت سلاطين المماليك إلى الاكثار من إنشاء تلك العمائر

---

1 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 195.

2 ـ المقريزي: خطط ج 4، ص 161. والسلوك ج 1، ص 538 ـ 539.

3 ـ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ص 77.

ذات الطابع الديني، وربما كانت المنافسة وحب الظهور بين السلاطين والأمراء أو التودد إلى الشعب لإرضائه ساهمت في اقامة هذه المنشآت وقلما نجد سلطاناً من سلاطين المماليك لم يؤسس مسجداً أو أكثر، حتى يقال إن الناصر محمد وأمراءه شيدوا وحدهم ثمانية وعشرين مسجداً[1]. وقدر خليل بن شاهين عدد المساجد بمصر والقاهرة في عصر المماليك بأكثر من ألف مسجد[2].

ومن الظواهر الدينية التي عرفتها مصر في عصر المماليك كانت انتشار التصوف، وإذا كانت هذه الحركة مظهراً من السمو الروحي تميزت به الحياة في العصر الوسيط فإن انتشارها المتزايد في العصر المملوكي ـ وخاصة الجركسي ـ اتخذ صفة جديدة هي دخول العوام والادعياء والدجالين من الأميين والجهلة الخوانق، واتخاذهم من التصوف وسيلة للعيش. فانحلت الحياة الصوفية النقية وأصابها الفساد كما أصاب جسد الدولة المملوكية في أواخر أيامها. وأهمل الصوفية واجبات التصوف وتهافتوا على الدنيا ومتاع الحياة وتمردوا كثيراً وثاروا لأتفه الأسباب[3]. فقد ثار صوفية الخانقاه البيبرسية على شيخهم جلال الدين السيوطي سنة 903هـ/ 1497م لأنه رأى فيهم عوجاً ونبههم إلى ضرورة التقشف والزهد وأتباع الطريق. فأشبعوه ضرباً وألقوه في الميضأة بثيابه وكادوا يقتلونه[4].

والحقيقة أن هناك عوامل مختلفة متفرقة ومجتمعة ساعدت على انتشار التصوف وتطوره بمزاج خاص وطابع متميز في ذلك العصر فيها: إن الفقراء

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 3، ص 58 وما بعدها.

2 ـ خليل بن شاهين: زبدة كشف المالك ص 31.

3 ـ توفيق الطويل: مصر ابان الحكم العثماني ص 27 و 48 و 50.

4 ـ ابن أياس: بدائع ج 3، ص 378.

وجدوا في التصوف أمناً أكثر من الفلاحين وأرباب الحرف وما ذاقوه من مظالم المماليك الجلبان والقرانيص بين آن وآخر من الاخراق بهم أو الاعتداء على مزارعهم ومتاجرهم[1]. إلى جانب الضرائب التي فرضت عليهم[2]. بينما كان للصوفية في منجاة من هذه الأمور[3]. يضاف إلى ذلك اضطراب الحياة الاقتصادية الذي سبب لوناً من التفكك الاجتماعي والانحلال الخلقي، فضاق الناس بالحياة وأخذوا يلوذون بالدين ويخضعون له أملاً في نعيم الآخرة، ويزهدون في الدنيا ويلجأون إلى الخوانق[4].

وإذا كان سلاطين المماليك في مصر قد اهتموا بالصوفية وأحوالهم في الخوانق والربط حتى في غير منشآتهم الدينية كما فعل الأشرف قايتباي بالصوفية المقيمين بتربة الظاهر برقوق[5]. فإنهم كانوا يستعملون بعض الصوفية أحياناً لتنفيذ ما يريدون ولتبرير تصرفاتهم التي قد تثقل كاهل الشعب[6]. ولهذا كان الحكام من السلاطين والأمراء يستجيبون لمطالبهم ويوفرون الأرزاق. ويمنحونهم المرتبات السخية إلى جانب العطايا والخلع في المواسم والأعياد المختلفة[7].

وهكذا عاش الصوفية في نهاية عصر المماليك عاطلين من كل عمل إلا دعوى العبادة والذكر والدعاء للرسول والصحابة والسلطان وذريته، فهم عالة على المجتمع نشروا روح الاستكانة بين الناس في الوقت الذي عاشوا فيه هم

---

1 ـ ابن اياس: بدائع ج 4، ص 177 ـ 178.

2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 16 ـ 17.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 1050 ملحق.

4 ـ مبارك: التصوف الإسلامي ج 2، ص 3.

5 ـ ابن أياس: بدائع، ج 3، ص 220.

6 ـ الطويل: مصر إبان الحكم العثماني ص 119.

7 ـ محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ج 2، ص 297.

بفضل الاعطاءات الكثيرة التي حصلوا عليها عيشة الملوك بهذه البلاد على حد قول ابن جبير[1].

رابعاً ـ الحياة العلمية

إن التعليم في الدولة المملوكية لم تتخذ له سياسة عليا رسمتها الهيئة الحاكمة في ذلك العصر وقامت على تنفيذها والانفاق عليها من دواوين الدولة اللهم الا في تربية المماليك السلطانية الأجلاب بطباق القلعة المحروسة[2]. أما غيرهم من مماليك الأمراء فكانوا في القصور أو الاصطبلات يربون تربية دينية (كتابة وقراءة وخط ومبادىء الدين الاسلامي والقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه) وعند بلوغهم يأخذون جانب التربية العسكرية (ركوب الخيل وسباحة ورمي بالنشاب ولعب بالرمح والسيف) وكان يقوم على تربيتهم مقدموا المماليك والطواشية واغوات طباق[3].

أما السياسة الخاصة بالتعليم العام للشعب فقد كانت سياسة شخصية تتوقف على رغبة السلطان وأمراء المماليك وغيرهم من أصحاب السلطة والنفوذ من الناحية المالية ومدى اقبالهم على الخير وإيمانهم به. فهي إذن سياسة أقرب إلى الاحسان منها إلى التعليم كما نفهمه في العصر الحاضر كحق اجتماعي مقرر للأفراد في الدساتير الحديثة، وكانت هذه السياسة سبيلاً إلى المنافسة وحب الظهور بين السلاطين والأمراء لتخليدهم وحفظ أموالهم التي توقف على المنشآت التعليمية[4].

---

1 ـ ابن جبر: الرحلة ص 265.

2 ـ ابن إياس: بدائع ج 4، ص 180، 322 و ج 5، ص 62. والغزي: الكواكب السائرة ج 1، ص 294.

3 ـ حجة تغري بردي ابلكلمش محكمة 98.

4 ـ حجة الصفوي جوهر اللالا أوقاف 1021 محكمة 86.

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت أن الوقف كان الدعامة الأولى التي قامت عليها التربية في ذلك العصر، فقد كان من أهم موادر التعليم وأكثرها دخلاً وادراراً وإليه يرجع الفضل في بقائه واستمراره وانتظام الحياة التعليمية.

وفي الوقت الذي كانت تمتد فيه الأيدي إلى الأوقاف في مصر أو الشام كانت الحياة التعليمية تتأثر تأثراً مباشراً ويصاب أهم ركن تقوم عليه فيؤدي ذلك إلى خراب هذه العمائر التعليمية بعد أن يهجرها الأساتذة والطلاب جميعاً ولا يبقى بها إلا أرباب الوظائف الروحية فقط[1].

أ ـ مكاتب الأيتام

اهتم سلاطين المماليك والأمراء بإنشاء المكاتب للأيتام ومن لا عائل لهم مخافة أن يضلوا طريقهم هذه حسنة تذكر للعصر المملوكي في العناية بالأطفال والقيام على تربيتهم وحفظ مصالحهم.

وتذكر كثير من وثائق التاريخ لذلك العصر شروطاً يجب توافرها في الأطفال المنزلين بالمكاتب من حيث وجوب كونهم مميزين قابلين للتعلم حتى لا تضيع الأموال على من لا يصلح للتعليم منهم[2]. وكان التعليم في مكاتب الأيتام يقتصر على قدر معين من التحصيل، ثم يحترف الصبي حرفة أو مهنة أو يقوم بعمل ما في الحياة للحصول على رزقه وإذا كان من المتفوقين يعين في إحدى الوظائف الشاغرة[3]. أو يصرف له من ريع الأوقاف مبلغاً من المال يستعين به في حياته العملية[4].

---

1 ـ خليل طوطح: التربية عند العرب ص 63. والمقريزي: ضغط ج 2، ص 371.

2 ـ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص 77. وطوطح: التربية عند العرب ص 60.

3 ـ حجة ارزقك محكمة 288.

4 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 2، ص 86.

ب ـ التعليم العالي

لم يقتصر التعليم في العصر المملوكي على المكاتب ـ المدارس الابتدائية الأولى ـ بل تعدتها إلى المراحل العليا، حتى كانت المدارس مفتحة الأبواب للطلبة الذين تتلمذوا على أيدي أساتذة فحول متخصصين في مواد مختلفة، وموفرة لهم المسكن والمأكل والملبس بالاضافة إلى الرواتب الشهرية التي تشبه منح الكليات في العصر الحديث[1]. وبلغ التعليم العالي في العصر المملوكي درجة كبيرة من حسن التنظيم الإداري، ورقي المناهج وطرق التدريس التي كان أساسها المحاضرة تمتاز بحرية الفكر وإبداء الرأي والمناقشة والاستنتاج مما يفوق ما هو حادث في بعض الجامعات الحديثة. هذا وقد كان مبدأ تكافؤ الفرص واحترام مركز الأستاذية موضع التقدير دائماً[2]. وقد ادى ذلك إلى ظهور كثير من فحول العلماء والفقهاء والحفاظ من رواة الحديث والنحويين وأهل البلاغة وعلم القراءات والتصوف والمؤرخين والأدباء ممن تنافس بعضهم للوصول إلى أرقى المناصب كمشيخة التصوف بالخوانق أو كرسي الأستاذية بالمدارس أو منصب القضاء بالمحاكم بطريقة أو بأخرى بسبب الرواتب السخية والمركز الأدبي الممتاز[3] وقد برز منهم أقطاب تعاقبوا في الكليات المختلفة في ذلك العصر وحاضروا فيها وتتلمذ عليهم الكثيرون مما كان له التركيز في نمو الحركة العلمية والأدبية في مصر المملوكية التي أصبحت محوراً لنشاط علمي متعدد الأطراف بعد سقوط العراق على أيدي المغول والأندلس على أيدي الصليبيين وما لحق ببلاد الشام من أضرار ومصائب على أيدي الصليبيين والمغول جميعاً، ولم يجد علماء المشرق والمغرب مكاناً آمناً لهم

---

1 ـ Haute Cœur and wiet: Les Mosquées p. 156

2 ـ حجة قايتباي أوقاف 885 ص 203 وحجة الغوري أوقاف 883 سطر 154.

3 ـ حجة تغري بردي البكلمش محكمة 98.

سوى مصر التي صارت «محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء»[1].

وليس أدل على هذا الازدهار العلمي من الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر والتي تناولت معظم ألوان المعرفة: الأدب والتاريخ والجغرافيا والطب والعلوم الدينية ومختلف أنواع المعارف، فضلاً عن المخطوطات التي طبعت وحفظت في المكتبات المصرية والأوربية. والكتب التي فقدت ولم نعرف عنها سوى أسماءها واسماء مؤلفيها.

ويؤخذ على الأدب والشعر في العصر المملوكي ضعف اللغة الفصحى بنتيجة الاختلاط بالغرباء الوافدين إلى مصر خلال تلك الحقبة، بالإضافة إلى دخول كثير من الألفاظ العامية.

ومن شعراء العصر المملوكي البوصيري المصري المتوفي سنة 695هـ/ 1296م. صاحب قصيدة البردة وتعرف «بالكواكب الدرية في خير البرية» قيل أنه كان في مرض فأتاه النبي (ص) وغطاه ببردته أو عباءته فشفي ونظم القصيدة ولها أكثر من تسعين شرحاً بالعربية والفارسية والتركية والبربرية مطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم   فرجت دمعاً جرى من مقلة بدم[2].

وشهاب الدين العزازي المتوفي سنة 710هـ/ 1310م امتاز شعره بالظرافة وخفة الروح، أجاد في الموشحات وله فيها ديوان من خمسة أبواب[3]. وابن نباته المصري المتوفي سنة 776هـ/ 1374م، نبغ في الشعر والنثر وله عدة مؤلفات[4]. وعلي بن سودون وهو من أصل مملوكي المتوفي سنة 1407هـ/

---

1 ـ حجة الصفوي جوهر اللالا أوقاف 1021. محكمة 86.

2 ـ السيوطي ـ حسن المحاضرة، ج 1 ص 245، وج 2، ص 143.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 8، ص 83.

4 ـ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج 2، ص 48.

1464م كتب في الشعر والنثر من مؤلفاته نزهة النفوس ومضحك العبوس[1].

وكان للسلطان قانصوه الغوري مكانة مرموقة في عالم الأدب والشعر. فهو من الملوك الشعراء وله نظم على اللغة العربية والتركية[2].

يقول الشريفي في الشاهنامة: كان الغوري يجيد فن الشعر والمعمى، وله غزل مرغوب كالدر[3]. وقد مدحه قاضي دمشق حينذاك «شهاب الدين أحمد بن فرفور» بقصيدة دالية خفيفة، قال فيها:

وملكك بالفتح المبين مخلد	لأنك بالنصر العزيز مؤيد

فابتهج الغوري بقصيدة القاضي، ورد عليها بقصيدة من بحرها ورويها في نحو ثلاثة وثلاثين بيتاً، قال فيها:

أجاد لنا القاضي ابن فرفور أحمد	مـديحاً أهنيه عليه وأحمـد
شهاب لدين الله والشمس باهر	مناقبه مشهورة ليس تجحد
وقاضي قضاة الشام جاء يزورنا	ويثبت دعوى حبنا ويؤكد
ويهدي لنا منه دعاء فمرحبا	به زائر للأنس جاء يجدد[4].

وللغوري بعض القصائد بالعربية منها قصيدة عدد أبياتها ثلاثة وعشرون بيتاً، حث فيها على احياء ليلة النصف من شعبان أثبتها الشيخ محمد راغب الطباخ في كتابه تاريخ حلب يقول فيها:

فيظل شعـبان وليلـة نصـفه	يروي الصحيح من الحديث تقاة
ولعبدك الغوري فانظر نظرة	منـــها يـــضيء بقـلبه مشكـــاة[5].

---

1 ـ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج 2، ص 107.

2 ـ الشاهنامة، ص 9 نقلاً عن عزام في مجالس السلطان الغوري، ص 42.

3 ـ المصدر نفسه ص 42 ـ 43.

4 ـ حجة وقف الغوري أوقاف رقم 884 ص 97 وما بعدها.

5 ـ الطباخ: اعلام النبلاء ج 3، ص 161 ـ 163. واليمني: الالظاهر الباهر ص 180.

وكان للسلطان الغوري مجالس أدبية وعلمية تجمع العلماء والكبراء، وتطرح فيها للبحث مسائل شتى ـ ويصف الشريفي في مقدمة الشاهنامة هذه المجالس بقوله: «ما أجمل مجلسك أيها السلطان، إنه يشبه الجنة، كل شيء مهيأ في هذا المجلس. إنه في الحقيقة مبيع العلوم، ومجمع الأفاضل بلا ريب، مجلس تيسر فيه المشاكل ـ أي مجلس هذا؟ إنه حديقة وبستان. تقال العبارات بكل اللغات. وتسير على قانونه الرموز والاشارات[1]. ومن الأعمال الأدبية العظيمة التي قام بها الغوري وترجمه الشاهنامة الفارسية للفردوس إلى اللغة التركية. وقد أمر الشاعر الشريفي بالقيام بها. فأتمها في عشر سنين، وآخر سنة ستة عشرة وتسعمائة[2]. ولا ريب أن السلطان الغوري اراد أن يقرن اسمه بهذا الكتاب الخالد.

واشتهر في النثر عدد كبير من الأدباء منهم أحمد القلقشندي المتوفي سنة 821هـ/ 1418م وهو من قلقشندة في القيلوبة مصر من مؤلفاته موسوعة «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» وفيه كل ما يحتاج إليه الأدباء من المعارف عامة ومن جغرافية وتاريخ سورية ومصر عامة، وشمس الدين النواجي المتوفي سنة 859هـ/ 1455م، وهو من نواج إحدى قرى الغربية اشتهر بكتابة الشعر والنثر، من مؤلفاته حلبة الكميت، وهو كتاب في الخمرة وما قال فيها الندماء في مجالسهم وآدابهم[3]. ومن علماء اللغة كان ابن منظور المصري المتوفي سنة 711هـ/ 1312م. له مؤلفات عديدة أهمها المعجم الشهير لسان العرب. وابن هشام المصري المتوفي سنة 761هـ/ 1360م، والدماميني السكندري المتوفي سنة 827هـ/ 1424م[4].

---

1 ـ الشاهنامة (المقدمة) نقلاً عن عزام في مجالس السلطان الغوري، ص 48.

2 ـ عزام: مجالس السلطان الغوري ـ المقدمة.

3 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 1، ص 330.

4 ـ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج 2، ص 265.

أما في التاريخ فقد ظهر عدد كبير من المؤرخين تركوا لنا تراثاً ضخماً وقيماً نذكر منهم ابن عبد الظاهر المتوفي سنة 692هـ/ 1292م كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء في القاهرة على أيام السلطان الظاهر بيبرس والأشرف خليل قلاوون ألف في تواريخهم كتاباً مهماً جداً «الروضة البهية الزاهية في خطط المعزية القاهرة»[1]. وهناك أيضاً ابن سيد الناس المتوفي سنة 734هـ/ 1334م التي اشتهرت مؤلفاته في كتب السير، والقسطلاني المتوفي سنة 923هـ/ 1517م. وابن خلكان المتوفي سنة 681هـ/ 1282م صاحب كتاب وفيات الأعيان: والأدفوي المتوفي سنة 902هـ/ 1496م صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، وابن حجر العسقلاني المتوفي سنة 852هـ/ 1448م ولد في مصر العتيقة أخذ الحديث في الشام ومصر والحجاز والعراق على الأئمة، له عدة مؤلفات منها «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» و «الإصابة في تمييز الصحابة» وهو أكمل كتاب في تراجمهم[2]. وشمس الدين السخاوي المتوفي سنة 902هـ/ 1497م برع في الفقه واللغة، كان كثير الأسفار له الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع والتبر المسبوك وهو ذيل لكتاب السلوك، وتاج الدين السبكي المتوفي سنة 769هـ/ 1369م له كثير من المؤلفات منها: كتاب في أصول الفقه «جمع الجموع» عليه علقت الشروحات، وكتاب طبقات الشافعية وهو حافل بأنواع النوادر والروايات بدأ بمن رأى الشافعي ثم بمن اسمه أحمد.

ولا يفوتنا الكلام عن المؤرخ جلال الدين السيوطي المتوفي سنة 911هـ/ 1505م له كتاب في النحو «جمع الجموع طبع في مصر سنة 1909 قال فيه السيوطي لم أتعب في شيء من مصنفاتي كتعبي فيه، وكتاب حسن المحاضرة

---

1 ـ الأب لويس معلوف اليسوعي: المنجد في اللغة والأدب ص 338.

2 ـ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج 3، ص 170.

في أخبار مصر والقاهرة[1]. وجمال الدين بن واصل المتوفي سنة 697هـ/ 1298م كان مؤرخ ومدرس وقاضي القضاة في حماه أرسله السلطان الظاهر بيبرس بمهمة إلى «منفرد» ملك صقلية فأقام عنده له عدة مؤلفات منها «نخبة الفكر في المنطق» و «مفرج الكروب في بني أيوب» و «التاريخ الصالحي». وابن دقماق المصري المتوفي سنة 809هـ/ 1406م صاحب كتاب «الأنام» وكتاب «الانتصار بواسطة عقد الأمصار»[2]. وأحمد تقي الدين المقريزي المتوفي سنة 845هـ/ 1441م ولد في بعلبك (لبنان) وقضى أكثر ايامه في القاهرة، يسرت له الوظائف التي تولاها كاتباً في ديوان الانشاء بقلعة القاهرة ثم قاضياً واماماً لجامع الحاكم، ومدرساً للحديث ومحتسباً في القاهرة وناظر للأوقاف... للاطلاع الواسع والدقيق على دقائق الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية في العهد المملوكي وأودع خبرته تلك في جميع كتبه ومنها: المواعظ والاعتبار وكتاب السلوك وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة. وأبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن تغري بردى المتوفي سنة 874هـ/ 1469م وهو من أبناء المماليك المحظوظين إذ أن أباه كان نائباً للسلطنة في دمشق ـ ونشأته هذه مهدت له الاطلاع على أسرار السلطنة المملوكية من مؤلفاته النجوم الزاهرة والمنهل الصافي[3].

والمؤرخ المشهور ابن اياس محمد بن أحمد الحنفي المتوفي سنة 930هـ/ 1524م له كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور الذي يبدأ منذ تولي السلطان المملوكي الأشرف قايتباي وهو التاريخ الذي ينتهي عنده النجوم الزاهرة وهو مؤرخ معاصر للسلطان الغوري وشاهد عيان امتازت كتاباته باعتنائه بالنواحي

---

1 ـ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ص 171.

2 ـ ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب ج 7، ص 80.

3 ـ محمد مصطفى زيادة: المؤرخون المصريون في القرن التاسع الهجري ص 271.

الاقتصادية والاجتماعية بالاضافة إلى الأمور السياسية في عهده. والمؤلف زكريا أبو يحي الأنصاري المتوفي سنة 924هـم 1518م. لازم الأزهر وتفنن بالعلوم اللغوية والبيانية ولي قضاء الشافعية في دولة الأشرف قايتباي له مؤلفات عديدة. وبيبرس المنصوري وهو أحد أمراء المماليك المتوفي في سنة 752هـ/ 1325م صاحب كتاب زيدة الفكرة، وبدر الدين محمود العيني المتوفي سنة 855هـ/ 1451م، وله كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.

أما الذين كتبوا في الجغرافيا والسياسة والإدارة فهم لا يقلون عدداً عن الأدباء والمؤرخين، نذكر منهم زكريا القزويني المتوفي سنة 685هـ/ 1283م له كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات هو مجموع من استطرادات متنوعة في علم الطبيعة والسياسة والتاريخ والأدب. وشرف الدين بن الجيعان المتوفي سنة 777هـ/ 1375م صاحب كتاب التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية ويشتمل على احصاءات إدارية وخراجية عن أرض مصر. ونجم الدين أحمد بن الرمغة المصري محتسب القاهرة المتوفي سنة 710هـ/ 1310م له كتاب «بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية»[1]. بالإضافة إلى العديد ممن كتبوا في هذه الدراسات.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الحياة العلمية في عصر المماليك عرفت تأليف الموسوعات الضخمة، التي تحوي الواحدة منها على معلومات مختلفة، وهذا يؤكد أن المؤرخين لم يعد اهتمامهم موجهاً إلى الحوادث السياسية وخلافات جند المماليك فحسب بل عمدوا إلى تاريخ النواحي العمرانية والاجتماعية والاقتصادية... نذكر منهم القلقشندي في كتابه صبح الأعشى وتقي الدين أبو الطيب الفاسي المتوفي سنة 832هـ/ 1428م صاحب كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين،

---

1 ـ السبكي: طبقات الشافعية ج 5، ص 177.

وشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة 732هـ/ 1332م له كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب وهو موسوعة في 31 مجلداً تناولت الانسان والحيوان والنبات والتاريخ والآثار السماوية العلوية[1]. وشهاب الدين ابن فضل الله العمري المتوفي سنة 742هـ/ 1341م صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار تعدت أجزائه العشرين مجلداً تناولت الأدب والتاريخ والجغرافيا. هذا فضلاً عن غيرهم من المؤلفين الكثر[2].

وفي الفقه كتب خليل بن اسحاق المالكي المصري المتوفي سنة 767هـ/ 1363م. وتاج الدين السبكي الذي تكلمنا عنه سابقاً. وفي التصوف ظهر تاج الدين الاسكندري المتوفي سنة 709هـ/ 1309م. وفي علم النجوم والفلك كان شهاب الدين القاهري المتوفي سنة 805هـ 1403م وفي علم الحيوان كتب كتاب كمال الدين الدميري المتوفي سنة 808هـ 1405م وغيرهم كثيرون...[3].

خامساً ـ النظام السياسي والإداري

كان النظام السياسي في الدولة المملوكية «نظاماً هرمياً على رأسه السلطان، يليه الأمراء كل حسب رتبته، ثم الأجناد على اختلاف فئاتهم ومراتبهم مؤلفين بذلك الجيش المملوكي.

أ ـ السلطان

كان السلطان على رأس الدولة المملوكية، لم يتولى السلطة نتيجة حق

---

2 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 1، ص 320.

3 ـ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج 3 ص 241 ـ 250.

1 ـ السخاوي: الضوء اللامع ج 10 ص 204.

شرعي موروث، وإنما حكم من خلال قوته ونفوذه، وهو بهذا لا يخرج عن كونه أميراً مميزاً بين الأمراء استطاع الإطاحة بالسلطان وجلس مكانه على العرش وهذا ما كان يحدث في أغلب الأحيان ويعتبر من الأمور المألوفة في عصر المماليك، وكان جميع من في الدولة من أمراء وأجناد ومدنيين يقومون على خدمته. ولما كان جميع أمراء المماليك عبيداً أرقاء كانوا يعتبرون أنفسهم لهم الحق في تولي السلطنة، هذا الشعور أوجد خوفاً دائماً في نفس السلطان الجديد من حدوث انقلاب مفاجىء عليه، لذلك كان يسعى إلى تثبيت حكمه فيشتت أعدائه من الأمراء بالقتل والسجن والنفي واسقاط حق الإمارة عن بعضهم[1]. والاقتصاص من مماليكهم بالقتل والنفي[2]. وتقريب الأنصار واغداق الانعامات عليهم، واقرار بعضهم في المناصب العسكرية الهامة[*]. ليكونوا درعاً له يحميه عند المفاجئات.

ومع أن السلطان المملوكي كان يتمتع بنفوذ واسع في الدولة: إلا أنه لم يستغن في أحيان كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة في الأمور المهمة، مثل شن الحرب أو عقد السلم. ولذلك وجد في عصر المماليك مجلس المشورة كان يعقد برئاسة السلطان أو من ينوب عنه، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسي والوزير، وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين (أمير سلاح، أمير مجلس، الدودار الكبير، أمير آخور، رأس نوبة النوب، حاجب الحجاب، وأمير جاندار، والاستادار، وأمير الحاج الشريف، والخازندار، وشاد الشرابخانة)، وقد تراوح عددهم بين ثمانية عشر وعشرين أميراً زمن السلطان برقوق[3].

---

1 ـ طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص 12 وما بعدها.

2 ـ ابن أياس: بدائع ج 1 ص 222 ـ 223.

(*) أتابك العسكر، أمير سلاح، دودار كبير، أمير مجلس

ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 16 وما بعدها.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 14.

ولكن السلطان لم يكن ملزماً دائماً بدعوة مجلس المشورة والأخذ برأيه، وإنما له الحرية حسب رغبته ومشيئته[1].

ب ـ وظائف الجهاز العسكري الإداري

وجد إلى جانب السلطان عدداً من الأمراء وكبار الموظفين، مهمتهم مساعدته في إدارة شؤون الحكم، حازوا على اقطاعات وافرة، وتمتعوا بنفوذ هام لدى السلطان منها:

1 ـ نائب السلطنة

يعتبر نائب السلطنة من أرفع الوظائف، فهو الرجل الأول في الدولة بعد السلطان، جمع في يده الوظائف العسكرية الهامة كان ينوب عن السلطان في غيابه وحضوره، ففي حضور السلطان كان يحمل لقب «نائب الحضرة» أما اذا كان لا يحق له أن ينوب عن السلطان إلا في غيبته. كان يلقب «بنائب الغيبة» وهو أقل درجة من الأول وهذه الوظيفة استحدثت لأول مرة في التاريخ الإسلامي في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كان كثير التنقل في أرجاء مصر والشام[2].

وقد أكثر سلاطين المماليك من عدد نواب السلطنة، ففي مصر كان يوجد نائب واحد ثم نائبان للسلطنة ويعرف بالنائب الكافل، يحكم في كل ما يحكم به السلطان، له رئاسة ديوان الجيش، وينهي إلى السلطان بكل الأمور التي لا بد أن يقف عليها[3]. وفي بلاد الشام عين نائب للسلطنة في كل من دمشق، وحلب

---

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 16 وما بعدها.

3 ـ محمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ج 2، ص 645.

4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 17.

وطرابلس وحماه وصفد والكرك، وأعلى هؤلاء رتبة هو نائب دمشق الذي أطلق عليه «نائب الشام»[1].

2 ـ الأتابك

كان الأتابك هو القائد العام للجيش المملوكي، وكان أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة، ثم اصبح الرجل الأول في الدولة بعد السلطان منذ سنة 742هـ/ 1341م، عندما الغي منصب نائب السلطنة وأضيفت صلاحياته إلى أتابك العسكر[2]. ثم أصبح يعرف باسم «الأمير الكبير» منذ أن تولى شيخون العمري هذا المنصب زمن السلطان حسن بن الناصر قلاوون (748هـ ـ 752هـ) (1347م ـ 1351م). وكثيراً ما كان الأتابك وصياً على العرش ثم أطاح بالسلطان الصغير وتسلطن مكانه، انطلاقاً من العرف المملوكي القائل بأن الحق للأقوى ـ وهذا ما حدث مع الأمير برقوق ـ الذي استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة 780هـ/ 1378م[3].

3 ـ الوزير

كانت الوزارة في بداية العصر المملوكي من أهم المناصب في الدولة، فقد أجيز للوزير توزيع الاقطاعات الصغيرة في مصر، وتولية بعض المناصب المالية وعزل أصحابها، لكن رغبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون تقوية مركزه المالي، وسيطرته على جميع السلطات في السلطنة[4]. أضعف الوزارة ووزع صلاحيات

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 16 ـ 17.

2 ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 17، والمقريزي: خطط ج 2، ص 225.

3 ـ Wiet: L'egypte Arabe... p. 510.

4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 28 ـ 29.

الوزير على ثلاثة أشخاص بعد استحداثه الديوان الخاص وجعل ناظره مرتبطاً بالسلطان مباشرة[1]. ثم ازدادت الوزارة ضعفاً في الدولة المملوكية الثانية بحيث أصبحت صلاحيات الوزير لم تتعد تحصيل بعض المكوس ليصرفها على شراء اللحم وحوائج المطبخ السلطاني[2]. وهذا ما دفع الوزير أحياناً كثيرة لتدعيم مركزه إلى الحصول على المال بطرق غير مشروعة، مما كان ينزل بأرباب الاقتصاد مصائب كثيرة.

4 ـ الاستدارية

كانت الاستدارية منوطة بالاستادار، وجرت العادة أن تكون بيد أربعة، أكبرهم أمير مئة مسؤول من ثلاثة دواوين مالية، وللاستادار الحق في طلب كل ما يحتاجه من البيوت السلطانية من نفقات وكساوى، وعليه توزيع الجامكية على المماليك، فضلاً عن صرف العليق لدوابهم، وكان الاستادار يسيء أحياناً استغلال وظيفته حيث يغرم الناس بالضرائب لدفع ما يترتب عليه للمماليك، الذين كانوا يتعرضون له بالضرب لعدم استطاعته الوفا بالتزاماته تجاههم[3].

أما بقية الوظائف العسكرية فكانت أقل أهمية بالنسبة لنيابة السلطنة والأتابك والاستادار، فكان يتولى وظيفة أمير سلاح، رئيس السلحدارية، ومهمته الاشراف على سلاح السلطان في المواكب العامة، وسلاح المماليك السلطانية[4]. ثم أمير مجلس الذي يتولى الإشراف على مجلس السلطان، والداودار الكبير الذي

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 29.

2 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 223.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 2، ص 345. وخطط ج 2، ص 222. والقلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 21.

4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 21.

يحفظ أسرار السلطان والدولة، فهو يقوم بتبليغ الرسائل للسلطان ورفع القصص وتقديم البريد إليه والحصول على توقيعه على المناشير والمراسيم[1]. وأمير آخور وكان يشرف على خيول السلطان والمماليك السلطانية[2]. في حين يتولى رأس النوبة الإشراف على فرق المماليك السلطانية التي تقوم بحراسة السلطان[3]. وكان حاجب الحجاب يتولى تقديم الجند وعرضهم في المناسبات والفصل فيما يقع بينهم وبين الأمراء من نزاع وخلاف حول الاقطاعات أما أمير جاندار فهو الذي يستأذن السلطان في دخول الأمراء ويدخل أمامهم إلى الإيوان، ويشرف على الزردخاناه (السجن الخاص بالأمراء)، ويطوف بموكب السلطان عند سفره[4]. ثم وظيفة أمير الحاج الشريف الذي يصحب الحجاج عند ذهابهم لتأدية فريضة الحج، ووظيفة الخازندار الذي يهتم بخزائن الأموال السلطانية وما تحويه من مال وخلع وقماش وتشاريف وكذلك وظيفة الشرابخاناه الذي يشرف على السكر والمشروب والفواكه.

أما الإدارة المحلية في المدن والأقاليم فقد تولى الإشراف عليها عدد كبير من الولاة اختيروا دائماً من بين الأمراء، ما عدا مدينة الإسكندرية التي عين لها نائب سلطنة بسبب موقعها الاستراتيجي وهجمات الصليبيين المتكررة عليها. كذلك كان الولاة يقوموا بحكم الأقاليم في الوجهين البحري والقبلي. وكان عددهم عشرة في الوجه البحري وثمانية في الوجه القبلي. وفي عصر المماليك الجراكسة عين نائب لكل من الوجهين البحري والقبلي مهمته الإشراف على جميع

1- القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 18. والمقريزي: خطط ج 2، ص 222.

2- المصدر نفسه، ج 4، ص 18، والمقريزي: خطط ج 2، ص 222.

3- المصدر نفسه ج 4، ص 19، والظاهري: زبدة كشف المماليك ص 114.

4- المصدر نفسه ج 4، ص 20.

الولاة والعمال الذين يقومون بإدارة شؤون الوجه التابع له[1].

أما الجهاز الإداري فقد اعتمد على مجموعة من الدواوين على رأس كل منها موظف كبير يسمى ناظر أو رئيس على غرار ما كان سائداً في العصر الأيوبي. وأهم هذه الدواوين.

1 ـ ديوان الجيش وكان يعتبر من أهم وأكبر الإدارات المالية ـ الاقطاعية، مهمته الإشراف على طوائف الجند، وتوزيع الاقطاعات عليهم[2].

2 ـ ديوان الانشاء وهو يلي ديوان الجيش رتبة، مهمته تلقي الرسائل المختلفة التي ترد إلى السلطان وابلاغها إليه، ومنه كانت تصدر المراسيم السلطانية جميعاً مثل مناشير الاقطاعات للأمراء والجند والمربعات بالأرزاق[3]. وكانت تتبع هذا الديوان إدارة ضخمة تولت شؤون البريد البري والبحري[4].

3 ـ ديوان الأحباس ومهمته الاشراف على شؤون أملاك الأوقاف من الأراضي والعقارات المحبوس عليها، والتي كانت تزداد تدريجياً حتى بلغت، في أواسط القرن الرابع عشر مئة وثلاثين ألف فدان، بالإضافة إلى الاهتمام بالمؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ومدارس وخوانق وزوايا[5].

4 ـ ديوان النظر وهو مكلف بمراقبة حسابات الدولة، والاشراف على ايراداتها ومصروفاتها، وصرف مرتبات الموظفين التي كان يصرف قسماً منها نقداً والقسم الآخر عيناً (حبوب، لحوم، سكر، شمع...»[6].

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 64.

2 ـ المصدر نفسه ج 13، ص 53 و ج 4 من 185 ـ 192 و ج 6 ص 30 ـ 31. والظاهري: زبدة كشف المماليك ص 103.

3 ـ الظاهري: زبدة كشف المماليك ص 100.

4 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 104.

5 ـ ابن أياس: بدائع ج 1 ص 206.

6 ـ سعيد عاشور: العصر المماليك في مصر والشام ص 352.

5 ـ ديوان البدل وعرف أيضاً بديوان المرتجع وهو إدارة خاصة أوجدها المماليك لإسترجاع الاقطاعات التي يتخلى عنها أصحابها اما لوفاتهم أو لحصولهم على اقطاع جديد[1]. وهذه الأملاك المرتجعة كان يقوم على إدارتها ديوان الذخيرة ريثما يقطعها السلطان مجدداً[2].

ج ـ النظام القضائي

اهتم سلاطين المماليك بالنظام القضائي اهتماماً بالغ الأهمية، فبعد أن كان المذهب الشافعي منذ عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي هو مذهب قاضي القضاة في جميع أرجاء الدولة الأيوبية[3]. أحدث السلطان الظاهر بيبرس تطوراً كبيراً في القضاء عندما أصدر مرسوماً بتاريخ 22 ذي الحجة سنة 663هـ/ 1265م اقتضى بموجبه تعيين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة حتى لا تضطرب الأحوال بسبب اختلاف المذاهب ـ وهذا ما تكلمنا عنه سابقاً عند البحث في الحياة الدينية ـ وقد أدى هذا الاجراء إلى تأمين العدالة في مختلف القضايا المدنية والجنائية التي كان يحكم فيها القضاة كل حسب اختصاصه.

وكانت جلسات المحاكم تعقد عادة في دور القضاء، فإن لم توجد ـ في الأرياف ـ فإنها تعقد في المساجد.

كما أوجد المماليك محكمة عليا تشبه محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر تعقد برئاسة السلطان أو من ينوب عنه في دار العدل عرفت باسم «محكمة المظالم» مهمتها النظر بالأحكام التي يستأنفها أصحابها أمام السلطان بعد أن حكم فيها

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 16. وبولياك: الاقطاعية ص 70 وابن اياس: بدائع ج 1 ص 198.

2 ـ ابن اياس: بدائع ج 2 ص 277، و 105. وبولياك: الاقطاعية ص 71.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1 ص 538 ـ 539.

القضاء العادي، أو التي تنشأ بين الحكام والمحكومين.

ولم تكن محكمة المظالم تنظر في قضايا الأفراد وحدهم، بل تعد اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعوب عامة.

أما رجال الجيش فكان لهم «قضاة العسكر» التي انحصرت مهمتهم في الفصل بين الجنود فضلاً عن الفصل في قضايا الجنود مع المدنيين. وكان قضاة العسكر يرافقون السلطان في أسفاره[1].

د ـ الجيش: بني النظام العسكري عند المماليك على أساس التربية المتقنة في الطباق حيث كان يخضع المملوك لنظام قاس، تحصى عليه حركاته وسكناته منصرفاً إلى تطوير علومه الاجتماعية والدينية، ومتقناً لفنون الفروسية.

من أجل تكوين فئة من المحاربين الأشداء واعدادهم ليكونوا درعاً حامياً، طائعاً لرؤوسائهم وللسلطان. وانطلاقاً من هذه التربية بدت الدولة قوية في أول عهدها بهؤلاء المماليك الذين كانوا أعظم الأجناد شأناً وقدراً[2]. ومن هؤلاء الأجناد تألف الجيش الممولكي بفئاته الثلاثة: المماليك السلطانية وأجناد الحلقة ومماليك الأمراء[3].

أولاً ـ المماليك السلطانية وتشمل الخاصكية والقرانصة والأجلاب والسيفية

1 ـ الخاصكية هي فرقة ينتخب السلطان أفرادها من بين المماليك السلطانية، ويشكل منها حرسه الخاص الذي يلازم السلطان في خلواته. وتقوم الخاصكية بالمهمات التشريعية من تنفيذ الاعدام بالأمراء والقبض على أعداء

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4 ص 36.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 2، ص 347 ـ 348.

3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 15 ـ 16. والمقريزي: خطط ج 2، ص 215 ـ 216.

السلطان[1]. وشغلت الخاصكية مناصب عسكرية في الدولة، منها رأس نوبة ودوادار وسلاحدار وبشمقدار، وصارت أحياناً عيوناً للسلطان في النيابات بحيث شغل أفرادها مناصب نواب القلاع فيها[2].

وكانت الخاصكية تتدخل أحياناً في الشؤون الداخلية للسلطان والصراع على الحكم، وأحياناً أخرى يتمرد أفرادها على السلطان ويرفضوا الاستجابة إلى طلباته. مثلما حدث مع السلطان فرج عندما أمر بعض الخاصكية بالتوجه إلى بلاد الشام كي يكونوا عوناً فيها، ولكنهم رفضوا الإمتثال وفتكوا برسول السلطان[3].

أما في حال غضب السلطان على أحد أفراد الخاصكية فكان يعيده إلى الطباق ولا يستطيع ذلك الخاصكي استعادة ثقة السلطان إلا بعد مشقة كبيرة[4].

2 ـ القرانصة وهم مماليك السلاطين القدامى، أي مماليك السلاطين المتوفين منذ أمد بعيد، أو الذين لم يمض على وفاتهم مدة طويلة. وهؤلاء هم أشد خطراً وشوكة، لأنهم كانوا يشكلون بالنسبة للسطان القوة الحقيقية له. وكانت كل جماعة منهم تنتسب إلى السلطان الذي أعتقهم، وقد اشتهروا بمهارتهم في القتال وعداؤهم للأجلاب[5].

3 ـ الأجلاب أو الجلبان «المشتروات» وهم فئة من المماليك الرقيق كان يشتريهم السلطان بواسطة تجار خاصين به، أو عن طريق التجارة الحرة التي قام بها التجار الأجانب، ويسكنهم في الطباق حيث يخضعون لتربية عسكرية قاسية، ثم يعتقهم السلطان من الرق وينعم عليهم بالخيل والسلاح والاقطاعات، وقد

---

1 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 214.

2 ـ الظاهري: زبدة كشف المالك ص 115.

3 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 1060.

4 ـ المقريزي: خطط ج 2، ص 1060، والعريني: الماليك ص 139.

5 ـ الظاهري: زبدة كشف المالك ص 115 ـ 116. وطرخان: مصر في عصر الجراكسة ص 226.

شكل الأجلاب أعلى مرتبة بين فرق المماليك السلطانية[1].

4 ـ السيفية وهم من المماليك الذين ينتقلون إلى خدمة السلطان بعد وفاة، أو عزل أو مصادرة أو سجن ساداتهم وسقطت عنهم الإمارة، لذلك كانوا غرباء عن بعضهم البعض، مما اضعف شوكتهم، واضطروا إلى أتباع سياسة الأمر الواقع أي الوقوف إلى جانب السلطان الحاكم[2].

ثانياً ـ أجناد الأمراء وتشمل مماليك الأمراء وأصحاب الاقطاعات وأرباب الدولة والوظائف، وهؤلاء الأمراء كانوا يتفاوتون في الأهمية، كما يتفاوت عدد مماليكهم بحسب رتبهم، فمنهم مقدم ألف وأمير مئة، أمير طبلخانة، أمير عشرين، أمير عشرة، وأمير خمسة[3].

ثالثاً ـ أجناد الحلقة وهم عصب الجيش المملوكي حظيوا باهتمام بالغ عند السلطان دون غيرهم من أمراء المماليك[4]. أما سبب تسميتهم حلقة فيرجع إلى كونه الجيش الذي يحيط بالسلطان أو بالأعداء أثناء الحرب[5]. وقد تألفت أجناد الحلقة من بعض السيفية والقرانصة وأولاد السلاطين وأولاد الناس «أبناء الأمراء» بالاضافة إلى بعض المتعممين والعرب والأكراد والتركمان، وكانوا يأتمرون بأمر السلطان دون أن يكونوا ملكاً له[6]. وكانوا أكثر الفئات المملوكية عدداً وربما جاء هذا التطور بعد انضمام بقايا البحرية الصالحية اليهم زمن السلطان قلاوون...

---

1 ـ الظاهري: زبدة كشف المماليك ص 116. والعريني: المماليك ص 76 ـ 119 ـ 122 ـ 123 ـ 161.

2 ـ الظاهري: زبدة كشف المماليك ص 116.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 386 ـ 687. والقلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 16.

4 ـ المصدر نفسه: ج 7 ص 160 ـ 161. والمقريزي: السلوك ج 1 ص 658 ـ 693.

5 ـ بولياك: الاقطاعية ص 38.

6 ـ بولياك: الاقطاعية ص 17.

وبها انحاز إليهم من التتار المستأمنين والوافدية، كما كانت دواعي الحرب تدفع جماعات كثيرة من الجند الذين غدوا من أهل الصنائع ومن العوام إلى الدخول في أجناد الحلقة، وقد أدت هذه الزيادة إلى جعل كلمة أجناد الحلقة مرادفة للجيش المملوكي كله. وعندما يطلبهم السلطان للحرب كان ينضوي كل ألف منهم تحت إمرة مقدم ألف أو أمير مئة[1]. ولا يفوتنا أن نذكر أن السلطان المملوكي كان قبل المسير إلى الحرب يعقد مجلساً استشارياً للجيش يضم الخليفة وكبار الأمراء وقضاة المذاهب الأربعة. وكانت ترافق الجيش المملوكي فرقة موسيقية لإثارة روح الحماس أثناء القتال. وكانت الفرق المختلفة تتميز بعضها عن بعض بمجموعة من الأعلام والرايات المختلفة[2].

هـ ـ البحرية

أدرك المماليك منذ مطلع دولتهم أنهم لا يمكنهم محاربة الصليبيين والتغلب عليهم وطردهم من جزر البحر المتوسط ما لم يكن لهم أسطول حربي فائق الإعداد والتجهيز، وهم الذين شاركوا ـ بعض سلاطين المماليك الأوائل أيام كانوا مجرد أمراء ـ في محاربة حملة لويس التاسع البحرية على مصر. لذلك لم يكد السلطان الظاهر بيبرس يتولى عرش السلطنة المملوكية حتى أدرك أهمية الدفاع البحري، وما تؤديه القوة البحرية من انتصار عند مواجهة الصليبيين في المناطق الساحلية، فوجه عنايته إلى دور صناعة السفن في القاهرة «الفسطاط وجزيرة الروضة» والاسكندرية ودمياط[3]. وكان يشرف بنفسه على تأمين جميع المواد اللازمة لبناء

---

1 ـ ابن إياس: بدائع ج 2، ص 101 ـ 103، وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج 1 ص 386 ـ 387.
2 ـ المصدر نفسه: ج 4 ص 474، وج 5، ص 43 ـ 46.
3 ـ المقريزي: خطط ج 2 ص 180 ـ 185.

السفن، فاحتكر غابات السنط التي كانت منتشرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر «الجيزة والأشمونين وأسيوط واخميم وقوص»، ومنع الناس من التصرف في أخشابها واعتبرها ملك الدولة[1]. وعندما كانت البحرية المملوكية تعاني عجزاً في الحصول على الخشب، عمل على استيراده من آسيا الصغرى وايطاليا[2]. حتى تمكن من إنشاء عدد كبير من الشواني، فضلاً عن استدعاء شواني الثغور إلى مصر. حتى بلغ عددها أكثر من أربعين قطعة عدا الحراريق والطرائد...[3].

وبهذا الأسطول تمكن السلطان الظاهر من مهاجمة جزيرة قبرص، فأرسل حملة عدتها سبع عشرة سفينة كبيرة بقيادة الرئيس البحري ابن حسون لكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بعد أن تعرضت لرياح عاصفة هبت عليها قرب شاطىء قبرص حطمت منها أحد عشر شيناً وعاد الباقي دون نتيجة وعندما استهزأ ملك قبرص بانكسار السفن المصرية رد عليه بيبرس قائلاً: «أنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول» وهذا اعتراف صريح بأن الجولة المملوكية تعتمد على فرسانها وجيوشها البرية لا أساطيلها البحرية[4].

لم ييأس بيبرس من هزيمة الأسطول، بل سعى جاهداً لتعويض الخسارة فأمر بإنشاء عشرين شيناً «وأحضر خمسة شواني كانت في مدينة قوص من صعيد مصر، ولزم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم في مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة إلى أن انجزت...»[5].

وقد استطاع الأسطول المملوكي مساندة الحملات البرية التي قام بها

---

1 ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين ص 325 ـ 346 و 348 ـ 349.

2 ـ ابن اياس: بدائع الزهور، ج 2، ص 182.

3 ـ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص 47.

4 ـ المرجع نفسه ص 49.

5 ـ المقريزي: المواعظ ج 2، ص 194.

السلطان المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل عندما هاجمت القوات المصرية آخر معاقل الصليبيين ببلاد الشام ـ جبلة بيروت ـ انطاكية طرابلس وعكا ـ وكانت كلها موانىء بحرية، وإذا كان السلطان الأشرف خليل هو بطل تطهر بلاد الشام من آخر البقايا الصليبية فإنه أدرك تماماً أهمية الأسطول بالنسبة لدولة المماليك، فبادر إلى الاهتمام به وتأمين ما يلزم لصناعة الشواني حتى تمكن من إنشاء ستين شونه شحنها بالعدد والعدة[1]. استطاع بفضلها السلطان الأشرف برسباي غزو جزيرة قبرص واخضاعها وأسر مئات الأسرى من فرسانها وعلى رأسهم الملك جانوس حيث تم استعراضهم في شوارع القاهرة[2].

وعندما حاول السلطان المملوكي، جقمق اخضاع جزيرة رودس وتأديب فرسانها الاسبتارية نجح الأسطول المصري في تأديب الجزيرة وان لم يستطع اخضاعها للسلطنة المملوكية على غرار قبرص بسبب وصول الأساطيل الأوروبية إليها[3].

وعلى الرغم من الحاجة الملحة لتقوية الأسطول المملوكي، إلا أن الصراعات العنصرية بين طوائف المماليك والفتن الداخلية التي استشرت في نهاية العهد المملوكي جعلت اهتمام السلاطين بالأسطول أمراً ثانوياً، لا يولى أي عناية إلا عند الحاجة إليه وهذا ما ظهر جلياً عندما تعرضت الدولة المملوكية للاصطدام مع البرتغاليين ـ تكلمنا عنه سابقاً ـ عندها أدرك السلطان قانصوه الغوري أهمية الأسطول بعد أن فشلت محاولاته السلمية مع الغرب الأوروبي وأيقن أن سياسة الحل العسكري هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على بقاء دولته، فبادر إلى الأسطول

---

1 ـ المقريزي: المواعظ ج 2، ص 195.

2 ـ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص 84.

3 ـ Lane – poole. A Hist. of Egypte. P. 339.

يحاول تدعيمه وأرسل إلى السلطان العثماني بابزيد الثاني يطلب المساعدة في ذلك، فسارع هذا الأخير بإرسال الخامات والمعدات والتجهيزات اللازمة دون مقابل على سبيل الهدية[1]. فكان لذلك أثره في بناء عدد من القطع البحرية أبحرت بقيادة الأمير حسين الكردي باتجاه الشواطىء الهندية[2]. حيث تمكنت من الحاق الهزيمة بالأسطول البرتغالي في أول معركة بحرية بينهما في شول Chaul سنة 912هـ/ 1508م على الشاطىء الغربي للهند، وكان قائد الأسطول البرتغالي لورنزوا دالميدا من بين القتلى[3]. فسر الغوري لذلك كثيراً[4]. غير أنه ما كادت النجدة تصل للبرتغاليين في العام التالي، حتى تقدموا لمهاجمة الأسطول المصري وألحقوا به هزيمة ساحقة في سنة 915هـ/ شباط 1509م في خليج ديو بالقرب من بمباي، وعاد الأمير حسين الكردي إلى مصر مع فلول جيشه[5].

أحدث دخول الأسطول البرتغالي إلى البحر الأحمر بقيادة دالبوكرك سنة 919هـ/ 1513م بعد انتصارهم الساحق على الأسطول المملوكي رد فعل عنيف عند السلطان الغوري، فاتخذ كافة الاستعدادت لسرعة انجاز المراكب الجاري صناعتها في ميناء السويس. ويقول ابن اياس «وبلغ من اهتمام الغوري أن توجه بنفسه إلى السويس في المحرم 920هـ.. فلما وصل السلطان إلى هناك، وكشف عن تلك الأغربة التي عمرها هناك، وكانوا نحو عشرين غراباً، فالذي انتهى منه العمل أنزلوه إلى البحر الملح ـ البحر الأحمر ـ بحضرة السلطان وكان

---

1 ـ ابن اياس: بدائع ج 4، ص 46 ـ 47 ـ 48 ـ 107 ـ 119 ـ 191 ـ 201.
وانظر أحمد زكي: صفحة من تاريخ مصر ص 548.
2 ـ النهروالي: البرق اليماني ص 30.
3 ـ ابن اياس: بدائع ج 4 ص 42. ونعيم زكي طرق التجارة الدولية ص 30 ـ 91.
4 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 142.
5 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 286 وموير: تاريخ دولة المماليك ص 169.

ذلك اليوم هناك مشهوداً، وقيل كان مصروف تلك الأغربة، بما فيهم من مكاحل نحاس وحديد وغير ذلك من آلة السلاح، فصرف على ذلك من مال السلطان نحو أربعمائة ألف دينار وكسور...»[1]. وبعد أن انتهى الغوري من بناء الأسطول وانزال وحداته بميناء السويس التي أبحرت منها في سنة 920هـ/ 1514م بقيادة الأمير حسين الكردي إلى جدة لمطاردة الغزاة. وما إن لمس البرتغاليون قوة الأسطول المصري حتى سارعوا بالانسحاب من مياه البحر الأحمر، فتتبعهم الأمير حسين إلى شواطىء الهند. غير أنه لم يستطع انزال الهزيمة بهم، فبعث يطلب المدد من السلطان، وقامت حملة بحرية ثانية لمعاونته[2]. وعلى الرغم من ذلك، لم توفق هذه القوة البحرية الضخمة في الحصول على انتصار حاسم على البرتغاليين، واكتفت بالمرابطة في البحر الأحمر لتأمينه من الخطر البرتغالي، ومن سوء الطالع أن ثارت الأحقاد الشخصية بين الأمير حسين الكردي والريس سلمان العثماني وصادف ذلك مصرع الغوري في مرج دابق، في رجب سنة 922هـ/ 1516م، فاشتد النزاع بين الرجلين، وقتل الريس سليمان الأمير «حسيناً». وغرقت سفنهم في نهاية الأمر[3]. وفي شعبان سنة 923هـ/ 1517م عاد الريس سلمان ببقايا رجاله ومعه بعض الأسرى من الفرنجة، فكانت عودته خاتمة لصراع الأسطول المملوك مع البرتغاليين في سواحل البحر الأحمر وبلاد الهند[4].

---

1 ـ ابن أياس: بدائع، ج 4، ص 362 ـ 366 ـ 458.

2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 458. وانظر: Kammerer. La Mer Rouge T. II. pp. 231 – 232.

3 ـ با مخرمة: تاريخ ثغر عدن ج 1، ص 21 ـ 22.

4 ـ أحمد دراج: المماليك والفرنج ص 155 وجعبل خامكي: تاريخ البحرية المصرية ص 22.

الفصل الحادي عشر

المماليك والعلاقات الخارجية

أولاً - علاقة المماليك ببلاد الحجاز

منذ قيام الدولة المملوكية في مصر وسلاطين المماليك يبدون اهتماماً خاصاً ببلاد الحجاز، ولم يقتصر ذلك الاهتمام على رعاية الحرم الشريف وإرسال المحمل سنوياً[1]. وإنما تعدى ذلك إلى بسط السيادة المملوكية على بلاد الحجاز مثلما كان الحال أيام الدولة الأيوبية، لما في ذلك من مفخرة لمصر وسلطانها، وكسباً أدبياً لهما في وسط العالم الإسلامي[2]. فضلاً عن السيطرة على ميناء جدة، لما كان له من الأهمية التجارية بين السلطنة وبلاد الشرق[3].

وقد أتاحت الخلافات بين اشراف الحجاز فرصة طيبة لسلاطين المماليك لتحقيق أطماعهم. ففي سنة 664هـ/ 1266م جاء إلى مصر الشريف بدر الدين بن مالك يطلب من السلطان بيبرس مساعدته على الشريف جماز أمير المدينة الذي حرمه من المشاركة في الإمرة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز. فاستغل بيبرس الفرصة وكتب تقليداً بذلك للشريف بدر الدين، وأرسل إلى جماز يخبره بذلك فامتثل جماز للأمر.

---

1 - المقريزي: السلوك ج 1، ص 445.

2 - محمد الراقد: الغزو العثماني لمصر. ص 229.

3 - ابن اياس: بدائع ج 3، ص 200 - 288 و ج 4، ص 152 والسيوطي: حسن المحاضرة ج 2 ص 165.

وفي سنة 666هـ/ 1268م اختلف الشريف نجم الدين أبي نمي مع عمه الشريف بهاء الدين ادريس على الشراكة في امارة مكة واتصل كل واحد منهم بالسلطان بيبرس لتسوية النزاع، فاغتنم بيبرس الفرصة ورتب لكل واحد فيهما مبلغ عشرين ألف درهم كل سنة شرط ألا يأخذ من أحد ضريبة وألا يمنع أحد من زيارة البيت، وأن يذكروا اسم سلطان مصر في الخطبة والسكة وبعد أن وافق أميري مكة على ذلك، كتب لهما بيبرس تقليداً بالامارة وسلمت لنوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام، وبذلك خضعت بلاد الحجاز بصورة فعلية للسيادة المملوكية[1].

وفي سنة 669هـ/ 1271م سافر بيبرس إلى بلاد الحجاز لتأدية فريضة الحج وتأكيد سلطانه على تلك البلاد، فزار المدينة وغسل الكعبة بيديه، وعين أحد أمرائه شمس الدين مروان نائباً عنه في مكة ليكون «الحل والعقد على يديه»[2]. بعد أن رفض أميري المدينة بدار الدين وجماز الخضوع للسلطة المملوكية وأعلنوا العصيان[3].

لم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في بلاد الحجاز بعد السلطان الظاهر، وأصبحت مكة والمدينة مسرحاً للخلافات والمنازعات بين الاشراف الأمر الذي جعل سلاطين المماليك منذ عهد الناصر محمد بن قلاوون يرسلون بين الحين والآخر بعض القوات إلى هناك لمناصرة أمير على آخر وإعادة الأمن إلى نصابه[4].

بقي الأمر في بلاد الحجاز يتأرجح بين التبعية ورفض الخضوع للسلطة المملوكية حتى كانت دولة المماليك الجراكسة، حيث بدأ تعيين الأمراء على مكة

---

1 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 5 ص 165 ـ 166. وانظر piloti (E): L'Egypte... p 41.

2 ـ العيني: عقد الجمان بجدل رقم 3 ص 551.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 580 ـ 581.

4 ـ المصدر نفسه ج 1، ص 197 ـ 238.

وفرض السيطرة الكاملة عليهم يشغل بال السلطان برقوق الذي أخذ يعتمد على التجارة كمورد هام من موارده، فضلاً عن احتكاره بعض السلع التجارية. فقد اهتم هذا السلطان بتسليم مكة لأمير قوي يدين له بالطاعة، حتى يضمن أمان طرق التجارة في البحر الأحمر، ولكن فرض السيادة على أمير مكة لم يكن أمراً سهلاً، وليس أدل على ذلك من أن الخلاف الذي دار بين الشريف أحمد بن عجلان وابن عمه عنان بن مغامس حول امرة مكة بالرغم من الفرمان الذي أصدره السلطان برقرق بجعل إمرة مكة شراكة بين الاثنين إلا أن عجلان رفض تنفيذ قرار السلطان وغدا مصدر قلق له، ولم يرتاح برقوق للأمر إلا بعد أن تمكن في سنة 788هـ/ 1386م من ارسال أحد الأشخاص دس السم لعجلان وقتل ابنه محمد وعين عنان أميراً على مكة[1].

ولم تجد جميع المحاولات التي قام بها سلاطين المماليك بعد برقوق من «ارسال الأموال سنوياً إلى الحجاز والأقوات، وإنشاء المرافق العامة النافعة كالأسوار والأبراج والآبار والمستشفيات» لاستقرار سيادتهم في تلك البلاد، لأن أمراء الحجاز كانوا دائماً يرفضون التبعية لإحساسهم بثقل وطأة دولة المماليك عليهم.

واستمر وضع بلاد الحجاز، على ما ذكرنا، بعد أن تولى الغوري سلطنة مصر، فبذل لها من الاهتمام والرعاية والقضاء على ما قام بها من عقبات كثورة الجازاني وأتباعه.

ففي أواخر سنة 907هـ/ 1502م أعلن الجازاني ابن أمير مكة الثورة ضد السلطنة المملوكية[2]. فتدارك الغوري الأمر وأرسل مع أمير ركب المحمل

---

4 ـ العيني: عقد الجمان مجلد رقم 3 ص 311.

1 ـ ابن اياس: بدائع ج 4، ص 35.

المصري في ذلك العام «اصمطر بن ولي الدين» عدداً من الجنود وخلعة نفيسة إلى الجازاني ليستمر أميراً لمكة، على أن يؤدي سنوياً خمسين ألف دينار، فرضي الجازاني بذلك[1]. لكن «اصطمر» كاتب الشريف بركات أخا الجازاني ـ وكانت بين الأخوين عدوات ومناهضات شديدة فأحس الجازاني بما يدبر له، وهرب من مكة مع عدد كبير من الرجال، وشرع يهاجم الحجاج ويعتدي على ركب المحمل الشامي بالنهب والقتل[2].

استمر «الجازاني» في عصيانه وثورته، فاستولى على مكة ونهب سكانها بعد أن نكل بمن يقيم فيها من المصريين تنكيلاً شديداً، وطالبهم بمبالغ من المال، ومنهم الأمير «تاني بك الجمالي» و «الشهابي أحمد العيني»[3].

استنشاط الغوري غضباً لهذا العبث ببلاد الحجاز فأرسل حملة قوامها ستمائة جندي بقيادة الأتابكي «قيت الرجبي» رافقت المحمل في خروجه من القاهرة سنة 909هـ/ 1503م استطاعت أن تهزم الجازاني الذي فر هارباً ثم ما لبث أن سقط في الأسر فقطع رأسه وأرسل إلى مصر[4].

بعد مقتل الجازاني ازداد فساد يحى بن سبع ومالك ابن رومي وعربان بني ابراهيم. واتخذوا مكة مسرحاً لهم[5]. وفي سنة 911هـ/ 1505م قطعوا طريق الحجاج. فأصبح من الصعب الوصول إلى بيت الحرام دون التعرض للنهب والسلب والقتل[6]. إزاء ذلك أرسل الغوري المناشير إلى سائر بلاد السلطنة يمنع

---

1 ـ ابن اياس: بدائع، ج 4، ص 37.
2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 37.
3 ـ المصدر نفسه، ج 4 ص 37.
4 ـ المصدر نفسه ج 4ن ص 38.
5 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 89.
6 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 89.

الناس من الخروج إلى الحج هذا العام. أما الكسوة والزيت والأموال فقد أرسلت عن طريق البحر. كما أصدر السلطان مرسوماً بعزل يحي بن سبع وتولية جماز بن دراج مكانه، وأعد تجريدة قوامها خمسمائة جندي بقيادة الأمير خايربك بن اينال لتأديب يحي بن سبع خرجت التجريدة إلى الحجاز في رجب سنة 912هـ/ 1506م يرافقها المحمل الشريف والأمير هجار فالتقت بعربان بني ابراهيم وباتباع يحي بن سبع الذي فر هارباً، وأنزلت بهم الهزيمة[1]. لكن خايربك لم يهمل يحي بن سبع فالتقاه مع مالك ابن الرومي وحميضة أخي الجازاني حيث دارت معركة انتهت بانتصار الجيش المصري وفرار يحي بن سبع مرة أخرى[2].

ابتهج الغوري بأنباء هذا النصر وخلع على المبشرين خلعاً ثمينة وزينت القاهرة سبعة أيام[3].

مهدت هذه المعارك، بلاد الحجاز وطهرتها من ثوراتها وعصاتها، وأمنت طريق الحج، فعين السلطان شريف بركات أميراً على مكة ونائباً عنه في تلك الديار، وبعد مدة وجيزة استسلم يحي بن سبع، فبعث ابنه إلى الغوري في رجب 914هـ/ 1508 يطلب له الصفح والأمان، فصفح عنه وأمنه[4]. وعندما توفي هجار أمير ينبع حاول يحي بن سبع أن يعود إلى إمارته فرفض السلطان الغوري وعين ابن عم المتوفي «أجود بن مسقار» في الرابع عشر من صفر سنة 917هـ/ 1511م[5].

---

1 ـ ابن اياس: بدائع ج 4، ص 105.
2 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 106.
3 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 106.
4 ـ المصدر نفسه ج 4، ص 138.
5 ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 214.

ثانياً ـ علاقة المماليك ببلاد اليمن

ارتبطت بلاد اليمن بعلاقات الود مع سلاطين المماليك في مصر. وليس أدل على ذلك من الهدايا التي كان يرسلها حكام بلاد اليمن من بني رسول إلى السلطان الظاهر بيبرس ـ التحف والفيلة والحيوانات والطيور، وكان بيبرس يحسن استقبال الوفود المحملة بالهدايا ويرد بأحسن منها[1].

ولعل قيام الخلافة العباسية في مصر كان وراء حرص بني رسول على تحسين علاقاتهم مع الدولة المملوكية في مصر، ففي سنة 680هـ/ 1281م أرسل المظفر شمس الدين علي هدية قيمة إلى السلطان المنصور قلاوون من العنبر والعود الصيني، وألح الوفد على السلطان بإعطاء أمان لحاكم اليمن، فلبى قلاوون رغبتهم وأعطاهم أماناً جاء فيه على ألا «تناله منا مضرة مدى الدهر واعمارنا، ما دام ملازماً لشروط مودتنا...»[2].

اشتدت أواصر الصداقة والثقة بين سلاطين المماليك في مصر وحكام بلاد اليمن، من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل أحد أمرائه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة 701هـ/ 1302 كي يعلن هذا النبأ على منابر اليمن بعد رفع شأن الإسلام والمسلمين[3].

لكن علاقة الود بين حكام اليمن والسلاطين المماليك لم تستمر طويلاً ففي سنة 702هـ/ 1303م رفض المؤيد هزيز الدين داود سيادة الدولة المملوكية وبدأ يضايق التجار المصريين وامتنع عن ارسال المال المتوجب إلى مصر، وحاول السلطان الناصر محمد إرسال حملة إلى اليمن لتأديبه لكن سوء الأحوال الداخلية

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 563 ـ 595 ـ 621.

2 ـ بيبرس الدودار: زبدة الفكرة ج 9، ص 123.

3 ـ جمال الدين سرور: دولة بن قلاوون في مصر ج 1، ص 130.

في مصر حالت دون ذلك[1]. وإذا كانت العلاقة بين الطرفين قد تحسنت بعض الشيء في عهد الملك المجاهد سيف الدين الذي سيطر على معظم أنحاء اليمن واعترف بالولاء لسلاطين المماليك، إلا أن هذا الاعتراف لم يكن أكثر من خوف في أغلب الظن، فما أن سنحت الفرصة لحكام اليمن من الطاهرين في عهد السلطان قانصوه الغوري أثناء محاربته للبرتغاليين حتى انقلبوا على الدولة المملوكية ووقفوا إلى جانب الفرنج وتصدوا للأسطول المملوكي، مما اضطر الحملات المملوكية البحرية إلى التوقف عن تنفيذ هدفها الرئيسي في محاربة البرتغاليين، والانصراف إلى محاربة ملوك اليمن والقضاء على دولتهم، والسيطرة على جزء كبير من أراضيهم[2].

ثالثاً ـ علاقة المماليك مع دول شمال افريقية

ارتبطت الدول الاسلامية بشمال افريقية بسلطنة المماليك في مصر بعلاقات متينة، ساعد عليها رابطة الجوار والاسلام، ورابطة الخطر الأوروبي الذي أخذ يهدد العالم الاسلامي في تلك الفترة فضلاً عن رابطة الحج باعتبار أن مصر هي الطريق الرئيسي الذي يسلكه حجاج المغرب إلى الحرمين الشريفين.

لكن هذه الرابطة القوية بين دول المماليك ودول شمال أفريقية أصابها الفتور والخلل عندما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحفصي الملقب بالمستنصر لقب الخلافة والإمامة، وتلقب «بلقب المستنصر بالله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين»[3] وتشير بعض المراجع أن شريف مكة أبو نمي بن الحسن هو

1 ـ المقريزي: السلوج 2 ص 33 ـ 38.

2 ـ الكبسي: اللطائف السنية في أخبار المماليك اليمنية ص 637.

وانظر ابن أياس: بدائع ج 4، ص 185 و 209.

3 ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 7، ص 32.

الذي شجع الحفصين على تلك الخطوة، مبررين قولهم بأن أبو نمي هو من اعترف بسيادة الحفصين على مكة[1].

وعندما قام السلطان الظاهر بيبرس باحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 599هـ/ 1260م بدأ الخلاف بين سلطنة المماليك في مصر وملوك الحفصيين في تونس. وزاد الأمر سوءاً عندما بدأت السلطنة المملوكية تقلل من شأن خلافة الحفصيين ورفضت تسمية الخليفة الحفصي بلقب أمير المؤمنين ولقبته بأمير المسلمين بمعنى أنه مجرد أمير يعمل تحت لواء الخلافة الاسلامية، وبالرغم من موقف ملوك تونس وسلاطين مصر من بعضهم البعض، إلا أن الحملات الصليبية على العالم الإسلامي جمعت الدولتين متناسين «الصراع على الخلافة» والدليل على ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس ما إن علم بحملة لويس التاسع على تونس سنة 609هـ/ 1270م حتى بعث رسالة إلى ملك الحفصين يخبره بأنه سيرسل له كل ما يستطيع من قوة، وأمر بيبرس بحفر الآبار في الصحراء الغربية كي يعتمد عليها الجيش المصري في طريقه إلى تونس[2] لكن الظاهر ما إن علم بموت لويس التاسع في تونس وفشل حملته حتى أوقف استعداداته لتونس وبعث بالرسائل إلى سائر بلاد المسلمين ابتهاجاً بإنتهاء الخطر الكبير.

وعلى الرغم من الموقف النبيل الذي وقفه السلطان بيبرس إلى جانب الحفصين ضد الخطر الصليبي إلا أنه استغل تلك الحملة للتشهير بالمستنصر الحفصي واتهامه بالتقصير في مواجهة العدو.

يروي المقريزي أن صاحب تونس أرسل رسولاً سنة 670هـ/ 1271م إلى السلطان الظاهر بيبرس يحمل هدية وكتاباً يشكره على الوقوف إلى جانبه ضد

---

1 ـ القيرواني: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ص 128.

2 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 590.

الحملة الصليبية، لكن بيبرس استاء من كلام الرسول لأنه لم يحسن مخاطبته ووزع الهدية على الأمراء دون أن يحتفظ بنصيب منها لنفسه، كما استقبح على الملك الحفصي تقاعسه في الجهاد ضد الصليبيين، وقال للرسول قل لصاحبك أن «مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين»[1].

أما عن علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب فكانت تخضع في أغلب الأحيان لمزاجية سلاطين المماليك الذين كان جلّ همهم تأييد القوي ونبذ الضعيف وهذا أمر طبيعي لدولة تقوم على النظام العسكري الذي تعتبره اساس وجودها. من هنا كانت علاقتهم مع بني مرين أصحاب فاس وأضخم قوة في بلاد المغرب تقوم على الود والاحترام، بعكس علاقتهم مع بني زيان أصحاب تلمسان الذين كانوا يشكلون قوة صغيرة بالنسبة لبني مرين، وليس أدل على هذه التفرقة من أن أبو الحسن علي المريني أرسل سنة 737هـ/ 1337م كتاباً إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يخبره أنهم بسطوا سيادتهم على تلمسان، فرد عليه الناصر «مؤيداً ومهنئاً»[2].

ولا يفوتنا أن نذكر أن الحماس الديني الإسلامي ـ عند المماليك ـ شكل رابطاً قوياً للعلاقات الوثيقة بين مصر والمغرب العربي في العصر المملوكي. فكان سلاطين المماليك يحرصون على إرسال البشائر إلى المغرب ـ كما كان الحال بالنسبة للحجاز واليمن ـ كلما أحرزوا انتصاراً على اعداء المسلمين مثل التتار أو الصليبيين، بالاضافة أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة المماليك نظرة إكبار وإجلال بوصفهم حماة العالم الإسلامي.

هذا إلى أن مصر كانت في العصر المملوكي الملجأ الوحيد لأمراء المغاربة

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 601.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 7، ص 395 ـ 307 و ج 8، ص 87 ـ 99.

اللاجئين هرباً من حكام بلادهم. فضلاً على ذلك كانت مصر مقصد أهل المغرب لطلب العلم والرزق منذ أيام الدولة الفاطمية والأيوبية حتى عصر المماليك، ويكفي أن نلقي نظرة على الخوانق والزوايا والروابط والمدارس لنتأكد من كثرة الوافدين المغاربة. ثم إن الأثر العميق الذي تركه المغاربة في انتشار حركة التصوف في مصر. ولا يخفى علينا التبادل الثقافي الذي كان بين البلدين، ولعل ما قاله السيوطي أكثر بلاغة في التعبير «صارت مصر محل سكن العلماء ومحط الفضلاء»[1]. لذلك قصدها في ذلك العصر فضلاً عن طلاب العلم كثير من العلماء المغاربة الذين حظوا بعطف سلاطين المماليك وسمحوا لهم بالتدريس في الأزهر[2]. ومن أشهر هؤلاء كان ابن خلدون الذي روى مجيئه إلى مصر سنة 784هـ/ 1382م وظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف والتدريس حتى وفاته في سنة 808هـ/ 1405م[3]. وابن بطوطة الرحالة المغربي الذي زار مصر في العصر المملوكي وسجل اعجابه ولا يسعنا إلا أن نذكر العلاقات التجارية بين مصر والمغرب في العصر المملوكي فكانت السفن المغربية تقصد الموانىء المصرية لنقل الحجاج المغاربة أو لتبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند من المنسوجات الحريرية والكتانية المصرية. وكانت السفن المصرية تفد إلى المغرب لشراء الخيول والزيوت[4].

رابعاً علاقة المماليك مع دول السودان الغربي

اقتصرت علاقة المماليك مع السودان الغربي في النواحي التجارية والثقافية

---

1 ـ السيوطي: حسن المحاضرة ج 2 ص 86.

2 ـ ابن حجر: الدرر الكامنة ج 3 ص 361 ـ 362 و ج 4 ص 327.

3 ـ ابن خلدون: المقدمة ص 294.

4 ـ ابن خلدون: العبر ج 5 ص 451.

والسبب في ذلك يعود إلى بعد المسافة بين البلدين، فلم يكن هناك أي رابط سياسي يجمعهما معاً.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن البحر كان يمثل الرابط الأساسي بين الدولتين، فحجاج السودان الغربي اعتادوا أن يسلكوا الطريق الصحراوي الذي يبدأ من مدينة غات وينتهي عند الأهرام[1] وعند وصول الحجاج إلى مصر كانوا مجبرين أن يقضوا فيها وقتاً طويلاً حتى يتهيأ ركب الحجاج والمحمل إلى مكة، فكان ذلك فرصة للتعرف على بعضهم ـ سكان السوادن الغربي والمصريين ـ ويذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى الجزء الخامس أن أول من زار مصر في طريقه إلى مكة من ملوك مالي والتكرور هو منساولي ـ أي السلطان علي ـ في عهد السلطان الظاهر بيبرس[2]. وقد أحاط هذا السلطان نفسه بمظاهر الترف وأخذ ينفق الأموال في مصر بطريقة استرعت الانتباه. وقدم للسلطان محمد قلاوون هدايا قيمة من بينها حمل من الذهب الخام، فأكرمه السلطان وأرسل إليه وإلى أفراد حاشيته الخلع والسيوف، وعدد من الخيول والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة السفر إلى مكة[3].

وقد حاول سلاطين مالي والتكرور الحصول على تقليد من الخليفة العباسي في مصر لتوطيد نفوذهم في بلادهم وفي سنة 894هـ/ 1494م طلب سلطان مالي محمد أبو بكر أثناء مروره بمصر لأداء فريضة الحج من الخليفة العباسي تقليداً بتفويضه حكم بلاده فأعطاه الخليفة ما طلب.

ومنذ أواخر القرن الرابع عشر أصبح الحصول على تأييد شرعي من

---

1 ـ ابن خلدون: العبر ج 5، ص 434.

2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 5 ص 293.

3 ـ العمري: مسالك الأبصار ص 943 ـ 955.

الخليفة عادة راسخة عند سلاطين مالي والتكرور للاعتراف بسيادتهم في بلادهم. وعلى الرغم من العلاقات الودية التي ربطت سلاطين المماليك مع ملوك السودان الغربي، إلا أن هؤلاء الآخرين ظلوا في نظر سلاطين المماليك في مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقية بدليل سلاطين المماليك كانوا يخاطبون ملوك السودان الغربي «الجناب الكريم العالي» بينما كانوا يخاطبون ملوك افريقية «المقام العالي»[1] ولا شك أن رابطة الدين الإسلامي بين مصر ومالي والتكرور أدت إلى زيادة الروابط بين الطرفين. من ذلك أن السلطان منسا موسى انتهز فرصة وجوده في مصر واشترى عدد كبيراً من الكتب ليؤمن لسكان بلاده الاطلاع على الثقافة الإسلامية[2]. كما يبدو أن جامعة تنبكتو الدينية فتحت أبوابها أمام العلماء المصريين كي تسير على خطى الأزهر. فضلاً عن أن بعض طوائف بلاد التكرور أقامت في مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر البارزين من أمثال ابن الجوزي وابن حيان وغيرهما[3].

ومن شدة ولع أبناء السودان الغربي بالثقافة المصرية ابتنى تجار التكاررة بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق[4]. أصبحت مركزاً للطلاب الوافدين من بلاد التكرور، وقد حظي التكاررة الفقراء الذين كانوا في مصر على نصيب من عطف سلاطين المماليك. وفي ذلك يروي المقريزي أن ابن السلطان الظاهر بيبرس السعيد بركة خان «عمل للتكاررة خوان حضره كثير من أهل الخير»[5].

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 4، ص 383.

2 ـ ابن حجر: الدرر الكامنة ج 4، ص 783.

3 ـ السخاوي: الضوء اللامع ج 7، ص 2.

4 ـ ابن حجر: الدرر الكامنة ج 2، ص 205.

5 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 649.

ولا يفوتنا أن نذكر أن التجارة ساهمت إلى حدٍ كبير في تقوية الروابط بين دولة المماليك ودول السودان الغربي.

خامساً ـ علاقة المماليك مع الحبشة

ترجع علاقة مصر بالحبشة إلى زمن طويل[1]. فقد كان ملوك تلك البلاد شبه تابعين لحكام مصر منذ أوائل العصور الوسطى بعد أن ارتبطت الكنيسة الحبشية بالكنيسة القبطية واعتبرت جزءاً منها لأن الكنيستين ترتبطان بالمذهب الأرثوذكسي، ومن مظاهر الارتباط تعيين بطريق النصارى اليعاقبة بمصر اسقفاً للحبشة بناءً على طلب ملك الحبشة من سلطان مصر في ذلك بكتاب وهدية يبعثهما مع رسوله إلى السلطان[2].

وأدرك سلاطين المماليك أهمية العلاقات الحبشية لمصر، فحرصوا على العناية بها في نفس العناية التي اهتموا فيها بالجناح الأسيوي لدولتهم.

وتؤكد بعض المصادر أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة لتقوية هذه الروابط بين الدولتين، ولكن السفارة تأخرت في العودة بسبب الاضطرابات التي كانت دائرة في الحبشة حول مسألة العرش. مما أغضب بيبرس. وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة فاتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته كي يسمح بيبرس للبطرك غبريال الثالث أن يبعث إلى الحبشة «مطراناً جيداً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة... وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك الله عدوه...»[3].

---

1 ـ ابن أياس: بدائع ج 4، ص 151.

2 ـ العسقلاني: أبناء الغمر ج 1، ص 162 ـ 235.

3 ـ النويري: نهاية الأرب ج 28، ص 46.

لم تثمر وساطة ملك اليمن، ورفض بيبرس ارسال المطران المطلوب، مما دفع الحبشة مكرهاً إلى استحضار مطراناً سورياً من بلاد الشام[1].

على الرغم من أن المطارنة المصريين الذين كانوا يأتون إلى الحبشة كان همهم الوحيد جمع المال ـ هذا ما يفهم من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس والتي ذكرناها سابقاً.

ولما كان الأحباش لم يرتاحوا للمطارنة السوريين ـ فلم ييأس ملك الحبشة صهيون من مجيء مطراناً مصرياً إلى الحبشة. فكتب إلى السلطان المنصور قلاوون يعتذر له ويسأله «إرسال مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين». كما كتب ملك الحبشة في الوقت ذاته إلى بطريك الاسكندرية يقول له «وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم، ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم»[2]. وتكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان المملوكي قلاوون ولكونها محشية بالتوسلات والتضرعات، فجاء في إحدى الرسائل: «... اسمع يا سلطان مصر ـ نصرك الله، أعط البطرك الدستور يبعث لي أسقفاً، فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم...»[3]. فاستجاب قلاوون لطلب ملك الحبشة وأوعز إلى بطرك الاسكندرية بترسيم المطران المطلوب وإرساله إلى الحبشة. والجدير ذكره أن سلاطين المماليك كانوا يرتابون في العلاقة بين بطاركة الاسكندرية وملوك الحبشة. ولعل هذا الخوف له ما يبرره في عصر الحروب الصليبية، وهو العصر الذي طفح بروح التعصب الديني ضد المسلمين، ولهذا أصر سلاطين المماليك أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق السلطنة المملوكية وليس اتصالاً مباشراً. وليس

---

1 ـ النويري: نهاية الأرب، ج 28، ص 59 وما بعدها.

2 ـ محي الدين بن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ص 170 ـ 173.

3 ـ المصدر نفسه ص 173.

أدل على ذلك أن بعض سلاطين المماليك أخذوا عهداً على بطرك الاسكندرية بأن «لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطناً، ولا يولي أحداً في بلاد الحبشة ولا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته...»[1]. كذلك كان سلاطين المماليك يوجهون دائماً النصح إلى بطرك الاسكندرية بأن «يتوقى ما يأتيه سراً من تلقاء الحبشة»[2].

ولعل ما كان في الحسبان عند سلاطين المماليك ظهر واضحاً وجلياً فيما بعد ففي سنة 783هـ/ 1381م انتهز ملك الحبشة داوود بن سيف أرعد فرصة الاضطرابات القائمة في مصر بسبب التطاحن بين الأمراء من أجل السلطة وهاجم أسوان في أواخر سنة 783هـ/ 1381م وضرب نواحيها فأرسل أهلها يستصرخون السلطان برقوق الذي أسرع بعلاج المشكلة بالطرق الودية، فاستدعى بطريرك الاسكندرية واتفق معه على أن يرسل من طرفه رسولاً إلى ملك الحبشة بكتاب من عنده ينكر عليه هذا الهجوم، ويطلب منه العودة إلى بلاده، وعدم التعرض للمسلمين في الحبشة. استجاب البطيرك لطلب السلطان وكتب رسالة أرسلها مع الأسقف إبراهيم وصحبة رسول السلطان برهان ابراهيم الدمياطي. فلم يتردد الملك داود في اجابة الطلب، ورد على رسالة البطريرك برسالة إلى السلطان برقوق في سنة 784هـ/ 1282م ومعها هدية. وطلب من السلطان أن يحسن معاملة البطريرك والنصارى، وأن يعيدهم إلى مناصبهم التي عزلوا منها. فاستجاب برقوق لطلب ملك الحبشة[3].

إن معاملة المماليك للمسيحيين بدولة الحبشة لم تقف عند هذا الحد بل

---

1 ـ السخاوي: التبر المسبوك ص 210.

2 ـ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص 48.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 3، ص 471 وما بعدها. والالمام بأخبار من بأرض الحبشة ص 3 ـ 4 ـ 5.

تعدتها إلى التجارة في نفائس البلدين بسبب تأمين السلطان برقوق لطرق التجارة في البحر الأحمر.

وعلى الرغم من المعاملة الحسنة التي كان يبديها دائماً سلاطين المماليك تجاه الحبشة، إلا أن هذه المودة لم تثمر عن نتيجة إيجابية في نفوس ملوك الحبشة، ففي سنة 805هـ/ 1402م، انتهز الملك داود فترة الصراع بين الأمراء في سلطنة فرج، وهاجم السلطنات الإسلامية في عدل وزيلع، وقتل من أهلها من المسلمين عدداً كبيراً[1]. ولا يسعنا أن نذكر أنه بعد طرد الصليبيين من بلاد الشام في أواخر القرن الثالث عشر[2]. بدأت البابوية في ارسال السفارات إلى ملوك الحبشة لحثهم على محاربة المسلمين وبالفعل أفلحت تلك الاتصالات في استثارة ملوك الحبشة فأعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ـ ملك قبرص ـ من ناحية الشمال، كما فكر إسحق الأول ملك الحبشة سنة 830هـ/ 1426 في غزو مصر، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزو جزيرة قبرص في سنة 829هـ/ 1326 وأسروا ملكها جانوس، لكن هذه الاستعدادات باءت بالفشل بعد أن رفضت الدول الأوروبية مشاركة ملك الحبشة بحملته[3]. فضلاً عن فشل المحاولات المتكررة التي قامت بها كل من مملكة أرغونة والبرتغال مع ملوك الحبشة لتحويل نهر النيل وضرب مصر اقتصادياً[4].

وعلى الرغم من هذه المواقف المخزية التي كان يقوم بها ملوك الحبشة بين مدة وأخرى ـ كلما سنحت لهم الفرصة. إلا أن سلاطين مصر منذ بداية القرون

---

1 ـ العسقلاني: أبناء الغمر ج 1، ص 170 ـ 253.

2 ـ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2، ص 129.

3 ـ المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ص 4 وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج 6، ص 637 ـ 640.

4 ـ سعيد عاشور الحركة الصليبية ج 2، ص 1213 ـ 1214.

الوسطى وحتى نهاية دولة المماليك لم يتوانوا لحظة عن تقديم العون ومد يد المساعدة لحجاج الحبشة وهم في طريقهم إلى بيت المقدس وإعفائهم من ضريبة المكوس، ويروي ابن اياس أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أوصى جيشه بحماية رهبان دير الأحباش في بيت المقدس عندما احتل المدينة سنة 583هـ/ 1187م[3]. ولا يسعنا إلا أن نذكر العناية الفائقة التي أبداها السلطان قانصوه الغوري في علاقاته مع الحبشة، واستقباله العظيم للوفد الكبير الذي جاء إلى مصر في سنة 922هـ/ 1516م برئاسة ابن ملك الحبشة وصحبة خمسة من الأمراء[4].

ولقد بلغ من اهتمام السلطان قانصوه بالعلاقات الحبشية أنه أصدر منشوراً لأبناء الحبشة الذين يودون زيارة الأماكن المقدسة يمنحهم فيه الحماية والرعاية ويتعهد بتوفير الأمن والطمأنينة لهم[5]. في الوقت الذي كان فيه ملك الحبشة يسعى لخطب وده واستجدائه.

سادساً ـ علاقة المماليك مع بلاد النوبة

يبدو أن علاقة المماليك ببلاد النوبة، كانت ودية كعلاقتهم مع الحبشة[6]. فقد ربطت بلاد النوبة بمصر منذ القدم رابطتان قويتان هما رابطة الجوار ورابطة الكنيسة. فمن ناحية الجوار، معروف أن النوبة هي البلاد التي تتاخم حدود مصر من ناحية الجنوب، وان هذه الحدود بين البلدين ليست بالحدود الفاصلة لأنه على الرغم من صحراء النوبة، فإن النيل يمثل شرياناً هاماً يربط البلدين ويهيأ طريقاً حسناً للانتقال من أحد البلدين إلى الآخر.

---

3 ـ ابن إياس: بدائع ج 5، ص 12.

4 ـ وثيقة وقف الغوري رقم 883 سطر 7. وابن اياس: بدائع ج 4، ص 151.

5 ـ المصدر نفسه سطر 754.

6 ـ ابراهيم طرخان: مصر في عصر جولة الجراكسة ص 138 ـ 157.

ومن ناحية الكنيسة كانت الصلة قوية بين الكنيسة اليعقوبية بالنوبة والكنيسة المرقسية بالاسكندرية فكان بطريرك الاسكندرية هو الذي يرسم مطران النوبة، كما كان يلجأ إليه النوبيون بين حين وآخر للاحتكام إليه في فض مشكلاتهم الداخلية[1].

وكانت آخر حملة نسمع عنها في التاريخ أرسلها المماليك لإخضاع تلك البلاد كانت حملة السلطان الناصر محمد سنة 723هـ/ 1323م[2]. والواقع أن السبب واضح، فقد دأب السلاطين منذ أيام بيبرس على ارسال حملات إلى النوبة للدفاع عن حدود مصر الجنوبية، باعتبار أنها مملكة مسيحية، تشكل ميداناً جديداً للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي القديم في حوض البحر المتوسط[3]. ولكن الأمر انتهى بقيام كنز الدولة المسلم والمنحدر من أصل عربي صريح، في حكم دنقلة ـ عاصمة النوبة ـ وقد أدى ذلك منذ أوائل القرن الرابع عشر إلى اصطباغ النوبة بالصبغة العربية الواضحة نتيجة لهجرة بعض القبائل العربية إليها واستقرارهم فيها[4]. وهكذا لم يعد هناك مبرر واضح لأن يقوم سلاطين المماليك بالتدخل في شؤون دولة مجاورة ذات صبغة عربية، ويحكمها ملوك مسلمون، وإذا كان حكام مصر قد تمسكوا فيما مضى بضرورة قيام النوبة بإرسال البقط أو العهد ـ اشترط فيه على صاحب النوبة لبيت المال في مصر عدداً من الرقيق يساوي عدد أيام السنة أي خمسة وستين وثلاثمائة رأس من الرقيق سنوياً، فضلاً عن قدر من الحبوب الأخرى والأقمشة... ومن هذا يبدو أن اتفاقية البقط ليس فيها معنى

---

1 ـ حكيم السيد: قيام دولة المماليك الثانية ص 160 ـ 161.

2 ـ حسن أحمد محمود: الاسلام والثقافة العربية ص 324.

3 ـ المرجع السابق نفسه ص 326.

4 ـ العسقلاني: أبناء الغمر ج 1، ص 224.

والعيني: عقد الجمان ج 25، ص 21.

الجزية أو خضوع النوبة سياسياً للمسلمين، وإنما كانت في حقيقة أمرها نوعاً من التفاهم الاقتصادي الذي يستهدف تحقيق صالح الفريقين، وقد اعترفت المراجع العربية نفسها بذلك الوضع[1] ـ فإن هذه الضريبة صار لها مبرر بعد أن غلب الطابع العربي الإسلامي على تلك البلاد[2].

ويستدل على هذا المعنى من عبارة ذكرها القلقشندي نصها «... وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم مولكهم»[3].

وهكذا تحولت العلاقات العدائية بين مملكة النوبة ومصر منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر إلى رحلات تجارية رعتها سياسة الغوري، لانقاذ اقتصاد مصر ـ وإن كان الأمر محدوداً ـ من عوامل الضعف التي تعرض لها بعد تحول التجارة الشرقية على يد البرتغاليين إلى طريق رأس الرجاء الصالح[4].

سابعاً ـ علاقة المماليك مع بلاد الهند

بدأت علاقة المماليك ببلاد الهند، في عصر الناصر محمد بن قلاوون[5] إذ أرسل إليه أحد ملوكها يستمنح الخليفة العباسي بمصر، بملكه، ليكسبه الصفة الشرعية، فاستجاب له السلطان المملوكي والخليفة، وبعث إليه التفويض المطلوب مع رسول خاص. وقد نقش هذا الملك اسم الخليفة على سكة بلاده، وذكر اسمه في الخطب المنبرية، مما ساعد على توثيق الصلة بين البلدين[6].

---

1 ـ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ج 7، ص 45 والبلاذري: فتوح البلدان ص 377.

2 ـ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص 97.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج 5، ص 277.

4 ـ وثيقة وقف الغوري 883 سطر 754. ومير: تاريخ دولة المماليك ص 168.

5 ـ وثيقة وقف الناصر محمد بن قلاوون رقم 25 تاريخ 725 هـ.

6 ـ المصدر نفسه رقم 31 تاريخ 725هـ.

تكررت هذه الواقعة في عهد الأشرف قايتباي وأرسل ملك الهند هدايا ثمينة إلى ملك مصر وخليفتها[1]. فنشأت بين البلدين علاقات تجارية واسعة، حيث استوردت مصر من الهند، الحنطة والحمص والسمسم وجوز الهند، وغير ذلك، واستوردت الهند منها الكتان وغيره[2].

ومما زاد في أهمية العلاقات بين البلدين، موقع مصر الجغرافي. إذا كانت الممر التجاري الوحيد تقريباً، بين الهند وأوروبا[3].

وقد استمرت هذه الأوضاع قائمة إلى زمن الأشرف الغوري. حيث أرسل إليه أحد ملوك الهند ـ مظفر شاه ـ في رمضان 918هـ/ 1518م، يطلب تقليداً من خليفة مصر بولايته فأجابه إلى طلبه[4]. وعند وصول البرتغاليين إلى الشرق، وكنتيجة الاضرار التي لحقت بمصالح الهند، وتعلقت أمال السلطات في تلك البلاد على مصر، فبعث كل من صاحب قاليقوط (كلكوتا)[5]. وسلطان كجرات[6]. للاستنجاد بالسلطان قانصوه لتدارك الموقف والعمل على اتخاذ الاجراءات الكفيلة بتخليصهم من المخاطر التي تعرضت لها بلادهم وتجارتهم، وحثه للعمل على تأمين الملاحة في المياه الشرقية والبحر الأحمر[6].

ولم يهدأ ملوك الهند عن مكاتبة الغوري، واطلاعه على مراحل الغزو البرتغالي، وما يقوم به هؤلاء من العبث ببلادهم ونهب متاجرهم وخيراتها[7].

---

1 ـ وثيقة وقف قايتباي رقم 888 تاريخ 179هـ

2 ـ المصدر نفسه رقم 890 تاريخ 895هـ

3 ـ وثيقة أوقاف الغوري رقم 883 سطر 812.

4 ـ زين الدين المليباري: تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين ص ٤٠.

5 ـ Kammerer (A): La Mer Rouge... T. II. p. 230.

6 ـ محمد عبد العال: البحر الأحمر ص 80.

7 ـ أحمد دراج: المماليك والفرنج ص 132. وزكي فهمي: طرق التجارة الدولية ص 71 وانظر Kammerer (A): Ibid. p. 141. – Heyd (w): Hist. du Commerce T. II. pp. 520 – 522.

وكان من خطط الغوري أن يوحد بين صفوف ملوك الهند، ليكونوا يداً واحدة قوية معه، ضد هذا العدو المشترك، فأرسل إليهم تعليماته بهذا الشأن مع أحد رجاله المخلصين ـ الطواشي بشير ـ في عام 916هـ/ 1510م[1].

وتمتد علاقات السلطان الغوري مع بلاد الهند لتشمل الكثير من جهوده ووسائل مكافحته للبرتغاليين وغيرهم من العابثين بالطريق التجاري بين مصر وتلك البلاد. وهذا ما تكلمنا عنه سابقاً بإسهاب.

ثامناً ـ علاقة المماليك مع الدولة البيزنطية

كانت علاقة المماليك مع الدولة البيزنطية مبنية على أساس المصلحة السياسية والعسكرية. ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس عندما صمم على مجابهة الصليبيين الذين بدؤا يهددون المسلمين في الشرق الأدنى كان أول ما فكر به إقامة تحالف مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس سنة 660هـ/ 1262م لعلمه أن الامبراطورية البيزنطية كانت دائماً العدو اللدود للصليبيين بالشام[2]. ـ تكلمنا عنه سابقاً ـ ولم تلبث العلاقات بين السلطان بيبرس والامبراطور باليولوجس أن توطدت بشكل كبير، فأرسل الامبراطور إلى السلطان المملوكي يطلب منه إرسال بطرك من الملكانيين ليرعى شؤون الطائفة الملكانية في الامبراطورية. فاستجاب بيبرس لرغبة الامبراطور وبعث إليه سنة 660هـ/ 1262م البطريرك الملكاني الرشيد الكحال صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي. وعند وصول السفارة المملوكية إلى القسطنطينية احتفل الامبراطور البيزنطي بقدومها، وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذي كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبية

6 ـ ابن إياس: بدائع ج 4، ص 185.

1 ـ Lane – poole: A Hist. of Egypte... p. 266.

الرابعة ـ التي حولت وجهتها للإستيلاء على القسطنطينية بدلاً من مصر[1] ـ والذي شرع الامبراطور باليولوجس في تجديده[2].

أسهم بيبرس في تعمير مسجد القسطنطينية وفرشه «بالحصر العبداني والقناديل المذهبة والسطور المرقومة، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والمسك وماء الورد»[3].

وعلى الرغم من الهدايا التي حملها الامبراطور البيزنطي للأمير أقوش إلى السلطان بيبرس إلا أن الأخير استشاط غضباً من تصرف الامبراطور لأنه أعاق سفارته إلى بلاد بركة خان زعيم مغول القفجاق. ودعا بيبرس رجال الدين ليشهدوا أن الامبراطور البيزنطي «خان العهد».

استدرك الامبراطور غلطته فأطلق السفارة المملوكية وسمح لها بالسفر إلى بلاد مغول القفجاق، وأسرع في ارسال الهدايا للسلطان بيبرس[4]. بعد عهد بيبرس استمرت العلاقات الودية بين السلطنة المولكية والامبراطورية البيزنطية، وتروي لنا المراجع أن السلطان المنصور قلاوون بعث إلى الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزري وبصحبته بطرك الأقباط حنا السابع لتخبره رغبة السلطان قلاوون في الابقاء على علاقة الود بين الدولتين، فأجابه الامبراطور مؤكداً حرصه على هذه الصداقة. وبالفعل بقيت الدولة البيزنطية متمسكة بهذه العلاقات القوية مع السلطنة المملوكية حتى بعد أن اعتلى عرش الدولة الامبراطور اندرونيق الثاني سنة 681هـ/ 1282م الذي أرسل إلى السلطان قلاوون هدية تحتوي على حمل من الحرير وأربعة أحمال من

---

1 ـ Grousset: Hist. des Croisades... T. III. P. 180 – 182.

2 ـ العيني: عقد الجمان ج 3، ص 481. وجمال الدين سرور ـ ولة الظاهر بيبرس ص 110.

3 ـ المقريزي: السلوك ج 1، ص 471 ـ 472.

4 ـ المصدر نفسه السلوك ج 1، ص 514 ـ 537.

البسط. فاغتبط قلاوون بتلك الهدية وغمر الرسل بالعطايا[1]. وفي سنة 704هـ/ 1305م أرسل الامبراطور أندرونيق الثاني سفارة إلى الناصر محمد قلاوون سفارة تحمل هدية ثمينة لجنابه وتسأله إعادة كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها، بعد أن كان المسلمون قد حولوها إلى مسجد في عهد السلطان الظاهر بيبرس[2]. إلا أن السلطان الناصر لم يستجب لرغبة الامبراطور خوفاً من إثارة الرأي العام الإسلامي ضده، لكن الحاح الامبراطور المتكرر والمقرون بعبارات الترجي والتوسل، دفع السلطان الناصر إلى استفتاء علماء المسلمين حول الكنيسة فأفتوا بأنه لا يجوز اغتصابها. عندئذ أعاد الناصر محمد تلك الكنيسة إلى المسيحيين، وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس في أرجاء السلطنة المملوكية[3].

ارتاح الامبراطور أندرونيق الثاني لموقف السلطان الناصر محمد تجاه المسيحيين. فأرسل له هدية ثمينة من الجوخ والأطلس عدا التحف الجميلة[4]. وليظهر أندرونيق حرصه على صداقة السلطنة المملوكية رفض المشاركة في تنفيذ المشروع الصليبي الذي وضعه ـ مارينو سانودور ـ (أحد دعاة الحروب الصليبية) ويتلخص في خنق دولة المماليك إقتصادياً تمهيداً لإحتلالها حربياً ثم الاستيلاء على الأراضي المقدسة[5].

وبقيت علاقات الود قائمة بين الامبراطورية البيزنطية وأولاد السلطان الناصر محمد، وليس أدل على ذلك من السفارة التي أرسلها الامبراطور البيزنطي

---

1 ـ النويري: نهاية الأرب ج 39، ص 28.
2 ـ مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد ج 3 ص 195.
3 ـ المصدر نفسه ج 3 ص 229.
4 ـ محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر ص 261.
5 ـ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج 2 ص 1198 ـ 1199.

حنا الخامس إلى السلطنة المملوكية سنة 771هـ/ 1369م يعتذر فيها عن الجرائم التي ارتكبتها حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة 767هـ/ 1365م[1].

وفي عهد المماليك الجراكسة لم يطرأ أي تحول في علاقة الصداقة بين السلطة المملوكية والامبراطورية البيزنطية. من ذلك ما تروي المراجع من أن الامبراطور حنا الخامس أرسل سفارة في سنة 787هـ/ 1385م إلى السلطان الظاهر برقوق يحمل إليه هدية ويطلب منه أن يكون للبيزنطيين قنصل بالاسكندرية على غرار البنادقة، فأجاب السلطان إلى طلبه[2].

ومنذ أواخر القرن الرابع عشر بدأت الامبراطورية البيزنطية تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين وحملاتهم المتكررة على العاصمة القسطنطينية، دون أن يكون بوسع الأباطرة البيزنطيين طلب مساعدة السلطنة المملوكية المسلمة التي كانت تعتبر أن اي توسع عثماني في شرق أوروبا هو انتصار للعثمانيين والمماليك على السواء. حتى كانت سنة 857هـ/ 1453م واستيلاء العثمانيين على القسطنطينية، فاحتفلت القاهرة احتفالاً كبيراً لسقوط القسطنطينية وزينت الأسواق والحارات، وأوقدت الشموع في الشوارع والمآذن ودقت البشائر بالقلعة عدة أيام[3].

---

1 ـ المقريزي: السلوك ج 4 ص 47. والنويري: الإلمام ج 1، ص 326 ـ 335.

2 ـ ابن حجر: أبناء الغمر ج 1 ص 323.

3 ـ محمد مصطفى زيادة: نهاية سلاطين المماليك ص 202.

المصادر والمراجع

أولاً ـ الوثائق: أ ـ أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة»

ـ وقف الغوري على عمائره بالروضة رقم 882 تاريخ 18 ربيع الثاني 922هـ

ـ وقف الغوري على عمائره بالشرابيين رقم 883 تاريخ 20 صفر 922هـ

ـ وقف الغوري على سبيل المؤمنين بالقلعة رقم 884 تاريخ محرم 909هـ

ـ وقف طومان باي بن أخي الغوري رقم 882 تاريخ 28 شعبان 919هـ

ـ وقف السلطان المنصور قلاوون رقم 1010 تاريخ 12 صفر 685هـ

ـ مجموعة وقف السلطان قايتباي رقم 810 ـ 886 ـ 887 ـ 888 ـ 889 ـ 890

ـ 914 تاريخ جمادي الآخر 879هـ ـ 15 ذي الحجة 895هـ

ب ـ «أرشيف دار الكتاب المصرية»

ـ وقف السلطان اينال رقم 62 تاريخ 28 شوال 862هـ

ـ وقف السلطان اينال تاريخ 862 ـ 865هـ

ـ وقف خايربك رقم 1948/ 7 تاريخ 15 رجب 926.

ـ وقف السلطان العادل طومان باي رقم 2100 تاريخ 13 رمضان 906هـ

ـ وقف السيفي طقطباي رقم 1948/ 9 تاريخ رجب 909هـ

ـ وقف السيفي مغلباي رقم 1948/ 1 تاريخ 6 ربيع الثاني 922هـ

ثانياً ـ المخطوطات

ابن بهادر: (محمد بن محمد) ت 900 ـ 1494.

- فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر - مخطوط بدار الكتب، القاهرة رقم 2399 تاريخ.

- ابن الجوزي: (أبو المظفر بن سبط بن الجوزي) 654هـ - 1298م

- مرآة الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب القاهرة رقم 551 عن طبعة حيدر آباد 1359

- ابن حجر العسقلاني: (شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد) ت 852 - 1449.

- تاريخ المائة التاسعة (الذيل على الدرر الكامنة) دار الكتب القاهرة 467تاريخ.

ابن الديبع: (أبو عبد الله عبد الرحمن بن علي) ت 944هـ - 1527م.

- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، مخطوط بدار الكتب، القاهرة 1355 تاريخ.

- الفضل المزيد على بغية المستفيد مخطوط بدار الكتب، القاهرة 11م تاريخ

ابن زولاق: (أبو محمد الحسن بن ابراهيم) ت 836هـ - 1000م.

- كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم 2069م.

ابن زنبل الرمال: (أحمد بن علي بن المحلي الشافعي) ت 960هـ - 1552م.

- تاريخ السلطان سليم العثماني مع السلطان قانصوه الغوري، مخطوط، دار الكتب، القاهرة 44 تاريخ.

ابن ظهير: (جمال الدين محمد القرشي المكي الحنفي) ت 920هـ - 1514م.

- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة. دار الكتب، القاهرة، 1460 تاريخ.

ابن العديم: (كمال الدين أبي القاسم الحلبي) ت 960 - 1552م.

- بغية الطلب في تاريخ حلب، دار الكتب، القاهرة تصوير شمس 1566.

البقاعي: (ابراهيم بن عمر) ت 885هـ - 1440م.

- كتاب في التاريخ (873هـ - 904هـ) دار الكتب القاهرة 5631 تاريخ.

البكري: (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي السرور الصديقي) ت 1087 ـ 1676.

ـ الروضة الزهية في ولاة مصر والقاهرة المعزية، مخطوط بدار الكتب، القاهرة 2407 تاريخ تيمورية.

باغرمة : (أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله) ت 947هـ ـ 1540م.

ـ قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، مخطوطة مصورة بدار الكتب، القاهرة رقم 167 تاريخ.

الحنبلي: (رضى الدين محمدج بن عبد الرحمن بن الحسن الحنبلي) ت 971هـ ـ 1563.

ـ درر الحبيب في تاريخ أعيان حلب... مخطوطة بدار الكتب، القاهرة تاريخ تيمورية.

الخطيب: (علي بن داوود) 900هـ ـ 1495م.

ـ نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان. نسخة بخط المؤلف بدار الكتب، القاهرة، 116م تاريخ.

الخزرجي: (أبو الحسن علي بن الحسن) ت 812 ـ 1409م.

ـ المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط بمكتبة الاسكندرية رقم 1265 ب.

السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن محمد الشافعي) ت 911هـ 1506م.

ـ كوكب الروضة ـ دار الكتب، القاهرة 5037.

ـ بلبل الروضة ـ دار الكتب القاهرة 20م تاريخ

الطبري: (علي بن محي الدين عبد القادر الشافعي الحسيني) د. ت.

ـ الأرج المسك في التاريخ المكي ـ دار الكتب، القاهرة 1105 تاريخ تيمورية

العيني: (بدر الدين محمود) ت 855 ـ 1451.

ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان في 70 مجلداً. دار الكتب القاهرة 1584 تاريخ مصورة.

الغزي: (نجم الدين بن أحمد القرشي الشافعي) ت 1061هـ ـ 1650م.

ـ الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة ـ ثلاثة أجزاء ـ تصوير شمسي، دار الكتب، القاهرة 3401 تاريخ.

الفقي: (سليمان بن أحمد) د. ت.

ـ تاريخ واقعة السلطان الغوري والسلطان سليم، دار الكتب، القاهرة 376 تاريخ تيمورية.

الكبسي: (محمد بن اسماعيل بن محمد) ت 1308 ـ 1890.

ـ الطائفة السنية في أخبار المماليك اليمنية. دار الكتب، القاهرة.

524 تاريخ تيمورية.

الحنبلي: (زين الدين مرعي بن يوسف أبي بكر المقدسي الحنبلي) ت 1033هـ ـ 1623م

ـ نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين.

دار الكتب، القاهرة رقم 303 تاريخ تيمورية.

النابلسي: (عبد الغني بن اسماعيل) ت 1143 ـ 1730.

ـ السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ت دار الكتب، القاهرة 1586 تاريخ.

النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت 732هـ ـ 1232م.

ـ نهاية الأرب في فنون الأدب 310 جزءاً مخطوط مصور بدار الكتب، القاهرة 549 معارف عامة.

مخطوطات مجهول مؤلفها:
- الكوكب الدري في مسائل الغوري - دار الكتب القاهرة، تصوير شمسي 258 تفسير
- نفائس المجالس السلطانية في حقائق أسرار القرآنية، دار الكتب القاهرة - تصوير شمسي 417 معارف.
- قطعة من تاريخ مصر سنة 923هـ - 924هـ - دار الكتب القاهرة 4076 تاريخ.

ثالثاً - المصادر

ابن الأثير الجزري: (علي بن أحمد بن أبي بكر) ت 630هـ - 1234م.
- الكامل في التاريخ 125 جزءاً - القاهرة 1303هـ - 1886م.
- الدولة الأتابكية بالموصل، نشر مجموعة من المؤلفين الشرقيين د. ت.
ابن أبي أصيبعة: (أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين) ت 667هـ 1271م
- عيون الأبناء في أخبار الأطباء، جزءان - القاهرة (1299 - 1300) (1882 - 1883).
ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد) ت 930هـ - 1525م.
- كتاب تاريخ مصر المعروف (بدائع الزهور في وقائع الدهور) 3 أجزاء. بولاق (1311 - 1312هـ) (1894 - 1895م).
ابن تغري بردي: (أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي) ت 874هـ - 1465م
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية د.ت
ابن تيمية: (تقي الدين الحراني) ت 429هـ - 1039م).
- الحسبة في الاسلام. القاهرة 1901م.
ابن جبير: (أبو الحسن محمد أحمد الكتاني) ت 614هـ - 1218م.

ـ رحلة ابن جبير، ليدن 1852م.
ابن الجوزي: (أبو الفرج عبد الرحمن المنتظم) ت 597هـ ـ 1204م.
ـ رسالة من القرامطة، نشرها جوزيف دي سوفوجي د. ت.
ابن حزم: (أبو محمد علي بن أحمد) ت 456هـ ـ 1066م.
ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، 3 أجزاء القاهرة 1964.
ابن حوشب: (منصور اليمن)
ـ رسالة الرشد والهداية: نشر الدكتور محمد كامل حسين 1948.
ابن حرداذية: (أبو القاسم عبيد الله بن الله).
ـ كتاب المسالك والممالك، ويذيله نبذ من كتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، نشر دي غويه لندن 1889.
ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد) ت 808هـ ـ 1406.
ـ مقدمة ابن خلدون ـ بيروت 1900م.
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر 170 جزءاً ـ بولاق 284هـ ـ 1870م
ابن خلكان: (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر الشافعي).
ـ وفيات الأعيان، جزءان ـ بولاق 1283هـ ـ 1869م.
ابن الداية: (أبو جعفر أحمد بن يوسف) 330هـ ـ 943م.
ـ سيرة أحمد بن طولون نشر فولرز K. Vollers، ـ برلين 1894.
ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد المصري) 809هـ ـ 1407م.
ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار. الجزءان الرابع والخامس، القاهرة 1309هـ ـ 1892م.
ابن أبي دينار: (محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني).
ـ كتاب المونس في أخبار إفريقية وتونس، تونس 186هـ ـ 1872م
ابن سعد: (القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تيميم) ت 632هـ

ـ 1234م.
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، نشره أول مرة شولتز سنة 1755م ثم أعيد نشره في القاهرة سنة 1317هـ ثم نشره أخيراً سنة 1964 جمال الدين الشيال.
ابن طباطبا: (محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطاق).
ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة 1345هـ ـ 1928م.
ابن العديم: (أبو حفص عمر بن عبد العزيز كمال الدين ابن القاسم الحلبي) ت 660هـ ـ 1261م.
ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب جزءان نشر سامي الدهان مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية دمشق 1951 ـ 1954.
ابن العماد الحنبلي: (عبد الحي بن أحمد بن محمد أبو الفلاح) ت 1089 ـ 1678.
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب 18 جزء القاهرة، مكتبة القدس 1351.
ابن عبد الحكم: (أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري) ت 276هـ ـ 892م.
ـ فتوح مصر وأخبارها، نشره هنري ماسيه، وطبعه المعهد الفرنسي للعاديات الشرقية، القاهرة 1914.
ابن عبد ربه: (شهاب الدين أحمد) ت 349هـ ـ 962م.
ـ العقد الفريد، 3 أجزاء، بولاق 1293هـ ـ 1879م.
ابن عبد الظاهر: (محي الدين عبد الله).
ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1961.
ابن العبري:
ـ مختصر تاريخ الدول، بيروت 1997.
ابن عذاري: (أبو عبد محمد المراكشي).

ـ البيان المغرب في أخبار المغرب، 3 أجزاء، نشر دوزي، باريس 1930م.
ابن عساكر: (الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن) ت 571هـ ـ 1178م
ـ التاريخ الكبير، 5 أجزاء، دمشق (1329 ـ 1332هـ) (1912 ـ 1915).
ابن العميد: (الشيخ المكين جرجس بن العميد) ت 672هـ ـ 1276م
ـ تاريخ المسلمين، لندن، 1625.
ابن قتيبة: (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ت 286هـ ـ 892م.
ـ الامامة والسياسة، جزءان ـ القاهرة 1322هـ ـ 1905م.
ابن القفطي: (جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب) ت 646هـ ـ 1260م.
ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، 1326هـ ـ 1917م.
ابن القلانسي: (أبو يعلي حمزة) ت 555هـ ـ 1162م.
ـ تاريخ ابن القلانسي المسمى ذيل تاريخ دمشق مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارق وسبط ابن الجوزي والذهبي، بيروت 1908م.
ابن مماتي: (القاضي الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد) ت 606هـ ت 1210م.
ـ كتاب قوانين الدواوين، نشره الدكتور عزيز سوريال، 1943.
ابن منجب الصيرفي: (أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علي)
542هـ ـ 1149م.
ـ الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة 1924م
ابن ميسر: (محمد بن علي بن يوسف بن جلب) ت 677هـ ـ 1681م
ـ تاريخ مصر، طبعه هنري ماسيه، القاهرة 1949.
ابن النديم: (ت 383هـ ـ 996م).
ـ كتاب الفهرست، القاهرة 1348هـ ـ 1931م.

ابن واصل: (جمال الدين الحموي) ت 687هـ ـ 1297م.
ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر الدكتور الشيال، مطبعة جامعة القاهرة 1953 ـ والطبعة الثانية المطبعة الأميرية 1957.
أبو شامة: (شهاب الدين الدمشقي) ت 665هـ ـ 1268م.
ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) القاهرة 1287هـ
أبو شجاع: (محمد بن الحسين بن عبد الله بن ابراهيم الوزير الدين أبو شجاع الروذراوري).
ـ ذيل كتاب تجارب الأمم ـ طبعة امدروز.
أبو الفدا: (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل):
ـ المختصر في أخبار الدولتين ـ الأستانة 1216.
الإدريس (محمد بن عبد العزيز الشريف الغاوي) ت 649هـ ـ 1253م.
ـ نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان، وهو مختصر الإدريس «نزهة العشاق» روما 1592.
الإدفوي (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن تعلب بن علي الأدفوي الشافعي.
ـ الطالع السعيد الجامع لأسماء نخباء مصر د. ت.
أسامة بن منقذ (أبو المظفر بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر الملقب بمؤيد الدولة نجم الدين) 583هـ ـ 1187م.
ـ كتاب الاعتبار أو «حياة أسامة» باريس 1893.
الأشعري (أبو الحسن علي بن اسماعيل) ت 324هـ ـ 934م.
ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. جزء ـ الاسمبول 1920.
الأصفهاني (أبو الفرج) ت 356هـ ـ 969م.
ـ كتاب الأغاني 21 جزء القاهرة 1285هـ ـ 1870م.
ـ الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد).

- الفتح القسي في الفتح القدسي د.ت.
البغدادي: (أبو المنصور عبد القاهر بن طاهر) ت 429هـ- 1039م.
- الفرق بين الفرق، مطبعة المعارف القاهرة 1328هـ- 1911م.
البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي الخطيب) ت 463هـ- 1073م
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام 14 جزء القاهرة 1349 - 1932م
البغدادي (عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف البغدادي) ت 463هـ - 1073م.
- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر د.ت.
البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) ت 487هـ- 1097م.
- كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس 1911.
البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر) ت 279هـ- 895م.
- فتوح البلدان- القاهرة 1315هـ- 1898م نشر الجزء الأول منه الدكتور صلاح الدين المنجد- مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1956.
البلوي: (أبو محمد عبد الله) القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي
- سيرة أحمد بن طولون، نشره محمد كرد علي- دمشق 1358هـ- 1941م.
البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد) ت 440هـ- 1050م.
- ألآثار الباقية من القرون الخالية طبعة ادوار سخاو
لندن 1879.
- تاريخ البريد في مصر، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمي العامر في القاهرة بولاق 1934.
التنوخي (أبو علي المحسن بن علي بن محمد أبي الفهم) ت 384هـ- 997م
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة- القاهرة 1918 - 1921 ترجمة التعالبي (أبو منصور عبد الملك) ت 429هـ- 1039م.

ـ يتيمة الدهر، 4 أجزاء دمشق 1304هـ ـ 1887م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر البصري) ت 255هـ ـ 868م.

ـ كتاب التبصر بالتجارة، نشره حسين عبد الوهاب ـ القاهرة 1354م.

الجبرتي: (عبد الرحمن) 1236 ـ 1820.

ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 4 أجزاء، القاهرة، بولاق 1297.

الخزرجي: (أبو الحسن علي بن الحسن)

ـ العقود اللؤلؤ في درر الفرائد المنظمة، القاهرة 1947.

السبكي: (تاج الدين عبد الوهاب) ت 771 ـ 1369.

ـ معيد النعم ومبيد النقم ـ نظر وتحقيق محمد علي النجار وآخرون القاهرة دار الكتاب العربي 1948.

السخاوي: (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن ابي بكر بن عثمان القاهري الشافعي 902 ـ 1496).

ـ التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة، بولاق 1896.

ـ الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، 12 جزءاً مطبعة القدس 1354.

السقطي الاندلس د.ت.

ـ أدب الحسبة نشره Levi, provencal باريس 1931.

السلاوي: (أحمد بن خالد الناصري)

ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، 4 أجزاء، القاهرة (1310 ت 1312هـ) (1893 ـ 1895م).

السمعاني: (القاضي أبو سعيد عبد الكريم) ت 562هـ ـ 1169م

ـ كتاب الأنساب ـ لندن 1912.

السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الشافعي) ت 911 ـ 1505.

ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جزءان القاهرة 1321هـ ـ 1904م
ـ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين بأمر الأمة ـ القاهرة 1351هـ ت 1934م.
ـ الاسحاقي (محمد بن عبد المعطي بن أحمد بن علي) المتوفي 1032 ـ 1622.
ـ الطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، القاهرة، المطبعة الشرقية 1302.
الشابشتي: (أبو الحسن علي بن محمد) ت 388هـ ـ 1001م.
ـ كتاب الديارات ـ برلين 1100.
الشيزري (عبد الرحمن بن نصر).
ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر العريني ـ القاهرة 1946.
الطباخ (محمد راغب بن محمود بن هاشم الحلبي) 1370 ـ 1951.
ـ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء 7 أجزاء د.ت.
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) ت 310هـ ـ 923م
ـ تاريخ الأمم والملوك، 8 أجزاء القاهرة 1358هـ ـ 1841م).
الطوسي (محمد بن الحسن) ت 460هـ ـ 1070م.
ـ فهرست كتاب الشيعة ـ كلاتا 1855م.
الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين) 873 ـ 1468
ـ زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، باريس مطبعة الجمهورية 1891.
غريب بن سعد (ت 366هـ ـ 979م).
ـ صلة تاريخ الطبري، القاهرة 1302هـ ـ 1885م.
العمري (شهاب الدين أبو العباس بن يحي بن فضل الله) ت 742 ـ 1341.
ـ التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة مطبعة العاصمة 1312.
ـ مسائل الأبصار في ممالك الأمصار، (نشر أحمد زكي) القاهرة، مطبعة دار الكتب 1924.

علي ابراهيم حسن:
- تاريخ جوهر الصقلي - القاهرة 1953 .
علي مبارك باشا:
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة 20 جزءاً بولاق 1306م.
علي (محمد كرد) 1372 - 1953 .
- الإسلام والحضارة العربية، جزءان - القاهرة، مطبعة دار الكتب 1936 .
عمارة اليمني (أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكي الملقب بنجم الدين) ت 569هـ - 1176م).
- تاريخ اليمن نشر هنري كسلبكي - لندن 1892 .
الغزالي: (الامام أبو حامد) ت 505هـ - 1112م).
- المنقذ من الضلال، أو الملل والنحل، دمشق 1353 - 1936م.
- فضائح الباطنية، أو المستظهري، نشره جوار تسيهر لندن 1616 .
الغزي (كامل بن حسين بن مصطفى الحلبي) 1351 - 1933 .
- نهر الذهب في تاريخ حلب، 3 أجزاء، حلب 1927 .
القراماني: (أبو العباس أحمد الحلبي بن يوسف بن أحمد الدمشقي) ت 1019 - 1610.
- أخبار الدول وآثار الدول، القاهرة، 1290 .
القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت 821 - 1418 .
- صبح الأعشى في صناعة الانشاء 4 أجزاء القاهرة، مطبعة دار الكتاب 1913 - 1919 - 1948 .
كاشف: الدكتورة سيدة اسماعيل
- مصر في فجر الاسلام، دار الفكر العربي - القاهرة 1950 .
الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي) ت 764هـ - 1365م

- فوات الوفيات جزءان القاهرة 1951م.
الكاشاني: (علاء الدين أبي بكر بن مسعود الحنفي) ت 587 - 1191.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - القاهرة، المطبعة الجمالية 1328.
الكرماني (الداعي أحمد حميد الدين) ت 408هـ - 1018م.
- الرسالة الواعظة في نفي دعوى الوهبة الحاكم بأمر الله، لكلية الآداب - القاهرة، المجلد الرابع عشر - الجزء الأول أيار 1952.
الكرملي: أنستاس ماري:
- النقود العربية وعلم النميات، القاهرة 1939م
الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) ت 350هـ - 957م.
- كتاب الولاة وكتاب القضاة - لندن 1953م
المالكي (أبو بكر عبد الله بن ابي عبد الله.
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم، نشره حسين تونس. القاهرة 1951.
الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري) ت 450هـ - 1060م.
- الأحكام السلطانية، القاهرة 1298هـ - 1884م.
- أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك - القاهرة 1348هـ - 1931م.
المتنبي (أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي) ت 354هـ - 967م.
- ديوان المتنبي، نشره عبد الرحمن البرقوق - القاهرة 1328هـ - 1911م.
مبارك (علي) 1311 - 1893.
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، 20 جزءاً - القاهرة، بولاق 1306.
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) ت 346هـ - 957م.
- مروج الذهب ومعدن الجوهر جزءان، القاهرة 1303هـ - 1886م

مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد) ت 421هـ ـ 1031م.
ـ كتاب تجارب الأمم، جزءان طبعة هـ/ ف إمدروز وترجمة الأستاذ مرجوليت، أكسفورد 1921م.
مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري) ت 261هـ ـ 877م.
ـ الجامع الصحيح، 18 جزءاً في 4 مجلدات. القاهرة 1329هـ ـ 1912م
المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي المعروف بالشاري
ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة دي غوية لندن 1877م.
الملباري (زين الدين) 985هـ ت 1579م.
ـ تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، لشبونة 1898.
المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) ت 845هـ ـ 1443م.
ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، نشره الشيال، القاهرة، دار الفكر 1928.
ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة نشره زيادة والشيال، القاهرة، لجنة التأليف 1940.
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك نشر زيادة، جزءان في خمس مجلدات، القاهرة، لجنة التأليف 1934 ـ 1942.
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، القاهرة، بولاق 1270.
ناصر خسرو: ب 481هـ ـ 1091م.
ـ سفرنامة، باريس 1881.
النهروالي: (قطب الدين محمد بن أحمد مكي)
ـ البيرق اليماني في الفتح العثماني)، الرياض 1967
النيسابوري: (أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي)
ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، القاهرة 1326.
هلال الصابي: (أبو الحسن بن المحسن بن أبي اسحاق) ت 448هـ ـ 1058م.
ـ تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، طبعة هـ ـ ق. أمدروز.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي) ت 626هـ ـ 1230م
ـ معجم البلدان، 10 أجزاء، القاهرة 1906م.
ـ معجم الأدباء، 20 جزءاً. طبعة أحمد فريد رفاعي 1936 ـ 1938.
اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)
ت 626 ـ 1228.
ـ تاريخ اليعقوبي، جزءان، طبعة النجف، العراق 1358هـ ـ 1931م.
ـ تاريخ البلدان، 6 أجزاء نشر ويستنفلد، ليبزج 1866 ـ 1867.

رابعاً ـ المراجع العربية

ابراهيم (أحمد)
ـ أحكام الأوقاف والمواريث، القاهرة 1938.
أحمد (محمود)
ـ دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة 1938.
ـ تاريخ العمارة الإسلامية بمصر، مقال، في مصر الاسلامية)
القاهرة، المقتطف، أيلول 1927.
اسكندر (توفيق)
ـ سفارة بيرو ديدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص 1490م
القاهرة 1346.
أمين (أحمد)
ـ ظهر الإسلام، الجزء الأول، القاهرة 1945
بيان من العلماء
ـ حكم الشريعة الاسلامية في الوقف الخيري والأهلي، القاهرة المطبعة الاسلامية
.1346

بيشوف (الدكتور الجرماني).
- تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء، بيروت 1880.
البحراوي (علي ابراهيم)
- نبذة في تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني، بورسعيد، مطبعة القنال - الطبعة الأولى 1350 - 1934.
تيمور (أحمد)
- الآثار النبوية - القاهرة، دار الكتاب العربي 1951.
- حبشي (حسن)
- نور الدين والصليبيون، القاهرة 1948م.
- الحرب الصليبية الأولى، القاهرة 1947م.
حسان (نظير)
- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، القاهرة 1958.
حسن (علي ابراهيم)
- تاريخ مصر في العصور الوسطى، القاهرة 1953.
- دراسات في تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، 1942.
حسين (أحمد).
- موسوعة تاريخ مصر، جزءان، القاهرة د.ت.
حكيم (السيد)
- قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر 1966
حمزة (عبد اللطيف).
- الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي، القاهرة 1947.
الخصاف (أبو بكر بن أحمد بن عمرو الشيباني) ت 361.
- أحكام الأوقاف، القاهرة طبع ديوان الأوقاف 1904.

خلاف (عبد الوهاب).
ـ أحكام الوقف، القاهرة، الطبعة الأولى 1953.
دحلان (أحمد بن زين)
ـ الفتوحات الإسلامية، جزءان، القاهرة 1323.
دراج (أحمد).
ـ المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، القاهرة 1961.
زقلمة (أنور).
ـ المماليك في مصر، القاهرة، مطبعة المجلة الجديدة، د.ت
رفعت (محمد)
ـ تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، القاهرة دار المعارف 1959.
رافق (عبد الرحمن)
ـ الثورة العرابية والاحتلال الإنكليزي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1949.
رشدي (راسم)
ـ مصر والشراكسة صفحات من تاريخ مصر الحديث، القاهرة، مكتبة العرب 1948.
الراقد (محمد)
ـ الغزو العثماني لمصر والقاهرة، مؤسسة شباب الجامعة د.ت.
الزركلي (خير الدين)
ـ قاموس الاعلام، 3 أجزاء، القاهرة 1928.
الزياني (أبو القاسم عبد الله)
ـ الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب. د.ت.
زكي (أحمد)
ـ صفحة من تاريخ التجارة المصرية، القاهرة، مجلة المقتطف، أذار، كانون الأول،

كانون الثاني 1917.
زكي (عبد الرحمن)
- معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية، القاهرة د.ت.
زيادة (نقولا)
- نهاية سلاطين المماليك في مصر (المجلة التاريخية المصرية، مجلد 4 عدد أيار 1951.
- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، الطبعة الأولى 1961
- المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة، لجنة التأليف 1949.
زيادة (محمد مصطفى)
- بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، القاهرة مجلة الآداب سنة 1936 مجلد 4.
زيدان (جرجي)
- تاريخ التمدن الاسلامي، 5 أجزاء، القاهرة 1902 - 1906.
- تاريخ آداب اللغة العربية، 4 أجزاء القاهرة مطبعة الهلال 1913.
سالم (عبد العزيز)
- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، القسم الأول، بيروت 1972
سليم (محمود)
- عصر سلاطين المماليك، خمسة أجزاء القاهرة، مكتبة الآداب 1366 - 1947.
الشيال (جمال)
- تاريخ مصر ألإسلامية، جزءان، د.ت.
شلبي (أحمد).
- تاريخ التربية الاسلامية، بيروت 1954.
طرخان (ابراهيم)

ـ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة 1382 ـ 1517، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1960.

عاشور (توفيق)

ـ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى بيروت، دار الأحدب 1977.

ـ العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية 1965.

عبد العال (محمد أحمد)

ـ البحر الأحمر. الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980

عبد الوهاب (حسن)

ـ تاريخ المساجد الأثرية، جزءان، القاهرة، طبعة دار الكتب 1946.

ـ توقيعات على آثار مصر الإسلامية (مجلة المجتمع العلمي المصري، المجلد 36) القاهرة 1954.

ـ مميزات العمارة الإسلامية في القاهرة (جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، مميزات الآثار) القاهرة 1954.

عزام (عبد الوهاب).

ـ مجالس السلطان الغوري، القاهرة، لجنة التأليف 1941.

العبادي (مختار أحمد).

ـ تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، جزءان، بيروت 1972.

ـ قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت 1969.

العريني (السيد الباز).

ـ المماليك، بيروت، دار النهضة العربية 1967.

عيسى (أحمد).

ـ تاريخ البيمارستان في الاسلام ـ دمشق 1939.

عمران (سعيد محمود)

ـ الحملة الصليبية الخامسة على الاسكندرية 1978م.
فهمي (نعيم زكي)
ـ طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة 1973، كوبلرنيج د.ت.
لبيب (حسين)
ـ تاريخ الأتراك العثمانيين 3 أجزاء، القاهرة 1917.
لبيب (صبحي)
ـ التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى (المجلة التاريخية المصرية، مجلد 1 عدد أيار 1952.
ماجد (عبد المنعم)
ـ الناصر صلاح الدين الأيوبي 1953م.
مرزوق (محمد عبد العزيز)
ـ مساجد القاهرة قبل عصر المماليك، القاهرة 1942.
ـ جامع الظاهر بيبرس البندقداري (المجلة التاريخية المصرية، مجلد 3 عدد أيار 1950.
معلوف (لويس)
ـ المنجد في اللغة والأدب والعلوم، بيروت، المطبعة الكاثوليكية 1908.
نوار (عبد العزيز)
ـ الشعوب الإسلامية (الأتراك العثمانيون الفرس مسلوا الهند بيروت، دار النهضة العربية 1973م.
نور (رضا)
ـ تورك تاريخي، 12 جزءاً، اسطنبول 1926
يوسف (جوزيف نسيم)

- العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور - الطبعة الأولى 1969.
اليوزبكي (توفيق)
- تاريخ مصر البحرية في العصر المملوكي، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل 1395هـ - 1975م.

خامساً - المراجع المترجمة

أرنولد وكرس وبرجز
- تراث الاسلام، الجزء الثاني، ترجمة وتعليق محمد زكي حسن، القاهرة 1936.
باركر (إرنست)
- الحروب لاصليبية - تر. السيد الباز العريني، 3 أجزاء، بيروت 1969.
بانيكار (ك.م)
- آسيا والسيطرة الغربية، تر. عبد الحميد جاويد، القاهرة 1962.
بروكلمان (كارل)
- تاريخ الشعوب الإسلامية تر. الدكتور نبيه فارس ومنير البعلبكي، 4 أجزاء 1949 - 1950.
بولياك (أ.ن)
- الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين، تر. عاطف كرم نقلاً عن الانكليزية، بيروت دار المكشوف 1948.
حتي (فيليب)
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تر. الدكتور كمال اليازجي د.ت.
ديل (شارل)
- البندقية جمهورية أرستقراطية، تر. أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر 1947.

سونيا (هاو)
- في طلب التوابل. تر. عزيز رفعت ومراجعة محمود النحاس، سلسلة الألف كتاب، القاهرة 1957.
شفيق (أحمد)
- الرق في الإسلام. تر. أحمد زكي، القاهرة، بولاق 1892.
علي (السيد أمير)
- مختصر تاريخ العرب. تر. عفيف بعلبكي، بيروت د.ت.
فيت (جاستون)
- دليل موجز لمعروضات دار الآثار الرعبية بالقاهرة، تر. زكي حسن، القاهرة 1939.
متز (آدم)
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، جزءان القاهرة 1940 - 1941.
موير (سيروليم)
- تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، القاهرة 1900.
هرتس (مكس)
- فهرس مقتنيات دار الآثار العربية ولمحة في تاريخ فن العمائر وسائر الفنون الفرعية بمصر. تر. علي بهجت، القاهرة 1327.

سادساً - المراجع الأجنبية

- Aylon (David):
- L'esclavage du Mamloux. Jerusalem Impr. (Mercaze) 1951,.p 15 – 50.
Allan (J): The Combridge shorter History of the India, Combridge, 1924. p. 225 – 250.
- Baldwin: Grusades, 1, philadelphia. 1955.
- Cahen, cl, Syrie du Nord à l'epoque des croisades, paris, 1940.
- Casanova (p.): Histoire et description de la citadelle du Caire vol, VI, paris 1894.
Champdor, A. Saladin. Le plus Héros de l'islam, paris. S.D.
- Gff. H. A. R. the Armies of saladin. Cahiers of histoire Egyptienne. Serie 111. fase,4 mai 1951. pp. 304 0 321.
- De la Martine (G): Histoire de la turkie, T. 4. paris. S.D.
- Depping (G.B.): Histoire du Commerce entre le levant et l'Europe. Depuis les croisades jusqu, à la fondation des colonies d'Amerique, 2 tomes, paris, 1930.
- Expédition francaise: Description de l'Egypte. T. XV. XVIII. Paris, 1821 – 1826.
- Gaudfroy (De.M.): La Syrie à L'époque des Mamlouks of aprés Les auteurs arabes, paris, 1923.
- Grousset: Histoire des croisades. 3 Tomes, paris, 1936.
- G. paris: La legende de saladin, journal des savants, Mai. 1893.
- Haute – cœur (L.) et wiet (G.): Les Mosquées du caire, 2 vols, paris, 1932.
- Hegd (W.): Histoire du commerce du levant au Moyen – Age 2

jomes, leipzig. 1925.
- Iman Rune, Ahistory of the crusades. 3 vols london, 1958.
- Kammerer (A.): La Mer Rouge. (Mémoires de la Société Royale de géographie d'Egypte). 2 tomes. 1929 – 1922.
- Lane – poole (s.): A History of Egypte in the Middle age, London 1925.
- Lewis (Bernard): syria. (The cambridge History of Islam) 2 vols. Cambridge, 1970.
- O-Leary. (delacy). Ashort History of famitid Kalifate (London 1923).
- Piloti (E.): L'Egypte au commencement du quinzieme siècle, trad par dopps. P.h. le caire, 1950.
- Runeiman steves: History of the crusades, 3 vols, cambridge 1951 – 1954.
- Schlumberger Gustav, campagne du roi Amaury per de Juresalin En Egypte du XII• Siècles paris, 1906.
- stevenson, W.B. the crusades in the East, Cambridge 1907.
- Wiet, (G.) Histoire dela Nation Egyptienne, 7 – vols, paris, 1931 – 1940.
- Precis de l'histoire d'egypte T. II. Le caire 1322.
- Thenaud (J.): Le voyaje d'outre mer du jean the naud, paris, 1884.
- Von Hammer (J.): Histoire de l'empire ottoman depuis son origine, Jusqu à nos Jours, T. 4. (1495 – 1520), paris. 1936.
- Wiliam of tyre, A. History of deeds Done Beynal of the Sea, 2 vols. Colombia, 1943.

فهرس

تاريخ الفاطميين والزنكيين والأمويين والمماليك وحضاراتهم

الإهداء 5

مقدمة 7

الدولة الفاطمية 13

الفصل الأول: قيام الدولة الفاطمية 15

عوامل نجاح الدعوة الشيعية (الفاطمية في المغرب) 19

نسب الفاطميين 21

سياسة الفاطميين في توطيد سلطانهم في المغرب 24

الفاطميون في صقلية 27

الفصل الثاني: امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر 30

سقوط الدولة الفاطمية 41

الفصل الثالث: سياسة الفاطميين 39

سياسة الفاطميين الداخلية 49

سياسة الفاطميين الخارجية 58

الفصل الرابع: الفاطميون والصليبيون

الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية 70

الأسطول الفاطمي يدعم الثغور الشامية 81

سياسة الخلافة الفاطمية المسالمة للصليبيين 87
الفصل الخامس: النظم السياسية والإدارية في العصر الفاطمي 91
الفصل السادس: الحالة الاقتصادية 103
أولاً: الزراعة 103
ثانياً: الصناعة 106
ثالثاً: التجارة 108
الفصل السابع: الحالة الاجتماعية في العصر الفاطمي 113
الفصل الثامن: الحياة الثقافية في العصر الفاطمي 123
أولاً: مراكز الثقافة في مصر في العصر الفاطمي 123
ثانياً: العلوم التي اشتغل بها الفاطميون 127
الفصل التاسع: ظهور الدعوة الدرزية في العصر الفاطمي 134
أولاً: نشأة الدروز 134
ثانياً: خصائص الدرزية 138
الفصل الأول: قيام الدولة الأيوبية 141
أولاً: العلاقة بين الأيوبيين والزنكيين 141
ثانياً: الصراع على مصر وتولية صلاح الدين الوزارة 144
ثالثاً: الخلافة بين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي 144
الفصل الثاني: الصعوبات التي واجهت صلاح الدين 148
أ ـ المؤامرة الكبرى سنة 569هـ/ 1174م 148
ب ـ صلاح الدين يوحد الجبهة الإسلامية 151
ج ـ صلاح الدين يحصن مصر 161
الفصل الثالث: صلاح الدين والصليبيون 165

أولاً: المقدمة 165
أ ـ اصطدام صلاح الدين بالصليبيين وهزيمته في الرملة.............. 166
ب ـ صلاح الدين ومملكة بيت المقدس 171
ج ـ موقعة حطين واستعادة بيت المقدس 173
د ـ صلاح الدين بعد حطين 179
الفصل الرابع: الموقف الأوروبي بعد سقوط بيت المقدس 192
الفصل الخامس: الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين 206
الفصل السادس: الدولة الأيوبية بعد وفاة العادل 223
الفصل السابع: بداية انحلال الدولة الأيوبية 249
الفصل الثامن: الحياة الدينية والعلمية في العصر الأيوبي 277
الفصل التاسع: الأحوال الاقتصادية 290
أولاً : الزراعة والإقطاع 290
ثانياً: المحاصيل الزراعية 293
ثالثاً: الصناعة 294
رابعاً: التجارة 297
الفصل العاشر: الحياة الاجتماعية 302
الفصل الحادي عشر: النظام السياسي الإداري 307
الفصل الثاني عشر: النظام الحربي 312
أولاً: الجيش 312
ثانياً: البحرية 317
الفصل الثالث عشر: منشآت الدولة الأيوبية 322
الفصل الثاني: انتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالحية............ 329

الفصل الثالث: قطز والمغول 339
أولاً: سلطنة علي بن أيبك 339
ثانياً: سلطنة سيف الدين قطز 340
موقعة عين جالوت 342
نهاية قطز 345
الفصل الرابع: السلطان الظاهر بيبرس وتأسيس الدولة المملوكية 347
الفصل الخامس: أسرة قلاوون: السلطان المنصور سيف الدين قلاوون. 367
أولاً: السلطان المنصور قلاوون والثورات الداخلية........ 368
السلطان الأشرف خليل قلاوون وإجلاء الصليبيين 374
السلطان الناصر محمد بن قلاوون 376
السلطان العادل كتبغا 377
السلطان المنصور لاجين 378
عودة السلطان الناصر إلى العرش 379
السلطان بيبرس الجاشنكير 381
سلطنة الناصر محمد الثالث 383
أولاد الناصر محمد وأحفاده 387
الحملة الصليبية على الاسكندرية سنة 767هـ/ 1365م 389
الفصل السادس: دولة المماليك الجراكسة 392
نشأة فرقة المماليك الجراكسة وازدياد نفوذهم 392
سلطنة الظاهر برقوق 394
السلطان الظاهر برقوق والمغول 400
دولة المماليك بعد برقوق 401

الأشرف برسباي وتحرير جزيرة قبرص 409

السلطان جقمق وغزو جزيرة رودس 411

السلطان الأشرف قايتباي والتركمان 413

الفصل السابع: السلطان قانوصه الغوري 416

أولاً: الحالة السياسية العامة في مصر 316

الفصل الثامن: المماليك والدول الغربية 430

أولاً: المماليك والبرتغاليون 430

ثانياً: المماليك والقراصنة 439

الفصل التاسع: المماليك والدول الإسلامية

(الدولة الصفوية ـ الدولة العثمانية)........................ 444

أولاً: المماليك والدولة الصفوية 444

ثانياً: العثمانيون ونهاية دولة المماليك 452

عوامل إنهيار الدولة المملوكية 465

الفصل العاشر: أحوال مصر في عصر سلاطين المماليك 468

أولاً: الحياة الاقتصادية 468

ثانياً: الحياة الاجتماعية 475

ثالثاً: الحياة الدينية 478

رابعاً: الحياة العلمية 482

خامساً: النظام السياسي والإداري 491

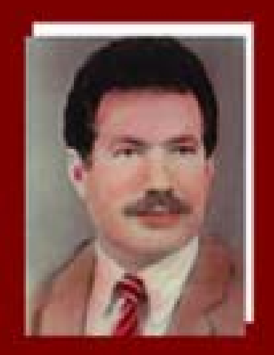
الفصل الحادي عشر: المماليك والعلاقات الخارجية 507

أولاً: علاقة المماليك ببلاد الحجاز 507

ثانياً: علاقة المماليك ببلاد اليمن 512

ثالثاً: علاقة المماليك مع دول شمال افريقية 513
رابعاً: علاقة المماليك مع دول السودان الغربي 516
خامساً: علاقة المماليك مع الحبشة 519
سادساً: علاقة المماليك مع بلاد النوبة 523
سابعاً: علاقة المماليك مع بلاد الهند 525
ثامناً: علاقة المماليك مع الدولة البيزنطية 527
المصادر والمراجع 531
الفهرس 557


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



الدكتور عرب حسين دعكور من مواليد شبعا قضاء حاصبيا.

محاضر في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب - قسم التاريخ.

الرتبة الجامعية - استاذ -

حائز على الشهادات التالية:

- إجازة في التاريخ من الجامعة اللبنانية.
- إجازة في العلوم الاجتماعية من الجامعة اللبنانية.
- كفاءة في التاريخ من الجامعة اللبنانية - كلية التربية.
- جدارة في العلوم الاجتماعية من الجامعة اللبنانية.
- ماجستير في التاريخ من الجامعة اللبنانية.
- دكتوراه اختصاص في التاريخ من جامعة القديس يوسف - بيروت.
- حصولي على رتبة استاذ بعد تقييم بعض الكتب والأبحاث.

مارست التعليم في جميع مراحله:

- الأساسية والمتوسطة بعد أن نلت على شهادة دار المعلمين الابتدائية.
- الثانوية بعد أن نلت على شهادة دار المعلمين العليا.

من مؤلفاتي:

- الصراع الدولي في لبنان اثناء فترة الحكم المصري.
- الصراع الدولي على السلطنة المملوكية أثناء أحكم السلطان قانصوه الغوري
- النفحات القومية في ثورة أحمد عرابي باشا.
- المعلم في التاريخ الإسلامي.
- المفهوم التربوي عند ابن خلدون.
- تاريخ المجتمع الريفي والمدني.
- الدولة الفاطمية - تاريخها السياسي والحضاري.
- الدولة الأيوبية - تاريخها السياسي والحضاري.
- الدولة المملوكية ـ تاريخها السياسي والحضاري.

إلى جانب العديد من الأبحاث منها:

- الصراع الاقتصادي بين الشرق والغرب في القرن السادس عشر.
- الصراع السياسي في الإسلام.
- المناذرة والغساسنة وتدخلهم في الصراع السياسي والحضاري ببلاد الشام.
- الوصية في الإسلام.
- الوقف في العصر المملوكي.



ISBN 614-402-363-1

9 786144 023631